القادم لقتلك

"الآتي لقتلك ، استبق و اقتله"

الإهداء

أهدي هذا الكتاب مفعماً بالمحبة إلى ...

تسعة و عشرين عاماً من الخدمة في جهاز الأمن العام "الشباك"

بدأت خدمتي كعامل أرشيف و أنهيتها كرئيس للشباك

كانت تلك سنوات مثيرة ، و أحياناً قاسية و مشحونة

و لكنها كانت دوماً مفعمة بفعلٍ عظيمٍ و هامٍ

مقدمة

يروي هذا الكتاب قسماً بالغ الأهمية من قصة تلك السنوات ، و لكنه ليس سوى جزءٍ طفيف فقط من القصة بأكملها . فالمخفي لا يزال أكبر من المعلن ، و لكن في ما يتاح روايته ما يكفي لإلقاء الضوء على موضوع (وطنيّ) ذي أهمية أولى في سموّها ، موضوع لا يعرف عنه إجمالاً سوى القليلين . و مع أنها قصتي الشخصية ، إلا أنها أولاً و قبل كلّ شيء قصة رجال "الشاباك" الرائعين الذين رافقوني على مدى السنين و قاموا بجلّ العمل . إنها قصة رجال سريعي البديهة ، شجعان ، مستقيمين و أوفياء ، يعملون ليل نهار ، بعيداً عن عائلاتهم ، كي يحموا سلامة و وجود دولة (إسرائيل) . و يمكن لمعظمهم إن لم يكن لجميعهم أن يجدوا بسهولة وظائف مدرّة لدخلٍ أكبر بكثير و أن يدبّروا حياة أهدأ بما لا يقاس ، و لكنهم فضّلوا اختيار الرسالة (الوطنية) التي لا مثيل لها .
على شعار "الشاباك" محفورة كلمات "الحامي الذي لا يرى" . و بالفعل ، فإن رجال "الشاباك" يقومون ، سراً ، وغير مرة بمفردهم في أرض العدو ، و ضد كل الاحتمالات ، بكلّ ما في وسعهم لتنفيذ مهمتهم في قطع اليد التي طالت الأسلحة النارية و المواد الناسفة . و هم يعرّضون حياتهم للخطر كل يومٍ و كل ساعة . فكان من سقط في المعركة كي نعيش نحن ، كي نواصل حياتنا كالمعتاد .
إلى أولئك الأبطال و البطلات من "الشاباك" ، أولئك الذين سقطوا و هم يؤدّون واجبهم ، إلى أولئك الذين يواصلون أداء مهامهم بلا هوادة ، إلى أبناء عائلاتهم الذين تحمّلوا و يتحمّلون العبء الذي لا يقلّ ثقلاً ، لكل أولئك ، أهدي كتابي هذا مفعماً بمحبتي و تقديري .

يعقوب بيري

على مدى تسعة و عشرين سنة من الخدمة في "الشاباك" وضعت يوميات شخصية . حرصت على أن أخلّد على الصفحات أحداث و تجارب و أفكاراً عن نشاطاتي في الوظائف المختلفة التي أدّيتها .
و قد أقمت هذا الكتاب بقدر كبير على تلك اليوميات . و هنا أو هناك وجدت من الصواب إدراج مقاطع من اليوميات في صيغتها الأصلية .

(مخرّب) ذو علامة فارقة منذ الولادة

نيسان 1968

نابلس . في ساعة مسائية وديعة على غير العادة . فقد حلّ الربيع هنا . و أريج أزهار أشجار الحمضيات تفعم الأنوف من بيارات المدينة ، تتسلّل من النوافذ المحمية لمبنى القيادة فتغمر الحجرات برائحتها المسكِرة . و الأذان من المساجد المتنافسة تتناهى من حيّ القصبة في المدينة .
صمت غريب يلف المدينة . فقد نسيت الهواتف أن ترن . و شبكات الاتصال غافية . و لغرض التغيير لم تصل اليوم أي أنباء عن عمليات أو اشتباكات ، أو حتى معلومات عن انتظامٍ لخلايا (المخرّبين) استعداداً للتسلّل إلى (إسرائيل) . و إذا ما استمر الحال هكذا ، فسيكون بوسعي أن أغادر إلى منزلي بعد عدة ساعات فأمضي مع عائلتي عشاء الفصح . يؤتون من المطبخ بالقهوة الساخنة الحلوة .
و لكن الصمت مثلما هو دوماً في نابلس المحوطة بالمؤامرات ، يظهر كالوهم ، ليس أكثر . فأحد ما يفتح الباب على حين غرة و يسلّمني معلومة وصلت على وجه السرعة من عميلٍ عربي ، من سكان إحدى قرى ظهر الجبل . يقول إن خلية لـ (المخرّبين) توشك على اجتياز النهر عند منتصف الليل في طريقها لتنفيذ عملية كبرى في (إسرائيل) ، في ذروة عيد الفصح . و قد بتّ الآن أعرف على وجه مؤكد أن على عائلتي أن تقضيَ عشاء الفصح بدوني .
أنا منسّق لـ "الشباك" حديث العهد في نابلس . كنت أنهيت قبل وقت قصير مدة التأهيل في الجهاز . و هذا منصب لا بأس به لرجل مخابرات يكاد لا يبلغ الرابعة و العشرين من عمره ، و لكن لهذا ثمن باهظ . فأنا لا أصل إلى منزلي في ناتانيا إلا في فترات متباعدة . زوجتي (يعيل) تستقبلني في الغالب و أنا منهك من التعب . و معظم وقتي ، الليل كالنهار ، أقضيه في الميدان ، أجنّد العملاء من بين السكان المحليين و أوجّههم ، و أجري الاعتقالات كي أمنع انتظام (المخربين) ، و أفتش عن مخابىء السلاح و العبوات الناسفة . أعمل بحماسة ، مفعم بالإحساس بالرسالة . و مثل كلّ رجال المخابرات الذين يخدمون معي في غمرة اللهيب المتلظي الذي يسمّى نابلس ، أقوم بما أكلّف به دون أن أنظر إلى الساعة . فلدينا جميعاً نساء في المنازل ، بل و بعضنا آباء لأطفالٍ صغار ، و لكننا نعرف أن المهمة التي وضعت بين أيدينا تستوجب منا التفاني شبه التام .
تلك كانت فترة عسيرة ، منهكة لا مثيل لها . في نابلس – المدينة غير الحديثة ، المكتظة ، و لكنها بالغة الحيوية ، و التي تثير غير مرة الإحساس بأنها قرية كبيرة – يسود جوّ من العداء المشوب بالخوف و المخاوف الكبيرة مما سيأتي . قوات عسكرية غفيرة تجوب المدينة و محيطها ، و تحت السطح يحوم النشاط (التخريبي) . منظّمات (المخربين) تدعو إلى العصيان المدني ضد "الاحتلال الصهيوني" و إلى القيام بالعمليات في (إسرائيل) و في المناطق .
و تكاد لا تمرّ ليلة دون أن تحاول خلية من (المخرّبين) المدجّجين بالسلاح و الذخيرة و العبوات الناسفة اجتياز نهر الأردن غرباً . و غدت مطاردات جنود لواء الغور في قيادة المنطقة الوسطى أمراً اعتيادياً .
و في الليالي الطويلة يقومون بتمشيط المنطقة و نصب الكمائن . و عندما كنت ألتقيهم و هم في طريقهم إلى الكمائن أو عودتهم منها ، أتذكّر أغنية "يحيئيل موهير و موشيه فيلنسكي" ، "يا مولاي" :

"في تل أبيب الآن سينما ،
و فتيات بألوان مختلفة ،
و نحن نضجع هنا بلا حراك
ننظر إلى النجوم ..."

أما نحن ، منسّقي "الشباك" ، فقد درجنا بين الحين و الآخر على الانضمام إلى الجنود . حين تقودنا آثار الخطى إلى ظهر الجبل مثلاً ، أو حين تثور في المنطقة مشاكل ينطوي حلّها على التحقيقات و غيرها من الأعمال في مجال خبرتنا . و قد ألقي القبض على العديد من (المخرّبين) في أعقاب هذه الجهود المشتركة ، و لكن ليس جميعهم . العبوات الناسفة تنفجر في (إسرائيل) الواحدة تلو الأخرى ، نتوقع خسائر فادحة . و أيادينا مليئة بالعمل . كلّ يوم ، و أحياناً عدة مرات في اليوم ، نتلقى معلومات عن خلايا توشك على اجتياز النهر أو عن تلك التي باتت في طريقها إلى إحدى مدن (إسرائيل) .

في المعلومة التي تلقيناها لتوّنا ، في يومٍ ربيعيّ ، قبل وقتٍ قصير من عشاء الفصح ، ثمة نقطة جذبت ناظري . جاء فيها أن سمير ، قائد الخلية التي توشك على اجتياز نهر الأردن في منتصف الليل ، على ما يبدو هو نفس ذاك (المخرّب) المطلوب جداً . و نحن نعرف عنه القليل . و التفاصيل الوحيدة التي تمكّنا من جمعها هي تقدير عمره و وصفٍ عامٍ عن مظهره الخارجيّ . فقد قيل عنه إنه في منتصف الثلاثينات من عمره ، قويّ البنية و له علامة فارقة ولد و هو يحملها على رقبته . و ليس واضحاً إذا كان سمير هو اسمه الحقيقيّ أم لقبه . و قد حصل لنا غير مرة أن فوّتنا فرصة القبض عليه . فهو يتملّص كثعبان الماء ، سريع كالشيطان و ماكر كالثعلب . (مخرّب) جسور ، لا تلين له قناة ، يعرف كل زاوية و كل مخبأ في ظهر الجبل . و قرى ظهر الجبل هي المحطّات الأولى في رحلات (المخربين) إلى داخل (إسرائيل) . فهم يجتازون النهر مع الليل ، يشوّشون على السيّاج الإلكتروني ، يخفون آثارهم بلفّ نعالهم بفرو الخراف ، أو يتقدّمون بخطى خلفية ، و وجوههم نحو النهر ، و ذلك لإثارة الانطباع بأنهم قطعوا النهر عائدين إلى الشرق و ليسوا قادمين . و الطائرات الدورية التي تصل مع الفجر لتمشيط دروب التشويش على طول السياج ، و الدوريات الراجلة و المؤلّلة لمقاتلي لواء الغور التي يقودها قصاصو الأثر البدو (وهؤلاء هم قصاصو الأثر في المطاردات) – كل أولئك لا يكتشفون بشكلٍ عامٍ إلا دلائل التسلّل ، و ليس الخلايا نفسها . و تتمكّن هذه الخلايا من إيجاد مأوى لها في القرى المطلة على الغور ، أو يختبئون في الكهوف و في ثنايا الجبال . و لهذا فإن من المهمّ جداً إلقاء القبض على (المخرّبين) في وقتٍ أقرب ما يكون إلى موعد اجتيازهم للنهر . فنحن نعرف أنهم إذا ما تمكّنوا من الوصول إلى إحدى القرى و الاختباء فيها طوال الليل ، فسيقلّ جداً احتمال العثور عليهم .

و سكان قرى ظهر الجبل هم فلاحون قساة ، بسطاء و أقوياء ، تكيّفوا على العيش في ظروف بدائيّة . و هم يخافون الاتصال بالغرباء ، و يضاف إلى ذلك الخوف منا نحن (الإسرائيليين) . و بطبيعة الحال ، فإنهم يتعاطفون مع (المخرّبين) أكثر ممّا يتعاطفون معنا – رغم الخوف منهم – و يعملون كلّ ما في وسعهم ، و غير مرة رغماً عنهم ، كي يخبّئوهم و يساعدوهم على التحرّك في الغداة نحو أهدافهم – و تجنيد العملاء من بين سكان ظهر الجبل لهو إحدى المهمات الأصعب التي نقوم بها .

ها قد انتهى اليوم . و أظنّ أن زوجتي قد سافرت إلى أبويها ، اللذين يسكنان هما الآخرين في نتانيا ، لقضاء عشاء الفصح في حضن عائلة كبيرة محبّة . و في ذات الوقت فإني أسرع مع وحدة المظلّيين نحو النهر كي نكمن لخلية (المخربين) في مسار التسلّل المقرّر . و هذه هي أول عملية أتحمّل المسؤولية عن دور "الشباك" فيها .

بعد منتصف الليل بقليل نسمع حفيفاً مشبوهاً . شخوص تسير بين أشجار الشيح . الجنود يفتحون النار فيشرع (المخرّبون) بالفرار . نطارد الخلية حتى ضوء الفجر ، و في النهاية نتمكن من محاصرتهم . معركة قاسية و عنيدة تنشب . (المخرّبون) يطلِقون النار بلا انقطاع ، و يظهر أنهم متدرّبون جيّداً . بضع من جنودنا يصابون في أثناء تبادل النار . أحد المقاتلين عريف من لواء المظليين يقتل .

في نهاية المطاف نصيب فنقتل بعضاً من رجال الخلية و يستسلم الآخرون . و سرعان ما يتبيّن لنا أن هذه إحدى الخلايا الأكثر خطراً التي تقع في أيدينا حتى ذلك الحين . و لكن و للأسف الشديد ، فإن (المخرّب) الذي أردنا القبض عليه أكثر من أي شخص آخر ، القائد الذي قاد الخلية نحو مهمة العملية في (إسرائيل) ، لم يكن بينهم . و يبدو أنه في غمرة المعركة تمكّن سمير ، بهذه الوسيلة أو تلك ، من التملّص من أيدينا هذه المرة أيضاً .

نفرض في الحال حظر التجوّل على القرية المجاورة ، بيت فوريك ، و التي تطلّ على مسار التسلّل للخلية ، و لهذا فثمة أساسٍ معقول للافتراض أن سمير قد فرّ إليها . و هذه قرية سيئة الصيت ، أخفت غير قليل من خلايا (المخربين) في الماضي ، بل و قدّمت العديد من المجنّدين من أبنائها المحليّين في صفوف منظمات (المخربين) . و قد بات لدينا الآن أساليب مجرّبة للعثور على (المخربين) في مثل هذه الظروف : سيارات جيب عسكرية ، مزوّدة بمكبرات الصوت ، تمرّ في أزقة القرية ، تفرض حظر التجوّل العام و تدعو كلّ الرجال إلى التجمّع في ساحة القرية أو في ساحة المدرسة . و في نفس الوقت يقتحِم جنود الجيش (الإسرائيلي) و حرس الحدود كلّ منزل ، و ينتقلون من ساحة إلى ساحة يجرون التفتيشات الدقيقة ، للتأكد من أن أحداً لا يختبىء فيها . و بعد تجميع الرجال في مكانٍ ما ، تصل إلى

سيارة أحد منسقي المخابرات . في المقعد الخلفي يجلس (مخرّب) ألقي القبض عليه قبل ذلك ، و إلى جانبه حارس – شرطيّ من حرس الحدود ، أو جندي و أحيانا رجل مخابرات ، يخفيه شادر سميك ذو "نافذة" صغيرة عن أعين الجميع ، مثابة من يرى دون أن يُرى . و يستدعى كلّ الرجال إلى الوقوف صفاً واحداً أمام السيارة ، فيقوم (المخرّب) المتخفّي ، كما يفترض منه ، بتشخيص المشبوهين ، أو يقول إنهم ليسوا موجودين . و لاعتبارات مفهومة لا يكون ممكناً دوماً الثقة بموقف مثل هذا المعتقل ، و لكن في حالات عديدة أثبتت الطريقة نجاعتها .

لقد جرى طابور التشخيص في بيت فوريك مع الفجر فوراً . و نحن نبحث عن سمير بين الرجال الذين جمعناهم في ساحة المدرسة ، في محاولة استمرت طوال الليل لإقناع (المخرّبين) الذين ألقينا القبض عليهم بالتعاون معنا . و بدا ظاهراً أنهم موافقون . فأدخلناهم إلى السيارات و اقتدناهم إلى مكان التجمّع . فأخذوا يستطلعون الرجال من وراء نافذة الشادر و يدّعون أن قائدهم ليس بينهم . و على الرغم من ذلك فقد عدنا لنحقق مع سكان تلك القرية واحداً واحداً ، يحدونا الأمل بأن يكون (المخرّبون) قد كذبوا ، بحيث نجد ذاك الرجل الذي نبحث عنه ، أو أن نجد على الأقل من أخفاه أو يعرف أين يستتر .

و في ذروة التحقيق تناهى إلى سمعي صوت محرّك مروحية قادمة . فهبطت هذه على مبعدة قصيرة من وسط القرية . فخرَج منها قائد منطقة القدس و منطقة يهودا و السامرة في المخابرات ، يهودا أربيل ، و قائد المنطقة الوسطى ، عوزي نركيس ترافقهما حاشية غفيرة من المساعدين . فاتخذوا لهم مجلساً في جوارنا . و كان مسؤولو المخابرات يلبسون البزات العسكرية و على أكتافهم رتبهم . و كان على كتفي رتبة نقيب . فأشار أربيل إليّ فتوجّهت إليه بسرورٍ تواقاً لأن أروي له بافتخار عن عمليتنا و التي كانت أول مهمة تلقى فيها مسؤولية حقيقيّة عليّ . صحيح أننا لم نعثر على قائد الخلية بعد ، و الذي يدعى سمير ، و لكننا نجحنا في القبض على بضعة (مخرّبين) خطرين ، و هذا بحدّ ذاته إنجاز لا بأس به . و لكن أربيل لم يعطِني الفرصة حتى لأفتح فمي . فقد حدجني بنظرة حجرية ثاقبة و قال : "تعال إلى هنا يا يعقوب . أعد فنجان قهوة للواء ..." فذهلت . لم أنم ليلتين متتاليتين ، و غبت عن عشاء الفصح العائلي ، و طاردت (المخرّبين) و عرضت حياتي للخطر . و بعد كلّ هذا تأتي هذه الإهانة على لسان قائدي ، الذي يبدو أن كلّ ما يهمّه هو أن يحتسي اللواء فنجاناً من القهوة . و قمت بتنفيذ الأمر بصمت ، دون أن أحرّك ساكناً ، و لكن الإهانة كانت عظيمة .

عدت إلى التحقيق في ساحة المدرسة . و استمرّت عملية التشخيص ساعاتٍ طوال دون أن نتمكّن من العثور على القائد بعد . و لم يتبقَّ سوى القليل من القرويّين الذين لم يجتازوا عملية التشخيص و التحقيق . و كان أحدهم رجلٌ متوسط القامة ينفي مثل الجميع ، كلّ صلة بالخلية التي ألقيَ القبض عليها . و هو يقول إنه أعزب ، فلاح محليّ . لا لم يعرف سمير المطلوب و لم يره أبداً . و أقواله تشبه على نحو مدهش أقوال الرجال الآخرين الذين مرّوا بالتحقيق ، و لكن شيئاً في مظهره بدا لي ملفتاً للنظر . فعلى رقبته تبرز كتلة دهنية صغيرة ، ليس علامة فارقة من الولادة كما توقعت أن أرى . و تساءلت إذا كان هذا ما قصدته مصادري حين تحدّثت عن "الكتلة" (العلامة الفارقة) . ليس لديّ أي طرف خيطٍ أمسك به ، باستثناء تلك الانتفاخة الصغيرة على رقبة العربيّ ، و لكن لديّ مجرّد الإحساس الداخلي أن هذا هو الرجل "خاصتنا" . فأقرّر الرهان ، فأمسك به بذراعيه و اقتاده خلف جدار لا يرانا عنده أحد .

"إسمع" ، أقول له ، "أعرف بالتأكيد أنك سمير ، قائد خلية (المخرّبين) ، و لديك الآن خياران : أن تروي لي عن كلّ الخلايا و الوسائل القتالية التي نقلتها حتى الآن ، و العمليات التي كان لك ضلع فيها ، و العمليات (الإرهابية) المقرّرة – أو الذهاب إلى السجن و هناك نعرف كيف نجعلك تتكلم" .

فحدجني بنظرة ثاقبة و قال بصوت خافتٍ مكبوح : "خسارة على الجهد . أنا الرجل الذي تبحث عنه..." .

و اتضح أن سمير ليس متزمّتاً دينياً أو وطنياً ، بل مرتزق ذو كفاءات في مجال العمليات ، كان يتلقى المال من منظمات (المخرّبين) لقاء خدماته . و هو يرغب في العودة إلى قريته ، و لكنه يعرف أن بانتظاره سنوات سجن طويلة . و بعد تحقيقٍ عميق و حديث طويل – يمكن في مناسبات أخرى تسميته بحديث النفس – روى لي عن حياة الفقر التي عاشها و عن طموحه لأن يستبدل السلاح بالمحراث و الزراعة و أن يتزوّج و يعيش بأمان ، بعيداً عن منظمات (المخرّبين) .

و قال : "أنظر إليك فأرى شخصاً مختلفاً عني تماماً – رجل جيش محترف ، جنديّ منذ الولادة . و أنا مستعد لأراهن أن أباك كان ضابطاً في وحدة حربية . و أنك حلمت منذ الصبا بأن تلبس البزة العسكرية ، و ها أنت توجد بالضبط في المسار الذي خطّطت له" .

فضحكت ... "أبي" ، أجبت ، "عامل بناء بسيط ، أما أنا فرغبت أكثر من أيّ شيء آخر بأن أكون موسيقاراً ..." .

لجنة قبول غريبة

"أغلب الظن أن ابنك سيعزف في جوقة موسيقية عندما يكبر" ، قالت المربيّة في روضة الأطفال في نتانيا لأمّي . "فهو في غاية الأهلية لذلك" .
سرّت عينا أمي من الثناء . لم يكن لأيّ من أفراد عائلتنا ميولاً موسيقية ، و تساءت أمي عمن أخذت هذا الحب للنقر على الدف الصغير و عزف النغمات على الثلاثي على مسمع من أطفال الروضة . و في وقت لاحق ، عندما بدأت أعزف على الناي في المدرسة و أنفعل لذلك ، باتت تنظر إلى فكرة أن أتّخذ لنفسي مهنة موسيقيّة كأمر مسلّم به .
كنا فقراء . فقد ولِدت في العشرين من شباط 1944 في نحلات يهودا ، في غرفة قديمة ذات مطبخ مشترك بيننا و بين الجيران . و عندما بلغت الثالثة من العمر انتقلنا إلى نتانيا . كنت ابنا وحيداً لأهلي . والدي ، أليعيزر بيرزونير ، كان يتسلّق السقالات ، و يحمل الحجارة و الطوب ليشيّد المباني . أما والدتي ، ملكا ، الأم الهشة و المريضة ، فكانت ربة بيت . كلاهما هاجرا إلى البلاد من بولندا . عم أمي ، ألتر درويانوف ، كان نشيطاً صهيونياً و كاتباً ، كتب أحد الكتب التي لاقت أعظم الرواج في حينه . "قصة النكتة و الشوكة" . و كانت عائلة درويانوف من العائلات الميسورة في تل أبيب ، و كان منزلها في شارع ملتشيت مقراً للكتّاب و الفنانين . و أذكر الأثاث العتيق و الثمين و الصور الرائعة على الجدران ، و اللباس الفاخر لأبناء العائلة . و كان الفنّانون المحليون يؤمّون منزل درويانوف ، و كنت أمتلىء فرحاً حين يلوح سبب ما لدى والدي للذهاب إليهم .
معلّم الموسيقى في المدرسة كان يونا إيلان . كان قبل قيام الدولة يعزف في نوادي بيروت الليليّة . كان معلّماً رائعاً ، ربّى فيّ روح الحب للموسيقى . أخذت في البداية دروساً خصوصية في العزف على الناي ، و بعد زمنٍ غير بعيد انتقلت إلى آلة النفخ . و في مرحلة متقدّمة تعلّمت لدى عازفٍ يعزف في فرقة موسيقية فلهارمونية . و لكني حافظت على علاقة وثيقة بمعلّمي الأول ، الذي أورثني بعد وفاته أعزّ ما كان يملك ، بوقه الخاص . و للحقيقة ، كان لديّ قبل ذلك بوق مفتخر . تهيلا ، شقيقة أمي ، التي كانت تسكن في الولايات المتحدة . كانت تبعث إلينا بطرود الغذاء مرة في الشهر ، و التي كانت تفيدنا جداً في الظروف الصعبة التي عشناها في عهد العيش على الكفاف . و عندما علمت أني أتوق للانتقال من العزف على الناي إلى البوق ، بعثت إليّ ببوقٍ من نوع "باخ – ستردیفاریوس" ، و الذي كان يكلّف ثمناً باهظاً حتى في أمريكا .
كانت نتانيا في حينه جنة عدن للأطفال . الرمال الذهبية لشاطىء ساحر كانت تترامى على مساحات واسعة . و كان البحر نظيفاً و مغرياً . و كنا نجلس على الرمال لياليَ كثيرة ، عصبة كبيرة من الشباب و الصبايا ، حول بيني برمان ، الذي أصبح فيما بعد مغنّياً شعبياً ، و هو يعزف على القيثار . و كنت أنضمّ إليه ببوقي .
و سرعان ما تتطوّرت مهنتي الموسيقية . فمع أنه لم يكن لدى أبويّ ما يكفي من المال لتمويل دراستي الموسيقية ، إلا أنني كنت على قدرٍ من الكفاءة أتاحت لي الحصول على منحةٍ دراسية من صندوق الثقافة الأمريكي – (الإسرائيلي) ، و هكذا حُلّت مشكلتي . و في سن الثالثة عشرة صرت عازف بوقٍ مطلوب في كل الحفلات الرسمية في نتانيا ، و قبلت في فرقة "الجدناع" (كتيبة الشبيبة) و سافرت معها لتقديم عروض في هولندا . و لما كان بن غوريون قرر أن كلّ من يسافر في وفدٍ رسمي للدولة ملزم بعبرنة اسمه ، فقد تحوّلت من بريزونير إلى بيري . و كانت الرحلة إلى هولندا تجربة نفسية لا تنسى . فقد نلت الجائزة الأولى و قد سلّمتنا إياها الملكة الأم فلهلمينا باليد .
و في سن السادسة عشرة قبلت في الفرقة السمفونية في حيفا . و قد اشتريت لباساً موسيقياً مستعملاً من سوق الكرمل ، و كنت أسافر إلى حيفا للعزف كلّ يوم تقريباً . و كان الملحّن هو سرجيو كومسيونا و كان بين العازفين من اشتهروا جداً مع الزمن . و كان واضحاً لي في هذه المرحلة أني سأختار مهنة موسيقية كسبيلٍ للعيش . و قد وعدت العمة تهيلا بتمويل دراستي في مدرسة الموسيقى الشهيرة "جوليارد" ، في نيويورك ، و كنت أتطلّع إلى ذلك.
لم أكن أتصوّر بالطبع أن يتغير سياق حياتي على نحوٍ مفاجىء ، في مسار غير متوقع بهذا القدر . و أذكر أنه عندما جلست بعد سنوات غير بعيدة في رواق طويل في الطابق العلوي في مبنى وزارة الدفاع في دار الحكومة (هكريا – الضاحية) و انتظرت بنفاد صبر لمقابلة لجنة القبول ، التي شقت لي الطريق إلى جهاز الأمن العام ، ضربت نفسي كي أتأكّد أنني موجود هناك بالفعل . فقد كان هذا آخر مكانٍ أفكر في أن أوجَد فيه .

لم أكن جندياً محوطاً بهالة . أردت أن أخدم في وحدة قتالية مختارة ، و لكن الطبيب الذي فحصني في مكتب التجنيد اكتشف خشخشة طفيفة في قلبي . فتلقيت إعفاءً كاملاً من الخدمة العسكرية و غرقت في حالة من الاكتئاب . و كان كلّ أصدقائي قد خدموا في الجيش ، و الكثيرون منهم في وحدات قتالية ، أما أنا فصار يفترض بي أن ألزم البيت . و ما كان بوسعي أن أسلّم بذلك . جلست و كتبت رسالة لوزير الدفاع ، دافيد بن غوريون ، و طلبت تدخّله كي أتمكّن مع ذلك من الخدمة في وحدة مختارة . فتلقيت رداً سريعاً من سكرتيره العسكري ، يفيد بأنه صدرت تعليمات بتجنيدي . و هذا ما حصل بالفعل . و قد قبلت في دورة الأنفار في سلاح المظليّين .

لم تكن هذه حياة عسكرية جديرة بالرواية بافتخار . فبعد وقت قصير من التجنيد كسرت ساقي أثناء التدريب . و أضيفَ الآن إلى ملفي العسكري ، إلى جانب التشخيص بشأن الخشخشة ، ملاحظة حول كسرٍ في الساق . و أبلغني الأطباء أنه لن يسعني الخدمة في سلاح المظليّين بعد الآن ، حتى و لو عاد وزير الدفاع شخصياً ليتدخّل في صالحي . و قد أنهيت خدمتي العسكرية في الفرقة العسكرية .

و عندما خرجت إلى الحياة المدنية ، بدأت أتابع مهنتي الموسيقية بلا مماطلة . و قد وصلتني استمارة التسجيل في مدرسة "جوليارد" في نيويورك مرفقة ببلاغ يقول إن التصنيف لديهم شديد و طويل جداً . فعرفت أنه ستمرّ أشهر عديدة إلى أن أتمكّن من البدء إذا ما تسنّى لي الحصول على القبول . و في هذه الأثناء كنت بحاجة ماسة للعمل . أردت وظيفة مثيرة للاهتمام ذات راتب جيد ، و عرض عليّ عمل في صحيفة "معاريف" . اعتقدت أن لدي كفاءة للكتابة و بدا لي العمل الصحافي مشوّقاً . قلت لنفسي إن هذه قد تكون تجربة هامة ، من قبيل المهلة المشوقة إلى أن أتلقى القبول لمواصلة تعليمي الموسيقي في نيويورك .

وصلت إلى مكاتب الصحيفة مزوّداً ببطاقة توصية لشخص لم أكن أعرفه . و سرعان ما تبيّن لي أنهم لم يبحثوا عن صحافيّ بل عن موظف صغير في قسم الدعايات . فلم أيأس إذ اعتقدت لسذاجتي أنني لو عملت هناك فترة قصيرة ، فسأجد السبيل إلى هيئة التحرير . و لكن مسؤولي في قسم الإعلانات حطّم لي كلّ الأوهام إذ قال لي : "إعمل عندي بضع سنين و بعد ذلك فقط قد يكون بمقدورك أن تصبح صحافياً" . و لم يكن بوسعي أن أرى نفسي أعمل لزمنٍ طويل في الإعلانات عن بيع سيارة أو البحث عن زوج . فاستقلت بعد فترة قصيرة و سجّلت للدراسة في الجامعة العبرية في القدس . لم أتردّد كثيراً في مسألة ماذا أتعلّم . فمع الوقت طورت في نفسي ، إضافة إلى الموسيقى ، حباً آخر. في الصف الخامس الابتدائي بدأنا نتعلم العربية ، و هكذا اكتشفت عالماً جديداً سحرني : الكتابة ، السفر ، الأدب ، الأمثال . و قد درجت على المجيء إلى منزل معلم العربية كي أتلقى دروساً إضافية . و عندما وصلت إلى الجامعة ، اخترت بشكلٍ شبه طبيعي دراسات الاستشراق و الأدب العربي .

كانت القدس في ذاك الزمن مدينة يسكنها مائة و خمسون ألف نسمة قريبو الجوار "و في وسطها سور" . فمن الأسطح العالية و نقاط المراقبة الأخرى ، كان يظهر سور البلدة القديمة ، التي كانت خلف الحدود ، في المملكة الأردنية . و هنا و هناك ، في شرقي المدينة (الإسرائيلية) ، كانت شوارع المدينة تقطع بجدار أو بسياج معقّد ، كإشارة إلى الحدود . و لم تكن أي طائرة تظهر في السماء . فقد كان محظور على سلاح الجو الطيران فوق المدينة بسبب حدود اتفاق الهدنة . و كان السفر إلى تل أبيب ، عبر باب الواد و مفترق شمشون طويلاً . و لم يكن الكثيرون يسافرون إلى تل أبيب ذهاباً و إياباً في نفس اليوم بشكلٍ اعتيادي . و كاد كلّ من يعمل أو يتعلّم في القدس يسكن فيها . و كانت الجامعة العبرية إحدى البؤر الفاعلة للحياة في المدينة ، و ذلك سواء لأنها الجامعة الأقدم في البلاد و التي جذبت إليها أفضل الشباب ، أم لأنها كانت موزّعة بين العديد من الأماكن في المدينة ، من جفعات رام عبر تيراسانتا و حتى المسكوبية . و قد ظهر الطلاب و برزوا في كل مكان فمنحوا المدينة طابعاً ملوناً و متقِداً . كنت أتقاسم شقة مأجورة مع طالب يدرس الكيمياء الحيوية ، و الذي أصبح مع الزمن البروفيسور آفي فايسمان . و كانت الشقة تقع في عمارة جميلة ، محوطة بالأشجار في كريات موشيه . و كان صاحب العمارة يعتني بحديقتها كبؤبؤ عينه ، و غير مرة حين كنا نحاول قطف الخوخ من إحدى الأشجار ، كان يطلِق النار فوق رؤوسنا ببندقيته فيخيفنا حتى الموت .

و خارج إطار التعليم عرضت علينا القدس ما لا يحصى من إمكانيات العمل و الترفيه . فقد قبلت في فرقة صوت (إسرائيل) الموسيقية ، كما و عزفت في الأعراس و انضممت إلى فرقة الرقص في اتحاد الطلاب . و كانت هذه إحدى أجمل الفترات في حياتي . و كانت فرقة الطلاب التي كانت تضمّ رفكا ميخائيلي و إهود منور و دان بيرون ، كالأسرة المتراصة . كل أعضائها موسيقيون و راقصون مهرة . و قضينا لياليَ عديدة في نادي "بخحوس" المتقد الذي كان اسماً لامعاً في ذاك الوقت . و كان يملك "بخحوس" ثلاثة ، الأول لم يكن له يد و الثاني لم تكن له قدم أما الثالث فكان يدعى داني شليم (أي كامل

– الترجمة) . و هناك أيضاً رافقت بالعزف رفكا ميخائيلي و جبري بناي . و استمديت متعة عظمى من ذلك ، و إن كان المردود المالي بعيد عن إثارة الحماسة .
سافرت مع فرقة الطلاب لتقديم العروض في أرجاء العالم . فما كاد ثمة احتفالٍ للرقص لم نشارك فيه . و تنقّلنا في كلّ أوروبا من عرضٍ إلى عرض بالقطار ، و في الغالب في ظروف الزهد و الكفاف . و لكني لم أندم على ذلك حتى و لو للحظة واحدة . و كانت إحدى التجارب العظمى التي مررت بها و حفرت في ذاكرتي هي الجولة في جامعات إيران . كان ذلك في إحدى الفصول المضطربة في عهد حكم الشاه . ففي بداية الستينيات شرع الشاه بإجراء إصلاحات شاملة على المجتمع و الاقتصاد . و في العام 1963 أقرّ بالاستفتاء الشعبي مشروعه "للثورة البيضاء" . و قد نفّذت في حينه ضمن أمورٍ أخرى تأميمات واسعة و أنشىء "سلاح التعليم" و منحت النساء حقّ الاقتراع . و قد نشبت على هذه الخلفية اضطرابات بادر إليها أصحاب المزارع الكبرى و زعماء الدين . و في ذات السنة ، في العام 1965 نشبت اضطرابات دموية ، وصلت لدرجة اغتيال رئيس الوزراء و محاولة اغتيال الشاه نفسه . كما دخلت الاضطرابات إلى دوائر الطلاب ، و حاول الشاه تهدئتهم ، و ذلك ضمن أمورٍ أخرى من خلال النشاط الثقافي المدعوم حكومياً في الحرم الجامعي . و قد هرعت وزارة الخارجية لنجدته – حيث أخذت العلاقات بين (إسرائيل) و إيران تتوثّق منذ العام 1960 – فبعث بنا إلى هناك . و أحرزت الجولة نجاحاً عظيماً ، كما أن الحظ ابتسم لنا . ففي أثناء الطيران من طهران إلى عبدان اضطرت طائرة "فيكاونت" التابعة لشركة الطيران الإيرانية إلى الهبوط في الصحراء بسبب خلل وقع فيها . و قد أصيب عدد من المسافرين ، أما نحن فنجونا .
و عندما عدت إلى القدس ، عرضت عليّ وظيفة مغرية : عازف في الفرقة التي شكّلها غيورا غوديك لعرض المسرحية الغنائية "سيدتي الجميلة" ، و بفخر عظيم في مسرح "هبيما" في تل أبيب . و كان أغلب أعضاء الفرقة عازفين أجانب نالوا خبرتهم في المسرحيات الغنائية . و من القدس الصغيرة ، و حياة الطالب الذي يعتاش من الأعمال البسيطة ، وصلت مباشرة إلى علية القوم في تل أبيب ، إلى أضواء مسرحية غنائية ناجحة ، إلى عملٍ في حضرة النجوم أمثال شايكه أوفير و بومبا تسور و رفكا راز . و فضلاً عن ذلك فقد منحت فرصة كسب مالٍ أكثر مما رأيت في أحلامي . و فجأة ، صار بوسعي أن أسمح لنفسي بكلّ ما تاقت إليه ، فسافرت في السيارات العمومية من القدس إلى تل أبيب و بالعكس ، و أكلت في المطاعم الفاخرة و بدّرت المال بلا حساب . و لكني بدأت أملّ الروتين . فقد شعرت بالفراغ في صحبة زملائي في الفرقة ، و الذين كان الكثيرون منهم مطلّقين و درجوا على الشرب حتى الثمالة . نفرت من حياتهم العابثة . كنت طالباً في الثانية و العشرين من عمري و كنت أبحث عن تحدّيات جديدة ، مثيرة و غير عادية .
كخطوة أولى قرّرت الانتقال إلى تل أبيب و سجّلت هناك لمواصلة تعليمي في الجامعة . و كان ينشر على لوحة الإعلانات في الحرم الجامعي عشرات عروض العمل للطلاب ، معظمها في وظائف مؤقتة . و اصطادت عيني إعلاناً قاتماً عادياً يحمل عنوان "عمل مع تحدّي" . و كان هذا عرض العمل في مجال الأمن للشباب الذين أنهوا خدمتهم العسكرية . و باستثناء العنوان و ساعات استقبال المراجعين لم يكن في الإعلان أي تفاصيل . لم تكن شؤون الأمن على رأس اهتماماتي – هذا في أدنى تعبير – و لكنني كنت في غاية الفضول . و لكن يبدو أن "غسيل الدماغ" الذي درج والدي على ترداده لي في أن أجد لنفسي عملاً يدرّ راتباً ثابتاً ، قد فعل فعله . سجلت التفاصيل : "قسم التسليح في وزارة الدفاع في دار الحكومة ، بين الثالثة و الرابعة بعد الظهر ، و الرجاء إحضار بطاقة الهوية" . ذهبت إلى هناك .
و في أحد الفصول الأولى لمذكراتي الشخصية كتبت :
"...لست واثقاً من أني أبدو كمرشّح مثاليّ لأي منصب في المؤسسة الحاكمة . فلي شعر طويل ، و ألبس بإهمال عابث ، أنتعل صندل أصبع و تتدلى من رقبتي سلسلة معدنية ملونة . دخلت وزارة الدفاع بينما على وجهي تنمو شعرات لم أحلقها منذ يومين . نظر الحراس إليّ باشتباه و تفحّصوا بطاقة هويتي بسبع عيون . و في النهاية سمحوا لي بالدخول . فخطوت في الأروقة الطويلة إلى أن وصلت إلى بابٍ مغلق . و إلى جانبه ، على مقعد خشبي كان يجلس بضعة شبان ينتظرون بصمت . مرّ وقت طويل من الانتظار المضنيّ . و فجأة مر بنا رجل في منتصف العمر يلبس بدلة رمادية . فأمسكت بطرف سترته قائلاً : "قل لي ، هلا اعتنيت لي بأمر الحصول على كوبٍ من الشاي ؟" فنظر إليّ بدهشة . كانت لديه عينان زائغتان و وجه شاحب ، كمن لم يتعرّض لنور الشمس مدة طويلة . فسحب طرف سترته من يدي بحركة سريعة ، و فتح الباب و دخل دون أن يعقب . "أأنت مجنون؟" قال لي شخص ما إلى جانبي ، "هذا رئيس لجنة القبول" . فيما بعد تبيّن لي أن اسمه كلمن توكر ، و هو متزوّج من شقيقة من كان رئيس الأجهزة الأمنية ، إيسار هرئيل" .

جاء دوري للدخول . حول طاولة بسيطة ، في غرفة شبه عارية من الأثاث ، كان يجلس ثلاثة رجال يلبسون البدلات . و كان توكر أحدهم . فتفحّصوني من أخمص قدمي حتى رأسي ، و لكنهم لم يقولوا شيئاً عن مظهري الخارجيّ الشاذ . كما أنهم لم يكلّفوا أنفسهم عناء تقديم أنفسهم .
طولبت بالحديث عن حياتي ، عرضوا عليّ بضع أسئلة عن عائلتي و عن خدمتي في الجيش . ثم سئِلت إذا كنت مستعدّاً للانقطاع لوقتٍ طويل عن البيت و إذا كان لديّ أقارب في الاتحاد السوفييتي . بدا كلّ شيء غريباً ، غامضاً و غير مفهوم . طلبت أن يشرَحوا لي شيئاً ما عن الوظيفة المطروحة ، و لكنهم قالوا إنه من السابق لأوانه الحديث عن ذلك .
لم أخمّن ، بالطبع إن الحديث يدور حول جهاز الأمن العام ، فيكاد يكون كلّ ما أعرفه عن "الشباك" (المخابرات – جهاز الأمن العام) مستمد من مجلة "هعولام هزه" ، التي درجت على تسميته "بجهاز الظلام" . و أذكر أن بعض المقاطع الصحافية الغامضة كانت تفضي بي إلى الاستنتاج بأن هذا جهاز يتعامل أساساً مع الجواسيس السوفييت و المنظمات (المتطرّفة) في القرى العربية .
و في ساعة متأخّرة من عصر ذاك اليوم عدت إلى البيت و هاتفت عمي نفتالي ، الذي يعمل في وزارة الدفاع . و رويت له عن المقابلة الغريبة و سألته عمن تعاملت في واقع الحال . فقال لي إن هذا برأيه هو جهاز الأمن . فانفعلت ، و أيقظ التغيّر المقبل في حياتي خيالي . فكلّ اهتماماتي حتى الآن بدت لي على حين غرة أقلّ إثارة و أهمية مما أراه في خيالي إذ أفكّر بهذه الوظيفة .
قبل المقابلة التالية قمت بعمل شيء ليس من طبعي : قصصت شعري و لبست قميصاً بأزرار و نزعت العقد المعدني الملون و استبدلت صندلي بحذاء عادي . و باختصار ، بدوت لأول مرة في حياتي و منذ زمن طويل كإنسان عادي من الجماعة .
بعثوني لسلسلة طويلة من الفحوص الطبية و الاختبارات النفسية – العملية . سألوني فيما سألوني إذا كنت عضواً في أحد الأحزاب و ما هي آرائي في مواضيع راهنة مختلفة . و كانت لي أحاديث كثيرة مع لجانٍ غريبة . ولم يُعرّف أحد ممن تحدثت معهم بنفسه . أو يكشف عن وظيفته في جهاز الأمن .
في مرحلة معينة طلب إليّ أن أعبّىء استبياناً مفصلاً ، يكاد يكون في سمك كتاب ، عن حياتي ، لغرض البحث الأمني . و كلّفت بالحديث مفصلاً عن كلّ ما حصل لي منذ مولدي ، و كان يتعيّن عليّ أن أوقر قائمة معرفين ، و أن أتذكّر من كانت معلّمتي في الصف الأول و معلّمتي في الصف الثاني ، و تسجيل أسماء كل الأشخاص الذين التقيتهم في المفترقات الهامة في حياتي ، و إعادة رسم مسار كلّ رحلة قمت بها في خارج البلاد ، و ذكر أسماء كلّ أصدقائي و معارفي ، و رسم كلّ تشعب شجرة الروابط العائلية ، و الإشارة إلى أحداث خاصة في حياتي ، و العضوية في حركات الشبيبة ، و الأمراض التي ألمّت بي في الماضي و الحاضر و العلل الجسدية . و كان البحث الأمني الذي أجريَ في أعقاب هذا "الكتاب" في غاية الشمول و النجاعة . فرجال "الشباك" (جهاز المخابرات) توجّهوا إلى المعارف و الأصدقاء و أبناء العائلة و طرحوا بحراً من الأسئلة . فحصوا بسبع عيون وضعي النفسي و استوضحوا إذا كنت قد اجتزت في أي يوم من الأيام علاجاً نفسياً أو عقلياً ، و إذا كانت لي ميول لوطيّة أو سادية – ماسوشية . و في هذا المقطع من الفحوص ، كما أفهموني ، فإن من المفروض بي ، بطبيعة الحال ، ان تكون النتيجة سلبية بالقطع . فحصوا إذا كان لديّ سجل جنائيّ ، فحصوا وضعي الصحي بعد أن تنازلت بتوقيعي عن السرية الطبية . ثم أجملوا كلّ النتائج و بات من صلاحية لجنة خاصة النظر إذا كنت أستجيب للمطالب و جديراً بالقبول في جهاز الأمن .

سيدة تحمِل صحيفة

انقضى نحو نصفِ عام منذ أن امتثلت للمقابلة الأولى في وزارة الدفاع إلى أن وصلتني البشرى التي انتظرتها . فقد رنّ الهاتف في ساعة صباح مبكرة جداً ، و أبلغني صوت لا أعرفه بنبرة رسمية أنّي قبلت .
"تعال غداً في الساعة الثامنة صباحاً إلى برج الساعة في يافا" ، قيل لي ، "انتظر هناك سيدة تحمِل صحيفة . هي شاهدت صورتك و ستشخصك . سر وراءها" .
رويت لوالدي أني قبلت في العمل في "الشاباك" . لم تفهم أمي بالضبط عما يدور الحديث و طلبت إيضاحات . شرحت لها أن "الشاباك" هو هيئة تعنى بإلقاء القبض على الجواسيس فلم يرق لها الأمر . "من أجل ماذا تريد ذلك ؟" ، تأوهت و أضافت : "لم يعد يوجد وظائف عادية ؟" قلت لها إن الوظيفة تثير اهتمامي ، و أني أرى فيها تحدياً . هدأت من روعها في أن الوظيفة الجديدة لا تنطوي على المخاطرة

بالحياة . أما والدي فقد أيدني فانضمت إليه والدتي بعد بعض التردّد . و عاد ذاك الحديث إلى ذهني عندما عينت رئيساً للجهاز . و قد تفطر قلبي حينها لأن والدي لم يحظ برؤيتي في هذا المنصب . فقد أصيب بمرضٍ عضالٍ بقيَ في أثره قيد الفراش في المستشفى لعدة سنوات حتى وافته المنية في العام 1990 . أما والدتي التي رافقت مسار تقدّمي بكامله فلم تبدِ أبداً أي حماسة زائدة لعملي . و سؤال "من أجل ماذا تريد ذلك ؟" كان يتردّد غير مرة ، و لا سيما حين كانت وسائل الإعلام تنشغل بي ، بالخير أم بالشر . و كانت تقول لصديقاتها : "بوسعهم أن يكتبوا عنه ما شاءوا ، فأنا أعرفه و أعرف الحقيقة ..." .

لم أغمِض عيني طوال الليلة التي سبقت لقائي بالسيدة الغريبة بالقرب من برج الساعة في يافا . و قد استيقظت في الصباح التالي مبكراً . و رأيت في خيالي حسناء ممشوقة القوام في بدلة رسمية تنظر إليّ من وراء نظارة شمسية قاتمة و تلمح لي بإيماءة من رأسها للسير في أعقابها . و لا بد أني كنت أشاهد أفلام تجسّس بقدرٍ مبالغ فيه . فالمرأة التي وصلت في الساعة الثامنة تماماً كانت في نحو الأربعين من عمرها و بدت و كأنها ربة بيتٍ عادية خرجت لشراء بعض احتياجاتها من البقالة . كانت تمسِك بصحيفة في يدها فتوجّهت إليّ و نبست تقول "اتبعني!" .

اجتزنا الساحة صامتين و دخلنا سوق الخردة . و كان التجار قد فتحوا محلاتهم لتوّهم . و قد تراكمت على الأرصفة الملابس المستعملة و الأدوات المنزلية القديمة . و في المطاعم كانوا يقدّمون الفول مع البيض على سبيل وجبة الصباح . و لم يلقِ أحد إلينا بأي نظرة . انتقلنا عبر زقاق ضيّق إلى شارع سوان و وقفنا عند مدخل مبنى من ثلاثة طوابق ، يتميّز بفارقٍ واحد فقط عن المباني الأخرى حوله في أن سياجاً عالياً يحيط بحاشية سطحه . و لم يكن تعلوه أي يافطة أو إشارة تشخيص .

ضغطت المرأة المجهولة على زرّ إلكتروني ففتحت البوابة الحديدية الثقيلة . دخلنا . كان هذا في الأول من آذار 1966 . و قبل أسبوعين فقط كنت قد أتممت الثانية و العشرين من عمري . كنت في غاية الانفعال ، و غاية الفضول . وصلت إلى مكان عملي الجديد دون أن تكون لي ذرة علم بما ينتظرني هناك .

انطباعي الأول عن مبنى "الشاباك" في يافا كان البساطة و التواضع بلا هوادة . فقد كان لباس الأشخاص بعيداً جداً عن الموضة ، و الأثاث قديم بل و قليل . و كانت الجدران مطروشة باللون الأبيض و خالية من الصور . أما البلاط المزخرف – حيث كان هذا مبنى عربياً قديماً – فكان محطّماً و مشققاً في قسمٍ منه . و لم يكن ثمة مزهرية على أي طاولة . فلم أعثر هناك على أي لمسة شخصية .

لم يستغرقني وقت طويل كي أكتشف أن أحداً من زملائي الجدد لا يرى في عمله في "الشاباك" مصدر رزق و حسب . فقد كانوا قبل كل شيء آخر عقائديين ، مفعمين بروح الرسالة . كان العمل جماً ، و كان يتواصل بالإجمال حتى ساعات المساء المتأخرة بل و أحياناً على مدار الساعة ، لسبعة أيام في الأسبوع . لم يكن هناك أي نظام للدفع لقاء ساعات العمل الإضافية . كما أن أحداً لم يتصوّر طرح هذا المطلب . كان في الجو شيئاً معدياً . روح الطاقم ، التفاني ، الإحساس بأن كلّ شخصٍ في هذا الإطار ينفّذ ، بطريقته ، إحدى المهمات الأكثر حيوية للدولة – كلّ هذه فعلت فعلها . كانت تلك جماعة متراصة ، مصمّمة ، مشجعة و مؤيدة . جماعة فخورة "لرؤوس كبيرة" .

و منذئذ سار جهاز الأمن العام درباً طويلاً . فقد اتسع و نما وراكم قوة و وجد نفسه يتصدّى لمهام هائلة ، بما في ذلك مكافحة منظّمات (المخرّبين) و الانتفاضة . و إحباط (الإرهاب اليهودي) و ضمان سلامة الهجرة الكبرى و اكتشاف الجواسيس و الذين تسرّب العديد منهم إلى البلاد تحت ستار المهاجرين الأبرياء ، و حراسة أمن الشخصيات و المؤسسات (الإسرائيلية) و محاور المواصلات في أرجاء العالم .

إن "الشباك" – جهاز الأمن العام – هو أحد ثلاثة أجهزة استخبارية مركزية لدولة (إسرائيل) . و هو مكلف إضافة إلى الموساد و "أمان" (شعبة الاستخبارات العسكرية) بأن يوفر للمحافل السياسية التحذيرات و المعلومات و التقديرات و التوصيات لغرض اتخاذ القرارات ذات الشأن . و في سياق العمل اليومي تتدفق كميات هائلة من المعلومات من هذا المصدر الاستخباري إلى سواه ، وفقاً لمجالات النشاط المحدّدة . و ثمة بين الأجهزة الثلاثة تعاون جاري ، حتى في المجال الميداني أيضاً . و تجري أيام دراسية مشتركة . و يمكث مندوبو أحد الأجهزة الاستخبارية غير مرة لغرض الخوض في مشاريع معينة في داخل جهاز آخر . و هكذا ، مثلاً ، يعنى "الشباك" بالترشيح الأمني للطاقة البشرية للموساد و "أمان" ، و كذلك لأذرع الجيش (الإسرائيلي) الأخرى .

و لأجهزة الاستخبارات المركزية الثلاثة تمثيل في لجنة رؤساء الأجهزة التي تجتمع مرة كل عدة أسابيع . و يشارك في هذه الجلسات رئيس "الموساد" و رئيس "الشباك" و رئيس "أمان" ، و منذ قضية الخط 300 يشارك السكرتير العسكري لرئيس الوزراء أيضاً . و لجنة رؤساء الأجهزة هي بالأساس هيئة لأغراض التبليغ و النقاش . كما أنها تحرص على ألا يخرج أي جهاز عن نطاق صلاحياته المحدّدة له . و قد طرحت للنقاش غير مرة حالات ملموسة ، غير مبدئية . فعلى سبيل المثال مسألة هل خرج "الشاباك"

(المخابرات) عن صلاحيته إذ استخدم مصدراً استخبارياً في دولة ما ؟ و مثل هذه النقاشات ترمي إلى تحقيق الحد الأقصى من التنسيق بين الأجهزة و إصلاح الخلل و إعادة الأمور إلى نصابها السليم .
وأهم مجالات عمل جهاز الأمن العام (المخابرات أو "الشباك") هو في مجال الاستخبارات الإحباطية (الوقائية) . فالعديد من الأشخاص المسؤولين عن ذلك هم ملح الأرض . فقسم العمليات ، مثلاً ، يشغله قادة سابقون من الوحدات القتالية المختارة في الجيش (الإسرائيلي) ، ممن يحملون على أكتافهم أكثر المهمات حساسية في "الشاباك" . كما يمكن للمرء أن يجد هناك نساء أيضاً ، تقمن بأعمال استثنائية . و بسبب التآكل العظيم ، فقد حصرت الخدمة في قسم العمليات بفترة محدّدة بشكلٍ عام – ليس أكثر من سبع سنوات على الأغلب . و بعد ذلك يجري استيعاب رجال العمليات في وظائف أخرى أو أنهم يسرّحون من الخدمة . كما و يجد خريجو الوحدات المختارة في الجيش (الإسرائيلي) سبيلهم إلى ذراع آخر في "الشاباك" – ألا و هو حراسة الشخصيات و الطائرات و السفن و المؤسسات (الإسرائيلية) في أرجاء العالم . و لكن هذا يتم لفترات محدّدة .
و يتمثّل العامود الفقري للجهاز ، بالطبع ، برجال المنطقة العربية . كلّ واحد منهم ملزم ، في جوهر الأمر ، بأن يكون "ذئباً منفرداً" لأنه مكلّف بالوقوف – وحده أغلب الأحيان ، قبالة العملاء الذين جنّدهم لغرض الحصول على المعلومات عن المنطقة . و مع ذلك ، و بشكلٍ متناقض ظاهرياً ، فإنه مطالب بأن يكون "كائناً حياً اجتماعياً" أيضاً – أي ذا سحرٍ شخصي و قدرة على الإقناع ، شخصاً قادراً على أن يقيم العلاقات مع الناس بسهولة ، و أن يستطاب لهم . و خصلة حيوية هي القدرة على إنشاء صلة شخصية مع العملاء الذين يستخدمهم . أما إذا ما افتقد إلى هذه الخصلة ، فإنه سيجد صعوبة في إقناعهم بخيانة شعبهم ، و محيطهم القريب و دائرتهم الاجتماعية .
و يجري البحث عن خصالٍ مشابهة أيضاً لدى المرشحين للخدمة في الأقسام التي تعنى بالمتطرفين اليهود – كأفراد و جماعات – في اليمين و اليسار ، في النطاق الشرق أوروبي ، و لا سيما الروسي ، و كذا بين الأجانب على اختلاف مشاربهم . و كذا الحال بالنسبة للمحققين ، الذين يقفون بمفردهم أمام الخاضعين للتحقيق ، و الذين يصمّم بعضهم على عدم الانكسار . و قد حصل غير مرة حين يكون رجال "الشاباك" يلعبون دور "المحقق الطيب" قبالة "المحقق الشرير" ، يتعيّن عليهم أن يستخدموا سحرهم الشخصي و قدرتهم على منح الخاضع للتحقيق الإحساس بأنهم يقفون إلى جانبه .
و من كلّ ما تقدّم يتضح أن رجل "الشاباك" مطالب بمعانٍ كثيرة بأن يكون ممثلاً راقياً بحيث لا يكتشف جمهوره حتى و لو أدنى زيفٍ في أدائه . بيد أن المنطلق في كلّ المهمات هو الشجاعة . و ينبغي لي هنا أن أتحفظ فأقول إني لا أقصد التظاهر المبالغ فيه بالشجاعة بل بالقدر السليم ، الذي يترافق و الحكمة و الروية .
على رجل المخابرات أن يرى الصورة مجرّدة من الميول الشخصية و أن يعالج كلّ الأمور بشكلٍ موضوعي . فلا يمكنه أن يسمح لنفسه ، مثلاً ، بكره المستوطنين أو ، مع الفارق ، مقت العرب . فحذارِ أن يكون ، لا سمح الله ، مدفوعاً بمشاعر الانتقام . فقد واجهت لمراتٍ لا حصر لها قتلة متوحشّين ألقينا القبض عليهم . غضبت منهم ، نفرت منهم ، و لكن لم تتحكّم بي أبداً الرغبة في الانتقام . و بهذه الروح أيضاً ربّيت مرؤوسي . فمهمتنا ، كما كنت أشرح لهم ، تنتهي في اللحظة التي نلقي فيها القبض على المشبوهين ، و ننتزع اعترافاتهم و نسلّم ملف التحقيق للشرطة أو النيابة العامة . و كنت أردّد لهم دوماً بأن الجهاز يعمل في الاستخبارات الوقائية . و مهمتنا هي جمع المعلومات التي تؤدّي إلى إلقاء القبض على منفّذي العمليات أو المخطّطين لها ، و العثور عليهم و إلقاء القبض عليهم "و إحباط نواياهم" . فليس "الشاباك" سوى حلقة واحدة في سلسلة الجهات ، بما فيها الشرطة ، و النيابة العامة ، و جهاز القضاء و مصلحة السجون . لدينا مهمة محدّدة و علينا تنفيذها ، هي فقط ، بأفضل صورة ممكنة .
و على مدى تسعة و عشرين عاماً من الخدمة في جهاز المخابرات – "الشباك" مرّ الجهاز بهزاتٍ عديدة ، و لكن المصدر الإنساني للجهاز ، و الذي بقيَ قوياً و مستقراً كالصخر ، و رؤية الأهداف و المهمات أتاحت لنا التغلّب على كلّ القلاقل . و قد كان مقتل رابين برأيي الضربة الأقسى التي يتلقّاها الجهاز على مدى سنوات وجوده . و لكن "الشاباك" تمكن من اجتياز الأزمة و الإحباط . و قد انتعش الجهاز و هو يواصل طريقه . فالمهمات لم تقلّص ، بل تعاظمت . و هي تستوجب العناية المهنية التي لا يمكن إلا لجهاز الأمن العام ، المجرّب أن يقدّمها .
تتمثّل عظمة الجهاز في تمسّكه الذي لا هوادة فيه بمبدأ العمل الرسمي . فكائناً من كانت السلطة في دولة (إسرائيل) ، فإن جهاز الأمن العام سيواصل الحفاظ على هذا المبدأ بثبات . و لا ريب لديّ في أن قادة السلطة لن يخرجوا أبداً عن هذه التقاليد المقدّسة . فالجهاز يحرص على المهنية و العمل الرسميّ . فتدخّله في الجدال السياسي من شأنه أن يمسّ ليس بسمعته فقط بل و بقدرته على العمل بأقصى قدرٍ من النجاعة .

لم يكن أول يومٍ لي في "الشاباك" تجربة صاخبة . فقد أصعدتني امرأة الاتصال إلى الطابق الثاني للمبنى في يافا و أمرتني بالانتظار . فجاء كلمن توكر ، الرجل الذي كان يترأس لجنة القبول . فصافحني قائلاً : "مرحباً ، صباح الخير ، أهلا و سهلاً" . لم تكن هناك خطب حماسية لتحفيز دوافعي ، و لا طقس خاص للقبول الرسمي . فقد سلّمني توكر لمساعده ، تسفي بار – ليف ، الرجل لطيف المعشر ، قصير الشعر ذي الصلاحية . و وضع بار – ليف أمامي العديد من النماذج الجديدة ، و التصريحات المشفوعة بالقسم للحفاظ على السرية و ما إلى ذلك . و كان عليّ أن أحفظ عدداً لا حصر له من التعليمات المكتوبة : محظور عليّ أن أعمل كذا و كذا ، محظور عليّ أن أكون هنا و محظور عليّ أن أكون هناك . فسألت : "هل مسموح لي على الأقل أن أتنفس هنا ؟" . فأشاح إليّ بوجهه بدهشة . فالتندر ، كما فهمت في الحال ، كان أمراً غريباً على نمط الحياة في مقر "الشاباك" في يافا .

ليومٍ كاملٍ قمت بالتوقيع على النماذج . و في فرصة الظهيرة ، توجّهت كالجميع إلى غرفة الطعام . نسيت ماذا قدّموا لنا في ذاك اليوم بالضبط . و لا أذكر سوى أني لم أستمتع بالوجبة المتواضعة . عدت إلى البيت منهكاً و محبطاً . فقد توقعت أن يثير أول يومٍ لي في "الشاباك" الانفعال .

كما أن الأيام التالية لم تكن وافرة بالأحداث العاصفة . فقد بعثت إلى لقاء شخصي مع جبريئيل جبريئيلي ، كي يدرجني في أول وظيفة لي في "الشاباك" . فقد كان هو رئيساً للقسم العربي . الرجل الذي يترك شديد الأثر و يبث إحساساً بالسلطة و النفوذ ، ذو الشعر الأجعد و العينين المفعمتين بالتعبير . عندما دخلت الغرفة رأيت ، على سبيل التغيير ، صوراً معلقة على الجدران . و كان هناك أصيص نمت فيه نبتة خضراء يافعة . جلست قبالته منفعلاً ، أترقب المهمة التي سيكلّفني بها . حدجني بنظرة جدية و أبلغني أنه تقرّر بناء على معطياتي الشخصية إدراجي في القسم العربي . "و عليه فقد قرّرت أن أبعث بك إلى أرشيف القسم" قال . و عندما استفقت من الصدمة ، قلت له بكياسة إنني لم آت إلى "الشاباك" لهذا الغرض . فأعمال التوثيق ، كما شرحت له ، ليست مثابة التجسيد لحلمي . فابتسم مجيباً : "أفهمك يا شاب ، و لكن الأرشيف هو محطة أولى إلزامية في سياق تأهيلك . من المهم أن تكون هناك . ففي هذا المكان ستتعلّم كيف تنبت الأمور من تحت . و إلى هناك تصل كلّ الإخباريات من كل المصادر ، السرية و العلنية . و إني واثق بأن هذه ستكون بداية ممتازة بالنسبة لك" .

و في نظرة إلى الوراء تبيّن لي أنه كان ثمة الكثير من المنطق في أقواله . نزلت إلى الأرشيف ، و استقبلني العاملون هناك بمودة كبرى . فقد كان ذاك طاقماً رائعاً ، متفانٍ لا مثيل له ، طوّر إرشيفاً مثار فخر . كانت هناك رفوف محملة بالملفات تحمل أسماء عربية . و كانت هذه هي الملفات الشخصية . و هناك ملفات أخرى خصصت للمواضيع المختلفة في المجال العربي . أما اليوم ، بالطبع ، فكلّ شيء مخزّن بالحاسوب فيما كان في الماضي على الورق فقط .

بدأت أعمل . وضعوا أمامي كومة من الوثائق و علّموني في أي ملف أدرجها . في البداية عملت بكدّ ، حيث استمتعت بقراءة قسم من الوثائق قبل أن أبوّبها . و لكن عندما خلقت وتيرتي البطيئة تأخيراً كبيراً ، اضطررت إلى التخلي عن القراءة . و عندما عدت إلى البيت في المساء ، كانت يداي مجرّحة من السدادات المعدنية للملفات .

في تلك الأيام كان طاقم "الشباك" يتكوّن من ثلاث مجموعات أساسية : الأولى – هم قدامى جهاز الإخباريات في "الهاجانا" ("شاي") و وحدة الأمن الداخلي "ماحتس" ، و التي أنشئت بعد حلّ "الهاجانا" و عملت حتى تشكيل جهاز الأمن في شباط 1949 (أما لقب "العام" فلم يضف إلى "جهاز الأمن" إلا بعد عدة أشهر من تأسيسه) . و المجموعة الثانية – أناس لغة الأم لديهم هي الروسية أو أي لغة شرق أوروبية أخرى . و الثالثة – من سليلي الدول العربية أو من مواليد البلاد ممن عاشوا في محيطٍ عربيّ و تعلّموا كيف يعرفونه كما يعرف المرء كفّ يده . أحدهم كان غيورا زيد ، ابن إلكسندر زيد الأسطوري ، من مؤسسي "هشومير" (الحارس) . الذي استقر في أراضي الشيخ إبريق و قتله عربي في العام 1938 ، في ذروة الأحداث . و كان غيورا يتكلّم العربية كالعربي الأصيل ، و كانت معرفته في الثقافة العربية بعادتها تبعث على الإعجاب . فقد كان ضيفاً مرغوباً فيه في كلّ قرية عربية و كلّ خيمة بدوية . و قد هرع غير مرة لنجدة عربيّ احتاج إلى مساعدة عاجلة . و كان يتراكض دوماً في سيارة جيب وضعها "الشاباك" تحت تصرفه فيما يتطاير شعره في الريح و تلمع عيناه الضاحكتان .. لقد كان على ودّ مع العرب و على صلة بحياتهم لدرجة أنه تلقى بشكلٍ طبيعي مهمة مساعدتهم حتى في تنظيم الأسرة . و كان يمكن للمرء أن يجد في سيارة الجيب خاصته غير مرة حبوب منع الحمل التي كان يوزّعها بالستر على نساء أصدقائه . أما المعلومات التي كان يأتي بها من جولاته الميدانية فقد كانت دوماً آخر الأنباء ، دقيقة و بالغة القيمة .

و كان زملائي في العمل في الأرشيف من قدامى الجهاز . و على نحوٍ مشابه للقدامى الآخرين في "الشاباك" ، لم يكن لأي منهم تقريباً أمل في الوصول إلى موقع إداري عالٍ . بمعظمهم كانوا بدون تعليم

رسمي أو مؤهلات قيادية . و قد اكتسبوا معرفتهم و خبرتهم من خلال عملهم . و تبيّن غير مرة أن تحكّمهم باللغة العربية و خبرتهم في العادات العربية تفوق قدرة قادتهم . غير أن القيادة الجديرة باسمها تستدعي كفاءة خاصة ، و جملة من الخصال و اطلاعاً على مجالات عديدة ، و التي لم تكن لديهم . و لكن كلّ من في "الشاباك" ، مثلما هو الحال في الأطر الأمنية الأخرى ، قبلوا الهرمية كأمر مسلّم به ، و إن كان معناها ترقية أشخاص ليسوا هم الأقدم بالضرورة .

أما بعد حرب الأيام الستة فقد صار المشهد البشري أكثر تنوعاً . فقد انضم إلى نواة القدامى شباب من مواليد البلاد ، جاءوا إلى الجهاز بعد تسريحهم من الجيش (الإسرائيلي) . بعضهم تعرّف على عمل "الشباك" في إطار خدمتهم العسكرية و سعوا لمواصلة ذلك في الحياة المدنية . و آخرون جاءوا إلينا بتوصية من أصدقائهم لمهام مختلفة في الجهاز . كما كان ثمة من وجد سبيله إلى "الشاباك" ، كما حدث معي ، من خلال الإعلانات في الصحف و مؤسسات التعليم العالي . و إلى جانب كلّ هؤلاء كان الجهاز يبادر إلى التجنيد في أوساط شريحة معينة من السكان – بين المهاجرين من الاتحاد السوفييتي مثلاً ممن حلّوا مع الوقت محلّ العاملين القدامى المتقاعدين في القسم الروسي .

و كان جهاز الأمن العام يدار في حينه كمؤسسة مغلقة و كتومة ، محصّنة تجاه العالم الخارجي . و كانت السرية هي الكلمة الأساسية . الكتمان الصارم كان جزءاً لا يتجزأ من نمط العمل . فمثلاً لم أكن أعرف في عهدي الأول في الجهاز أي شيء تقريباً عن أعمال قسم الأجانب . الذي كان يعنى في كلّ المواضيع الاستخبارية التي لا علاقة لها بالعرب ، أما عن وحدة العمليات فكنت أعرف أقل من ذلك بكثير . كما كان ثمة قدر لا بأس به ما كان يسمى "بالمسافة" . فقد كان رئيس الجهاز في حينه هو يوسف هرملين . و في السنوات الأولى بعملي في "الشاباك" لم يحصل لي أن تبادلت معه كلمة واحدة . فلم يكن من الدارج الدخول إلى غرفة رئيس الجهاز كلما شعرت بالحاجة إلى أن تصب ما في قلبك أو تطلب شيئاً . و عندما كنا نلتقي في مناسبات "الشاباك" لم نكن حتى نتصافح . و أشكّ أنه كان لفترة طويلة يعرف حتى بوجودي . فقد ولد في فيينا في العام 1923 . و عندما دخل النازيون إلى النمسا ، هاجر والداه إلى المكسيك و أقاما مصنعاً ، أما هو و أخته فهربا مهاجرين إلى أرض (إسرائيل) . و في الحرب العالمية الثانية خدم في الجيش البريطاني . و بعد حرب الاستقلال انضم إلى أسرة الاستخبارات . و عيّن رئيساً للجهاز في العام 1963 عندما كان في الأربعين . و كانت إحدى نجاحاته الكبرى هي انتشار "الشباك" بعد حرب الأيّام الستة في قطاع غزة و يهودا و السامرة .

"أنت مطرود !"

عدت في أحدى الأمسيات و بعد فترة قصيرة من بدء عملي في الأرشيف ، تعباً منهكاً إلى تل أبيب و شاهدت في شارع ديزنغوف خلال توجّهي إلى الغرفة التي استأجرتها فوق مقهى "كسيت" ، شابة شقراء جميلة ، تسير على الرصيف ليس بعيداً عني ، و أدّى جمالها الرائع إلى نسياني كلّ شيء بطرفة عين . جمعت جرأتي و توجّهت إليها قائلاً إنني أتشوق إلى التعرّف عليها و بدأنا الحديث ، و قالت لي بإنجليزية محطّمة بأنها بطلة فنلندا في التزلّج على الماء ، حضرت إلى (إسرائيل) بهدف اعتناق اليهودية و الزواج من صناعيّ غني . دعوتها لتناول كأسٍ من القهوة و سرت معها بشغفٍ و شعرت بأنني غارق في حبّها ، و لم تبقَ هي أيضاً لا مبالية ، و عرّفت أهلي عليها و لم تحبّ والدتي هذه العلاقة . خصوصاً لأن الفتاة مسيحية .

استمرت علاقتنا و كنت طوال هذه الفترة أتجاهل التفكير بالتعهّدات التي وقّعت عليها فور التحاقي "بالشباك" و التي تؤكّد عدم إيجاد أي اتصال مع أجنبي دون الحصول على موافقة مسبقة ، و تحدّثت في أحد الأيام و بصورة بريئة للمسؤول عني في الأرشيف عن صداقتي الجديدة ، احمرّ وجهه على الفور و قال لي : "هذا خطير جداً ، أنت ببساطة لا تفهم معنى ذلك ، و لا يوجد لديك أي إدراك لمدى الخطر الذي وضعت نفسك فيه" . حاولت الإيضاح بأن هذه مجرد علاقة حبّ غير ضارة مع فتاة لطيفة ، لا توجد لها و بالتأكيد أي علاقة مع مخابرات أجنبية .

استدعوني . و بعد عدة دقائق من جلوسي على طاولتي في الأرشيف للقاء إبراهام أحيطوف الذي عيّن رئيساً للقسم العربي قبل عدة أسابيع من وصولي للخدمة . تحدّثوا في "الشباك" عنه بتقدير يمتزج بالذعر ، كان شخصاً قادراً على كلّ شيء ، قائداً صلباً لم يكلّف نفسه عناء الحديث مع مستخدمٍ جديد مثلي . كان استدعائي إلى مكتبه في حينه مثل استدعاء قسّ بسيط إلى مكتب الحبر الأعظم .

دخلت إلى مكتبه و شاهدت أمامي رجلاً صلباً ذا شاربٍ صغير و نظارة شمسية عريضة و شعر رمادي من على جانبي صلعة كبيرة . اتخذ وجهه ملامح قاسية فور مشاهدته لي و بدأ بالصراخ عليّ و كأنني مجرم قام بعملٍ رهيب ، و طالبني بهجر الفتاة التي أحببتها على الفور .
أثار طلبه هذا غلياناً في نفسي ، فقاطعت حديثه الغاضب و قلت بأسلوب فظ : "اسمعني جيداً ، لست مهتماً ب"شاباكك" و لا أكترث بقوانينكم الغبية ، لن أبيع حريتي" . كانت على الطاولة "متكة" زجاجية كبيرة دفعتها بقوة و انسابت على الطاولة الخشبية ، نحو أحيطوف و صرخت في وجهه : "مللت العمل معكم" . بدت مظاهر الإحساس بالمفاجأة على وجهه ، و بعد صمتٍ قصير قال بغضب : "إذهب إلى منزلك ، أنت مطرود !" .
قلت له "شكراً" و أغلقت الباب بقوة و نزلت السلم ، لكن عندما أوشكت على الخروج من المبنى أوقفني الحارس و أبلغني بأن أحيطوف يطلب مني العودة إليه ، و قلت له إنني غير معنيّ بذلك ، لكن الحارس أغلق الطريق أمامي و قال باحترام : "عندما يدعوك أحيطوف فلا خيار لديك إلا الذهاب" .
عدت إلى غرفة أحيطوف و كان أكثر هدوءاً و دعاني للهدوء و قال : "درست ملفك ، أنت جيّد و لا أريد التخلي عنك بهذه البساطة" ، أعطني تفاصيل عن الفتاة كي نعرف من هي" ، و قدّمت له ما طلب ، بالطبع بحثوا عن تاريخ الفتاة و سمعت بأنهم وصلوا حتى عائلتها في فنلندا ، لكن من الناحية العملية ، كان هذا تحقيقاً لا جدوى منه ، إذ انطفأ حبي لها بسرعة دون أي صلة بتدخل المسؤولين عني في "الشاباك" .
كان أحيطوف أحد الأشخاص الأكثر روعة الذين التقيتهم في "الشاباك" . كان حاداً جداً ، سريع الفهم ، فناناً في الجدال و نشيطاً جداً . و يبدو أنه اكتسب هذه المضامين خلال دراسته في المدرسة الدينية .
أحيطوف سليل عائلة متديّنة جداً ، هاجرت من ألمانيا عام 1935 عندما كان عمره خمسة أعوام ، و اتضح له مع كبر سنه بأن مكانه ليس في العالم الديني ، و انضم مثل الكثيرين في سنّه إلى "الهاجاناه" .
أصيب بجروح خطيرة خلال حرب (الاستقلال) ، جراء حادث سير ، و ظلّ عاماً كاملاً طريح الفراش في مستشفى ، و هناك تعرّف على زوجة المستقبل يوكفد ، التي اعتنت به كممرضة . تناهت إلى مسامعه خلال تلقيه العلاج أنباء عن تشكيل وحدة سرية أطلق عليها اسم "المخابرات" في إطار الجيش و طلب الالتحاق بها ، لكن وجد ممثل المخابرات الذي التقاه بأنه "غير مناسب" ، لكن رغم رفضه استدعيَ مرة ثانية لعقد لقاءٍ و قبلوه . و قالوا في "الشاباك" إنه و طوال سنوات خدمته في الجهاز ضبط نفسه و امتنع عن البحث في الملفات عن أسباب رفضه في اللقاء الأول .
بدأ عمل أحيطوف في "الشاباك" ، و كما هو متبع بمهمة بسيطة ، و بسرعة أيقن المسؤولون عنه مدى كفاءته و أرسلوه إلى دورة استخبارات في القدس ، و عيّن بعد ذلك في منصب قياديّ في قسم أمن الجيش في المخابرات . و كان أحد مساعديه هناك جنديّ في الخدمة الإلزامية هو شلومو أفنيري ، الذي أصبح بروفيسوراً في العلوم السياسية . كان أحيطوف مسؤولاً عن المخابرات في قطاع غزة خلال عملية "كديش" (حرب السويس) عام 1956 و تعرف من خلال منصبه هذا على موشيه ديان رئيس هيئة الأركان في حينه و ربطتهما أواصر صداقة .
و بصورة موازية لعمله في "الشاباك" درس و دون أخذه يوم إجازة واحد في كلية الحقوق بالجامعة العبرية بالقدس و حصل على البكالوريوس و الماجستير ، و بسبب امتيازه بالدراسة حصل على بعثة كاملة و تمت إعارته للموساد في مطلع سنوات الستينيات و شارك من خلال انتحاله شخصية يهودي متزمّت بالبحث في أوروبا عن الطفل "يوسلا شوحمخر" الذي اختطفه جده المتزمّت .
كان أحيطوف مسؤولاً متشدداً ، ذا قدرة غير عادية على العمل و قدرة تحليل رائعة ، و رغم عدم تسلّمه أي مهام تنفيذية أو ميدانية ، صاغ برنامج تدريب حصل على مديح الكثيرين . استغرب الكثيرون بعد تسليمه رئاسة القسم العربي ، و حتى قبل ذلك عدم معرفته للغة العربية ، لكن هذا الأمر لم يحل دون قيامه بمهامه في هذا المجال بأحسن وجه . لقد حافظ بدقة على جميع القوانين و الأنظمة و كانت علاقاته مع الناس جيدة و تدخل بكلّ ما كان يجري في عائلاتهم – زواج ، حمل ، ولادة ، طلاق ، نقل سكن و كلّ ما شابه ذلك . كانت حركات يده عصبية لدرجة ما و أعربت بصورة عامة عن عدم ارتياح ، و بسبب شخصيته التهديدية وجدت مسافة بينه و بين الموظفين ، رغم اعتياد الجميع على مناداته باسمه الأول . كان أحد مضامينه الأكثر بروزاً تشديده على تفاصيل التفاصيل في كلّ مسألة ، سواء أكانت هناك ضرورة لذلك أم لم تكن . و على سبيل المثال عندما كان يتحدّث عن لقاءٍ معين شارك فيه ، كان قادراً على إجراء مداولات دقيقة جداً بينه و بين نفسه أو مع مساعديه حول مسألة : كم دام اللقاء ، ثمانية و خمسون أم اثنان و ستون دقيقة ؟
تحوّل الأمر الذي بدأ بتوبيخ بصراخ عالٍ و بلاغ بالإقالة الفورية الحاسمة ، و بصورة عجيبة إلى شبه علاقات مثيرة بيني و بين أحيطوف . رغم عدم قوله ذلك وجد لديّ انطباعٌ بأن أحيطوف قرّر فرض

وصايته عليّ من أجل توعيتي و لجم البركان الصاعد من داخلي و قيادتي للمسار المقبول لدى رجل "شاباك" جيد . كان يتوجّه عدة مراتٍ أسبوعياً إلى الأرشيف و يقف بجانب طاولتي و يسألني إذا كان كلّ شيء يسير بصورة جيدة و إذا كنت بحاجة لشيء ما . لم تكن زياراته الدورية للأرشيف عادية ، و قال لي زملائي بالعمل إن زياراته للأرشيف كانت متباعدة ، كما أنه لم يكلّف نفسه إبداء اهتمام شخصيّ أياً كان بمبتدىء بالعمل ، ما زال في طور التجربة .

كان أحياناً يجلس إلى جانبي في غرفة الطعام و يتناول وجبته معي ، و كان يبدي في هذه المناسبات اهتماماً بعائلتي و يطلب مني الحديث عنها و عن علاقاتي الاجتماعية ، و اتضح لي في فترة لاحقة أن حاخامين من مدرسة بني عكيفا في كفار هرأه التي درس فيها بشبابه كانا من نفس المدينة التي ولد فيها والدي ، و كانا يعرفاني و أحباني بطفولتي ، و كان أحيطوف يحافظ على علاقاته بهما حتى بعد تركه المدرسة الدينية و اعتقد بأنهما حدّثاه عني و عن عائلتي .

جمع أحيطوف آراء حول تفاصيل تقدّمي بالعمل و كان يحضر لزيارتي مرة أسبوعياً ، عندما شاركت في فترة لاحقة في الدورة الأساسية للخدمة في "الكريا" (وزارة الدفاع) في تل أبيب ، و اعتدنا الجلوس معاً في إحدى غرف الموقع الذي كانت تجري فيه الدورة الدراسية و نتحدّث . كان يتحدّث في تلك اللقاءات بأسلوب هادىء جداً و يتطلّع إلى الحديث المطوّل ، كان يبدأ الحديث عادة بقصصٍ عن زوجته و أولاده ، و ينتقل للسؤال عن صحتي و معنوياتي . و مع مرور الأيّام و عندما أصبحت زوجتي يعيل حاملاً ، كان يسألني دون توقف عن تقدّم حملها . و كان يستفسر بنفس الأسلوب عن مراحل تطوّر ابني البكر أمير .

لم يستخدم أحيطوف خلال أحاديثنا بتاتاً مفاهيم "كبيرة" مثل الصهيونية و انتصار (إسرائيل) ، بل فضّل تعبيرات بسيطة و عملية و واضحة ، ما زال ينقش بذاكرتي حديث عن أهمية الشك . أوضح لي أحيطوف مطوّلاً مدى أهميّة تجوّل رجل "الشباك" و الشك يعتري فؤاده بصورة دائمة ، و قال لي : "يجب عليك التساؤل طوال الوقت ، هل المعلومات التي حصلت عليها حقيقية ؟ ، هل بذلت قصارى جهدك من أجل التأكد بأنها كذلك فعلاً ؟ ، هل درست كافة التفاصيل ؟ ، هل تم التحقيق مع مصدرك بصورة كاملة ؟ ، و حتى إذا توصلت لنتيجة بأن جميع هذه الشروط متوفرة من الأفضل بقاء شك ما في نفسك ؟ ، إذ ربما و رغم كلّ ذلك نسيت شيئاً ما ، جزء تفصيلي قفزت عنه أو نقطة لم تستوضحها بدرجة كافية ..." .

كانت تراودني أقواله هذه أكثر من مرة في اللحظات الحاسمة خلال خدمتي . و كانت "حول الشك" المحاضرة الأكثر روعة التي ألقاها أحيطوف في دورات و أيام دراسية في الجهاز .

تحدّثنا مطوّلاً أيضاً عن العلاقة الشخصية بين رجل المخابرات و بين مصدر معلوماته و أوضح لي : "علاقات الصداقة التي تتوطّد بينكما مع مرور السنين و التعاطف الذي يتطوّر مع مصدرك قد يؤديّان إلى المس بعلاقتك الموضوعية ، مع المعلومات التي يقدّمها لك و قد يتطوّر لديك ميل طبيعي للاعتماد عليه أكثر من اللازم و الدفاع عنه عندما يخطىء أو يخدع . إحذر من ذلك !" .

أبدى أحيطوف و بصورة طبيعية ، أهمية قصوى بنجاحه المهني و بطابع شخصيته ، و مع ذلك تمسّك بصورة متشدّدة بمبدأ السرية ، و بالانغلاق على الذات و بالامتناع التام عن الشهرة بأي حال من الأحوال ، كما امتنع نهائيا عن الظهور أمام وسائل الإعلام . و حدّثني أكثر من مرة و بهذه الروحية عن الحياة البسيطة و المحافظة التي يجب اعتياد رجل "الشاباك" عليها . لم تكن هذه الأقوال موجّهة لي ، إذ كنت و خلال فترة تدريبي في الجهاز غريباً عن المشهد الإنساني هذا . و كان أحيطوف على دراية كاملة بذلك و لهذا عاد و كرر هذه النقاط على مسامعي المرة تلو الأخرى و للتأكيد على أهمية أقواله اعتاد عرض نماذج محدّدة عن "البساطة" و لم تكن هذه قليلة في الجهاز .

كان "الشاباك" يعيش في ظروفٍ تشبه الرهبنة ، يمتنع بتشدّد عن مصاريف مالية فائضة ، و كان يعيد سنوياً إلى وزارة المالية مبالغ خصّصت للجهاز و تم توفيرها . و إذا توخّينا الحقيقة سنجد بأنه لولا أحاديث أحيطوف المطوّلة عن صورة رجل "الشاباك" و بساطته و إخلاصه لكان الواقع فعل فعله ، إذ كان يكفي العمل في أوساط هؤلاء الأشخاص من أجل التشبّع بهذه الأجواء و الغرق فيها .

كان عدد رجال "الشاباك" في منتصف سنوات الستينيات عدة مئات فقط ، و كان كلّ واحدٍ منهم يعرف الجميع تقريباً . كانت تلك منظمة محافظة و سرية و خفيّة ، و ليس بالإمكان الوصول إليها ، تحدّث رجالاتها عن نجاحاتهم أو إخفاقاتهم فقط مع بعضهم البعض ، كانوا يكتفون بتشجيع الممتازين و يبعثون رسائل لهم عوضاً عن تقديم الجوائز و الأوسمة و كان أفرادها يتعاملون بصورة جادة و نوعية حتى مع أمورٍ لم يكن من واجبهم التعامل معها .

عندما حدّثتهم عن قصة حبي مع تلك الفنلندية الجميلة ، كانت ردود فعلهم غاضبة ، إلى درجة كان بالإمكان الاعتقاد فيها بأنني طالب جامعي و اكتفت بذلك . و لو توخّينا الحقيقة فإنني حتى لو كشفت النقاب لها عن عملي في "الشاباك" ، لما فهمت عما أتحدّث .

اعتدت بسرعة كبيرة على الدوغماتية ، و السرية ، و النمط المحافظ الذي يعمّ تقريباً جميع الجهاز ، كانت البساطة نمط حياة ، و ليست مجرّد ستارٍ لاحتياجات التخفّي ، كانت حقيقية و حتى مقدّسة ، و كأنها إحدى الكلمات العشرة . إذا كان بالإمكان الشرب بكأس الورق مرة ثانية لم نكن نلقيه للنفايات بعد المرة الأولى ، و إذا كان بالإمكان كتابة تقريرٍ على جانبي الورقة كنا نفعل ذلك . كان أحد قدماء العاملين في الجهاز ، عرفه الجميع باسمه الشخصي – زليغ – مسؤولاً عن التنظيم و الأساليب ، و كان زليغ يعمل على التوفير في كلّ مجالٍ بالإمكان القيام به بذلك حتى و إن وصل إلى حدّ السخرية ، كان مبتدع النظرية التي تقول إذا كتبت على ورقة عدة أسطر فقط عليك قطع الورقة و الاحتفاظ بما تبقّى منها لاستخدام مستقبلي ، و لم يحتجّ أحد على هذه التعليمات . فقد أيقن الجميع بأن الورقة التي لم تستغل حتى النهاية تؤدّي إلى مصاريف مالية دون فائدة ، تقتطع من الميزانية الوطنية .

تعلّمت معرفة الأشخاص الذين أعمل معهم خلال فترة قصيرة ، كما تعلّموا معرفتي ، و أعتقد بأنني كنت بنظرهم و في جميع الأحوال شخصية غير عادية ، تختلف عن الآخرين ، بوهيمي وصل في بيئة اجتماعية تقريباً لم يعرفها أي منهم ، شخص من المحتمل أن يخرج من حياتهم إذا قلّصوا أكثر من اللازم مجال معيشته .

عملت شهراً في الأرشيف ، و نقلت من هناك إلى الملفات ، الموقع الذي يجري فيه تقييم للمواد التي تنقل للجهاز من مصادر سرية و علنية و من وكالات تجميع أخرى . يرتكز عمل المخابرات و بصورة رئيسة على استخدام عملاء ميدانيين ، و ترسل المعلومات التي يجمعها جامعو المعلومات من عملائهم و من مصادر أخرى إلى ضباط التصنيف الذين يقومون بأعمال التصنيف و التقييم ، و بعد الانتهاء من معالجة المعلومة أو الإدراك بأن لا جدوى ترجى منها تنقل إلى الأرشيف و توضع في ملفات هناك ، و عندما تصل معلومات غير كاملة تتم إعادتها إلى المشرف على العميل و يطالبونه بالحصول على إيضاحات . أما المعلومات التي تستوجب نشاطات معينة فيتم نقلها إلى التحقيق و الاستكمال و يتم بحثها في مجلس العمليات . تستخدم وحدة العمليات أحياناً بهدف جمع أو استكمال معلومات ، و تقوم في أحيان متقاربة بعمليات الإفشال ذاتها ، و ازدادت مع مرور السنين و توسّعت مهام الإفشال .

ألصقوني في قسم الملفات بيئير ليفي ، و هو شخص هادىء و بسيط ، تذكّرك هيئته الخارجية بموظف يعمل طوال حياته بمهامّ رمادية . كان هناك مطبخ صغير في نهاية الرواق في المبنى الذي نعمل فيه و كان موظف المطبخ يمر مرتين يومياً في ساعات محددة ، الساعة العاشرة صباحاً و الثالثة بعد الظهر على الغرف لبيع الموظفين ساندويشات و مشروبات خفيفة بأسعار مدعومة . استهدف هذا النظام فيما استهدفه منع القيام عن الطاولات و عدم تبذير الوقت . لم يكن ليفي بحاجة للشاندويشات المدعومة ، بل كان يتوقف عن العمل الساعة العاشرة بالضبط و يسحب ساندويشاً من حقيبته و ينتظر وصول عربة المشروبات الخفيفة و يطلب كأساً من الشاي و يشربه بجرعات محدّدة أثناء تناوله الساندويش ، و لم يكن هناك أمر على وجه البسيطة يؤدّي إلى استبداله عادته هذه . لكن مظهره الخارجي كان خادعاً ، كان ليفي مخزناً ثرياً للمعلومات . التقيت مثله قلائل جداً . كانت لديه ذاكرة مذهلة ، يحتفظ فيها بجميع المضامين الدقيقة لكلّ ورقة و لكل تقرير ، كان يتذكّر التفاصيل الدقيقة لكلّ عملية و كان منظّماً و دقيقاً لدرجة غريبة . أرسلني أحيطوف إليه بهدفِ تعلّمي منه و ربما أيضاً من أجل اكتسابي شيئاً من مضامينه . كانت تتراكم على طاولته و بصورة دائمة أكوام ملفات و كان يقرأ عليّ تقريباً كل وثيقة تنقل إليه و يوضح لي ما ينقصها و ما هي الإضاحات التي يجب الحصول عليها .

أتذكّر وصول مواد كثيرة إلينا متعلّقة بحركة "الأرض" المتطرفة ، كانت هذه مجموعة مكوّنة من حوالي عشرين شاباً وطنياً ، و نظّمت من أجل تشكيل مؤسسة سياسية ، تمثّل التطلعات الوطنية لعرب (إسرائيل) . بدأت نشاطاتها عام 1959 بعد عدة أشهر من مشاركة أعضائها بتشكيل تنظيم آخر "الجبهة الشعبية" تحت إشراف الحزب الشيوعي و ذلك بعد أن هاجم بطلهم الكبير الرئيس المصري جمال عبد الناصر بحدة الشيوعية . قرّر أعضاء "الأرض" قطع كل علاقة لهم بماكي (الحزب الشيوعي "الإسرائيلي") و حاولوا سحب البساط من تحت أقدامها في الشارع العربي . عارضوا شرعية وجود دولة (إسرائيل) و طالبوا أيضاً باستبدال البنية التقليدية للمجتمع العربي ، و ذلك لاعتباره قديمٌ و رجعيّ تقليدي و لأنه ساعد حسب اعتقادهم الحكومة (الإسرائيلية) بالسيطرة بقبضة حديدية على المواطنين العرب و سلب حقوقهم . و دعوا في إطار الصراع السياسي ، العرب في (إسرائيل) لمقاطعة انتخابات الكنيست الرابعة (التي جرت في نهاية عام 1959) و أصدروا أسبوعية دون ترخيص ، ظهرت ثلاثة عشر أسبوعاً ، و نجحوا بعد ذلك في تسجيل أنفسهم كشركة "تجارية" بمساعدة الالتماس للمحكمة العليا – قدّموه رغم ادعائهم بأنهم ضد شرعية الدولة – و بدأوا بإرسال مذكرات استنكار ضد الحكومة (الإسرائيلية) لصحف أجنبية و لأوساط دولية . اعتقل أربعة من رؤساء هذه المجموعة عام 1964 بتهمة الاتصال مع عملاء في مصر و سوريا و وقّع وزير الدفاع في نهاية ذاك العام على قرار بإخراج هذه الحركة عن القانون . استبدلوا

مواقفهم بعد حوالي العام و حاولوا المشاركة بانتخابات الكنيست السادسة تحت اسم "القائمة الاشتراكية العربية" و رفضت لجنة الانتخابات المركزية هذه القائمة بحجّة كونها ممثلة لـ "مؤسسة تآمرية" و صادقت المحكمة العليا على هذا الرفض . و انتخب أحد نشطاء هذه المجموعة ، محمد ميعاري ، بعد سنوات للكنيست على رأس قائمة "القائمة التقدّمية للسلام" .
كان الانتقال من قسمٍ إلى آخر ، في تلك الأيّام ، جزء لا يتجزأ من تأهيل المبتدىء "بالشاباك" ، إذ كانت الأمور التي يتعلّمها من هؤلاء الأشخاص الذين يتمتّعون بتجربة غنية بالجهاز ، الأسلوب الأنجح لمشاركة الموظف المبتدىء بجوهر العمل . أيقنت مع مرور الزمن بأن الغرف الثلاث أو الأربع التي تجوّلت فيها كانت الطرف الأخير في شبكة "الشاباك" . أيقنت وجود أقسام مهنية كثيرة و مناطق تحمل جغرافية و وحدات أخرى . و تستبدل الأمور بكلّ ما له علاقة بتأهيل الموظفين ، و توجد اليوم برامج تأهيل و توجيه منظمة و راسخة .

في منزل زكي بقرية عربية

تشرين الأول – تشرين الثاني 1966

كان آريه بن يعقوب (أبو يعقوب) قصير القامة ، كبير الرأس ذو شعر أجعد و أحد واضعي أسس العمل الاستخباري في أوساط عرب (إسرائيل) ، و كان رئيس القسم الميداني في "المثلث" (المنطقة الممتدة من كفر قاسم و حتى أم الفحم) و وقعت في إطار مسؤولياته مدن مختلطة مثل يافا و الرملة . و تقريباً جميع سكان المثلث يعرفونه كما يعرفون صوته الصاخب و يعجب كلّ من يتصل به من لغته العربية الجيّدة التي تغص بالأمثال الشعبية . استدعاني إلى مكتبه و كلّفني بمهمة جديدة أثارت انفعالي . و في النهاية أصبح المقصود خروجي من بين جدران مكتبي .
بشّرني بن يعقوب : "غداً صباحاً ستسافر إلى باقة الغربية ، ستقطن و لعدة أسابيع لدى عميل لنا ، أحد سكان القرية و تتعلّم نمط حياتهم ، إنه يعرف بالضبط من تكون ، لكن بالنسبة لسكان القرية ، أنت بحاجة لرواية تبرّر وجودك . ستقول لكلّ من يسألك بأنك طالب في الجامعة العبرية بالقدس ، تعدّ بحثاً متعلقاً بأنماط حياة العرب و لغتهم و عاداتهم و تقاليدهم ، هل هذا واضح ؟" .
ضم إليّ ثلاثة من المتدرّبين في "الشاباك" ، و كان لدى جميعهم رواية تبرّر وجودهم ، مثلي ، و كان من المفروض وجود كلّ واحدٍ منهم في إحدى قرى "المثلث" ، و أرسلنا بن يعقوب في سيارة جيب واحدة حيث أوصلت كل واحدٍ إلى قريته .
وصلت إلى باقة الغربية ، قرية كبيرة و جميلة في وسط منطقة زراعية خصبة . كان مضيفي زكي عبد الله عويسات – "أبو كمال" كما يطلق عليه الجميع – بانتظاري في مدخل منزله المكوّن من طابقين . ملتفاً بعباءة و يضع كوفية بيضاء بنصاعة الثلج و كان لون بشرته الأسمر يشكّل نقيضاً لملابسه القاتمة . كان رجلاً جميل المظهر ذو تقاطيع لطيفة ، و رئيس عائلة محترمة و احتل سابقاً رئاسة المجلس المحلي . و عندما صافحني شعرت بأن هذه بداية صداقة حميمة .
قال لي زكي "أهلاً و سهلاً ، بيتي هو بيتك ، و عائلتي هي عائلتك" . و هو لا يتحدّث العبرية . كان زكي فخوراً بكونه عميلاً ، و لا يستأنف أحد في القرية على ضرورة احترامه . كانت تلك فترة اقترابِ انتهاء الحكم العسكري ، الذي أقيم فور إعلان الاستقلال . و حتى أشخاص مثل صبري جريس (الذي أصبح فيما بعد من رؤساء الجهاز الإعلامي و الدعائي لمنظمة التحرير الفلسطينية) كتب عنه عام 1965 ، بأن ولادته كانت "لأسباب أمنية ، محضة ، شكّلت هذه المؤسسة في فترة حرب بين (إسرائيل) و الدول العربية ، كسلطة جديدة لمواجهة مشاكل خطيرة خارجية و مع السكان العرب الذين وضعت تساؤلات حول مدى ولائهم للسلطة الجديدة ، لقد استهدف فقط معالجة القضايا الأمنية" . كانت تقع في البداية في مجال صلاحيات الحكم العسكري مناطق الجليل و "المثلث" و النقب و مدن الرملة و اللد و يافا و المجدل (عسقلان) ، لكن مع مرور الزمن تم تقليص مجاله بالتدريج . ارتكزت إقامة الحكم العسكري بصورة رئيسة على خمسة أنظمة طوارىء من عهد الانتداب مكّنت من فرض قيودٍ على حرية التنقل في مناطق يتحمّل المسؤولية عنها قادة عسكريون و إجبار السكان على الحصول على تصاريح خاصة من أجل تمكّنهم من القيام بنشاطات مختلفة ، بما في ذلك الانتقال من منطقة لأخرى . أكدت لجنة برئاسة الجنرال (احتياط) يوحنان رتنر ، بروفيسور للهندسة في التخنيون ، في شباط 1956 ضرورة استمرار وجود

الحكم العسكري جراء ستة أسباب رئيسة منها : "الارتباط ... مع العرب خلف الحدود تؤثر على علاقة الأقلية العربية بالدولة . توجد عناصر متطرّفة لم تسلم بوجودها توفر ملجأ لمتسللين و تزوّد عملاء العدو بمعلومات أمنية . كما أن ضرورة الحصول على التصاريح تقيّد تنقل المتسللين و الجواسيس بصورة حرة ... ، ثم إن ضرورة الحصول على تصاريح لا تسبّب معاناة جادة للسكان الذين يحافظون على القانون ، و لن ينجحَ أي بديل مدني بردعهم ... فلا يوجد أي أسلوب آخر للسيطرة على أراضي الدولة المعدّة للاستيطان على الحدود الآمنة أو التي تستخدم كمناطق تدريب للجيش (الإسرائيلي) .

ولم يتوقف الجدال السياسي حول حيوية الحكم العسكري حتى منتصف سنوات الستينيات. كلف ليفي اشكول رئيس الحكومة في تشرين الأول عام 1965 مستشاره آيسر هرئيل (الذي كان حتى حزيران 1963 المسؤول عن جميع المخابرات) ببحث إمكانية التغيير. درس هرئيل هذه القضية وأوصى بتسهيلات حقيقية في نشاطات الحكم العسكري. (بعد فترة قصيرة من إرسالي الى باقة بتاريخ 1 كانون الأول عام 1966 ألغي جهاز الحكم العسكري. لكن مع ذلك لم تلغ الأنظمة التي مكنته من العمل، وبعد عدة أشهر استخدمها الحكم العسكري الذي أقيم في الضفة الغربية وقطاع غزة في أعقاب حرب الايام الستة).

... باقة الغربية خاضعة للحكم العسكري ويطلب من كل شخص يريد الخروج منها التزود بتصريح تنقل من الحكم العسكري. عمل عملاء "الشباك" في المدن والقرى العربية بصورة علنية، وهؤلاء بصورة رئيسة وجهاء محليون، زعماء على دراية جيدة بحياة سكانها لديهم أملاك وحقوق أقدمية وينظمون عقود صلح عشائري ويتحملون مسؤوليات توفير عمال لمقاولين، وتوفر لهم مكانتهم الرفيعة هذه حماية من هؤلاء الذين لا ينظرون بعين الرضا لتعاونهم مع "الشباك". كثيرون ومنهم مضيفي "أبو كامل" لا يقدمون المساعدات لنا مقابل حفنة من الأموال، ويتعلق الأمر في كثير من الأحيان بامتيازات من نوع آخر: جمع شمل عائلات والحصول على رخص بناء وتجارة والتسريع بإجراءات لدى الشرطة أو ضريبة الدخل ومكاتب حكومية أخرى، ويوجد من بينهم من يستغلون تعاملهم معنا لمصلحة الجميع – تطوير قريتهم وزيادة ميزانية التطوير والحصول على رخص بناء وتصاريح تنقل، وتؤدي مساعدتهم لقريتهم الى تعزيز مكانتهم في أوساط سكانها. وقدم عدد غير قليل من العملاء مساعدة لـ "الهجاناه" قبل قيام (الدولة) وللجيش خلال حرب الاستقلال. يحصل "الشباك" على مساعدتهم بالعثور على مطلوبين والكشف عن تنظيمات معادية واقامة اتصالات سرية مع العدو ومعرفة المنطقة بتفاصيلها الدقيقة. ويشكل هذا عليهم أخطارا غير قليلة، ولهذا تم تزويد عملاء معينين بأسلحة شخصية للدفاع عن أنفسهم.

يعتبر مضيفي زكي عبد الله شخصية محبوبة في باقة الغربية، ولا يعقد صلح تقريبا في "المثلث" لا يدعى للمشاركة فيه ويقدم له "الشباك" مقابل مساعدته بأساليب مختلفة وعلى سبيل المثال: أخوه الذي كان من الحرس الشخصي للملك حسين، تشوق الى الخروج من الأردن والانضمام لعائلته في (إسرائيل) ولم يكن ذلك سهلا، لكن عمل "الشباك" على مساعدته بالتغلب على العقبات.

تعلق على جدران غرفة الاستقبال في منزل زكي صور ذات إطار لرئيس الدولة ورئيس الحكومة، إنه عربي فخور لكنه أيضا مواطن (إسرائيلي) مخلص. حولت علاقاته مع المؤسسات (الإسرائيلية) الرسمية منزله الى مزار يحج إليه كل من يبحث عن سبيل للوصول الى السلطات، وإذا واجه شخص ما وعلى سبيل المثال مشاكل مع سلطات ضريبة الدخل، كان زكي يتصل مع موظف الضريبة وفي معظم الحالات كان ينجح تقريبا بما هو شبه مستحيل. تحترمه السلطات ويحترمه سكان قريته ويتمتع بالعاملين.

قادني زكي بعد أن تصافحنا الى شرفة رحبة وجلس الى جانبي وبدأ بتقطيع خضروات لصنع سلطة لوجبة الغداء. كان يعد سلطة رائعة، يقطع الخضروات قطعا دقيقة ويضع عليها توابل طازجة. النساء تجلس في المطبخ، وفي كل مرة يستكملن فيها اعداد طبخة جديدة يطرقن ثلاث مرات على الباب ويذهب زكي لإحضار الطعام لنا. وكما هو معتاد في الشرق لا تتدخل النساء بمجتمع الرجال وعندما يحضر ضيوف لدى زكي يحافظن على البقاء في المطبخ أو في داخل المنزل.

رافقني زكي في ساعات بعد ظهر اليوم الأول لي في باقة الغربية بجولة في أحيائها وعرفني على أشخاص كثيرين. كنا نجري حديثا عاما معهم وكانوا يقدمون القهوة في كل مكان نصله. عدنا الى المنزل في ساعات المساء، ورتب زكي لي مكانا للنوم في غرفة الاستقبال الكبيرة على كومة من الفرشات، وبعد صعودي على فرشتي خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه بإحكام بعد أن كان أغلق النوافذ بألواح خشبية سميكة. تقع القرية قرب الحدود الأردنية، وأكثر من مرة تسلل اليها أشخاص في ساعات الليل. (فقط بعد مغادرتي باقية، كشف النقاب لي عن تخوف زكي على سلامتي وأنه كان يتجول حول المنزل في ساعات الليل مسلحا ببندقية صيد حتى ساعات الصباح. وهذا ما اعتاد على عمله طوال فترة وجودي في منزله. كان لا ينام الليل ولم أكن أعلم بذلك).

كان لدى زكي اولاد كثيرين، وشاهدت في اليوم الاول لتواجدي في منزله طفلا عمره عامين، ينزف أنفه باستمرار، يتجول مع زكي يد بيد. وقال لي مضيفي بأنه عثر على هذا الطفل، اسمه شريف، في بيت للايتام، أحبه وتبناه.(شريف مثله مثل اشخاص كثيرين في باقة الغربية اختفى من حياتي فور مغادرتي القرية، وبعد سنوات طويلة ظهر في احد الايام بمكتبي في "سلكوم" عانقني بانفعال شديد وروى لي ما مر به منذ وداعنا قبل أكثر من ثلاثين عاما. يقطن في قرية جت ومتزوج وأب لأطفال. كان هدف زيارته وكما أوضح لي استئناف العلاقة بيننا وطلب مني بنفس المناسبة مساعدته بحل مشاكل برزت بينه وبين أبناء ونسيب زكي والده بالتبني).

... شعرت وخلال فترة قصيرة من وجودي في كنف عائلة زكي بأنني واحد من الأسرة. كان أخوه البكر حافظ صاحب أكبر ملحمة في القرية، وكنت أتوجه من حين لآخر الى المحل وأساعده بتقطيع اللحوم واعدادها للبيع، وكان له أخ آخر، فارس، يربي الابقار والماعز والماشية، وكنت أقضي اياما كاملة مع قطيعه في المراعي، وكان لدى أخوه الثالث وجيه سيارة عمومية وكنت أكثر من الانضمام اليه في السفريات الطويلة، حيث أجري أحاديثا مع المسافرين وأزور قرى ومدنا لم أزرها في حياتي.

كنت أتحدث العربية فقط وأشعر بأن إتقاني لهذه اللغة يتحسن من يوم لآخر، وهكذا تعرفت على نمط حياة العائلة العربية، تعلمت أساليب احترام الوالدين وكيفية التصرف مع النساء والأولاد، ما الذي يأكلونه وما الذي يشترونه وما شابه ذلك. كنت أقضي النهار والليل مع مضيفي، أتعلم عن قرب القيم والعادات واستوعب الامثال واللهجات وأعود نفسي على الحديث الصحيح. تعلمت وعلى سبيل المثال ما يقولونه عندما يدعو أحدهم الله للحفاظ على أولادك وما هي تحيات الصباح والمساء وما الذي يقولونه قبل تناول الطعام وبعد تناوله. أيقنت مدى غنى اللغة العربية وكانت هذه هي الجامعة الأفضل لي بالموضوع العربي.

عائلة زكي عائلة بطريركية بكل ما يحمله هذا المفهوم من معنى، ويجري كل شيء بناء على تعليماته ومن الصعب وصف الاحترام الكبير الذي يكنه له الجميع، وعلى سبيل المثال لا يفكر شخص من أبنائه بالجلوس بحضرته وساقه على الساق الأخرى، والحذاء موجه لأبيه، واتضح لي بأن مثل هذا التصرف يحمل في طياته إهانة كبيرة لرب العائلة. ولا يتجرأ الأبناء على التدخين بالمنزل دون سماح والدهم لهم. اعتاد زكي لف السجائر بيديه، يضع فيها التبغ من علبة فضية مزينة. وعندما كنت أجلس الى جانبه، كان يقدم لي السيجارة الأولى التي يلفها ويشعل بعد ذلك واحدة لنفسه، وفقط بعد ذلك يحق لأبنائه التدخين.

كان منزل زكي مقر لجنة وجهاء القرية، الذين اعتادوا الجلوس بارتياح في الشرفة الكبيرة والحديث خصوصا بالسياسة. وكان يتوجه اليه أيضا وفي احيان متقاربة رجال الحكم العسكري ولم يعتقد بعضهم بأنني يهودي، وكانوا يعاملوني كأحد أفراد العائلة المتشعبة، وعندما كنت أحضر لهم القهوة من المطبخ وأصبها لهم بكؤوس صغيرة، كانوا يحدثونني بالعربية وهم على يقين بأنني خرجت من بطن أمي عربيا.

(في وقت لاحق وبعد فترة قصيرة من مغادرتي باقة الغربية، عقد في "بيت سوكولوف" بتل أبيب يوم دراسي مغلق حول موضوع متعلق بعرب (إسرائيل). شارك فيه ضباط من الحكم العسكري أكثروا من زيارة منزل زكي. دعوني إلى هناك برفقة عدد من العاملين في "الشباك". وعندما شاهدني الحاكم العسكري لباقة، لم يخف غضبه وطالب معرفة: "كيف تسلل هذا العربي الى هنا؟". ومثل كثيرين من أصدقائه كان يعرفني فقط بالاسم الذي ألصق بي في باقة – يعقوب عويسات).

كان المنزل الواسع في باقة الغربية يبتعد بعد الشرق عن الغرب عن المسكن البسيط الذي أقطنه في تل أبيب. كان ذلك عالم أحببته، الجلوس في المطبخ برفقة نساء العائلة وهن يطبخن كوسا محشي ويغنين، يجعلني أعيش في تجربة لا تنسى، سكنت هناك أربعة أشهر وتمتعت في كل لحظة.

أبلغني آريه بن يعقوب بعد استكمال فترة تأهيلي في باقة الغربية بحلول الوقت لحزم حقائبي والسير قدما. ورافق وداعي لعائلة زكي انفعال كبير. وكان بإمكان المراقب من الجانب أخذ انطباع بأنهم يودعون والألم يعتصرهم أحد افراد العائلة المسافر لمكان بعيد وربما لن يعود. ولن أنسى الدموع في عيونهم لدى عناقي بحرارة.

إلى نهاية العالم

أرسلوني من باقة الغربية لفترة تثقيفية في الناصرة و ذلك بهدف الدراسة العملية و معرفة كيفية عمل "الشاباك" ميدانياً . استأجرت غرفة صغيرة في منزل مسنة مهاجرة جديدة من رومانيا ، كانت المدينة في

ذاك الوقت مزيجاً من أحياء المهاجرين و لا توجد فيها أي نشاطات اجتماعية أو ثقافية . كان هذا الانتقال من وسط الحياة الغجرية في تل أبيب و من سكنة فوق كسيت التي تغص بالضجيج ، يعني الانتقال إلى نهاية العالم ، لكن العمل في المنطقة عوضني كثيراً . دخلت عالماً يغصّ بما هو غامض ، الخفي منه يزيد عن العلني عالم يثير حب الاستطلاع و الانفعال الشديد . كان يونثان مسؤول جمع المعلومات في الناصرة . أرسلوه و زوجته "حبيبة" التي تعمل سكرتيرة في مدرسة محلية بعد أن هاجروا من العراق إلى الناصرة العربية و انتقلا للسكن في الناصرة العليا (اليهودية) فور إقامتها ، و وجدت في منزلهما المتواضع منزلاً ثانياً لي .

عمل منسّقون آخرون للشباك في الناصرة : أليعيزر المزارع بروحيته و الخبير بكلّ ما له علاقة بالموضوع العربي ، و إيلي المهاجر من العراق ، الدافىء و الودود ، و جيمي و أورنه و آخرون و أذكرهم جميعاً بالخير . جلسنا في القسم المغلق من مبنى "المسكوبية" في المدينة العربية ، الذي كانت تقع فيه أيضاً المحكمة و مكاتب ضريبة الدخل و مؤسسات حكومية أخرى . كان السكان يعرفون من نحن ، و في الناصرة مثلما هو الوضع في كلّ موقع في الوسط العربي الذي يعمل فيه منسقو "الشاباك" ، كان العمل يجري بصورة علنية .

أرسلوني من الناصرة إلى طبريا ، حيث كنت ألتقي عملاء عرب في أماكن سرية ، و طلبوا مني صياغة تقارير مطوّلة و مملة ، كنت أقضي ليالي طويلة بالتعمّق بدراسة المواد و في ساعات الصباح و بعيون حمراء تحترق من نقص النوم . كنت أحضر العمل المستكمل لجامع المعلومات المحلي ، يوسي ، الذي كان معلّمي . كان ينظر إلى صفحات الأوراق و يبدي تجهّماً و يمزّق إلى قطع صغيرة ما كتبته طوال ساعات ، كنت أشد على نواجذي و لا أنبس ببنت شفة . كنت أتذكر كلّ ما يفعلوه بي ، إذ لم يكن كل هذا إلا تهيئة لأمور حقيقية . كان يستمر تأهيل رجل "الشاباك" حينذاك حوالي عامين . و أيقنت توقعي تجارب غير قليلة طوال مساري هذا ، لكنني كنت مصمّماً على الاستمرار بالدرب الذي بدأت . أحببت ما كنت أفعل و كنت أشعر بأنني أحمل رسالة تتعزّز من يوم إلى آخر .

أحببت في تلك المرحلة ، كان اسمها يعيل و هي من عائلة يمينية متشعبة ، تعمل مدرّسة ، و ترعرعت مثلي في نتانيا ، و كان لدى شركة "إل – عال" طلب كبير على مضيفات من أصلٍ يمني ، إذ بدت اليمنيات بنظر الشركة أكثر جاذبية من الأخريات . تركت يعيل التعليم و أصبحت مضيفة . كان واضحاً لكلانا بأننا سنتزوّج ، و قرّرنا الإسراع بالإجراءات ، خصوصاً بسبب ظروف حياتي القاسية في "الشاباك" . كنت و بصورة عامة وحيداً في الميدان ، بعيداً عن يعيل ، و كنت أتوجّه إلى المنزل فقط في أحيان متباعدة .

عندما عرضت يعيل على والدتي استقبلتها بترحاب ، و أمر واحد فقط أثار قلقها : كيف سيتمكّن ابنها ، وحيدها سليل عائلة بولندية على التعوّد على تناول الأطعمة اليمنية ؟ .

نصبت عريشة العرس في ساحة منزل والدي في حزيران عام 1967 ، بعد أسبوعين من حرب الأيّام الستة ، و حضر الحفل أفراد العائلتين و عدد قليل من الأصدقاء . وصلت من هضبة الجولان تقريباً في اللحظة الأخيرة و بأعجوبة . كنا نعمَل و على دوران الساعة في الأسابيع الأولى بعد الحرب . و أجرى احتفال التقديس حاخامان ، يمني و أشكنازي . و عزفت فرقة طلابية و رقصوا و غنّوا و كانت الفرقة كبيرة ، سافرنا لقضاء شهر العسل في الولايات المتحدة و عدت لعملي في "الشاباك" .

حيوان بري يعشق حريته

كمرحلة أخرى من تأهيلي المهني أرسلت إلى الدورة الأساسية للجهاز ، التي عقدت في عريشة خشبية في مقر وزارة الدفاع "هكريا" (الضاحية) في تل أبيب و هناك التقيت للمرة الأولى مع من أسهم أكثر من أي شخص آخر في قولبة شخصيتي كرجل "شاباك" . كان اسمه يهودا أربيل ، المرشد الرئيسي للدورة و قائدي المباشر في وقتٍ لاحق من خدمتي في "الشاباك".

كان نموذجاً رمزياً جداً ، رجلاً وسيماً بروح بوهيمية ، شجاعاً ، عيناه فولاذيتان و ذا نفس رومانسية ، مقدسياً عريقاً ، و متنزهاً مجرّباً ، دعامة أي حفل و عاشقاً للنساء و النبيذ . كان أربيل رجلاً يثير الانطباع ، خشناً يمتلك الحكمة و فهم النفس البشرية ، و قد رأيت فيه نوعاً من الأب الروحي ، المرشد و القائد الذي يركن إليه في شقّ الطريق الصحيح أمام الخاضعين لإمرته . و كانت بطاقات التقدير التي أرسلها لي خلال سنوات عملنا المشتركة أهم من أي وسامٍ رسميّ .

و بفضل يهودا أربيل كانت الدورة الأساسية مثابة خبرة روحية حقيقية ، فقد علّمنا كل ما كان يتوجّب علينا معرفته في هذه المرحلة عن العمل الاستخباري ، المتابعة و المراقبة . كما استمعنا منه إلى تفاصيل مروّضة عن عمل وكالات الاستخبارات الأجنبية .

لقد اعتاد على مقابلة الأشخاص الذين يجنّدهم للشاباك في مقهى "فتير" في "المستعمرة الألمانية" في القدس ، خلف غابة من نباتات "الغرانيوم" البرية و الصبار . و كان هناك من ادعى أنجون لاكارا استخدم في كتابه "الطبالة الصغيرة" أربيل كمصدر إيحاء لوصف رجل خدمات الأمن (الإسرائيلية) الذي يلتقي مع عملائه في مقهى مقدس . و لم يكن هناك أشخاص يختلفون أكثر في طابعهم منه و من أحيطوف .

كان أربيل غير روتيني و لا مؤسساتياً ، مبدعاً بصورة غير عادية ، هائجاً و لاذعاً . فيما كان أحيطوف بالعكس تماماً رجل مؤسسة يحافظ على القانون حتى أدق التفاصيل ، محافظاً متواضعاً و منغلقاً .

ولد أربيل عام 1920 في هنغاريا و اسم عائلته الأصلي "فارغو" و قد هاجر إلى البلاد عام 1941 و كان عضو كيبوتس لبعض الوقت . تجنّد في الحرب العالمية الثانية للجيش البريطاني و خدم في إيطاليا . و عشية حرب (الاستقلال) عاد إلى البلاد و قاتل في منطقة القدس .

تجنّد عام 1949 للشرطة و عالج فيما عالج شؤوناً انطوت على حساسة سياسية ناجمة عن تقسيم المدينة بما في ذلك ترتيبات المرور في بوابة مندلبوم ، و في عام 1958 انضم إلى "الشاباك" و بعد شهرين التقى مع آيسر هرئيل المكلّف بشؤون الأمن العام . و قال هرئيل في نهاية اللقاء "هذا أفضل عملية شراء لنا هذا العام" .

كان أربيل رجل مبادىء ، و قد تمسّك بها بدون حلول وسط ، كما علّمنا نحن الخاضعين لإمرته كي نفعل ذلك . و قد اعتاد على أن يقول لنا : "لا تقبلوا أبداً أوامر بدون تفكير و لا تتراجعوا بسبب آراء المسؤولين عنكم إذا كنتم واثقين بمصداقيتكم ، و اعرفوا كيف تقاتلون عن حقيقتكم" . و قد ذهب بعيداً في دعم رجاله و خلق لهم بيئة مشبّعة بالأمان مما سهّل عملهم ، و كان تعامله مع الناس وحيداً من نوعه . أولاً اعتاد أن يصرخ عليك سواء كان هناك سبب أم لا فتقف أمامه و هو يصرخ بقوة لتشعر أنك مهان و ذليل . و بعد عدة دقائق كان يصمت و يخرج زجاجة "براندي" من الجارور و يصب لك كأساً و يشرع بالحديث كشخصٍ عادي .

و مع اندلاع حرب الأيام الستة كان أربيل يشغل منصب قائد لواء القدس ، و بعد الحرب أضيف إلى نطاق صلاحياته الجزء الشرقي للمدينة أيضاً و جميع الضفة الغربية . بادر إلى عمليات و أقام مذهب قتال دقيق في مواجهة (الإرهاب) و اخترع أساليب عمل كثيرة في هذا الشأن أصبحت جزءاً مهماً في روتين عمل الجهاز . لم يتحدّث العربية و لكنه اعتاد على استخدام الكلمات و التعبيرات العربية التي كان يستوعبها ، و قد أثارت الطريقة التي قام بها بذلك ضحك المحيطين به و كان مصدراً لعمليات تقليد لانهائية ليست أقل إثارة للضحك . و في إحدى المناسبات أصر على أن يلقي خطاباً بالعربية أمامنا ، و قد سجّلنا له كلّ الخطاب بأحرف عبرية فقرأه دون خجلٍ بلكنة هنغارية ثقيلة و ارتكب كلّ الأخطاء الممكنة .

و روى من عمل معه في نهاية سنوات الستينيات أنه لم تكن واضحة دوماً السياسة التي رسمها بشأن عمل "الشاباك" في قطاعه ، و تحدّث رجاله عن عملياته التي "كانت أحياناً مجنونة و أخرى غريبة" ، و قد رأى الجنرال (احتياط) رفائيل فاردي قائد الضفة حينئذ ذلك بشكلٍ واضح و قال : "كان لأربيل توجّهٌ ليبرالي و متسامح تجاه عرب المناطق ... و قد شارك في تحديد قواعد اللعبة مع السكان ، تلك القواعد التي تصمد حتى اليوم" .

و في مذكراته التي وضعها على مدى ثلاثين عاماً كتب أربيل في كانون الأول 1968 : "ما هي عملية الرد المرغوبة ؟ المس بقلب منظمات (التخريب) ، بهيئاتهم القيادية ، يجب أن نكون مؤهلين للنزول إلى هيئة قيادية لمنظمة و أن "نرفع" كلّ من يوجد هناك ... إن تصفية أبو عمار (عرفات) تشكّل شرطاً لإيجاد حلٍّ للقضية الفلسطينية" .

و قد غيّر أربيل رأيه في وقتٍ لاحق و توصّل إلى نتيجةٍ بأنه من غير الممكن التوصل إلى أي اتفاق مع الفلسطينيين دون مشاركة عرفات .

كشف و اعتقل آلاف (المخرّبين) الكثيرين منهم قبل أن ينفذوا عمليات في (إسرائيل) . و بالمقابل لم ينجح في منع عدة عمليات قاسية في القدس بينها الانفجارات عام 1968 في "السوبر سول" و في سوق محنيه يهودا و في كافتيريا الجامعة العبرية .

و في بداية 1972 اتضح له أنه لن يعيّن رئيساً للشاباك رغم توقعاته ، و كان المرشح الحقيقي للمنصب إبراهام أحيطوف الذي اختلف مع أربيل في نهجه مراراً . و يدعي مقرّبو أربيل أن آراءه و أساليب عمله غير الروتينية و ربما شخصيته البوهيمية هي التي سدّت الطريق أمام ترقيته . أرادت الحكومة شخصاً "راسخاً" أكثر لمنصب رئيس الشاباك و اعترف أربيل بنفسه قائلاً : "كنت نعجة سوداء" . و كان حينئذٍ في الثانية و الخمسين من عمره ، نظره ضعيف و يحيط به شبان طموحون جنّد جزءاً منهم و رباهم بنفسه ،

كان أحد هؤلاء رؤوبين حزاق الذي لولا قضية "الخط 300" لكان قد عيّن كما يبدو في نهاية المطاف رئيساً للجهاز .
قرّر أربيل الاعتزال قبل أن يصبح عبئاً ، و كتب في مذكراته : "تركت مملكة لأنني آمنت بمبادىء وجوب معرفة موعد إخلاء الكرسي" . و بعد ذلك بوقتٍ ما كتب عن نفسه أموراً تمس شغاف القلب :
"كنت في غالبية حياتي و ما زلت ذئباً وحيداً . ذئب – لأنني كنت مستعداً دائماً للنضال من أجل معتقداتي حتى إذا كان عليّ أن أقف وحيداً أمام الصعوبات . و لأنه لم يكن لي في غالبية حياتي شريك فقد كنت وحيداً .. لا أعتقد أن لديّ الكثير من الأصدقاء ، ربما واحد أو اثنان و كانت لي قصص حبّ رائعة و لكنها لم تستمر إلى الأبد .. إنني أشبه حيواناً برياً يحبّ حريته ، جوهر حياته هو التجوال بعيداً هائماً على وجهه و متنقلاً من مكان إلى آخر ، إذا لم يكن جسدياً فعلى الأقل بالمفهوم النفسي . إنني أعتقد أن هذا هو التفسير لانعدام قدرتي على بناء صداقات طويلة أو علاقات حساسة لفترة طويلة ، و لكن الآن و فيما أسير نحو الشيخوخة فإنني أشعر أكثر فأكثر بالحاجة إلى عزوة الحب و المودة . و بين حين و آخر أكون مكتئباً بلا روح قريبة و ثابتة أستطيع الحديث معها بدون حواجز و أستطيع الركون إليها و بها أكون قادراً على الإيمان" .
"عندما أحبّ فإنني أحبّ بقوة إلى درجة الاستعداد للتضحية بموضوع حبّي من أجل الحب نفسه .. لا أعرف أن أكره .. أنا إنسان مستقيم ، مثالي و لا أعداء لي" .
"إنني أخشى التفكير بأنه ستكون هناك نهاية لكلّ ذلك . و لا يزال لديّ الكثير من الأمور للقيام بها ، الكثير الكثير من الأمور التي لم أفعلها بعد .. إنني أخشى من المرض و أخشى أن أكون مرتبطاً بآخرين .

أريد أن أواصل أكثر فأكثر ،
أريد أن أرى و ألا أكون أعمى ،
أريد أن أسمع و ألا أكون أطرشاً ،
أريد أن أحب و أن أكون محبوباً ،
أريد أن أحكي حكايات و أسمع حكايات ،
أريد أن ألتقي الناس ،
أنا عاشقٌ للجمال و أريد أن أكون جزءاً منه ،
أنا عاشق للحياة و أريد أن أكون جزءاً منها ."

و قد مرّت عليه السنوات العشر التالية دون كثير فرح ، و عمل في "شركة ليسرائيل" و وجد نفسه وسط الفوضى المحيطة بقضية الاختلاس الخاصة بميخائيل تسور . و قد خرج بنفسه نظيفاً معدوماً حتى النخاع و كتب في يومياته : "أفضّل أن أقود سيارة قمامة على أن أعمل في هذا المكان" ، و تألّم مما بدا له أيضاً كتدهورٍ اجتماعي و سياسي و اقتصادي لـ (إسرائيل) .
و كتب : "إنني أغلي و أتفجّر حقاً .. و لا أعرف ما يمكن فعله بالضبط لإنقاذ هذه الدولة التي حلمت بإقامتها منذ أن كنت طفلاً ، هناك لحظات توجد فيها حوافز لديّ لإلقاء قنبلة يدوية داخل كلّ هذه القذارة ... أريد أن أفعل أمراً ما ... و السؤال ما العمل ؟" .
و بعد وقت قصيرٍ في أواخر عام 1976 انضم إلى مجموعة التفت حول يغئال يادين و وصلت معه إلى "داش" . و في ذلك الوقت بدا لأربيل أن هذا الانتظام السياسي سيؤدّي إلى إنقاذ الدولة فأخلصَ له بحماس إلى درجة أنه كان مستعداً ليكون سائق يادين . و تعود خيبة الأمل التي منِيَ بها بعد ذلك إلى أسبابٍ لم تكن مرتبطة به بالطبع و إنما بأوبرا أخرى .
و في أوقات عطلاته أدار شبكة فنادق و فقد بسرعة قدرته على الإبصار و لكنه أصرّ على التصرّف كما لو أن كلّ شيء على ما يرام و واصل قيادة سيارته رغم أنه لم يكن يرى جيداً فصعد على جزيرة و بأعجوبة لم يصب .
و قبل عامين على وفاته أصيب بسكتة دماغية و مكث في مستشفى "هداسا" في عين كارم ، و بعد ذلك انتقل إلى قسم التأهيل التابع لهداسا في جبل سكوبس . و في غرفة مقابلة كان يرقد السفير شلومو أرجوب الذي أصيب في هجوم (مخرّبين) في لندن بمطلع عام 1982 و وقرت إصابته الذريعة المباشرة للأحداث التي أدّت إلى اجتياح الجيش (الإسرائيلي) للبنان . زرت أربيل في أوقات متقاربة و أسفت لرؤية خبو الرجل القويّ ، الوسيم و البوهيمي ، الذي أحبّ الحياة و العمل في "الشاباك" . و من كان يبث الثقة و الصلاحية في كل اتجاه يجلس الآن عاجزاً في قسم التأهيل بحاجة إلى الممرضات .

صارع دون توقف الذاكرة التي خانته و انشغل في استذكار كلّ العمليات التي بادر إليها أو شارك فيها و حاول تذكر أسماء كلّ العملاء الذين كانوا على اتصالٍ معه ، و عندما كان ينسى تفصيلاً معيناً ، و كان هذا يحدث مراراً ، كان يُلمّ به الغضب و يتصل بي حتى إذا كانت الساعة الثانية أو الرابعة فجراً و يطلب معرفة ما نسيه . في نهاية كلّ أسبوع كانوا ينقلون يهوداً من المستشفى إلى فندق بلازا و هناك أيضاً أكثرت من زيارته . و كنت أكتشف مراراً أن ملابسه تمزّقت أو أصبحت رثة فأحضر له قطعاً من ملابسي . و هناك في غرفة الفندق اعتنى به بإخلاص منقطع النظير شابان عربيان من سكان بيت صفافا كان أربيل قد تعرّف على والدهما ، الذي عمل نادلاً في بار فندق الملك داود في القدس ، خلال زياراته الدورية في المكان حيث اعتاد على شرب كأس بعد يومٍ عمل شاق . و تولّدت بين أربيل و العربي علاقات صداقة وثيقة و عندما احتاج إلى مساعدة كان العربيّ تحديداً و ليس أيّ واحدٍ من أصدقائه اليهود هو الذي أرسل ابنيه لرعايته في أواخر أيامه . توفيّ يهودا أربيل في أيلول 1984 و ورّثني في وصيته مسدسه الشخصي ، و أحافظ على هذا المسدس كأحدِ الهدايا الأكثر إثارة التي تلقيتها في حياتي .

العربي الذي أنقذَ حياتي

الواقع الذي نجَمَ عن حرب الأيّام الستة وضع جهاز الأمن على أعتاب عهدٍ جديدٍ دون منحه مهلة كافية للاستعداد بشكلٍ ملائم لذلك . كان سكان قطاع غزة و يهودا و السامرة ما زالوا تحت وقع صدمة الاحتلال (الإسرائيلي) ، و لكن كان واضحاً للجميع أنه عندما ستزول المفاجأة قد تتولّد مشاكل أمنية خطيرة .

و لم يكن هناك شكّ على أية حال بأن الجهاز يجب أن ينظّم صفوفه بسرعة قصوى حتى يمنع إقامة بؤر مقاومة . و لم يكن احتياطي القوة البشرية "للشاباك" الذي كان مقلّصاً جداً حتى ذلك الوقت مؤهلاً للاستجابة لهذه الاحتياجات . و لمواجهة هذه الثغرة تم البدء بتجنيد عاملين قدماء مجدداً ممن اعتزلوا الخدمة في الجهاز .

و بموازاة ذلك اضطر "الشباك" إلى استعارة مهنيين من صفوف "الموساد" و لكن الإضافة المهمة جداً ساهمت فيها عمليات التجنيد الواسعة لعاملين جدد – شبان غالبيتهم كانوا من خريجي وحدات مقاتلة في الجيش (الإسرائيلي) . و خلال فترة زمنية قصيرة راكم "الشاباك" قوة كبيرة و ازدادت أهميته في أوساط أذرع الأمن المختلفة .

و كمرحلة حتمية في طريقي إلى المناطق أُرسلت لتقوية إلمامي باللغة العربية في معهد تابع للجهاز أقيم في بيت ضيافة في أحد التجمعات السكنية قرب القدس .

تعلّمت هناك سوياً مع رجل ميداني قديم هو جدعون عزرا ، عضو الكنيست اليوم من حزب الليكود . و كان أحد المتعلّمين المشاركين شاباً سريع الحركة مرحاً ، مظلياً سابقاً تم تجنيده "للشاباك" و انسحب خلال الدورة . و بعد سنوات طويلة قرأت في إحدى الصحف عن شهرته الجديدة : رئيس محكمة العالم السفلي .

كانت دراسة العربية في المعهد مكثّفة جداً و تعلّمنا عموماً منذ ساعات الصباح الباكر حتى بعد منتصف الليل . و عندما كنا نغرق في مواضيع معقدة على نحوٍ خاص ، و كان هذا يحدث في أوقات متقاربة ، فإن جفوننا لم تر النوم طوال ليال . و في نهاية كل أسبوع كان يُجرى امتحان إجمالي كنا نستعد له بقلقٍ كبير مثل طلاب الثانوية عشية امتحانات "البجروت" .

تعلّمنا العربية الفلسطينية و وقروا لنا لهجات قروية و مدينية و تعرّفنا على العادات و التقاليد و كنا نستمع إلى بث الراديو من الدول العربية و قرأنا صحفاً عربية بمستويات مختلفة ، كما علّمونا قراءة الخط اليدوي .

كان لذلك أهمية خاصة لأن مركزي "الشاباك" يعتادون على تلقّي مادة استخبارية كبيرة بخط أيدي العملاء العرب في الميدان ، و عليهم أن يقرأوا كلّ ما هو مكتوب بسرعة و أن يفهموا عن ماذا يدور الحديث قبل أن تنقل المادة للترجمة المهنية و تُنقل بعد ذلك إلى وضعها في "الديسك" الملائم .

و قد تمّ تأهيلنا لتحليل الخط اليدوي بأحرف كبيرة و صغيرة ، بشكلٍ مائلٍ أو مبعثر ، و تعلّمنا معرفة أنه كلما كان مستوى تعليم العميل أقلّ كلما كان خطه اليدوي أقل قابلية للقراءة عموماً .

بدأ المعهد في أواخر عام 1967 بعد أن كان الكثيرون من مركزي "الشباك" قد عملوا في المناطق حوالي نصف عام و راكموا خبرة ملحوظة هناك . و عندما كانوا يأتون للمحاضرة أمامنا تحدّثوا لغة عربية ثرية بطلاقة كأنها لغتهم الأم و أظهروا معرفة مدهشة لكلّ العادات و آداب المعاشرة العربية .
و قد علّمونا من خبرتهم كيف يمكن استمالة عميلٍ محتمل و كيفية استجواب عميل و بأية وسائل يمكن معرفة أنه يقول الحقيقة .
جميعنا ، نحن طلاب المعهد ، تحدّثنا و كتبنا و فكّرنا بالعربية ليل نهار ، و على مرّ السنوات اكتسبت الكثير من طريقة التفكير و العادات العربية . و من السهل فهم ذلك ، فتأهيلي المهني و عملي المتواصل في أوساط السكان العرب تركا بصماتهما الواضحة عليّ . تحدّثت العربية لسنوات طويلة أكثر من العبرية إلى درجة أن أحلامي دارت حول نقاء هذه اللغة.
اعتدت قراءة صحيفة عربية مع فنجان قهوة الصباح و حدث أكثر من مرة أنني عندما كنت أدعى لإلقاء محاضرة بالإنجليزية أمام رؤساء أجهزة سرية و وفود أجنبية كنت أجد نفسي و قد انتقلت فجأة للحديث بالعربية .
أتذكّر المعهد بصورة إيجابية باستثناء أمر واحد : الطعام . فقد كنا شباناً ذوي شهية صحيّة و الوجبات التي قدّمت لنا على نمط التواضع الذي يشتهر به "الشاباك" كانت ضعيفة جداً ، و قد اختار جدعون عزرا و أنا عدم التزام الصمت إزاء ذلك و أضربنا عن الطعام أمام غرفة يهودا أربيل الذي كان بحكم منصبه كقائد للواء القدس و منطقة يهودا و السامرة مسؤولاً عن المعهد أيضاً . و قد فعلت عملية احتجاجنا فعلها فتم زيادة كمية الطعام و تحسينه .
و فيما بعد ، في 1974 ، و بوجوده خارج الجهاز ساعد أربيل في إنهاء تمرّدٍ أخطر بكثير ، الذي يذكره قدماء "الشاباك" كتمرّد المركزين . و قد حدث هذا عندما توجّه عاملو الميدان في لواء القدس و يهودا و السامرة – مركزون و محققون – بشكلٍ منظم إلى قائدهم إسحاق و طلبوا منه تحسين شروط تشغيلهم ، و كمثالٍ فقد تطرقوا فيما تطرّقوا إليه إلى عاملي قسم الجمرك الذين يتمتعون بعلاوة كسوة ، فردّ عليهم إسحاق بغضب : "إذاً اذهبوا للعمل في الجمرك !" و رفض كلّ مطالبهم .
و عندما تفاقم التوتر و وصل العاملون إلى طريق مسدود توجّهوا إلى أربيل – الذي كان قد اعتزل ، كما ذكر ، من الجهاز – و طلبوا منه مساعدتهم في الخروج من الورطة . استجاب لهم و بوسائل لطيفة ممزوجة بحزمٍ أسهم في إنهاء القضية و تحديداً ليس حسب توقعات أولئك الذين طلبوا مساعدته .
خرج العاملون بأيدٍ فارغة و حظرت الحكومة في أحد الأنظمة الخاصة أي نوع من انتظام العاملين في "الشاباك" .
أنهيت المعهد في شباط 1968 بشعورٍ من الفخر الكبير و حصلت على علامات عالية في اللغة العربية أدباً و محادثة ، و لكن ما كان مهماً أكثر في نظري هو أنني و بعد عامين من الدورات و فترة تلمذة حظيت في النهاية بمكانة عامل دائم في الجهاز .
تم توزيع الخريجين في كلّ ألوية "الشاباك" و غالبيتهم وجدوا أنفسهم في المناطق و كذلك أنا ، و قد أرسلوني إلى قيادة "الشاباك" في نابلس و بوصولي إلى هناك تلقيت رزمة المعدات الثابتة لرجل "الشاباك" : مسدس شخصي – أف إن 9 ملم ، حقيبة إسعاف أوليّ تضمنت رابطاً لإغلاق الشرايين و ضمادات و أدوية ، و ملابس عسكرية (في تلك الفترة لبسنا دوماً زيّ الجيش (الإسرائيلي) مع رتبة تمثيلية) .
في البداية كما قلت وضعت رتبة رائد و لقبني العرب بـ "كابتن يعقوب" و فيما بعد حصلت على رتبة مقدم فتحوّلت إلى "ميجور يعقوب" . و قد وضعت تحت تصرّفي سيارة "كرمل" يتكوّن هيكلها الداخلي من "فيبر غلاس" صلب و كانت سيارات مشابهة حينئذٍ توضع تحت تصرف ضباط في الجيش .
لم تنجح لوحات التشخيص المدنية التي تم تركيبها للسيارة في تضليل السكان حيث إن هوائيّ الاتصال الذي ارتفع من منتصف السقف كشف فوراً حقيقة أن الذي يقودها هو رجل "شاباك" . و لمنع ذلك أزيل في النهاية ذلك المؤشر التشخيصي البارز و تم ملاءمة هوائي الراديو لاستخدامه أيضاً لشبكة الاتصال . و لكن المشكلة لم تحلّ بذلك كلياً فعندما تقترب إلى السيارة كنت تستطيع بسهولة ملاحظة "الندبة" التي خلفها هوائي الاتصال في سقف "الفيبر غلاس" و أن تخمّن دون صعوبة لمن تكون هذه السيارة .
استقرت مكاتب "الشاباك" في مبنى خصصه الأردنيون ليستخدم كمستشفى ، و لكن بناؤه توقف مع اندلاع الحرب . و قد ضمّ طاقمنا ثلاثة أشخاص فقط : فاردي عيني رجل الموساد الذي أعير "للشاباك" ، و باروخ كوهين الذي كان روحاً استخبارية لامعة و أنا الشاب في المجموعة .
باروخ كوهين شخص قصير القامة ، نحيف ، سريع و ثاقب الفكر أكسبني نظرياً و عملياً كل ما لم أستطع تعلمه في الدورات . عاش و تنفس استخبارات و تحقيقات و ملاحقات و كان ضليعاً في العادات العربية ، تحدث العربية بطلاقة و كان مؤهلاً لأن يشتَمَّ (مخرّبين) عن بعد . و قد عرف جيداً المنطقة و

من يعمل فيها و كان يمتلك الكثير جداً من الوسائل الذكية لانتزاع معلومات حيوية ممن يخضعون لتحقيقه .

لقبوه "سامبو" بسبب لونه الأسمر ، و كان من الجيل الخامس في البلاد ، ابن لعائلة هاجرت من المغرب . شغل جد والده الحاخام إبراهام كوهين منصب الحاخام الرئيسي لحيفا في عهد الحكم التركي ، و كان فارق السن بيننا حوالي عشر سنوات .

كان باروخ متزوّجاً من نوريت ابنة إيليت هشاحر ، و كان له أبناء . كان ربّ أسرة لامعاً أكثر من الحديث عن زوجته وأبنائه و احتفظ دائماً بصورهم في محفظته و كان فخوراً بعرضهم . تصادقنا بشكلٍ وثيق و خرجنا مراراً للعمل سوياً في الميدان ، و مع مرور الأيام و في بداية 1973 خلال وجوده في مهمة من الموساد في أوروبا اغتاله عربيّ في شارع مزدحم في مدريد .

كان فاردي عيني أيضاً محترفاً مهنياً ، أكثر انطواءاً على نفسه من باروخ ، و لكن ليس أقلّ أهلية منه . و قد علّمني كلاهما كلّ ما احتجت إليه حتى لا أضيع في هذا العمل الصعب بعد الحرب .

لم يكن مفترضاً أن يقوم "الشاباك" بالطبع بمعالجة شؤون تجمّع سكاني يضم أكثر من مليون فلسطيني وجدوا أنفسهم بين عشية و ضحاها تحت حكم دولة (إسرائيل) . و لم يتم تأهيل الأشخاص بما يكفي و لم تكن هناك أنظمة عمل واضحة ، و لم يحدّد ما هو مسموح و ما هو محظور ، و مع ذلك كان هناك أمر واحد واضحاً جداً : كان علينا إيجاد عملاء و مصادر أخرى و إقامة اتصال مستمر معهم و جمع معلومات استخبارية من أجل منع و صدّ و تحييد انتظامات (مخرّبين) و عمليات و كشف مخازن الوسائل القتالية و الاهتمام بعدم تمكّن أوساط معادية من التسلّل إلى (إسرائيل) .

في نفس الفترة نجحت منظمات (المخرّبين) في تنفيذ عدة عمليات أسفرت عن الكثير من الضحايا في سينما "مركاز" بتل أبيب و ساحة صهيون في القدس . و لفّ الدولة شعور قاسٍ بالعجز و الارتباك .

تم تعييني مسؤولاً عن عشرات القرى و عدة مخيّمات لاجئين في منطقة ريفية كبيرة امتدت من نابلس حتى رام الله و بدأت العمل من الصفر : لم يكن هناك عملاء في المنطقة و لا مصادر معلومات أخرى . و كان يجب تجنيدهم و لم يكن ذلك مهمة سهلة .

أحد المجمّعات التي انتزعنا منها عملاء محتملين كان قائمة السكان الذين طلبوا امتيازات مختلفة من الحكم العسكري . دعَوناهم إلى مقابلات في مكاتب الحكم العسكري – كما لو أن ذلك لغرض المسألة التي توجّهوا بشأنها – و حاولنا خلال الحديث أن نعرف إذا ما سيوافقون على العمل من أجلنا ، و قد ردّت غالبيتهم الساحقة بالرفض أو تهرّبوا بذرائع مختلفة .

أبلغت في يوم خماسيني في ذروة الصيف أن أحد القرويين الذي عاش في منطقة مليئة بـ (المخرّبين) يطلب تصريحاً للمتاجرة داخل الخط الأخضر ، استدعيته إلى مقابلة و عرضت عليه التعاون و قد وافق فوراً تقريباً . و اتفقنا على أن نعود و نلتقي في مكانٍ سريّ ليس بعيداً عن قريته حيث كان يفترض أن يحضر إلى هناك المعلومات الأولى التي سيجمعها .

و عند المساء قبيل موعد اللقاء كنت أستعد للخروج إلى المنطقة برفقة حارسيّ الدائمين و هما مظليّان في الخدمة النظامية كانا يمكثان بمعيّتي طوال ساعات اليوم . و في اللحظة الأخيرة أبلغوني أن شخصاً ما لم يكن معروفاً بالنسبة لي يطلب الحديث معي بصورة عاجلة فسارعت عائداً إلى مكتبي و وجدت هناك قروياً متهيّجاً .

قال لي : "كابتن يعقوب ، أنا أعرف أن لديك لقاء هذا المساء مع ..." و ذكر اسم المخبر و وصف المكان الذي حدّدناه للقاء ، و حذّرني قائلاً : "لا تذهب . يوجد هناك (مخرّبون) يكمنون لك من أجل تصفيتك" .

سألته ما هو الذي حرّكه لتحذيري و قد بدا جوابه موثوقاً حيث ادعى أنه منذ وقتٍ طويل تسود علاقات كدرة على خلفية نزاع تجاريّ بينه و بين العميل الذي حاولت تجنيده ، و لهذا عندما سمع صدفة عن الكمين الذي يعتزمون نصبه لي سارع لإبلاغي بذلك – ليس من أجل إنقاذ حياتي تحديداً و إنما بالأساس من أجل أن يُدخل خصمه إلى السجن لسنوات طويلة .

بقيت في نابلس و انطلقت قوة عسكرية إلى المنطقة فوراً و عند اقترابها من مكان اللقاء سمعت فجأة أصوات عيارات نارية و اتضح أن (المخرّبين) فتحوا النار على سيارة "مرسيدس" بيضاء يملكها عربيّ من سكان إحدى القرى في المنطقة مفترضين أنها سيارتي . حاصر الجنود المنطقة و اعتقلوا (المخرّبين) و العميل الذي غرّر بي ، و خلال التحقيق معه اعترف أن استعداده للعمل لصالحنا استهدف فعلاً نصب فخّ لي فقط .

كان هناك أيضاً متعاونون من نوع آخر ، غالبيتهم رغماً عنهم . و أقصد (المخرّبين) الذين اعترفوا خلال التحقيق معهم أنهم تدرّبوا في معسكرات "فتح" في سوريا (خاصة في معسكر الهامة) و في الأردن مع شبان من سكان المناطق و أنهم قادرون على تشخيصهم حسب منظرهم .

كنا نغطّي رأس (مخرّب) كهذا بواسطة كيس مثقب في منطقة العينين و نجلسه في سيارة جيب تابعة لدورية "حروب" و نخرج للتجوال في أسواق نابلس . و كانت سيارة العمليات التابعة "للشاباك" تسير على بعد ما عن الجيب و تقيم معه اتصالاً لاسلكياً متواصلاً . و عندما كان (المخرّب) يشخص شخصاً ما تدرّب معه في حينه كان جنود "حروب" يبلغون رجالنا بذلك فيسارعون إلى إلقاء القبض على من يتم اكتشافه . و هكذا اعتقل و ألقي القبض على مئات كثيرة من (المخرّبين) أعضاء منظّمات مختلفة في أنحاء الضفة الغربية خلال عامي 1968 – 1969 .

سمير ، (المخرّب) ذو العلامة الفارقة منذ الولادة ، الذي تحدّثت عنه كان من أفضل عملائنا . و بعد أن اعتقل و وافق على التعاون ، فبركنا في عملية معقّدة هروبه من السجن و بفضله تم اعتقال خلايا (مخرّبين) الواحدة تلو الأخرى و أحبطت عمليات خطيرة و اعتقل مطلوبون اختبأوا فترة طويلة .

و حسب إرشاداتنا فقد تصرّف كمطلوبٍ بكلّ معنى الكلمة و "غطّى" لمدة ثلاث سنوات في خدمتنا أحد القطاعات الأكثر خطورة في المناطق . كان يمتلك ثقافة طبيعية عالية ، عرف المنطقة بصورة ممتازة و طوّر علاقات متشعّبة مع الكثير من السكان و لكن الأهم من كلّ هذا هو أنه حظيَ بثقة منظمات (المخرّبين) المطلقة .

كانت المعلومات التي يحضِرها لنا دائماً دقيقة بشكلٍ مدهش و كان يعرف أين يختبىء (المخرّبون) و أين توجد مخازن الأسلحة و أية عمليّة يجري التخطيط لها . و حتى لا يشتبهوا به كنا نكثر من إجراء تفتيشات مفاجئة في البيت الذي سكنه و طبعاً اعتدنا على إبلاغه مسبقاً حول أي تفتيش كهذا حتى يستطيع مغادرة البيت . و أحيانا كنا نعتقل والديه و أفراداً آخرين من عائلته و كأننا نريد الضغط كي يكشفوا لنا أين يختبىء .

و للأسف فإنني لم أستطع أن أردّ له بالمقابل كما ينبغي ، فالمقابل الذي يقدّم للعملاء ينطوي على إشكالية عموماً ، فمن غير الممكن دفع مبالغ كبيرة لهم خوفاً من أن يؤدّي ثراؤهم المفاجىء إلى الاشتباه بهم من قبل المحيطين .

تلقى سمير منا القليل جداً و لكننا كنّا نمنحه بسرورٍ كلّ ما يطلبه منا في إطار امتيازات غير لافتة للنظر ، و هكذا مثلاً ساعدناه حسب طلبه في شراء سيارة عمومية كانت مصدر رزقه .

و كقاعدة فضّلنا دائماً العملاء الذين يتلقّون راتباً على أولئك الذين يتطوّعون للعمل دون مقابل ماليّ . إن رفض الحصول على مالٍ يثير الشك بأن العميل ما زال يجد صعوبة في التسليم بحقيقة أنه يسلّم زملاءه ، و قد يتراجع أو حتى يتحوّل إلى عميل مزدوج .

و لا يشكّل قبول المال – سواء على قاعدة ثابتة أو مقابل كلّ معلومة ذات قيمة – مجرّد حافز ، فالمال يربط العميل بمشغليه و "يدينه" بحيث تصبح طريق التراجع بالنسبة له أصعب بكثير رغم أنها غير مستحيلة .

و كان هناك أيضاً عملاء ساعدونا من منطلقات أيديولوجية و إن لم يكونوا كثيرين . و يدور الحديث عن أشخاص اعتقدوا أنهم يقومون بذلك بخطوة بين كلا الشعبين . و قد اعتادوا على تسليمنا فقط المعلومات التي تضمّنت كما اعتقدوا ما يخدِم هذا الهدف و ليس أي أمرٍ آخر . و كان من مميزاتهم الأخرى رفضهم الشديد للحصول على مالٍ حتى لا يتحوّلوا إلى خونة في نظر أنفسهم .

من الصعب ، و إن يكن من غير المستحيل ، أن تعرف مسبقاً إذا ما كان العميل الذي جنّدته سيبقى مخلِصاً لك على مدى الأيام . و لكن هناك طرق مختلفة لاختبار مصداقيته . و تدعى هذه الطرق "مهام اختبار" . و على سبيل المثال يتمّ تزويد العميل بمغلّفٍ مختوم و يطلب منه إيداعه في حانوت معيّن في القصبة حتى يأتي شخص آخر ليأخذه من هناك فيما بعد . و يعرف العميل أن من الصعب على رجل "الشاباك" أن يصل بنفسه إلى هناك دون أن يثير الانتباه ، و لهذا لا يوجد أي سببٍ لأن يشتبه في أنهم يقومون باختباره ، و لكنه لا يعرف أن الذي يشغّله اهتم بأن يعود المغلّف إليه بعد إيداعه في الحانوت .

و يكفي فحص سطحيّ للمغلف للوقوف على ماهية العميل ، فإذا ما فتح المغلف و ألصقه مجدّداً من الواضح أنه يجب عدم الوثوق به دون قيود .

لم أحاول إطلاقاً خلال مسار تجنيد عملاء و مصادر أن "أهوّدهم" ، و بكلمات أخرى لم أسعَ إلى تحويلهم إلى محبّين لـ (إسرائيل) و اعتمدت دائماً طريقة إقناع الند للند . و قلت لهم إنني أفهم الدوافع الأيديولوجية للفلسطينيين و لنا نحن (الإسرائيليين) أيضاً هناك دوافع كهذه مرتبطة بأرض (إسرائيل) و طالما أننا نحارب كجنودٍ مقابل جنود فإن ذلك صراع شرعيّ و لكن لا أحد يمتلك حقّ قتل نساء و أطفالٍ باسم أي أيديولوجيا . و أكّدت دائماً أنني موجود هناك لمنع قتلٍ كهذا و أنهم يستطيعون مساعدتنا – و مساعدة أنفسهم – بأن يضعوا حداً لقتل الأبرياء .

أحد العملاء البارزين الذين جنّدتهم في تلك الفترة كان شيخاً محترماً في أحد مخيمات اللاجئين الكبرى ، قدّم طلباً للحكم العسكري للسماح لزوجته بالحصول على علاج لدى طبيبٍ نسائي في مستشفى هداسا بالقدس ، و لم يكن مثل هذا العلاج ممكناً في نابلس و لا في الأردن .
استدعيته إليّ بدعوى مناقشة موضوعه ، و حاولت استيضاح ما إذا كان مستعداً للعمل من أجلنا . و قد بهّر جوابه السلبيّ بآياتٍ من القرآن و قال بغضبٍ إن مساعدة الكفار تتناقض مع قوانين الإسلام و لذلك فإنه لا ينوي بأي شكلٍ الاستجابة لاقتراحي ، و دون أن ينتظر ردّي نهض و ترك الغرفة .
و مع ذلك أمرت بمنح زوجته تصريح خروج إلى مستشفى هداسا و لم أره لوقتٍ طويل . و في أحد الأيّام وصل فجأة إلى مكتبي و طلب أن يتحدّث معي ، فاستقبلته فوراً . أكثر من الثناء على الأطباء (الإسرائيليين) و طلب أن أنقل لهم الشكر منه و من زوجته . سألته إذا ما فكّر مجدّداً باقتراحي . أجابني قائلاً : "فكّرت كثيراً بذلك .. أوافق على مساعدتكم بشرط أن تضمن لي أمراً ما" . كنت مستعداً أن أضمن له كلّ شيء تقريباً .
فقال : "أريد ضماناً واضحاً بأن تستخدم المعلومات التي أحضرها لك فقط إذا كانت تساعد في إنقاذ حياة أطفال و نساء" . و تعهّدت له بأن أستخدم فقط المعلومات التي تمنع مباشرة استهداف المدنيين .
ساعدناه على شراء شاحنة قديمة كان يسافر بها من قرية إلى أخرى و من مخيم لاجئين إلى آخر لبيع ملابس و تقديم عونٍ روحيّ و جمع معلومات لنا . و اعتدنا على الالتقاء في أماكن سرية مختلفة في المنطقة أو في شقق لقاءٍ استأجرها "الشاباك" من أجل تشغيل عملاء و مصادر معلومات . و عندما استخدمنا المعلومات التي أحضرها كلّفنا أنفسنا بأن نوضّح له أننا بهذه الطريقة نجحنا في منع قتل أبرياء و قد وفّيت بتعهّدي و لم نتجاوز الحقيقة بذلك .
كان الشيخ يكتب تقاريره بخطٍّ يدويّ رائع ، و هذه التقارير أتاحت لي فرصة الإطلاع على صور تعبير مختلفة عن تلك التي اعتدت عليها . و كانت هذه صور تعبير مصدرها القرآن و مستويات مختلفة من اللغة العربية . فمثلاً لم يكتب الشيخ إطلاقا أن فلانا أو مجهولاً مشتبه بالانتماء لمنظمةٍ غير قانونية ، و كانت الصيغة الضبابية الخاصة به على هذا النحو تقريباً : "هناك مجال للاستغراب حول كنه الصداقة بين فلان و علان اللذين اعتادا على الالتقاء تحت شجرة التين في مشارف القرية ..." .
كانت معلومات الشيخ على غرار معلومات رجال دين آخرين تعاونوا معنا مليئة بالرموز و رموز الرموز المخفيّة وراء السطور . و فقط الخبرة الطويلة على مدى سنوات في الاتصال مع المسلمين المتديّنين هي التي مكّنتني من فهم ما يقصِدون قوله بالسرعة المطلوبة .
و على غرار عملاء آخرين جازف الشيخ بحياته يومياً و كلّ لحظة . و كانت منظمات (الإرهاب) تسارع في الضغط على الزناد عندما تنجح في اكتشاف عميل "للشاباك" ، و مصير كهذا كان متوقّعاً للشيخ لو اكتشف أنه يعمل لصالحنا . و كان هو نفسه يدرك ذلك بالطبع و لكنني لم أرَ الخوف في عينيه أبداً .
جاء شقيق زوجة عميلٍ ناجح آخر في أعقاب نشر خبرٍ في صحيفة تحدّث عن سائق سيارة عمومية في قرية في السامرة كان شاهداً على حادث طرق بين سيارتين (إسرائيليتين) ، جمع الجرحى في سيارته و نقلهم إلى المستشفى . و قد منحه الحكم العسكري شهادة تقدير و سلّطنا نحن الأنظار عليه . و كان عضواً في الحزب الشيوعيّ و وافق على العمل لصالحنا .
في بداية عملي في نابلس جنّدت طالباً ثانوياً للعمل لصالحنا و كان فتى مهذّباً جداً و ليس واضحاً لي حتى هذا اليوم دوافعه للتعاون معنا . و بعد وقتٍ قصير من بدء عمله شعر بندمٍ كبيرٍ و توجّه إلى أحد نشطاء "فتح" و اعترف أمامه رغم أن ما طرحه لم ينسجم تماماً مع الواقع .
ادعى أن "الشاباك" يحاول تجنيده و سأل عما يجب أن يفعله . لم يصدّق رجل "فتح" قصته و تم أخذ الفتى إلى مكان معزولٍ حيث عذّبوه هناك إلى أن كشَف كلّ الحقيقة ، و عندها صفّوه بعيارٍ ناري .
لم تقم منظمات (الإرهاب) دوماً بتصفية العملاء الذين كانت تكتشفهم ، و بلغتنا المهنية ندعو ذلك ازدواجية ، و أكثر من مرة عندما كنا نكتشف ذلك كنا نقنع العميل المزدوج أن يتحوّل إلى عميل ثلاثيّ .
كنا نقول له : "سيقول لك (المخرّبون) ما الذي ستبلّغنا إياه و سنقول لك ما ستبلّغه لهم" . و ليس عبثاً أن تنتشر في أوساط استخبارات العالم مقولة إن جهاز الأمن يفشل عندما يصل عميله إلى حبل المشنقة ، و يكون ناجحاً بالمقابل عندما يستطيع تحويل العميل إلى عميلٍ مزدوج أو ثلاثيّ .
يجب على جهاز الأمن أن يفعل كلّ ما بوسعه حتى لا "يحترق" عملاؤه الجيدون . و قد كنّا نضطر أحياناً إلى التنازل عن عمليّة معيّنة خوفاً من أن تؤدّي إلى كشف العميل الذي زوّدنا بالمعلومات ، و يشبه الأمر إلى حدٍّ ما صحافياً يطلب الحفاظ على سرية مصادره و هو يعرف أنه إذا ما نشر تفاصيل محدّدة فإنه سيكشف المصدر و لن يستطيع استخدامه ثانية ، و لهذا و بعد تردّد كبير قد يفضّل في نهاية الأمر استمرار العلاقة مع المصدر على النشر .

"زوجتك و طفلك في خطر"

طوّرنا تدريجيّاً وسائل عملنا في نابلس و أقمنا شبكة استهدفت إعطاء ردودٍ على غالبية المشاكل التي قد تبرز أمام أنظارنا. عملنا كمجانين وسط شعور أننا في سباقٍ مع الزمن . و قد عرفنا أن المدينة و خاصة القصبة تكتظ بـ (المخرّبين) و يوجد فيها مخازن ضخمة من الأسلحة و المتفجرات تم تهريبها من دولٍ مجاورة أو تم جمعها بعد انسحاب القوات الأردنية في حرب الأيّام الستة .

و لم يغب عنّا أمر وجود مصانع سرية صغيرة لأنتاج المتفجرات و أدوات إطلاق و وسائل (تخريب) ، و كنا نتنفّس الصعداء كلّما اعتقلنا (مخرّبين) أو اكتشفنا مخازن وسائل قتالية ، لأننا عرفنا أننا نجحنا في منع عملية أخرى ، و حادث قتلٍ (دنيء) .

طاردنا (المخرّبين) بلا توقف و اضطررنا مراراً إلى تكريس أسابيع و أشهر كاملة لإلقاء القبض على (مخرّب) واحد . و ذات مرة بعد وقوع عملية في منطقة "هشارون" أبلغنا شهود عيان عن سيارة "مرسيدس" هربت من المكان ، و كلّ ما تذكّروه هو خط أسود مرسوم على طول السيارة . و قد اتخذنا خطوة استثنائية للعثور على السيارة : جمعنا كلّ سيارات المرسيدس في نابلس و محيطها و وضعناها في حقلٍ مفتوح . كانت هناك مئات السيارات و فحصناها واحدة واحدة إلى أن كشفنا السيارة المطلوبة ، و في نهاية الأمر وجدنا أيضاً (المخرّب) الذي قادها و اعتقلناه مع شركائه في العملية .

كانت "فتح" حينئذ منظمة (المخرّبين) الأكبر و نفّذ أعضاؤها حوالي ثلثي العمليات . و كان ياسر عرفات يحتل مكانة عليا في قيادة التنظيم و قد اعتاد على الاختباء في كهوفٍ و غير أماكن اختبائه بصورة يومية تقريباً . و قد دافع عنه السكان الذين كانوا متعاطفين معه في غالبيتهم ، و لم يألُ "الشاباك" جهداً من أجل إلقاء القبض عليه .

و ذات يوم تلقّينا بلاغاً من عميلٍ موثوق بأن عرفات يختبيء في منزلٍ محدّد في رام الله فتوجّهنا إلى هناك تحت جنح الظلام يرافقنا جنود من وحدة مختارة و أوقفنا سياراتنا بعيداً عن البيت حتى لا نثير الشكوك و واصلنا طريقنا سيراً على الأقدام . التفّت القوة حول بيوتٍ و كانت حذرة في أن لا يلاحظها أحد و عند وصولنا إلى الهدف حاصر الجنود البيت و اقتحموا داخله ، و كلّ ما وجدناه هناك كان فرشة ما زالت دافئة و جهاز راديو يبث أغانيَ عربية .

تمكّن عرفات من المغادرة لأن أحداً ما حذّره مسبَقاً كما يبدو . و قد صودر الراديو و استخدمته في قيادة "الشاباك" في نابلس و في أماكن أخرى وُضعت فيها خلال خدمتي .

و قبل سنوات معدودة و فيما أصبح عرفات رئيساً للسلطة الفلسطينية أحضرت له الراديو و رويت له قصة المطاردة ، و لكنه رفض قبول الراديو و قال : "احتفظ به كذكرى منّي" .

لم تكن حياة رجل "الشاباك" سهلة في نابلس فقد كان ذلك عملاً شاقاً سلب كلّ وقتنا تقريباً – على مدى أيام و ليالي و نهايات أسابيع . و كما ذكِر فقد كنا هناك ثلاثة رجال "شاباك" و لكن كميّة العمل كانت تكفي لكتيبة كاملة . ركّزنا مهمة جمع المعلومات الاستخبارية و تجنيد العملاء و التحقيقات . و يومياً كنا نكتب تقارير بحجم كتب . لم يعرف أيّ منا استخدام الآلة الكاتبة كما ينبغي لهذا ضمّوا إلينا موظفاً للقيام بذلك ، و لكن اتضح لنا بسرعة أنه هو أيضاً لم يكن مؤهلاً لإنجاز طباعة المادة بالسرعة المطلوبة . تطوّعنا على أية حال لجهدٍ مشتركٍ و كنا نقضي وقتاً طويلاً مستخدمين إصبعين لطباعة البرقيات الطويلة .

كنت أصل إلى منزلي في نتانيا في فترات متباعدة فقط . و قد ولد ابني البكر ، أمير ، في آب 1968 و عادت زوجتي يعيل للتدريس في مدرسة ابتدائية و أخذت على عاتقها رعاية الطفل . كان أمير طفلاً جميلاً و حكيماً كبر دون أن يعرف والده تقريباً ، و عندما اعتادت يعيل على التمشّي معه في أسواق نتانيا اعتاد على مناداة كلّ رجل يصادفهما باسم "بابا" .

كانت تلك فترة عمليات قاسية فقد بادرت "فتح" و الجبهة الشعبية و الجبهة الديمقراطية و نفّذت عملياتٍ دون توقف و هرّبت كميات ضخمة من الأسلحة و الذخائر عبر معابر نهر الأردن و خبّأتها بشكلٍ خاص في قصبة نابلس التي كانت دفيئة نموذجية لـ (الإرهاب) العربيّ . كان سكان القصبة بغالبيتهم مجتمعاً منغلقاً منطوياً على نفسه حيث التغلغل إليه بمثابة مستحيل تقريباً . و كانت غالبية مباني القصبة مرتبطة بعضها ببعض بجدران و سقوف مشتركة إضافة إلى ممرات مخفيّة.

عرف (المخرّبون) المنطقة مثل كفّ اليد و عندما كانوا يقتربون منهم فقط كانوا يسارعون في الركض على الأسطحة و نجحوا في التهرّب مراراً . و كانت الكثير من الأزقة ضيّقة إلى درجة أنه لم يكن ممكناً

التحرّك بها بواسطة سيارات و كان من الممكن أن تقع الدورية (الإسرائيلية) التي تدخل القصبة في فخّ مخطّطٍ له ، و كان إرسال قوة إلى القصبة للقيام بدورية أو تنفيذ اعتقالات مرتبطاً طبعاً بعملية معقّدة .
و أحياناً عندما تطلّب الأمر ذلك كان يتم تنفيذ عمليات واسعة النطاق أو كما دعوها "عمليات خنق" . و قد شاركت بنفسي في أربع عمليات منها . و في إطار هذه العمليات كانت قوات جيش كبيرة تطوّق القصبة و يتم إحضار جميع الرجال إلى نقاط تجميع بهدف تشخيص مطلوبين و مشبوهين حسب قوائم أعدّها "الشاباك" مسبقاً ، و في نفس الوقت تجري عمليات تمشيط من منزل إلى آخر و من ساحة إلى أخرى و من سطح إلى سطح .
كانت التحقيقات التي نجريها في المكان تثمر عموماً عن نتائج مرضية : ألقينا القبض على عشرات (المخرّبين) و كشفنا مخابىء أسلحة و مواد سرية و أماكن اختباء كثيرة و حتى مصانع بدائية لإنتاج الوسائل القتالية . في تلك الفترة بعد شهورٍ على الاحتلال كان من السهل نسبياً العثور عمن نبحث عنه ، فقد أجرى الأردنيون قبل الحرب إحصاءاً سكانياً و خلفوا وراءهم قوائم سكانية منظمة .
"أن تُدحرج" كانت تعني بلغة "الشاباك" أن تكشف نتيجة اعترافٍ خاضع للتحقيق . و قد "دحرجنا" يومياً في ذلك الوقت عشرات كثيرة من المعتقلين و كميات كبيرة من الوسائل القتالية .
أجرينا تحقيقاتٍ لا حصر لها غالبيتها بين جدران السجن في نابلس و اعتدنا على القول في تلك الأيام أنه إذا ما رميت حجراً في نابلس فإن الاحتمالات القائمة هي أن تصيب قطاً أو (مخرّباً) . و كان يخيّل إلينا أحياناً أنه لن تكون هناك نهاية للاعتقالات ، فقد كان هناك الكثير من (المخرّبين) .
لم يتضمّن العتاد الشخصي لرجل "الشاباك" قيوداً – كلبشات – إطلاقاً لأننا تركنا الاعتقال نفسه لأوساط الأمن الأخرى – الشرطة و الجيش . صحيح أنه كانت لدينا صلاحيات كاملة لتنفيذ اعتقالات و لكن كلا الوسطين الآخرين كانا أكثر تأهيلاً لذلك ، و وضعت وسائل كثيرة تحت تصرّفها . إن قرار إيداع تنفيذ اعتقالات من قبل آخرين كان خطوة حكيمة بالنسبة للشاباك ، فقد قلّصت ظاهرة الاستبداد من قبل رجالنا و منعت الشكاوى العقيمة للسكان ضد عاملي الجهاز حول اختفاء مبالغ مالية و مقتنيات ثمينة خلال الاعتقالات . و عمليّاً كان هناك شكاوى غير قليلة كهذه ضد رجال قوات الأمن و لكن جزءاً صغيراً منها فقط كان يستند إلى أساس ، و على كلّ الأحوال فإننا لم نكن على صلة بذلك .
في إحدى الليالي خرجت مع قوة مظليين إلى قرية بيت فوريك لاعتقال (مخرّبٍ) عمل في تهريب وسائل قتالية من الأردن بأحجامٍ كبيرة . كان الظلام حالكاً و سرنا في طابور خلفيّ حوالي عشرة كيلومترات و كنا نتوقف أحياناً من أجل الإصغاء إلى ما يدور في المنطقة لئلا يكونوا قد اكتشفونا . (عملت بصورة شاقة جداً في تلك الفترة و كنت مرهقاً دائماً تقريباً . و عند كلّ توقف غفوت للحظات و أحياناً حتى خلال السير . و قد حرصت على أن أكون دائماً الثاني أو الثالث خلف القائد بحيث إنني إذا ما غفوت اصطدم بمن يسير أمامي أو أن يصطدم الشخص الذي يسير خلفي بي و يوقظني .
وصلنا ، و نبَحت الكلاب و لكن القرية لم تستيقظ . و حسب المعلومات التي كانت لدينا فقد عاش المشتبه به في مبنى صغير يتكوّن من غرفة واحدة في أطراف القرية . عثرنا على البيت و حاصرناه و كان ضوء فانوس كازٍ صغير يومض عبر النافذة . عندما أعطيت الإشارة اقتحمنا داخلاً .
لم يكن هذا المنزل الأول الذي نقتحمه تحت جنح الظلام من أجل اعتقال مشتبه بهم ، وقد خبرت جيداً مشهد الأطفال النائمين باكتظاظ على فرشات موضوعة على الأرض و الاختناق و الرائحة النفاذة لدخان الجمر الذي كانوا يستخدمونه للتدفئة و الطهي و نظرات الدهشة لأبناء العائلة الذين كانوا ينطوون بذهول داخل البطانيات عندما كنا نأخذ ربّ العائلة أو أحد الأبناء . و في حالات كهذه – و رغم معرفتي أن هذه حرب اللاخيار و كنت مصمّماً على القيام بالمهمة حتى النهاية ، باعتقال كلّ مشتبهٍ به و التحقيق معه – كان يستيقظ لديّ شعور الشفقة لدى رؤية أبناء عائلة يتألّمون لاعتقال والدهم أو أخيهم .
كان واضحاً لي و لهم أن الشخص لن يعود قريباً إلى بيته و سألت نفسي ما الذي يفكّذذرون فيه في لحظات كهذه حول المجازفة التي أخذها عزيزهم على عاتقه عند انضمامه لمنظمة (تخريب) . هل كانوا يفضّلون أن يركّز على إعالة العائلة أم أنهم تحديداً شجّعوه على المشاركة في النضال ؟ و قد شغلني كثيراً السؤال كيف كنت سأتصرّف لو وجدت نفسي في الجانب الآخر من المتراس .
لم يكن المشتبه به الذي بحثنا عنه موجوداً في البيت ، و تذكّرت أنه في إحدى المحاضرات في معهد اللغة العربية حكوا لنا عن عادة القرويين النوم على أسطح المنازل في ليالي الصيف القائظة ، ركضت خارجاً و تمكّنت من رؤية رجلٍ يقفز من السطح إلى المقبرة المجاورة محاولاً الهرب . فتح جنديان النار باتجاهه و مشّطنا المقبرة و لم نعثر على هذا الشخص .
عدنا إلى نابلس بخيبة أمل شديدة و وجدت صعوبة في التسليم بالفشل و لم يبقَ لي سوى التشبّث بالإمكانية المستبعدة بأن إحدى العيارات التي أطلقت من أسلحة الجنود أصابته و أنه سيحتاج إلى علاج طبيّ .
طلبت من الشرطة و تلقيّت قائمة بأسماء كلّ الأطباء في المنطقة و في الصباح انتقلنا من عيادة إلى أخرى

و حاولنا استدراج كلّ طبيب . و قد نفوا جميعاً أنهم عالجوا جريحاً جراء إطلاق نارٍ في الليل . مضى اليوم و كلّما مرت الساعات كانت تتضاءل إمكانية أن نعثر على أعقاب المطلوب .
التقيت مساء في مكان سرّي مع عميلٍ عاش في أحد مخيمات اللاجئين قرب المدينة و كانت كلماته الأولى التالي : "هل أطلقتم النار أمس على شخصٍ ما في بيت فوريك ؟" فأجبت بالإيجاب ، فقال العميل : "مطلِق النار قنّاص ممتاز حيث نجح في أن يسدّد عيارين في الساق اليسرى للشخص الذي تبحثون عنه" ، و حسب أقواله فقد وصل الجريح للعلاج لدى طبيب يعيش في مخيّمه و لم يكن لديه تفاصيل أخرى .
كان عميلنا مقرّباً من نفس الطبيب و لو أننا سارعنا إلى استدعاء الطبيب للتحقيق لكنا قد "حرقنا" عبثا رجلنا ، و من شبه المؤكّد أننا كنا سنعثر في أحد الأيّام القريبة على جثته ، و قد اخترقها الرصاص ملقاة في حقلٍ ناءٍ .
و مع ذلك لم يكن هناك مناص من اعتقال المطلوب فهو لم يكن تافهاً و ألحق نشاطه ضرراً كبيراً بنا . و كان علينا على أية حال أن نخلق ظروفاً تسمح لنا بالحصول على المعلومات المطلوبة دون إثارة شكوك الطبيب .
عمل ضابط لشؤون الصحة في قيادة يهودا و السامرة في الحكم العسكري و قد طلبت منه أن يستدعي كل الأطباء الذين يعيشون في نابلس و مخيمات اللاجئين قرب المدينة لاجتماع طارىء حول موضوع مهنيّ ما . و في صبيحة اليوم التالي اجتمع الأطباء لديه و بينهم الطبيب الذي عالج الجريح . طلبنا من رجل "شاباك" عمل في منطقة أخرى – و لذلك لم يكن معروفاً لأيٍّ من الأطباء – أن يشارك في الاجتماع تحت ستار ضابط قيادة لشؤون الصحة ، و قد وصل ، و في إحدى الاستراحات فتح محادثة مع الطبيب الذي تحدّث له عن عمله و عن المشاكل المهنية التي يواجّهها .
طرح رجلنا أيضاً مشكلة مهنية و روى للطبيب أن قوة من الجيش (الإسرائيلي) قامت بدورية روتينية في بيت فوريك و دخلت إلى منزل أحد السكان و أطلقت النار عليه عندما حاول الهرب ، و تأوّه رجل "الشاباك" قائلاً إن "المشكلة هي أن يتضح لنا فيما بعد أن هذا الشخص بريء . لقد أطلقت النار عليه خطأ و يخشى الجيش من أنه إذا ما توفيّ متأثراً بجراحه أن تثار فضيحة" .
كان يبدو أن الطبيب قد تشجّع على الاعتقاد أن (الإسرائيليين) يبحثون عن الجريح من أجل تقديمِ علاجٍ طبي أفضل له لإنقاذِ حياته . و أكثر من ذلك و لأن رجل "الشاباك" المتخفي أكد أن الجريح بريء استنتج الطبيب أن الحديث يدور عن مسألة إنسانية و لهذا من الجدير به أن يتعاون . و فعلاً نجح تكتيكنا و طلب الطبيب مسبقاً أن يضمن له ألا يعاقب بعد ما سيقوله ، و قدّم له الضمان فوراً .
اعترف قائلاً : "عالجت هذا الجريح و أخرجت الرصاصتين من رجله و نقلته إلى منزل أحد أقربائي حتى يستريح قليلاً" . و قد زوّد رجلنا بالعنوان فخرجنا إلى هناك فوراً و اعتقلناه . هدّدت منظمات (التخريب) باستمرار باغتيال رجال "الشاباك" في نابلس و لهذا اعتدنا على التوجّه إلى المدينة مع مرافقة مسلّحة من قبل جنود أو شرطة حرس الحدود . و قد ألقيَت باتجاهي مرتين قنابل انفجرت و فقط بأعجوبة لم تصبني . و ذات مرة ألقيت قنبلة إلى داخل الجيب الذي أقلّني و لحسن حظي لم تنفجر القنبلة .
عندما ولد ابني البكر أمير عرف بذلك مذيع راديو "فتح" قبل أن تصل البشرى إلى عددٍ من أفضل أصدقائي ، فأعلن المذيع بنغمة تهديدية قائلاً : "ميجور يعقوب نحن نعرف بالضبط أين تتنزّه زوجتك مع الطفل الذي ولد لكما .. إذا لم تتوقف عن ملاحقتنا سيقوم رجالنا بتفجير العربة مع الطفل و سيقومون بتصفية زوجتك .." و في أول إجازة لي بعد ذلك البث أحضرت ليعيل مسدساً محشواً بالرصاص حتى تحمِله معها في كلّ مكان ، و فعلاً فقد اعتادت التنزه مع أمير لفترة طويلة حسب تعليماتي فيما كان المسدس مخفياً تحت حرامه .
واجهت في نابلس للمرة الأولى نساء عملن في (التخريب) ، كان عددهن ضئيلاً و لكن المهام التي قمن بها لم تقلّ في أهمّيتها عموماً عن مهام الرجال . و في أحد أيّام السبت دوّى في المدينة صوت انفجار هزّ البيوت و حطّم زجاج النوافذ ، و تصاعدت كتلة من النيران وسط الدخان من داخل القصبة . سارعنا إلى هناك و اكتشفنا أن منزلين كبيرين متجاورين قد انهارا و اتضح بعد استيضاح قصير أن المبنيين يعودان إلى عائلة أبو غزالة ، إحدى العائلات المعروفة في القصبة .
لم يكن ربّ العائلة في البيت عندما وقع الانفجار و قد عثرنا عليه و سافرنا معه إلى المستشفى حيث جمعت أشلاء شخصٍ أحضرت من مكان الانفجار . أريناه الأعضاء المحروقة فشخص ابنته شادية ، و حتى تلك اللحظة لم يكن يعرف لا هو و لا نحن أن المرأة الشابة كانت عضوة في إحدى منظمات (التخريب) ، و قد قتلت فيما أسميناه – و نسمّيه حتى الآن – حادث عملٍ عندما كانت تعدّ عبوة كبيرة من المواد الناسفة من أجل عملية في (إسرائيل) . و منذ ذلك الوقت قابلت عدة (مخرّبات) اعتقلن و القاسم المشترك لهن جميعاً كان القدرة على الصمود في التحقيق . كن يصمّمن على آرائهن ، يتغلغل فيهن الكبرياء الوطني و يثقن بعدالة نضالهن .

موشيه ديان يزدري الخطر

أيلول 1968

نابلس 1968 هي مدينة التناقضات ، ففيما كان (المخرّبون) يهدّدون و حتى يحاولون اغتيالي شاركت في لقاءات اجتماعية لوجهاء نابلس التي حملت طابع صالون سياسي . و قد عرف الجميع أنني رجل "شاباك" إلا أن ذلك لم يزعجهم ، كانت هذه اللقاءات تعقد في منزل ريموندا الطويل ، النشيطة سياسياً (حماة عرفات فيما بعد) و كانت الشاعرة فدوى طوقان – التي كتبت قصيدة شهيرة عن توقها إلى التهام كبد جنديّ (إسر ائيلي) – تلقي أحياناً على المجتمعين بعض إبداعاتها الجديدة عن الاحتلال الصهيوني .
كنت أجري الكثير من المحادثات مع ريموندا ، و هي عربية فخورة تحتقر الصهيونية و لم ترَ حلاً وسطاً بين كلا الشعبين. و لم ننجح في التوصل إلى تفاهم حولَ أي موضوع مرتبط بـ (إسرائيل) . و مع ذلك فهي امرأة حكيمة و محادثة مثيرة للاهتمام و كانت الزيارات إلى منزلها تعلّمني الكثير عن مزاج القيادة العربية في المناطق . و أحياناً كنت أزور الشاعرة الوطنية فدوى طوقان و لم أكن (الإسرائيلي) الوحيد الذي يدخل منزلها ، فقد كان وزير الدفاع موشيه ديان يشمل تقريباً في كلّ جولة له في نابلس زيارة إلى بيتها و يجري معها محادثات طويلة .
أنا أحترم موشيه ديان بسبب كونه سياسياً استثنائياً و عسكرياً محترفاً ، و لم يغب عني أي تصريح له أو مقابلة صحافية معه . و كنت أؤمن أنه الشخص الذي يستطيع أن يقود إلى حلّ بهذا الشكل أو ذاك يؤدّي في نهاية الأمر إلى السلام .
جرى لقاؤنا الأول في ظروفٍ غير عادية و قد حدث ذلك في أعقاب بلاغ عاجل تلقيته من يهودا أربيل ، فقد أمرني هاتفياً قائلاً : "يوم السبت كن في مفترق بيت ليد الساعة السابعة و النصف صباحاً . أحضر لوحدك بدون حرّاس . ستلتقي هناك مع موشيه ديان و تسافر معه إلى حيث يريد" .
وصلت إلى المكان قبل الموعد و انتظرت على أهبة الاستعداد داخل سيارتي "الكرمل" . و في الساعة السابعة و النصف بالضبط توقفت سيارة خلفي و خرج منها شخص ما و دقّ بأصابعه على زجاج سيارتي . كان هذا موشيه ديان بدون كمّادة العين يضع نظارات شمسية قاتمة .
قفزت من السيارة متأثراً و رحّبت به بشكلٍ رسميّ ، "مرحباً سيدي الوزير" فابتسم ديان لي و قال : "ادعني موشيه ، تعال و تعرّف على صديقتي" .
توجّهنا إلى السيارة و كانت تجلس فيها امرأة شقراء جميلة تعرّف نفسها باسم راحيل . (في عام 1972 ، بعد طلاقه من زوجته روت ، تزوجّها) .
بدا كلاهما كمن خرجا لقضاء نزهة سبت مريحة . طلب ديان أن أدخل إلى السيارة و قال : "أريد أن أسافر إلى اسكاكا" . شحب وجهي فالاسم ليس غريباً بالنسبة لي و أنا أعرف جيداً القرية التي تقع على طريق القدس – نابلس ليس بعيداً عن مفرَق تفوح في قلب منطقة مليئة بـ (المخرّبين) .
كانت تلك فترة قاسية على نحوٍ خاص ، فنابلس تشتعل و الضفة تضطرب و العمليات بلا توقف . و كلّ سفرة إلى اسكاكا بدون مرافقة عسكرية ثقيلة بمثابة عملٍ غير مسؤولٍ في نظري . و السفر إلى هناك في تلك الظروف مع موشيه ديان الرجل الذي أشرف على احتلال الضفة بدا لي حماقة مطلقة . و ليس هذا فقط ، بل إن (الإسرائيلي) المكروه أكثر في المناطق و الهدف المنشود لكلّ مغتالٍ عربيّ ليس مسلحاً . فقد كان بحوزتي مسدس و مشطي طلقات لا أكثر .
تجرأت و سألت : "ما الذي سنفعله في اسكاكا ؟" .. "حفريّات" ، أجاب ديان باختصار و شغّل السيارة دون أن ينتظر جوابي و بدأ بالسفر . وصلنا إلى اسكاكا بعد أقل من ساعة ، و هي قرية صغيرة تعد 400 نسمة عموماً ، و على غرار القرى النائية في الضفة لا يوجد هنا ماء و كهرباء و تتدفق المجاري في الأزقة الترابية . و في هذا الوقت يوجد الكثير من الأشخاص في الخارج .
و بالنسبة للقرويين الذين ينامون عند الغروب مع الدجاج و ينهضون معها صباحاً فإن ساعة الصباح التي ندخل فيها إلى اسكاكا هي منتصف اليوم . و لأنه يوم سبتٍ فإن غالبيتهم لم يخرجوا للعمل في (إسرائيل) . و خلال دقائق معدودة كنا نقف على أية حال في مركز الاهتمام .
توقف ديان و نشر خارطة و قال لي : "إسألهم كيف نصل إلى مركز القرية" فسألتهم و أروني . و اتضح لي بعد ذلك أنه كان لدايان مستكشفين يبحثون له عن مواقع حفريات أثرية في الضفة و هم الذين أرسلوه إلى اسكاكا .
توجد في مركز القرية فوهة تذكّر صورتها بحفريات تمّ هجرها خلال العمل . أخرج دايان من صندوق السيارة عدة أدوات حفرٍ و قال لي : "أشرف على راحيل" و دخل في الفوهة .

بدأ عشرات القرويين الذين شخصوه فوراً بالإسراع نحونا و بدأوا يصرخون من كلّ اتجاه "هذا الوزير" و يتجّمعون حول موقع الحفر . بقيَت مع راحيل في السيارة و اختفى دايان عن أنظارنا و شعرت بأن كارثة قد تحدث في كلّ لحظة .

أمسكت بيدِ راحيل و رحت أشقّ طريقاً لها و لي بين القرويين و نزلنا في الحفرة و افترضت أنهم لن يتجرّأوا على المس بامرأة و لا بنا نحن الثلاثة معاً .

حفَر دايان ببطء و حذرٍ و هدوء متجاهلاً تماماً كلّ الضجّة حوله و أخرج من الأرض قطعاً فخارية و زجاجية رائعة الجمال فيما تقف كلّ القرية حولنا و تنظر بانفعال .

كان دايان يتوجّه إلينا منفعلاً كلّما كشَف قطعة إضافية قائلاً : "أنظروا .. شاهدوا كم هي رائعة" ، و بدا أنه كان مأسوراً تماماً في عالم آخر .

المفاجأة الكبرى ، تصرّف السكان بعكس ما توقعت تماماً ، فقد أحضر شخصٌ ما كرسياً صغيراً لراحيل فيما قدّم لنا آخرون العصير و القهوة و الفواكه و كان يمكن لأجنبي لو صادف وجوده في المكان أن يعتقد أنه يشاهد تصوير مشهدٍ من فيلم سريالي .

و لكنّني لم أعتزم تحدّي القدر أكثر من اللازم فاستدعيت حرس الحدود عبر جهاز الاتصال الموجود في سيارة دايان ، و خلال دقائق معدودة دخلت كلّ قوات الأمن في المنطقة حالة التأهب خوفاً على مصير دايان .

بعد وقتٍ قصيرٍ وصلت إلى القرية قوات كبيرة من حرس الحدود فطلبت أن يتعاملوا جيّداً مع القرويين و أن يكتفوا بحراسة المكان و مراقبة ما يجري و ليس أكثر .

واصل دايان الحفر لفترة قصيرة و فجأة تم تلقي نبأ إعلان تقديم استقالة حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس ، و ما لم يفعله لدايان الخطر في القرية فعله هذا النبأ فتوقف عن الحفر و جمع غنيمته و انطلق مسرعاً برفقة سيارات جيب حرس الحدود إلى بيت كنعان .

و في الطريق إلى نابلس اتصل دايان مع سائقه و طلب منه شراء هدية كبيرة تتكوّن من الأطعمة اللذيذة و الشوكولاتة الفاخرة و أن يجلبها فوراً إلى منزل رئيس البلدية .

وصلنا إلى منزل حجري فاخر و استقبلنا بابتسامات حسب التقاليد العربية في استقبال الضيوف ، و كان هناك أيضاً حاكم نابلس العسكري البريغادير جنرال تسفي عوفر – الذي قتِل بعد وقتٍ ما عندما كان قائداً لدورية "حروب" و ذلك في اشتباكٍ مع خلية (مخرّبين) قرب شارع القدس – أريحا ليس بعيداً عن معاليه أدوميم .

كان اللقاء مع كنعان يكتسب أهمية خاصة على ضوء دعوة منظمات (المخرّبين) للعصيان المدني ، حيث خشي دايان أن تؤدّي استقالة رئيس بلدية نابلس ، أحد الوجهاء المقبولين جداً في الضفة ، إلى إضافة الزيت على النار ، و لهذا أراد منع هذه الخطوة بأيّ ثمن .

و هنا في منزل حمدي كنعان رأيته للمرة الأولى خلال عملية دبلوماسية . كان ليناً و صلباً في ذات الوقت ، محادثٌ رائع و واضح التعبير ، و قد فوجِئت أن إلمامه باللغة العربية أقلّ مما قدّرت . كان يتحدّث بالإنجليزية و يطعمها بعبارات عربية . تحدّث كنعان بالإنجليزية و العربية و كنت أترجم عندما تدعو الحاجة لذلك .

تحدّث دايان بارتياح و بنغمة مقنِعة حول فرصة إيجاد حلّ سياسي للشعب الفلسطيني و حول خطته لتوسيع نطاق انتقال الناس و البضائع عبر جسور نهر الأردن في كلا الاتجاهين . و قد بدأت هذه القصة في تموز 1967 عندما تراكمت منتجات زراعية في أنحاء يهودا و السامرة و لم يكن ممكناً تسويقها علناً شرقي نهر الأردن ، كما أن الجسور على نهر الأردن تم تفجيرها خلال حرب الأيام الستة .

بدأ مبادرون من القطاع الخاص بنقل الفائض في شاحناتٍ عبر المناطق الضحلة للنهر – معابر نهر الأردن حسب التعبير التوراتي – و سرعان ما بارك ذلك القيادات العليا فالأعلى بدءاً من قائد القطاع و مروراً بقائد المنطقة و وصولاً إلى وزير الدفاع . و عندما توسّعت الأنشطة و اقترب الشتاء تم إنجاز تسوية بشكلٍ غير مباشر مع الملك حسين بمساعدة حمدي كنعان و أقيم على نهر الأردن جسران ، قرب أنقاض جسر دامية و جسر اللنبي .

و بدأت تدبّ حركة كبيرة على الجسرين لم تتوقف حتى في ذروة حرب "يوم الغفران" . و في أيلول 1968 عندما جلسنا في منزل كنعان في نابلس كانت المبادرة كلّها في مراحلها الأولى و لهذا كان هناك إمكانية أمام ديان للحديث بشكلٍ موسّع عنها . أصغى حمدي كنعان باهتمام و دعانا إلى مأدبة غداءٍ دسمة مع أبناء عائلته و في نهاية المطاف تكرّم بالتراجع عن استقالته .

حذاء طفلة و سفر المزامير

خدمت في نابلس حوالي عامين و عرفت كلّ شارع و زقاق و كلّ سقف مرتبط بسقفٍ آخر في القصبة و كلّ ثغرة تقود إلى ثغرة هربٍ أخرى و كلّ حيّ و كلّ قبر شيخ ، كلّ وادٍ و حرج و حقل مهجور . كان بإمكاني التجوال في المنطقة وسط الظلام الحالك و العثور على طريقي بسهولة ، و قد أكثرت من الجلوس في المقاهي و الحديث مع السكان .
رأيت الكراهية في عيونهم و لكنهم كانوا يعرفون دائماً بواجب إدخال الضيوف بأكمله و لم يحاولوا بتاتاً المس بي خلال استضافتي في منزلٍ خاص أو خلال جلوسي في مقهى بنابلس .
في الأول من كانون الأول 1969 عيّنني يهودا أربيل مركزاً لمنطقتي طولكرم و جنين ، و بعد بضعة شهور انتقلت مع عائلتي إلى كيبوتس عين حارود الذي يقع قريباً من مكان عملي الجديد .
عملت يعيل معلّمة أجيرة في الكيبوتس و أنا عزفت في البوق في مناسبات الّعياد . تم استيعاب أمير ابني البكر في تجمّع الأطفال و ابني الصغير عيدي الذي ولد في نيسان 1971 تحوّل بسرعة إلى محبوب أعضاء الكيبوتس . كان طفلاً فاتناً منحته ابتسامته الدائمة تقريباً اسم التحبّب "زيدح" – مشرق .
و في هذه الأثناء كنت قد عيّنت مسؤولاً عن ثمانية مركزي "شباك" أربعة في كلّ منطقة و امتدت منطقة عملنا على مساحة واسعة من السامرة . و بعد مخاض الانتظام في المناطق أصبح "الشاباك" ماكينة مشحمة جيداً .
بعد وقتٍ غير طويلٍ من تسلّمي المنصب أجرت خلية (مخرّبين) محاولة لإطلاق قذائف كاتيوشا من كفر عبوش قرب طولكرم إلى مطار اللد (مع الوقت أصبح مطار بن غوريون) ، و قد أخطأوا بميلليمترات معدودة في إعداد القواذف فأصابت القذائف مدرسة و مستشفى تأهيل في بيتاح تكفاه .
قمنا فوراً بإجراء حسابات مدى و عثرنا على المنطقة التي أطلقت منها قذائف الكاتيوشا و كانت منطقة صعبة مليئة بالشقوق و المخابىء . صعدت إلى مروحية و بدأنا بالبحث عن أعقاب فاكتشفنا القواذف و بسرعة كشفنا أيضاً (المخرّبين) الذين كانوا في طريقهم إلى نهر الأردن ، و عندما شاهدونا أسرعوا باتجاه السياج الحدودي و وقعوا في حقل ألغام فقتل اثنان و جرح اثنان . قمنا بإنزال المروحية و استدعينا قوة عسكرية اعتقلتهما .
كان ميخا مركز "الشاباك" في قلقيلية و هو من "موشاف" – مستوطنة زراعية – في وسط البلاد . رجلٌ وسيم و مزارع بكلّ معنى الكلمة و صهيوني بحت ، ساعد في صغره رجال التنظيم السري "ليحي" في معالجة المواد الناسفة و بعد حرب الأيام الستة تطوّع "للشاباك" و كان أحد المركزين البارزين . تحدّث العربية بطلاقة بلهجة بدوية ، و نجح في الالتحام جيداً بالسكان العرب .
دعاه القرويون "ميخو" أو "أبو علي" و عرفه جزء منهم منذ طفولته و تذكّر الكبار منهم أنه كان يتراكض مع والده الناطور في البحث عن سارقي الجياد ، و قد تعاملوا معه باحترام كما أننا كنا نكن له تقديراً كبيراً .
ساعدت ميخا علاقاته و لغته العربية و قدرته على أن يصبح محبوباً لدى الناس ، على جلب الكثير من المعلومات و تجنيد عملاء ممتازين زوّدونا بمواد ذات قيمة كبيرة و حلّ ألغاز عمليات كثيرة .
ذات يوم أبلغنا أحد العملاء عن خليّة (مخرّبين) تخطّط لعملية كبيرة في وسط كفار سابا ، عثرنا على أعضاء الخلية و اعتقلناهم و لكننا لم نجد المادة المتفجّرة . و لأننا نجحنا في تلك الفترة في كشف و تصفية مخازن كبيرة جداً من الوسائل القتالية و منع جزءٍ ملحوظ من عمليات التهريب إلى البلاد ساد نقص شديد في هذا المجال و كلّ كمية من المواد المتفجّرة كانت عظيمة القيمة بالنسبة لـ (المخرّبين) . و لهذا كان من المهم جداً العثور على العبوة الكبيرة للخلية التي تم تأمينها لهم من إحدى بيّارات قلقيلية .
"الإيداع" تعني في اللهجة الاستخبارية (إخفاء أيّ شيء – سواء أكان رسالة أو وسيلة قتالية – في مخبأ يتعذّر أن يصل إليه أولئك الذين تم تخصيص الإرسالية لهم . و قد استهدف الإيداع منع الصلة بين من يدفن المادة و بين من يلتقطها من هناك لضمان أكبر قدرٍ من التغطية .
كان (المخرّبون) الذين اعتقلوا قرويين و خلال التحقيق معهم ادعوا أنهم أبلغوا أن المادة المتفجّرة دفنت في بيّارة كبيرة في صفوف أشجار معيّنة ، و لم نفهم ما قصدوه بالضبط . لم نرغب في تدمير البيّارة بالجرافات و اقتلاعها بأكملها للعثور على المخزن السريّ . و في تلك المرحلة أخذ ميخا على عاتقه معالجة القضية فتحدّث مع (المخرّبين) بلغتهم ، كمزارع مع مزارعين و فهم كلّ العلامات التي ذكروها – موعد زراعة الأشجار التي أودعت قربها الشحنة و كيفية ريعها و ما شابه – و في نهاية المطاف نجح في إحضارنا إلى المكان الصحيح . حفرنا في الأرض و أخرجنا من هناك كميات ضخمة من المتفجّرات.

رجل ميدانيّ آخر هو يعقوب كوهين الذي عرفه الجميع بكنيته "يعقوبا" و كان نموذجاً مميزاً أيضاً ، عضو كيبوتس و من رجال وحدة المستعربين في "البلماخ" ، قرّر في سن الأربعينات أن يضع مؤهّلاته تحت تصرّف "الشاباك" ، و خلال وقتٍ قصير اشتهر كمحقق لا يكلّ . كان أسمر شعره رمادي ، له شارب مهذّب و تحدّث العربية بطلاقة . و رغم أنه كان الأكبر في المجموعة إلا أن سنّه لم يقف عائقاً في عمله الصعب ، كما لم يمنعه عمره من التطوّع إلى إحدى المهمات الأخطر في تلك الفترة .

بدأ ذلك بنبأ عن خلية تسلّلت إلى المنطقة من أجل تجنيد مزيد من (المخرّبين) و لتنفيذ عمليات في (إسرائيل) ، و لم تكن المعلومات التي نقلت إلينا كثيرة . عرفنا فقط أن الخليّة تمتلك الكثير من الأسلحة و المتفجّرات و في الليل تغير على هذه القرية أو تلك للتزوّد بالغذاء و الماء و الأدوية .

شغّلنا كلّ شبكة مصادر معلوماتنا من أجل الحصول على تفاصيل أكثر دقة و لكننا لم نصب كثير نجاح ، فالوقت عمل في غير صالحنا و لم يكن لدينا شكٌ بأن (المخرّبين) في ذروة الاستعداد لجولة عمليات و أي تأخير في إلقاء القبض عليهم قد يكون حاسماً .

جلسنا ساعات طويلة و استعرضنا إمكانيات مختلفة للعمل و في نهاية المطاف وصلنا إلى نتيجة أننا سننجح في إيجاد اتصال مع الخلية فقط إذا عملنا في الميدان ، و كان واضحاً لنا أن قوة عسكرية عادية لن تستطيع تنفيذ المهمة لأنها ستكتشف فوراً .

فكّرنا ، على أية حال ، حول طريقة أخرى لم تجرّب من قبل حسب معرفتنا ، و كانت الفكرة تشكيل خلية (مخرّبين) وهمية تتحرّك أيضاً في نفس المنطقة على أمل أن تنجح في إيجاد اتصال مع الخليّة المطلوبة ، عرفنا أن ذلك لعب بالنار ، و لهذا كنا بحاجة إلى أشخاص مجرّبين ذوي كفاءة و جرأة يقف على رأسهم قائد لا يوجد لديه مكان للرهبة .

تطوّع يعقوبا دون أن يفكّر مرتين ، و للحقيقة فقد تردّدنا كثيراً قبل أن نستجيب له و قد كنّا جميعاً تقريباً أصغر منه بسنوات كثيرة و خشينا أن نأخذ على عاتقنا المسؤولية عن ذلك ، و لكن يعقوبا قال ببساطة : "أنا الشخص الملائم أكثر للمهمة و هذا يجب أن يكون اعتباركم الوحيد" .

و بعد نقاشٍ استسلمنا له ، و قد تردّدت بشدة في مسألة من هم الذين سيكونون أعضاء الخلية الوهمية مع يعقوبا . فقد عرفنا أن عليهم أن يكونوا ذوي قدرات مميزة : مقاتلون ممتازون ، مؤهّلون ليس فقط للتنكر كـ

(مخرّبين) و إنما أيضاً للتصرف على الأرض مثلهم للتغلّب على الشكوك الطبيعية للقرويين .

قرّرنا أن نختار لهذه المهمة المعقدة فقط الأفضل ، مقاتلي دورية الأركان . كان مناحيم ديجلي حينئذٍ قائد الدورية و قد جاء إلينا و اتفقنا سوياً على تفاصيل العملية . و بمشورة يعقوبا تم اختيار ثلاثة مقاتلين من الدورية ذوي ملامح شرقيّة كاملة ، يجيدون اللغة العربية و يعرفون عادات القرويين و زوّدناهم بملابس تميز (المخرّبين) و بكلاشينكوفات و كميات كبيرة من الذخائر . و تمّ إخفاء أجهزة اتصال صغيرة جداً على أجسامهم كان يفترض استخدامها في اللحظات الحرجة فقط .

أعطيناهم أغذية مقبولة لدى (المخرّبين) – معلبات من أنواع معيّنة و جبناً عربيّاً محلياً ، و حتى أرغفة الخبز كانت مطابقة لتلك التي تخبز في المنطقة ، و إضافة لذلك حصلت على أوعية ماء شبيهة بتلك التي يستخدمها (المخرّبون) .

أرشدنا "مخرّبينا" بحرص كبيرٍ و كان التوجيه الذي تلقّوه منا أن يختفوا خلال النهار و أن يصلوا في الليالي إلى قرى مختلفة قارعين الأبواب . و بدت قصة التغطية التي بنيناها لهم مقنعة بما يكفي فقد كان عليهم عند الحاجة أن يقولوا بأن خليّتهم أرسلت إلى المنطقة من أجل الاندماج مع خليّة (مخرّبين) أخرى موجودة في المكان و لكنهم لم ينجحوا حتى الآن في العثور عليها . قرّرنا أن نأخذ على عاتقنا هذه المجازفة بافتراض أن ذلك سيصعب على القرويين التحقق فوراً من قصة الخليّة الوهمية وه كذا يتوقر لأفرادها هامش عمل معقول .

اتفقنا مع يعقوبا بأن يمتنعوا ، على غرار الخلية المطلوبة ، عن الدخول إلى مراكز القرى و أن يتردّدوا فقط على البيوت عند الأطراف . و حدّدنا أيضاً بأن يقوموا كلّ ليلتين بالعودة إلى المنازل التي زاروها على أمل أن يكون أحد القرويين قد اتصل في تلك الأثناء بالخلية الحقيقية و روى لأفرادها عن الخلية "الجديدة" و تلقى أوامر ملائمة .

و نظراً لأننا لم نستطع تزويد رجالنا بالخرائط فقد حفظوا عن ظهر قلب معالم المنطقة إلى مستوى الخبرة الذي مكّنهم من معرفة المكان الدقيق لكلّ موقع و كلّ بئرٍ و كلّ قبر شيخ . و بعد أن استكملت الاستعدادات انطلقوا إلى منطقة عمليتهم و بدأوا في الساعات المتأخّرة من الليل في الدقّ مراراً على أبواب المنازل ، و قد استقبلوهم في كلّ مكانٍ بوجوه بشوشة و كانت طلباتهم للحصول على ماءٍ و غذاء تستجاب عن طيب خاطر كما أن مضيفيهم كانوا يشاركونهم الأسف لأنهم لم ينجحوا في خلق اتصال مع "زملائهم" و لكنهم لم ينجحوا في أن ينتزعوا من القرويين أي معلومة صغيرة حول تحرّكات الخلية

الحقيقية . كشف يعقوبا عن مؤهّلات قائد ممتاز و كان لديه خبرة هائلة و معرفة جيدة جداً للمنطقة ، و للمزاج العربي – الريفي .
مبدئياً ، حرصت دائماً على عدم التدخل في عمل القادة بالميدان و عندما كنت أنضمّ إلى عمليّة كنت دائماً أحافظ على بعد ما فأختار لنفسي موقعاً يمكن منه مراقبة ما يجري . قائد العملية هو الشخص الذي يلقى عليه كاهل المسؤولية في تنفيذ المهمة و إعادة رجاله بسلام إلى بيوتهم و آخر شيء في العالم يحتاجه في هذه الظروف هو نفخة في مؤخّرته .
تمركزت مع طاقمي على جبل جرزيم في موقع مراقبة متطوّر و مزوّد بأجهزة اتصال حساسة خصّصت لاستقبال أي بلاغ عن الخلية ، و قد استعددنا لمكوثٍ طويل هناك .
بعد انقضاء الليلة الثانية دون نتيجةٍ ساد في الجهاز جوّ من التوتر و لم يكن لدى يهودا أربيل ، قائدي ، أي شك في أنني أجازف بالرجال عبثاً و قد تردّد صدى صرخاته باللكنة الهنغارية الثقيلة بلا توقف في شبكة الاتصال . وبّخني قائلاً : "أنت مع أفكارك الحمقاء .. من أجل ماذا نحتاج هذا أصلاً ؟" و قد جهدت بمشقّة حتى نجحت في إقناعه بأن يمنحنا مهلة ليلتين أو ثلاث أخرى .
جرت الاتصالات مع خليّتنا في ساعات الليل المتأخّرة في نقطة معيّنة على شارع مجاور حيث كنا نصل إلى هناك في سيارة عربية و كانوا هم ينقضّون من الميدان و يبلغوننا .
لم يكن هناك الكثير لإبلاغه و لكنّنا تحلّينا بالصبر جميعاً ، و قام الشبان بعملٍ رائع في الميدان ، بذروا البذور و أملنا جميعاً بألا يطول الوقت حتى تحصد الغلال . لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لهم فقد تطلّب منهم لياقة جسمانية عالية و التمسك بالمهمة و قدرة على إخماد الخوف و التكيّف مع الظروف القاسية . و كان مزعجاً جداً المكوث في المنطقة بدون إمكانية الاستحمام و الحفاظ على حدّ أدنى من النظافة .
و كلّ مرة كانوا يستغرقون في النوم عدة ساعات في الميدان متخفّين داخل أجمة من النباتات الشائكة و أكلوا بسرعة و في الليلة الثالثة كانوا متّسخين و منتنين إلى درجة أن من الصعب الوقوف بجانبهم .
و في الليلة الرابعة خلال زيارة مجدّداً لعائلة قروية خلق الاتصال أخيراً و رغم كلّ المخاوف أثبتت الطريقة نفسها و قال صاحب البيت الذي توجّهوا إليه إنه عثر على الخلية المطلوبة و روى لأفرادها عن الخليّة الجديدة ، و بشّر بـ "أنهم يريدون مقابلتكم غداً الساعة الثالثة بعد الظهر" ، و حتى أنه أشار إلى مكان اللقاء – بستان ناءٍ في المنطقة . كما أبلغ يعقوبا بشيفرة تلقّاها من قائد (المخرّبين) .
تحت جنح الظلام أرسلنا وحدة مختارة إلى المنطقة من أجل إلقاء القبض على (المخرّبين) عندما يحدث الاتصال و لإنقاذ رجالنا في حالة وقوع خلل غير متوقع . حفر الجنود حفراً عميقة و قبل أن يبزغ الفجر اتخذوا مواقعهم خلف الصخور .
كان التمويه ناجحاً جداً إلى درجة أن القرويين الذين خرجوا صباحاً لفلاحة الأرض لم يلاحظوا الكمين إطلاقاً . وضعنا طائرة مروحيّة على أهبة الاستعداد و كنا نقرض أظافِرنا من شدة التوتر .
لم نرَ شيئاً من موقِعنا البعيد عدة كيلومترات من هناك و لكن يعقوبا شغّل جهاز اتصاله و أبلغ أنه يرى (المخرّبين) يقتربون . كانوا أربعة و مشوا بعيدين عن بعضهم البعض بصورة ملحوظة و بعد دقيقة أو اثنتين سمعنا يعقوبا يطلِق الشيفرة صارخاً و سمعنا العربيّ يردّ عليه ، و اقتربوا من بعضهم البعض .
سار يعقوبا في مقدّمة خليّته و سار (المخرّبون) خلف قائدهم و ركع جميعهم و أشعلوا سجائر و شرع يعقوبا و قائد (المخرّبين) بمحادثة تقليدية حول الأحوال ، تحدّث يعقوبا عن قصة التغطيّة التي تضمّنت تفاصيل – مختلفة طبعاً – عن قريته و والديه و أبناء عائلته العرب ، فيما تحدّث قائد (المخرّبين) عن نفسه . و بعد عشر دقائق تقريباً خاضوا في جوهر الموضوع فقال يعقوبا إنه أحضر معه أوامِر موجودة في جعبته أخفاها في مكانٍ قريب ، و أجاب (المخرّب) بشيء ما لم نستقبله بوضوح في جهاز الاتصال و عندها و بدون سابق إنذار سمعت أصواتَ أعيرة نارية في جهاز الاتصال و وصلت إلى مسامعنا صدى قتالٍ إلى أن صمت جهاز الاتصال .
أمرت فوراً المروحية بالإقلاع و التوجّه إلى المكان و كان لديّ شعور سيء جداً . قفزت في سيارة جيب و انطلقت مسرعاً إلى المنطقة . وجدت هناك أربعة (مخرّبين) ميتين و يعقوبا تنزف الدماء من يده ، و قد روى لي أنه فجأة و دون أي سببٍ ظاهر للعيان نظر إليه قائد (المخرّبين) مشتبهاً و أعدّ مسدسه للإطلاق . و قد تمكّن العربي من إطلاق عيارٍ واحدٍ أصاب أصبع يعقوبا و عندها انقضّ الجنود من الكمين و قاموا بتصفية الخلية .
وصل يهودا أربيل إلى المكان بعدي فوراً و ألقى عليّ مسؤولية إصابة يعقوبا بجراح و صرخ بانفعال . و قد وقفنا جميعاً مبتسمين هناك فيما أغرق يعقوبا بالضحك . هدأ أربيل بعد عدة دقائق و فهم أن هذه كانت في نهاية المطاف عمليّة ناجحة جداً حتى و إن كان من نتائجها إصابة أحد أصابع القائد . و بالمناسبة فقد ظلّ هذا الأصبع واقفاً دون أي قدرة على ثنيه .

كان يعقوبا جديراً بوسامٍ و لكن "الشاباك" لم يقدّم أبداً أوسمة أو أيّة شهادات امتياز ، و لو كان متّبعاً تقديم أوسمة تقدير لكان من العدل الكامل منحها لمئات من العاملين في الجهاز الذين أثبتوا أنفسهم في مهمات صعبة و معقدة مراراً وسط المجازفة بحياتهم . و قد كان تعبير "الشاباك" عن التقدير دوماً أكثر تواضعاً . تلقى يعقوبا و أعضاء خليّته رسائل شخصية من رئيس الجهاز أشار فيها إلى مساهمتهم في تصفية خلية (مخرّبين) خطيرة ، و لم تكن هناك أي تعبيرات تقدير أخرى .

كان العمل في المناطق عندما عملت مركزاً هناك شاقاً و صاخباً ، فقد عرفنا أنه في كلّ زاوية شارع أو منعطف طريق ليل نهار قد يكمن لنا (مخرّبون) مسلحون.

أحبطت استخباراتنا آلاف العمليات من هذا النوع و لكن لا يمكن أبداً إحباطها جميعاً . و قد ساعدتني أحاسيسي الداخلية مراتٍ عديدة في الأوضاع التي لم يكن هناك معلومات مسبقة بشأنها . و هذا ما حدث في ليلة حالكة سافرت فيها برفقة مظليّين مسلحّين للالتقاء مع عميلٍ في مخيّم عين بيت الماء عند المخارج الغربية لنابلس . مررنا بزقاقٍ ضيّق و فجأة لاحظت عدة شخوص تتسلل بين المنازل حاملة مصابيح . و لم يكن في هذا ما هو استثنائيّ و لكن شعوري الداخلي بثّ مؤشرات تحذيرٍ فتوقفت فوراً و أرسلت المظليّين لتمشيط المنطقة و أنا نفسي خرجت من السيارة ، و في نفس اللحظة سمعت دقة حيث ألقى شخص ما قنبلة أصابت غطاء محرّك السيارة و لحسن حظّي لم تنفجر .

و في مرة أخرى سافرت مع يهودا أربيل في قافلة من خمس سيارات لإلقاء القبض على مطلوبين من الخليل ، و في منتصف الطريق أبلغت أربيل باللاسلكي بأنني أشعر بأحاسيس غير طيبة بشأن هذا المشوار . كانت هذه وقاحة غير قليلة فقد كنت لا أزال مركزاً صغيراً دون أقدمية و ذا خبرة قليلة نسبياً فيما يعد أربيل من كبار مسؤولي الجهاز .

أوقف القافلة و خرج من سيارته و صرخ عليّ قائلاً بأنني مجنون و أنني أؤخّره بسبب هستيريا غير مفهومة ، رويت له بهدوءٍ عن أحاسيسي الداخلية و حثثته على أن يفحص إذا ما كان فيها ما هو حقيقيّ . فكّر أربيل لبرهة و أرسل الآليتين نصف المجنزرتين اللتين رافقتانا قدُماً لتمشيط المنطقة .

مرت عدة دقائق و فجأة سمعنا صوت انفجاراتٍ و فتحت نيران كثيفة على المجنزرتين من كمين نصب في حرج على جانب الطريق ، و لم يصب أحد من رجالنا .

و مع مرور الوقت طوّرت نظريّة لنفسي مفادها أن الفرصة الأفضل لعدم الوقوع في كمينٍ هي تحديداً عند السفر في سيارة منفردة بدون حراسة . و السبب في ذلك كما تعلّمت بسيط : يفضّل (المخرّبون) عموماً أن يشخّصوا الهدف أولا و استيضاح ما إذا كان الحديث يدور عن هدفٍ عسكري أو مدنيّ ، و تسهل الأهداف الكبرى مثل قوافل السيارات مثل هذا التشخيص .

لهذا فضّلت قدر الإمكان السفر وحيداً في الظلام في الطرق النائية رغم أنني عرفت أنني أتجاوز بذلك إجراءات الأمن المشددة "للشاباك" . و في حالتي على الأقل أثبتت "طريقة بيري" نفسها .

و إضافة إلى الأحاسيس الداخلية تزوّدت بوسائل أمنية لم تخيّب أملي إطلاقاً . و ما زال الحذاء الأول الذي اشتريته لابنتي طال عندما كانت طفلة ، معلّقاً في سيارتي كحرزٍ ضد عين السوء .

و في أحد الأيّام منحَني رجل "شاباك" متديّن سفر مزامير صغير فحملته معي دائماً و يواصل مرافقتي إلى كل مكان – للمكتب و النزهات و السفريات إلى الخارج ، دائماً يوجد معي في حقيبتي الشخصية .

"الشيطان في عباءة"

في العام 1972 قام يهودا أربيل بنقلي من طولكرم إلى وظيفة جديدة حيث عيّنت رئيساً لقسم ملاحقة التنظيمات السياسية في منطقة القدس ، و الضفة الغربية . و بناءً على ذلك اتخذت موقعاً لي في قيادة أركان جهاز الأمن العام (الشين بيت) في القدس . و كانت أولى المهمات التي أوكلت لي هي إلقاء القبض على هيئة تحرير و مطبوعات صحيفة الحزب الشيوعي "الوطن" ، التي كانت تصدر في المناطق المحتلة . و في ذلك الحين كان الحزب الشيوعي الفلسطيني على علاقة مع الحزب الشيوعي في الأردن ، و الصحيفة الشهرية التي كانت تطبع بشكلٍ سريّ كانت مليئة بالشعارات التحريضية ضد (إسرائيل). و كانت الصحيفة توزّع فقط على المشتركين . و مع كونها ناطقة باسم الحزب الشيوعي ، كانت جميع أقسامها و فروعها محاطة بسياج من السريّة و الكتمان بحيث كان من الصعب تعقّب آثارها . و حتى بعدما تمكّنا من إلقاء القبض على موزّعي الصحيفة ، بعد جهدٍ جهيد ، اتضح لنا أن الأشخاص الذين كانوا يقومون بتوزيع الصحيفة لم يكونوا على معرفة بمكان هيئة التحرير و دار الطباعة . و قد بذلنا جهداً

كبيراً للعثور على مصادر الورق و المعدات اللازمة للطباعة ، و لكن جهودنا ضاعت هباء . لقد كان الأمر أشبه بلعبة القط و الفأر ، استمرت حتى مطلع الثمانينيات ، عندما كنت قائداً للواء القدس و منطقة الضفة الغربية . في ذلك الوقت تمكّنا بفضل عملية منهجية و مقارنة متعدّدة بين عددٍ من المعلومات الاستخبارية العثور على هيئة التحرير و دار الطباعة في مكان يقع في طابق تحت الأرض بأحد المباني السكنية الخاصة ، في ضاحية الرام بالقرب من القدس . و بعد ذلك توقفت صحيفة الوطن عن الصدور .
و بحكم عملي كرئيس قسم ملاحقة التنظيمات السياسية السرية ، انحصر عملي في المجال التنفيذي و بشكلٍ خاص في تحليل الأوضاع ، و متابعة التطوّرات السياسية في منطقة عملي و التنظيمات على مختلف أنواعها . و قد اجتمعت مع العديد من الشخصيات العربية كي أستمع إلى أفكارهم . و كان من أبرزهم عبدالرؤوف الفارس ، عضو البرلمان الأردني السابق . لقد كان شخصيّة ذات طلقة مهيبة . و كان يقطن في بيت فاخرٍ في قرية طلوزة بالقرب من عيون وادي البيذان . و في أولّ مرة تقابلنا فيها كان على وشك الاستقالة من البرلمان الأردني . و كان من الشخصيات التي لعبت دوراً في الحياة السياسية في الضفة الغربية ، و كانت له علاقات سياسية و اجتماعية مع العديد من كبار الزعماء الفلسطينيين . و قد تهيّأت لي الفرصة للجلوس معه ساعات طويلة حيث استمعت إلى آرائه الصريحة . من ناحية أخرى قضيت وقتاً طويلاً في اجتماعات مع شخصيات عربية أخرى ، استطعت من خلالها أن أحصل على صورة واضحة المعالم عن الوضع و عن ما آلت إليه الأحوال .
في صبيحة أحد الأيام ، عندما كنت في منزلي في "عين حرود" أصبت بوعكة ، تناولت أقراصاً كي أخفّف من آلامي ، و خرجت من البيت و صعدت إلى سيارتي وغادرت الكيبوتس و معي سيّدتان من السويد حضرتا للعمل كمتطوّعات ، و طلبا مني أن أنقلهما معي إلى القدس حيث يقع مكان عملي . و بالفعل بدأنا الرحلة في الساعة السابعة و النصف صباحاً و سرنا بالسيارة وقتاً طويلاً دون حدوث أية مشكلة ، حتى بدأت الأقراص تحدِث أثرها في جسمي . و فجأةً بدأت سحابة من الغثيان تغطّي عينيّ فقدت على إثرها السيطرة على نفسي و غلبني النوم أثناء قيادة السيارة في الطريق المليئة بالمنعطفات التي توصل إلى رام الله . و في هذه لحظات اصطدمت سيارتي مع سيارة عربيّة من المناطق المحتلة بقوة شديدة ، ممّا أدّى إلى خروج السيدتين المتطوّعتين إلى خارج السيارة و إصابتهما بجروح بسيطة . أما أنا فقد انحشرت بين أنقاض السيارة و فقدت الوعي . و لحسن حظّي تصادف قدوم أحد الأصدقاء إلى مكان الحادث بعد عدة دقائق ، قام باستدعاء النجدة عن طريق جهاز اللاسلكي . و مرّت ساعات طويلة قبل إنقاذي من بين حطام السيارة . ثم نقلت بعد ذلك إلى مستشفى هداسا في القدس .
لقد تعامل معي الأطباء على أنني ميّت ، و توصّلوا إلى استنتاج بأن إصابتي كانت بالغة جداً و أنه لا توجد احتمالات لبقائي حياً . و مضت فترة من الزمن تأرجحت خلالها بين فقدان الوعي و صحوات قصيرة . و كانت الآلام شديدة بحيث لم تترك لي مجالاً للراحة . و قد أجريت لي عدة عمليات جراحية ، و في مرحلة معيّنة فكّر الأطباء في ضرورة قطع إحدى رجلاي ، و قرّروا إجراء عملية سريعة لاستئصال الرجل – و لكن لسببٍ من الأسباب غيّروا رأيهم في اللحظة الأخيرة . و لحسن الحظ أعطيت مهلة لقطع رجلي .
مكثت لمدة عامٍ كاملٍ و جسمي مغطّى بالجبس . و قد تم إنقاذ الرجل التي كانت ستقطع ، و لكن كان من الواضح أنها لن تعود في يوم من الأيام إلى تأدية وظيفتها على الوجه الأكمل . و ساد الاعتقاد لدى الأطباء بأنني سأخرج بعاهة دائمة ، و هذا ما حدث بالفعل . عندما غادرت المستشفى أفاد تقرير طبي أنني أعاني من عجز دائمٍ بنسبة خمسين في المائة . لقد عانيت من عرج بسيط و من نوبات متكرّرة من الآلام التي كانت تعاودني من حين لآخر . لقد وصلت حالتي إلى وضع أنني لا أستطيع الرقص مثلاً طوال سهرة ليليّة راقصة .
من عادة جهاز الأمن العام أنه لا يمنح العاملين فيه إجازاتٍ طويلة ، و هكذا رغم وجودي في الجبس ، و الآلام التي كنت أعاني منها ، تعوّد الجهاز إحضار بعض المهمات التي كنت أقوم بعملها و أنا في المستشفى . فعلى سبيل المثال ، أحضروا إلى غرفتي الطيّار الليبي الذي ضلّت طائرته و اضطر إلى الهبوط في صحراء سيناء . لم يكن الطيّار يعرفني ، و طلب منّي التحقيق معه للتأكد من صحة دعواه بأنه لم يكن يقصد دخول المجال الجوي (الإسرائيلي) . و هذه المهمة لم تكن سهلة . لقد كان الطيار الشاب البالغ من العمر خمسة و ثلاثين عاماً يعاني من حروقٍ في جميع أنحاء جسده ، و كان في بعض الأحيان يهذي بكلمات غير مفهومة ، و مع ذلك أصر في أقواله على أنه لم يكن ينوي اختراق المجال الجوي (الإسرائيلي) . و بعد ذلك أحضروا إلى غرفتي بعض (المخرّبين) الذين أصيبوا بجراح ، كي أحاول الحصول منهم على اعترافات قاموا بإخفائها عن المحقّقين . من ناحية أخرى تعوّدت جوقة الطلاب المقدسية زيارتي للتخفيف من آلامي و الترويح عني .

في تشرين الثاني من العام 1973 ، مرّت إحدى الأيام الصعبة ، حين اشتدت بي الآلام فجأة و لم تتمكّن الأدوية من تخفيفها ، و في نفس اليوم أبلِغت عن مقتل زميلي و صديقي الحميم ، باروخ كوهين ، في مدريد . لقد كان رجلاً ذكياً و حذِراً و لم يخطر ببالي أنه سيقع ضحيّة لخدمة معينة .
و علمت أن حادث القتل وقع في وضح النهار في أحد الشوارع الرئيسة بمدريد . و نشرت إحدى الصحف الأسبانية نبأ قالت فيه إنه قبل عدة دقائق من قتلِه شوهد و هو يتحدّث مع قاتله . لقد اعتدى عليه القاتل بمسدّس كاتم للصوت و أثناء محاولته الهرب أصاب أحد عابري الطريق بجراح بسيطة . لقد توفيّ باروخ قبل أن يتمكّن الأطباء من إجراء عملية جراحية له . و آخر كلمات تفوّه بها باروخ أنه قال : "إن القاتل فلسطيني" . و عندما غادرت المستشفى لم أتوجّه مباشرة إلى منزلي ، و لكن توجّهت إلى المقبرة حيث قمت بزيارة قبر باروخ كوهين .
لم تكن عملية شفائي من الإصابات سهلة ، لقد كانت عملية بطيئة و مؤلمة . كانت تمر بعض الأيام كنت أعتقد خلالها بأنه لن يأتيَ اليوم الذي أتمكّن فيه من السير على أقدامي . في صبيحة أحد الأيام حضر لزيارتي قائد اللواء ، إسحاق ، و جلس إلى جانب سريري و سألني قائلاً : "ما رأيك في تولي منصب رئيس قسم محاربة الإرهاب ؟" . و هذا الأمر كان يعني ترقيتي إلى رتبة جديدة ، و لكنه في نفس الوقت كان اقتراحاً جنونياً . لقد كنت هيكلاً عظمياً ، بعدما انخفض وزني إلى أقلّ من خمسين كيلوغراماً ، و كنت أسير مستعيناً بعكازين ، و كانت أنفاسي تخرج من صدري بصعوبة . و كنت أشعر بالإعياء بعد ممارسة أيّ جهد مهما كان بسيطاً . لم يكن أحد يتوقّع بأنّني سأعود إلى ممارسة أعمالي و أنا في هذا الوضع . و لكن من بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم كان إسحاق هو الشخص الذي لم يكفّ عن محاولة إقناعي بأنني يمكن أن أعود إلى تنفيذ الأعمال التي حرمت من القيام بها . و كنت في كلّ مرة أبتسم في وجهه ابتسامة باهتة و أقول له "ربما حدث ذلك" .
في تلك الأيام كثر الحديث عن المطران هيلاريون كابوتشي ، رئيس الكنيسة الإغريقية الكاثوليكية في القدس منذ العام 1965 . ولد كابوتشي في سوريا في العام 1922 ، و كان شاباً يافعاً ، أسمر البشرة ، يميل إلى الصلع ، ذا لحية سوداء كالفحم ، و كان يتباهى بلبس عباءة القساوسة من أغلى الأصناف (و تعوّد المقربون منه أن يطلقوا عليه لقب "الشيطان في عباءة" و عرفنا عنه أنه كان رجلاً طيب الحديث ، ذكيّ يقظٌ لم ينقطع عن ملذات الحياة و كان لطيفاً يحبّ المرح . و في أحد الأيام تقدّم بشكوى إلى الشرطة على إثر سرقةٍ وقعت في بيته و أبلغ عن سرقة خمسين ألف دولار .
و عندما حضر محققو الشرطة إلى منزله فجأة قرّر سحب الشكوى . و قد أثّر هذا التراجع المفاجيء شكوك المحققين و عندما قاموا بفحص الأمر اتضح أنه قبل وقتٍ قصير خسر مبلغاً مماثلاً في لعب القمار ، و على ما يبدو قام بتسديد الخسارة من أموال رابطة مساعدة النصارى في بيت لحم التي كان يترأسها . في بداية الأمر ادعى أن النقود سرقت منه ، و لكن عندما بدأ التحقيق و أحسّ بأن الحقيقة ستظهر في النهاية قرّر التنازل عن الشكوى في اللحظة الأخيرة .
و اشتهر كذلك عن المطران أنه يحب مغازلة النساء . و علمنا فيما بعد أنه كانت له غراميات مع عددٍ من النساء المسيحيات و المسلمات و اليهوديات .
و ذاعت شائعة قوية عن أنه كان على علاقة حب مع إحدى ضابطات الجيش (الإسرائيلي) و اتضح فيما بعد صحة هذه الرواية . و قد قمنا باستدعاء الضابطة و تحدّثنا معها ثم أطلقنا سراحها . لقد أكثر كابوتشي من الانشغال بتهريب الذهب و الخمور و السجاير و غيرها من البضائع التي عادت عليه بربح وفير . و بناء على طلب الفاتيكان كان يسمح لكبار المطارنة بالدخول من الدول العربية إلى (إسرائيل) دون أن تخضع سياراتهم و أمتعتهم للتفتيش . من جانبه أعرب جهاز الأمن العام (الشين بيت) عن معارضته لهذه التسهيلات على أساس أن (المخرّبين) يمكن أن يستغلّوا هذه الثغرة لتحقيق أهدافهم ، و لكن الحكومة تجنّبت تعكير صفو العلاقات مع العالم المسيحي و رفضت موقف جهاز الأمن العام .
من ناحيتهم أدرك موظفو الجمارك في جسر اللنبي الذي تعوّد كابوتشي أن يمر عبره من حين لآخر أن تصرّفات المطران كانت تختلف عن غيره من رؤساء الكنائس الأخرى . تعوّد المطارنة أن يجلِسوا في المقعد الخلفي من السيارة و يمرّوا عبر الجسر دون أن ينطقوا بكلمة واحدة .
و على عكس من ذلك كان كابوتشي يخرج من سيارة المرسيدس و يكثِر من الابتسامات و يتحدّث مع الجميع و يوزّع عليهم السجائر و الحلويات عن طيب خاطر . لقد زادت هذه التصرّفات الشكوك في أمره ، و لكن العاملين في الجسر لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً . كان كابوتشي يقيم في بيتٍ جميل من الحجر محاطاً بحديقة واسعة في بلدة بيت حنينا ، على حدود الحيّ اليهودي نفيه يعقوب . و تعوّد أن يقيم في منزله حفلات صاخبة يتم خلالها شرب كميات كبيرة من الخمور . و كان يستضيف شخصيات بارزة من المجتمع الفلسطيني و من الطائفة المسيحية و من المجتمع و الحكم العسكري (الإسرائيلي) . و بسبب

علاقاته القويّة مع (الإسرائيليين) اتهمته بعض المحافل العربية بالتعاون مع (إسرائيل) ، على الرغم من أن هذا الشيء لم يكن له أساس من الصحة . و لم يخفِ كابوتشي تأييده للقضية الفلسطينية .
و كان يجهر بالحديث ضد الاحتلال (الإسرائيلي) للمناطق ، و كثيراً ما بادر إلى تنظيم مسيرات . و بعد موت الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر وقع على عرائض تدين (إسرائيل) ، و كان يوزّع الأموال على أسر (المخرّبين) الذين قتِلوا ، و هو الذي اقترح فكرة تشكيل لجنة سريّة تقوم بتنظيم المعارضة المكثفة للاحتلال و أيّد فكرة منع العمّال العرب من المناطق المحتلة من العمل في (إسرائيل) ، و قال : "من الأفضل للعربيّ أن يأكل الخبز فقط من قيامه بخدمة (الإسرائيليين)".
كان السادس من آب لعام 1974 ، يوماً حافلا بالأحداث ، فقد تلقيت محادثة تلفونية عاجلة من مركز عمل جهاز الأمن العام في القدس الذي قال لي "نحن نجلس الآن مع مناوب ، أحضر حالاً" . و كلمة مناوب كانت ترمز إلى العميل الفلسطيني الذي كان يعمل لحسابنا و الذي كنّا نزرعه في صفوف إحدى المنظمات الفلسطينية الموجوة في لبنان أو في سورية بهدف قيامه بتزويدنا بالمعلومات . و كان هذا العميل مدرساً يسكن في جبل المكبر ، بالقرب من قصر المندوب السامي .
و لكي نوهم عناصر فتح و نجعلهم يعطون الثقة لهذا الشخص قمنا بتلفيق تهمتين له ، و ادعينا أنه المسؤول عن حادثين وقعا في القدس : أحدهما الحريق الذي شبّ بالقرب من مصنع للورق في حيّ روميما بالقدس ، و الثاني انفجار عبوة ناسفة وضعت بالقرب من منزل نائب مأمور ضريبة الدخل .
و بعدما زوّدنا العميل بالمعلومات ، أرسلناه إلى بيروت ، حيث اجتمع معه قائد القطاع الغربي من حركة فتح "أبو فراس" . و خلال اجتماعه مع أبي فراس ادعى العميد أنه بمبادرة شخصية قام بإضرام النار بالقرب من مصنع الورق و بوضع عبوة ناسفة بالقرب من منزل مأمور ضريبة الدخل .
في الحقيقة كان أبو فراس هو الاسم الحركيّ لمصطفى عيسى اللفتاوي ، و هو شخصية قوية ، من مواليد القدس ، و يتولى الآن منصب محافظ منطقة رام الله من قبل السلطة الفلسطينية ، و قد اشتهر عنه في تلك الأيام أنه كان من كبار قادة التنظيمات الفلسطينية ، و أنه كان منضبطاً و ذكياً ، و قويّ الشخصية . و قد قام أبو فراس بتنظيم عددٍ كبير من عناصر المنظمة ، و قام بإدخال وسائل قتالية إلى المناطق المحتلة من الأردن و من سورية و لبنان مستعيناً في ذلك بعددٍ من موظفي وكالة الغوث الدولية و المطارنة . و كان مسؤولاً عن عددٍ من الاعتداءات المسلحة و التفجيرات الشديدة التي وقعت في (إسرائيل) . و قد اتسمت الحرب هذه صفة حرب العقول و قمت أنا شخصياً بقيادة الحرب هذه حيث تمترسنا أنا و هو على جانبي خندق المواجهة .
كان هدفه الأول تهريب السلاح و الوسائل القتالية إلى (إسرائيل) . و كان هدفي الأول التصدي لذلك . لقد وضع نصب عينيه إقامة بنية تحتية للمنظمات الفلسطينية في القدس و الضفة الغربية . و وضعت نصب عيني إحباط هذه المهمة . و تمكّنت من تحقيق إنجازات كبيرة في هذا المجال ، حيث تمكّن جهاز الأمن العام من إلقاء القبض على عددٍ من أفراد التنظيمات و بذلك أحبطنا وقوع اعتداءات مسلحة . و نتيجة لهذه الفعاليات عانت التنظيمات الفلسطينية من نقصٍ شديدٍ في الوسائل القتالية المتطوّرة مما اضطر عناصر فتح في المناطق إلى تجهيز عبوات ناسفة محلية الصنع ، و هو عمل يتطلّب خبرة كافية لم تكن تتوفر لعناصر فتح بصورة دائمة ، كما اضطر (المخرّبون) إلى المخاطرة بشراء مواد خام من السوق السوداء .
و بالإضافة إلى ذلك كانت العبوات المحلية عبوات بدائيّة ليس باستطاعتها إلحاق أضرارٍ بالغة عند انفجارها . كان من طبيعة أبي فراس عدم تصديق القصص من هذا النوع الذي قام العميل بنقلها إليه ، و لكنه صدّق ما رواه العميل في هذه المرة . و تركت أعمال العميل انطباعاً جيداً لدى أبي فراس الأمر الذي دفعه إلى تنظيم العميل في صفوف فتح . لقد تعوّد العميل أن يزوّدنا بمعلومات موثّقة عن فعاليات المنظمات (التخريبية) ، و لكن هذه المعلومات لم تكن تشكّل مرجعية لنا من الدرجة الأولى . لذلك كان من الصعب تصديق المعلومات التي نقلها العميل هذه المرة على الرغم من أنها بالغة الأهمية . و على الرغم من ذلك طلبت من السكرتيرة تأجيل عدة اجتماعات مع العميل كان من المفروض أن أستمع خلالها إلى عددٍ من البلاغات التي أحضرها .
كنت أجتمع معه في شقة تعود لوالد أحد عملاء جهاز الأمن العام (الشين بيت) . و تقع الشقة في مبنى قديم عند مداخل مدينة القدس . و عندما وصلت إلى المنزل أوقفت سيارتي بعيداً عنه حتى لا أثير الشكوك و واصلت المشوار سيراً على الأقدام . في إحدى الغرف كان يجلس العميل برفقة رجلين من رجال جهاز الأمن العام و هما مركز اللواء ، روني ، و مركز المنطقة ، شلومو . لم يكن يعرف العميل شيئاً عن هويتي ، و لكنه أدرك أنني من كبار موظفي جهاز الأمن العام (الشين بيت) و عندما وصلت إلى الغرفة طلب منه أحد المركزين أن يروي على مسمعي ما حدث أثناء وجوده في الخارج . و كان العميل قد عاد لتوّه من دمشق . و في دمشق اجتمع مع أبي فراس الذي قاده إلى كراج يقع في إحدى ضواحي

دمشق . و عندما وصلا إلى الكراج شاهدا أن أبوابه كانت مقفلة ، لذلك دخلا إلى الكراج من فتحة جانبية . و كانت تقف في الكراج سيارة مرسيدس حديثة ، و قد انشغل عددٌ من العمال بتفكيك قطعها . عندئذ طلب أبو فراس من العميل "أن يتعلّم التفاصيل الكاملة للعمل الذي يجري على السيارة . بعد ذلك قال أبو فراس للعميل إن هذه السيارة ستتوجّه إلى القدس ، و هي تحمل أسلحة و ذخيرة مخبأة بداخلها . و عند وصولها إلى القدس سيكون دورك القيام بإخراج السلاح منها و تسليمه إلى عناصرنا هناك ، و سنزوّدك بأوامر بهذا الخصوص فيما بعد" .

مكث العميل لمدة ثلاثة أيام في الكراج حيث تعلّم عن كثب كيفية إخفاء السلاح في السيارة . كانت الأسلحة مكوّنة من مئات القذائف ، و المواد الناسفة البلاستيكية ، و أصابع المتفجّرات ، و أجهزة لتشغيل العبوات الناسفة ، و من الرشاشات و الذخيرة . و أصابتنا الدهشة عندما علِمنا من العميل أن سيارة المرسيدس هي سيارة المطران كابوتشي و أنها ستصل إلى القدس في اليوم التالي . كان البلاغ مثيراً للدهشة ، و لكننا تظاهرنا بعدم الاكتراث و كأننا نستمع لقصة روتينية عن فعاليات فتح .

القاعدة تقول إنه لا يجوز لرجل المخابرات أن يبدي اهتماماً بالغاً بما يسمعه من العميل ، كي لا يترك لديه انطباعا بأن المعلومات التي قام بنقلها هامة للغاية .

و حول الأحداث الدراماتيكية التي استمعت إليها من العميل كتبت في مذكراتي ما يلي :

"نحن نجري سلسلة من المشاورات العاجلة ، شارك فيها عددٌ من كبار المسؤولين في رئاسة الأركان في تل أبيب . أسرع رئيس جهاز الأمن العام (الشين بيت) ، يوسف هرملين ، برفع تقريرٍ مفصل لرئيس الحكومة ، إسحاق رابين ، الذي أصرّ على معرفة مدى صحة المعلومات . و حذّر رئيس الحكومة من أنه في حالة اعتقال كابوتشي دون أسبابٍ فإن ذلك سيؤدّي إلى أضرارٍ سياسية خطيرة . و لكن هرملين أقنعه بأن المعلومات مؤكّدة ، و في الحال استدعى رئيس الوزراء وزير الخارجية يغئال ألون ، و وزير الجيش شمعون بيرس ، و وزير العدل حاييم تسادوك ، لدراسة الأبعاد السياسية المحتملة بعد اعتقال أحد رجال الدين المسيحيين من ذوي المناصب الرفيعة . و في نهاية الأمر حصلنا على إذن لاعتقال كابوتشي ، شريطة أن نعثر عنده على وسائل قتالية . في السابع من آب عبر كابوتشي جسر اللنبي بسلام ، و واصل طريقه إلى البلدة القديمة في القدس الشرقية و أوقف سيارته إلى جانب الكنيسة الإغريقية الكاثوليكية . في هذه الأثناء أرسلنا عنصرين من جهاز الأمن العام رجل و امرأة متخفّيين في زيّ سائحين حيث قام أحدهما بتصوير الآخر على خلفية المبنى مع حرصهما على أن تظهر سيارة المرسيدس في الصور . كان كابوتشي عرضة للاشتباه منذ زمنٍ طويل بانه يقوم بتهريب بضائع و أشياء أخرى ، لذلك كانت مؤخّرة السيارة منخفضة باتجاه الأرض بسبب الحمولة الثقيلة التي كان يحملها في صندوق السيارة الخلفي . و بعدما حصلنا على الصور ، شاهدنا أن مؤخرة السيارة هابطة لذلك تأكّد لدينا الاستنتاج .

وضعت رقابة حول الكنيسة . و في اليوم التالي ، في ساعات الصباح المبكرة ، علِمنا من المراقبين أن كابوتشي استقل سيارته و انطلق بسرعة باتجاه رام الله . قرّرنا المخاطرة و إصدار الأمر بإلقاء القبض عليه . فقامت سيارة تابعة لجهاز الأمن العام بسدّ الطريق أمام سيارة كابوتشي في طريق القدس – رام الله . و توجّه رجالنا إلى المرسيدس متخفّين في زي شرطة مدنية ، و اتهموا كابوتشي بأنه كان يسير بسرعة فائقة ، و طلبوا منه فحص رخصة السواقة و مستندات السيارة . و في هذه الأثناء قام أحدهم بفتح أبواب السيارة ، و عاد و أغلقها و انحرف إلى جانب الطريق حيث أبلغنا باللا سلكي أن أبواب السيارة ثقيلة أكثر من اللازم . و في هذه الحالة صدرت الأوامر باعتقاله" .

و نقِل كابوتشي مع سيارته إلى كراج الشرطة في المسكوبية ، و تم إخراج جميع السيارات التي كانت في الكراج . و أحيط الكراج بحراسة مشدّدة ، منعت أي أحدٍ من الدخول إلى الكراج . و بذلت محاولات جمة للتعتيم على موضوع الاعتقال . و كان همنا الأكبر ألا ينكشف موضوع اعتقال كابوتشي في هذه المرحلة .

كان وجه كابوتشي قاتماً ، و قد لاحظت أن يديه ترتعشان و هو يشعل سيجارة و هو داخل الكراج . و عندما شاهد الاستعدادات التي اتخذت للشروع في تفكيك سيارته سيطرت علامات الوجوم على تقاطيع وجهه ، و اقتربت منه و قدّمت له كرسياً كي يجلس عليه . و قد حاول الحديث و لكنه لم يفلح في ذلك . قلت له "بعد الانتهاء من تفكيك سيارتك سأعطيك الفرصة للحديث" . و بدأ في اللعب بأصابعه بصورة الوزراء التي كانت معلّقة على صدره ، بينما أخذ يتمتم ببعض الصلوات . و بطبيعة الحال شعرت بالارتياح بعد إلقاء القبض عليه . ليس من الصعب تصوّر الكارثة التي تجنّبنا وقوعها بفضل اكتشاف الوسائل القتالية التي قام كابوتشي بتهريبها ، و بفضل إلقاء القبض على (المخرّبين) الذين كانت له علاقة معهم .. إنني لا أستطيع فهم ما حدث ، ذلك أن أحد رجال الدين ، الذي من المفروض أن يحاول منع سفك الدماء ، ينضم إلى مجموعة من (المخرّبين) هدفها الوحيد سفك الدماء . و استغرق تفكيك السيارة المرسيدس حوالي أربع ساعات و نصف . جرى خلالها تفكيك جميع أجزاء السيارة . و إخراج جميع

الوسائل القتالية التي كانت مخبّأة فيها و وضعها على شكل كومة خارج السيارة . و في هذه الأثناء كان رئيس جهاز الأمن يجلس في مكاتب الشرطة في مبنى مجاور حيث كان في انتظار الانتهاء من العمل .
إن الكشف عن دور كابوتشي في تهريب الوسائل القتالية كان على درجة من الأهمية ، و لكن الأهم بالنسبة لنا معرفة الجهة التي كانت الوسائل القتالية ذاهبة إليها ، خاصة و أنه وفقاً لجميع الدلائل ، ليست هذه أول مرة يقوم فيها كابوتشي بتهريب وسائل قتالية للمنظمات (التخريبية) في المناطق المحتلة . و قام بإجراء التحقيق فيكتور كوهين ، رئيس شعبة الاستحقاقات في جهاز الأمن العام (الشين بيت) .
في بداية الأمر حاول كابوتشي الادعاء بأنه لم يكن على علمٍ بما وقع في سيارته عندما كانت موجودة في دمشق . و بدت علامات الشحوب على وجهه عندما قلت له إن السلاح كان الغرض منه قتل الأبرياء . و في اعتقادي لم يقدِم كابوتشي على مساعدة حركة فتح حباً للمال و إنما رغبة منه في التعبير عن مساندته للصراع الفلسطيني و دحض جميع الادعاءات و الأقاويل التي تردّدت عن علاقته الوثيقة مع (الإسرائيليين) . في إحدى مراحل التحقيق اعترف كابوتشي أنه قام بتهريب وسائل قتالية بناءً على توجيهات أبي فراس و أنه قام قبل ذلك بتهريب وسائل قتالية و حصل على أموال مقابل ذلك . و بناء على توصيات جميع الجهات التي كان لها علاقة بالتحقيق و توصيات رئيس الوزراء قرّرنا تحويل كابوتشي خلال فترة قصيرة إلى أشبه ما يكون بعميلٍ لنا .
و كان القصد إلقاء القبض عن طريقه على الأشخاص الذين كانت وجّهت السلاح إليهم . و عرضنا على كابوتشي هذا الاقتراح ، و وافق عليه . و أعتقد أنه وافق على التعاون معنا من واقع أمله بأن تكتفي الحكومة بطرده من (إسرائيل) أو أن يحظى مقابل ذلك بتخفيف العقوبة التي ستفرضها المحكمة عليه .
(فيما بعد ، أثناء إفادتي أمام المحكمة ، أوضحت لهيئة المحكمة كيف تعاون كابوتشي معنا ، و لكن المطران لم يكتفِ بذلك ، لقد أصرّ على اقواله بأننا وعدناه بألا نقدّم لائحة اتهام ضده في حالة تعاونه معنا . و بالطبع نفيت هذا الادعاء نفياً قاطعاً) .
و بعدما وافق على التعاون معنا ، حبَكنا له قصة كي يستعين بها في حالة كون أحد الأشخاص رآه عندما استدعِي للتحقيق في شرطة القدس أو في حالة معرفة أحد أقربائه بأمر اعتقاله . و طلبنا منه أن يقول إنه استدعي للتحقيق في مركز الشرطة بالقدس ، بعدما وصل بلاغ من نقطة العبور يفيد أن سيارته كانت أثقل من اللازم ، و لذلك اشتبه بقيامه بتهريب مشروبات روحية .
و في نفس اليوم أطلقنا سراح كابوتشي مع سيارته ، بعدما قمنا بإعادة تجميع أجزائها دون ترك أية آثار . و عندما عاد إلى منزله ، اتضح أن القصة التي قمنا بتلفيقها كانت ضرورية له ، لأنه ما إن أفرج عنه حتى قدم إلى منزله عددٌ من أصدقائه و معارفه لسؤاله عن الأسباب التي دفعت الشرطة إلى استدعائه . و عندئذ قصّ على مسامعهم القصة الملفقة التي قمنا بحبكها و أضاف عليها أشياء من عنده تظهر مدى براعته في التخلّص من الموقف حين قال لهم "لقد خدعت (الإسرائيليين)" . و كان يحكي لهم القصة و بسمة عريضة ترتسم على شفتيه ، "و صدّقوا الرواية التي قالها و مفادها أن السيارة كانت محملة بكتبٍ مقدسة" . خلال عدة أيام تعاون كابوتشي خلالها معنا . و في هذه الفترة تعوّدت و معي رئيس القسم العربي أن نجتمع معه سراً في مستوطنة موتسا المجاورة للقدس ، خلف المنزل المسمّى "البيت الأحمر" . و كان كابوتشي يحضر إلى الاجتماع في سيارته ، و هو في حالة من فقدان الثقة بالنفس و من الشعور بالخوف . كان يرجو بشدة أن نختصر وقت الاجتماع خشية أن تقع عيني أحد معارفه عليه . و في أحد الاجتماعات قمنا بتسليمه حقيبتين كي يضعهما في سيارته ، لأنه وفقا لتعليمات أبي فراس كان من المقرّر أن يوقف سيارته و هي محملة بالسلاح في مكان معين ، و كان من المقرّر أن يحضر العميد إلى المكان و يأخذ السيارة و يقوم بتفريغ الحمولة منها و إرجاعها إليه . و بالفعل قام كابوتشي بتنفيذ المطلوب و قام العميل بالتنسيق معنا ، بوضع الحمولة في مكانٍ معين وفقاً لتعليمات مشغّليه من عناصر فتح . و نحن من جانبنا قمنا بمراقبة الشخص الذي حضر ليأخذ الحقيبتين اللتين كانتا مليئتين بمواد مزيّفة ، و هكذا تمكّنا من اكتشاف مجموعة كبيرة من (المخرّبين) كانت الوسائل القتالية ستصل إليها . في الثامن عشر من آب ، بعدما انتهينا من تشغيل كابوتشي ، قدّم للمحكمة لإصدار أمر لاعتقاله بتهمة تهريب السلاح و المواد (التخريبية) و بتهمة التعاون مع منظمات معادية .
و قدّم كابوتشي للمحاكمة حيث حكِم عليه بالحبس لمدة اثني عشر عاماً . و منذ اللحظة التي أدخل فيها إلى السجن بدأت موجة من طلبات الاسترحام التي قدِمت منه و من جهات مختلفة في العالم المسيحي . بالإضافة إلى ذلك وضع اسمه في رأس قائمة المحرّرين الذين طالبت المنظمات (التخريبية) بالإفراج عنها و استخدامها كورقة مساومة كلما حانت الفرصة و استولى (المخرّبون) على رهائن . و قد رفض جهاز الأمن العام (الشين بيت) جميع طلبات الاسترحام و رفض فكرة الإفراج عن كابوتشي قبل انتهاء مدة محكوميته . و لكن رئيس الحكومة ، مناحيم بيغن ، الذي سعى إلى تحسين العلاقات مع الفاتيكان ، قرّر طرد كابوتشي من (إسرائيل) بعد انقضاء ثلاث سنوات من مدة محكوميته . و أعتقد أن ذلك كان

خاطئاً . فالحقيقة أن المطران ، الذي قوبل بالإعجاب من قبل الفلسطينيين ، عكف في مكان منفاه على نشر الدعاية لصالح المنظمات (الإرهابية) . و في العام 1986 كان من المقرّر أن ينضم إلى سفينة العودة التي كانت بمثابة رمز للعودة الفلسطينية . ففي شباط من العام 1988 تم ترحيل 135 فلسطينياً إلى اليونان الذين كانوا قد طردوا من المناطق المحتلة في العام 1967 . و كان بعضهم من الشخصيات المرموقة مثل عبدالحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني . و كان من المقرّر أن يصعدوا على ظهر السفينة ، مع المئات من رجال الإعلام من جميع أنحاء العالم ، و الوصول إلى شواطيء (إسرائيل) ، كي يطلبوا السماح لهم بالنزول من السفينة ، و مواجهة معارضة من (إسرائيل) ، و بالتالي الإثبات للعالم مدى التعنّت (الإسرائيلي) و وضعنا في موقف حرج أمام العالم . و في نهاية الأمر وقع انفجار غريب في السفينة أدّى إلى إحباط الرحلة . في آذار من العام 1994 ، أثناء وجوده في دمشق ، اجتمع كابوتشي مع وفدٍ من عرب (إسرائيل) كانت تقوم بزيارة لسورية . و قد استقبله أعضاء الوفد بالأحضان و بالقبلات . و أكّد المطران لهم "أن العودة إلى الديار ستكون قريبة" .

كانت لـ (المخرّبين) جدّة يهودية

من جانبنا واصلنا تشغيل العميل الذي ساعدَنا في إلقاء القبض على كابوتشي . و في العاشر من آذار 1990 قتل بعد إطلاق النار عليه من قبل شابين من "القوة الضاربة" التابعة لحركة فتح ، و التي أشاعت (الإرهاب) أيام الانتفاضة . و تم إلقاء القبض على القتلة فيما بعد ، و اتضح من التحقيق معهما بأنهما لم يقصدا قتله و لكن التحقيق معه . و لكن العميل هدّد خلال التحقيق معه بأنه يعرف واحداً منهما ، مما دفع الإثنان إلى قتله في الحال . و حدث القتل عندما قام الشاب الذي تعرّف عليه العميل بطعنه بالسكين في جميع أنحاء جسده حتى فارق الحياة .

و اتضح فيما بعد أنه كان باستطاعتنا تعقب آثار كابوتشي حتى بدون الاستعانة بالمعلومات التي حصلنا عليها من العميل عن قيام المطران بتهريب أسلحة إلى (إسرائيل) . لكن الخيط بأيدينا قبل ذلك ، و قد توصّلنا إليه أثناء التحقيق مع خلية (تخريبية) مدرّبة . لقد كانت خلية فريدة من نوعها : كانت مكوّنة من ثلاثة إخوة من عائلة ملاعبة تسكن بجوار مسجد شعفاط . لقد كانوا ستة أخوة ، و كانت جدتهم يهودية ، و كان أحد الإخوة تهوّد و غيّر اسمه إلى اسم يهودي ، و لكن ذلك لم يصرف الإخوة عن القيام بمهمات (تخريبية) أطارت النوم من أعيننا . و على عكس ذلك أراد الإخوة أن يثبتوا بأنه على الرغم من قرابتهم مع اليهود فإنهم مستعدون للمساهمة في النضال الفلسطيني .

و بدأت القصة عندما "قام أحد الإخوة و اسمه زهير حسن عبدالكريم ملاعبة بزيارة للأردن ، للالتحاق بصفوف فتح . كان زهير يعمل كهربائياً ، و كان يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، و كان قومياً متشبّعاً بكراهيته لـ (الإسرائيليين) . و لدى وصوله إلى الأردن توجّه زهير إلى أحد أقاربه و اسمه حسن أبو نجمة الملقب بأبو داود و الذي كان من العناصر البارزة في حركة فتح . و روى زهير على مسمع أبو داود أنه اشتغل لمدة عدة سنوات عند اليهود – حيث عمل مرة في أحد محلات بيع الحلويات في عمارة جاد بالقدس ، و مرة في شركة "زيجلر للأدوات الكهربائية" . و أنه ضاق ذرعاً من هذه الأعمال . و قال إنه يتطلّع بلهفة إلى اليوم الذي يعبّر فيه عن الشعور الوطني الذي يملأ صدره .

و على عكس المتبع ، لم يتحمّس ابو داود لفكرة ضمّه إلى فتح و قال له "إنك لا تزال شاباً صغير السن ، و عليك أن تواصل مشروع التعليم حتى تنضج ، و ليس من الضروري الآن أن تنفق السنوات الجميلة من عمرك في الحروب" . في الحقيقة يجوز الاعتقاد بأن نصائح أبو داود لم تكن نابعة من واقع حرصه على مستقبل قريبه ، و لكن من شبه المؤكد أنه لم يولِ هذا الشاب المتحمّس الثقة الكافية بعد الأخذ بعين الاعتبار أن الدم اليهودي يسري في عروقه . و لكن زهير أبدى إصراره ، و عاد إلى (إسرائيل) ثم سافر إلى الأردن ثلاث مرات ، حاول كلّ مرة التأثير على أبو داود و إقناعه بأنه عقد العزم على محاربة اليهود . و في نهاية الأمر استجاب أبو داود لطلب زهير ، و قام بإرساله إلى بيروت ، بعدما زوّده برقم هاتف أحد السكان المحليين هناك . وصل زهير إلى بيروت ، و اتصل فوراً هاتفياً مع هذا الشخص ، و بعد مضيّ وقتٍ قصير حضرت سيارة كانت تقلّ مصطفى عيسى اللفتاوي "أبو فراس" ، قائد المنطقة الغربية في حركة فتح ، الذي قام ، كما قلنا ، بتشغيل المطران كابوتشي . و بعدما خرج أبو فراس بانطباع جيّد عن زهير قام بإرساله إلى معسكرات التدريب في سورية و لبنان . و قبل عودته إلى

(إسرائيل) منح زهير لقباً حركياً هو "نادر" . و قد زوّد كذلك بمبلغ من المال ، كي يجنّده في تنظيم أعمال (تخريبية) ضد (إسرائيل) ، و زوّد كذلك بأسماء النقاط الميتة التي كان من المقرّر أن يعثر فيها على السلاح و الذخيرة و المواد (التخريبية) التي سيتم تهريبها من أجله . و أبلغ كذلك بأن الأوامر ستصدر له عن طريق الشفرة التي ستذكر في بيانات يتم بثها عبر إذاعة بيروت .

عاد زهير إلى القدس و بعد ذلك أرسل اثنين من إخوته و هما زكي و رياض ، لتلقي التدريب في سورية . و زهير نفسه انضمّ إليهما فيما بعد كي يتلقى تدريبات خاصة على إطلاق صواريخ الكاتيوشا . و بعد الانتهاء من التدريبات عاد زكي و رياض إلى أرض الوطن . أما زهير فقد سافر إلى بيروت ، حيث قام أبو فراس بترتيب لقاءٍ بينه و بين أحد عناصر فتح ، يدعى "أبو سامح" ، و دار الحديث بين الاثنين ، حيث أكّد أبو سامح على الحاجة إلى تنفيذ اعتداء (تخريبي) كبير في (إسرائيل) يكون الهدف منه زعزعة (الإسرائيليين) و التأثير على روحهم المعنوية . و طرحت خلال الاجتماع عدة احتمالات و اتفق في النهاية على القيام بقتل سائق سيارة أجرة ، و الاستيلاء على سيارته و تفخيخها و وضعها في أحد الأماكن الآهلة بالسكان في قلب مدينة القدس .

و عاد زهير إلى القدس و هو مزوّد بهذه التعليمات و الحماس يملأ صدره و قام بشرح خطة الاعتداء لأخيه . في هذه الفترة كانت المناطق المحتلة تعاني من نقصٍ في المواد (التخريبية) المتطوّرة ، نتيجة للنشاطات الدائبة التي قام بها جهاز الأمن العام (الشين بيت) و تعزيز الرقابة على المعابر الحدودية خاصة مع الأردن . و لكن هذا الواقع لم يصرف الأخوين عن تحقيق مآربهما . فقد قرّرا تنفيذ المهمة التي أنيطت بهما عن طريق اللجوء إلى مواد (تخريبية) بسيطة و متوفرة .

في 14 نيسان من العام 1974 استأجروا سيارة فولكسواجن حمراء اللون ، و اشتروا خزّان وقود و اسطوانة غاز و قاموا بإخفائهما في ساحة منزلهما . و بعد يومين ، في ساعات ما بعد الظهر انطلقت السيارة المأجورة باتجاه مستشفى "أوغسطا فكتوريا" الواقع على جبل الزيتون . و كانوا على حقّ حين افترضوا بأن المنطقة في هذه الساعة ليست مزدحمة بالناس . لذلك تهيّأت الفرصة للاتصال تلفونياً و استدعاء سيارة أجرة من القدس ، و قد وصلت السيارة خلال وقتٍ قصير و قبل أن يتمكّن السائق ، تسيون أبرجيل ، من معرفة غاية الشباب الثلاثة الذين تحوّطوا السيارة ، أشهر زهير مسدساً على السائق و هدّد بالضغط على الزناد إذا أقدم على التفوّه بكلمة واحدة . في غضون ذلك دخل زكي إلى السيارة و انهال ضرباً على رأس أبرجيل و شرع في خنقه . و بعدما فقد السائق الوعي ، انهال الإخوة عليه بالضربات حتى فارق الحياة . و قاموا بجرّ الجثة و وضعها في صندوق السيارة ، ثم انطلقت السيارتان (سيارة الأجرة و سيارة الفولكسواجن الحمراء) باتجاه منزل العائلة في شعفاط . و بسرعة قام الإخوة بربط خزان الوقود و اسطوانة الغاز مع جثة أبرجيل ، و وضعوا إلى جانبها عبوة ناسفة ، و قاموا بتجهيز التوصيلات الكهربائية اللازمة ، و أغلقوا صندوق السيارة و انطلقوا بها إلى شارع بن يهودا في وسط مدينة القدس .

و في الساعة 19.30 أوقفوا السيارة الملغومة في الشارع . و أسرعوا في الانصراف من هناك ، و هم متأكّدون بأن جهاز التوقيت سيعمل بعد ساعة . جدير بالذكر أن زكي كان كهربائياً ماهراً و الإخوة الثلاثة بالإضافة إلى ذلك كانوا قد اجتازوا تدريبات خاصة في معسكرات فتح .

و في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي تلقّيت بلاغاً من شرطة القدس يفيد أن سيارة مشبوهة تقف منذ ساعات مساء اليوم السابق في شارع بن يهودا ، و قام خبراء المتفجّرات في الشرطة فتح صندوق السيارة و وجدوا فيه جثة لم يتمّ التعرّف على هويتها بعد و خزانين للوقود مربوطين بها . و قد تم إخلاء المنازل المجاورة من مكان وقوف السيارة من جميع سكانها ، و منع المارة من الاقتراب من المكان و أغلقت جميع الطرق المؤدّية له . في هذه الحالة ساد القدس جوّ من الهلع .

في وقتٍ لاحق ، بعدما عاد الهدوء إلى المنطقة اتضح أن العبوة لم تنفجر بسبب عطل فنّي في جهاز التفجير و لكن عندما وصلنا إلى السيارة ، أخذنا بعين الاعتبار احتمال انفجار العبوة في كلّ لحظة ، و لذلك توجّب علينا إبطال مفعولها في أسرع وقتٍ ممكن . و خطر ببالي أن إحدى السيدات التي تعمل معنا ، و اسمها داليا ، زوجة الكولونيل ميرتشي ، قائد وحدة إبطال مفعول العبوات الناسفة التابعة للجيش (الإسرائيلي) . و في الحال قمت باستدعائه ، و خلال ساعة كانت الأعصاب خلالها مشدودة حضر و معه طاقم من المتخصّصين في إبطال مفعول العبوات ، و كانوا يرتدون ملابس واقية . لقد كان ميرتشي رجلاً قوياً من مواليد يوغسلافيا . و بعد ما ألقى نظرة على السيارة و على جهاز التفجير الموجود بداخلها اقترح أن نحاول نقل السيارة أولا إلى موقف للسيارات في القشلة ، في البلدة القديمة . و قرّرنا عدم تكليف أي شخصٍ بقيادة السيارة نظراً للخطر الكامن فيها ، لذلك قمنا بربطها مع عمود جرّ طويل و قمنا بربط العمود مع سيارة جيب ، و سار الجيب ببطء شديد ، حتى وصلت السيارة إلى مكانٍ مكشوف ، عندئذ تقدّم ميرتشي من السيارة و بدأ في العمل بالتعاون مع رفاقه . لقد استغرقت عملية تفكيك العبوة عدة

ساعات ، كان الجميع خلالها في حالةٍ من التوتر . و بعدما انتهت العملية بسلام تنفسنا الصعداء . و من الطبيعي لم يكن هناك ما يدعو إلى الذهاب بعيداً لمعرفة ما كان سيحدث لو لم نقم بالاستيلاء على السيارة .

و بالطبع احتلّ حادث قتل السائق و قصة محاولة تفجير السيارة المفخّخة في القدس عناوين بارزة في وسائل الإعلام العالمية . و قام المسؤولون في فتح باستدعاء الإخوة الثلاثة إلى سورية ، حيث حاولوا معرفة الأسباب التي حالت دون انفجار السيارة . و على الرغم من فشل العملية أثنى المسؤولون في فتح على الإخوة و كالوا لهم المديح بسبب إقدامهم على مثل هذه المحاولة ، و قاموا بإرسالهم لتلقّي التدريبات على إطلاق صواريخ الكاتيوشا . و كانت المهمة التي أنيطت بهم بعد انتهاء التدريبات إطلاق الصواريخ على إحدى المباني الهامة ، كأحدى الوزارات الحكومية أو أحد الفنادق عند نزول أحد الشخصيات السياسية الهامة به . و حسب ما علِمنا كانت هذه أول مرة من المقرّر أن تقوم فيها خليّة (تخريبية) بتنفيذ اعتداء مسلح بصواريخ الكاتيوشا من داخل منطقة (إسرائيلية) . اجتمع أبو فراس معهم و أبلغهم بتعليمات واضحة مفادها أنه يتوجّب عليهم في السابع من أيّار أن يوقِفوا سيارتهم دون أن يقفلوا أبوابها في مكانٍ معين في قرية بيت حنينا و أن ينصرفوا من هناك لمدة نصف ساعة .

و لدى عودتهم كان من المقرّر أن يجِدوا صواريخ كاتيوشا في السيارة و قنابل و راجمات بازوكا صغيرة ، و مواد (تخريبية) و أجهزة توقيت . و تم إرسال زكي و رياض إلى القدس مرة ثانية أما زهير فقد بقيَ في بيروت .

إن شخصية أبو فراس القاتمة لم تخفِ حقيقة كونه رجلاً ذكياً و ماكراً. فقبل أربعة أيام من الموعد الذي طلب فيه من الإخوة أن يحضروا سيارتهم إلى بيت حنينا التقى مع زهير في بيروت ، و أبلغه أن الخطة تغيّرت و قال له "لقد أخذت بعين الاعتبار احتمال إلقاء القبض على إخوتك من قبل أجهزة الأمن (الإسرائيلية) لدى دخولهم إلى (إسرائيل) عبر الجسر .

و في حالة التحقيق معهم ، سيضطرون إلى الاعتراف عن النقطة الميتة التي حدّدت في بيت حنينا . و في هذه الحالة سيذهب (الإسرائيليون) إلى هناك حيث لن يجدوا شيئاً .

"و الآن بعدما اتضح لي أن إخوتك عادوا إلى بيوتهم بسلام ، باستطاعتي أن أكشف لك عن المكان الحقيقيّ للنقطة الميتة . عليكم الذهاب إلى بيت حنينا و أن توقفوا السيارة في مكانٍ آخر ، و في الساعة الثامنة و النصف مساء ستدخلون إلى مدرسة الكنيسة الكاثوليكية و أن تقوموا بالبحث عن الوسائل القتالية في غرف دورات المياه ، هناك ستجدون ثلاث حقائب و فيهم صواريخ الكاتيوشا و القنابل" .

لقد عمل الإخوة الثلاثة بإخلاص لصالح حركة فتح ، و لكن النقود التي تلقوها لم تكن تكفي للإنفاق عليهم و لتغطية نشاطاتهم . كانوا يعمَلون في التركيبات الكهربائية و الصيانة و في اليوم الذي كان من المقرّر أن يحصلوا فيه على الحقائب من غرف دورات المياه في المدرسة ، استدعِي اثنان منهم على سبيل الصدفة لتركيب أنتين تلفزيون على أحد البيوت المجاورة . و عندما كانت الشمس تميل إلى الغروب شاهدا سيارة مرسيدس سوداء و هي تدخل إلى ساحة المدرسة حيث استدار الجانب الخلفي منها باتجاه مدخل المبنى . لقد كانت سيارة المطران كابوتشي .

شاهدا الإخوة رجلين و هما يخرجان من السيارة ثم دخلا إلى ساحة المدرسة و أخرجا الحقائب من غرف دورات المياه .

و الآن و بعدما أصبحت صواريخ الكاتيوشا بحوزتهما ، كان عليهما أن يحدّدا الهدف الذي ستطلق عليه هذه الصواريخ . لقد طرحت عدة احتمالات ، و وقع الاختيار على فندق الملك داود ، الذي كان من المقرّر أن ينزل فيه وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر ، الذي كان يقوم بجولة مكوكية بين (إسرائيل) و مصر بهدف إنجاز اتفاقية السلام بينهما في أعقاب حرب يوم الغفران . قاموا بنصب صواريخ الكاتيوشا فوق جبر المكبّر القريب من قصر المندوب السامي و صوّبوها باتجاه الفندق .

و في مكانٍ آخر من المدينة قاموا بإعداد جهازٍ ارتجاليّ لإطلاق البازوكا باتجاه حي المصرارة . و كان الهدف إطلاق الصواريخ في وقتٍ واحد .

في نفس المساء ، قبل أن يحين موعد إطلاق الصواريخ بوقتٍ قصير ، مر أحد البدو في الطريق المؤديّة إلى تل الغول ، و هي تلة تقع بين القدس الغربية و حي نفيه يعقوب ، و قد أقيمت عليها أسس المبنى الذي كان ينوي الملك حسين استكماله و جعله قصراً له ، و كان قد شرع الملك في بنائه قبل حرب الأيام الستة . و فجأة مزّق الصمت صوت سيارة مقتربة . وقف البدوي وراء سياجٍ كان في المكان و رأى السيارة و هي تسير بالقرب منه . و أثناء سيرها فتح أحد الأبواب و ألقيت حقيبة إلى خارج السيارة . ثم أقفل باب السيارة ، و بعد عدة دقائق اختفت السيارة . اقترب البدوي من الحقيبة و هو يعتقد أنه ربما كانت تحتوي على أشياء ثمينة . و عندما قام بفتح الحقيبة وجد فيها مواد (تخريبية) و سلاحاً و ما كان منه إلا أن أسرع إلى استدعاء الشرطة . و حسبما هو متّبع تلقّينا في الحال بلاغاً من الشرطة و أسرع

رجالنا إلى المكان . لم يكن لدينا أدنى شكّ بأن أحد الأشخاص قام بإيداع الحقيبة في مكانٍ متّفق عليه مسبقاً كي تقوم خلية (تخريبية) بأخذها .
لقد حصلنا من البدوي على خيط معلومات دقيق ذلك أنه تمكّن من التعرّف على أحد ركاب السيارة و هو شخص من عائلة ملاعبة . و في الحال انطلقنا إلى الحيّ الذي يقيم فيه أبناء العائلة و معنا قوات كبيرة من الشرطة و حرس الحدود ، و فرضنا طوقاً شاملاً على المنطقة كي نتمكّن من العثور على أبناء عائلة ملاعبة ، في ذلك الوقت كان الإخوة الثلاثة منشغلين بوضع صواريخ الكاتيوشا على جبل المكبّر . لاحظ أحدهم أن شخصاً يراقبهم من أحد البيوت المجاورة . و على الرغم من أن الأوامر الصادرة لهم تنصّ على ضرورة القيام بقتل أي شخص يشتبه أنه يراقبهم ، فقد نشب خلاف بين الإخوة . طلب زهير أن يقوموا بقتل الشخص الذي كان يراقبهم و زوجته التي كانت تقيم معه في نفس المنزل . و لكن أخواه عارضا هذه الفكرة بشدة . و في النهاية تقرّر عدم اللجوء إلى القتل و مغادرة المكان و العودة إلى البيت . في الحقيقة لم ينسجم هذا القرار مع إصرار هذه العصابة و كان ذلك ثغرة حقيقة في سلوكها المعروف بالعناد و القوة .
عاد الثلاثة إلى شعفاط في سيارة البيجو التي كانوا يمتلكونها . و عندما شاهدوا ما يجري في المكان أدركوا أن قوات الأمن (الإسرائيلية) اكتشفت أمرهم . و في الحال قاموا بتلفيق قصة كي يحتالوا بها على تصرّفاتهم ، و اتفقوا على أن يعود زهير إلى المنزل بالسيارة و يدّعي أنه كان عائداً من العمل . أما الأخوان الآخران فقد اتفق على أن يصلا فيما بعد مشياً على الأقدام و أن يقولا بأنهما كانا في نزهة . و قبل ذلك قاموا بوضع السلاح الذي تبقى في السيارة في معطف قديم و قاموا بإلقائه و التخلّص منه .
و حسبما تم الاتفاق عليه ، عاد زهير إلى البيت في السيارة ، و بعد مضيّ وقتٍ قصير حضر الأخوان الآخران . و قد تم اعتقال الإخوة الثلاثة و أحضروا إلى التحقيق في مركز شرطة المسكوبية في القدس .
و في نفس الوقت أطلقت صواريخ الكاتيوشا بصورة تلقائية وفقاً للخطة التي رسمها الإخوة . ثلاثة صواريخ أطلقت باتجاه حيّ المصرارة و لكن لم تقع إصابات في الأرواح ، و أحد الصواريخ التي وضعت على جبل المكبر عثرت قوات الأمن فيما بعد عليها . و بعد عدة أيام تم العثور على الأسلحة التي تخلّص منها الإخوة في أحد الحقول بالقرب من منزلهم .
جرى التحقيق مع الإخوة ببطىء شديدٍ لأنهم رفضوا في البداية التعاون مع المحققين . و قد قمنا بعقد لقاءات بينهم و بين أقاربهم بهدف الوصول إلى شيء و لكن ذهبت هذه الجهود هباء . و في مرحلة معينة اقترح أحد المحققين أن نعزف على أحد الأوتار الحساسة لدى الإخوة بأن نذكّرهم بأن جدتهم يهودية . و بالفعل قمنا بإحضار الجدة و لكن اتضح لنا أن هذا كان تصرّفاً خاطئاً من جانبنا . و قالوا للمحققين : "لو كان الأمر بأيدينا لا مانع من شنقها على شجرة ، و سنقوم بمساعدتكم في فعل ذلك" .
و في الوقت الذي التزم فيه الإخوة الصمت و رفضوا التعاون مع المحققين ، حاولنا أن نتعرّف على كيفية وصول المواد (التخريبية) إليهم . فقد كانت الحدود مغلقة تماماً أمام أية محاولة للتهريب . كان السياج الحدودي مراقباً بواسطة دوريات مستمرة بحيث أصبح من الصعب التسلل عن طريقه . و هكذا لم يبقَ أمامنا سوى التركيز على احتمال التهريب عبر نقاط العبور الحدودية الرسمية التي يسمح لبعض الشخصيات بدخولها دون الخضوع للتفتيش الأمني . و من هذه الشخصيات المطارنة على سبيل المثال .
و بعدما تمكّنا من انتزاع الاعتراف من الإخوة ، اتضح لنا أنهم حصلوا على ثلاث حقائب مليئة بالوسائل القتالية من مدرسة بيت حنينا حيث يقيم المطران كابوتشي .
و على ضوء معرفتنا لهذا الشخص و تصرّفاته الفاسدة و مواقفه الوطنية لم يكن من الصعب علينا الربط بين الأشياء . و هكذا قرّرنا مراقبته و التنصّت على اتصالاته الهاتفية . و فيما كنا منشغلين بذلك أكّد العميل صحة الشكوك التي كانت تساورنا .
في الثامن من آب اعتقل كابوتشي عندما كان يهرّب المزيد من الأسلحة و الوسائل القتالية و هكذا أسدل الستار على هذه القضية .
أما الإخوة الثلاثة من عائلة ملاعبة فقد قدّموا للمحاكمة و حكم عليهم بالحبس المؤبد ، و لكن أفرج عنهم في إطار صفقة أحمد جبريل . أما زهير فقد غادر البلاد إلى الأردن ، و تزوّج و فتح محلاً تجارياً للأدوات الكهربائية في عمان .
و بعد مضيّ عدة سنوات قام بزيارة عائلته في شعفاط بعدما تحايل على السلطات (الإسرائيلية) و قام بتزييف اسمه ، و لكن جهاز الأمن العام اكتشف الحيلة و قام بطرده من البلاد . و أما زكي فقد ذهب إلى الأردن و أصبح اليد اليمنى لأبي فراس و قام بتجنيد عددٍ من (المخرّبين) . و حاول التسلل إلى (إسرائيل) بواسطة شهادات مزيفة و لكن اكتشف أمره و طرد من البلاد و بعد ذلك مكث فترة في مصر . و أما الأخ الثالث رياض فلا تتوفر معلومات عن مكان وجوده .

و بعد اعتقال الإخوة قامت قوات الأمن (الإسرائيلية) بهدم منزل عائلة ملاعبة عن بكرة أبيه و كانت المرة الأولى و الأخيرة التي قامت فيها قوات الأمن بتفجير منزلٍ في القدس ، حيث جرت العادة بعد ذلك على الاكتفاء بسد المنزل و منع السكان من الإقامة فيه . و الساحة التي كان المنزل مقام عليها تحوّلت الى رمز قومي حيث تعوّد الفلسطينيون أن يقيموا فيها الإضرابات و المظاهرات ضد الاحتلال (الإسرائيلي) .

و فيما بعد اجتمعت مع أبي فراس في رام الله بعد تعيينه محافظاً لمنطقة رام الله من قبل السلطة الفلسطينية ، كان في الستينيات من عمره . و في جوّ ودّي استعرضنا معاً تفاصيل قضية كابوتشي و محاولات أبي فراس تهريب وسائل قتالية عن طريق موظفي الأمم المتحدة و محاولاته تنفيذ اعتداءات مسلحة في الضفة الغربية .

و قد تطرّقنا إلى بعض التفاصيل دون الإشارة إلى أسماء الأشخاص الذين قام بتنظيمهم و قمنا بإلقاء القبض عليهم . و خلال السنوات التي تلت قضية كابوتشي و عائلة ملاعبة استمرت المنظّمات في تهريب الوسائل القتالية إلى المطلوبين ، و مع ذلك تمكّنا من الكشف عن عددٍ كبير منها . و من الحوادث الفريدة التي وقعت في العام 1983 حين قمنا باعتقال شابٍ من قرية عين أثناء مروره بجسر اللنبي عائداً من الأردن . لقد ادعى الشاب أنه سافر إلى الأردن ليلتحق بالجامعة في عمان كما كان يفعل غيره من الشباب من سكان الضفة الغربية .

و حسب المعلومات التي توفّرت لنا سافر الشاب إلى الأردن كي يلتحق بالجبهة الديمقراطية بقيادة نايف حواتمة . و خلال التحقيق معه انهار الشاب و اعترف بذلك و أبلغ المحققين أنه كان من المقرّر أن يجتمع في رام الله مع مبعوثٍ من قبل التنظيم بعد وصول الأخير من لبنان كي يسلّمه وسائل قتالية و يحصل منه على تقريرٍ مفصّل عن تجمّعات السائحين في (إسرائيل) و عن مواقع الفنادق و الأماكن السياحية فيها ، و عن المصانع و السفارات الأجنبية و ذلك بهدف التخطيط لتنفيذ انفجارات .

و في اليوم الذي حدّد للاجتماع ، نصب رجالنا كميناً في المكان الذي كان من المقرّر أن يلتقي عنده الإثنان في رام الله .

و انتحل أحد رجال المخابرات (الإسرائيلية) شخصية الشاب العربي من قرية عين و أمسك بيده علامة التعارف المتفق عليها و هي نسخة من صحيفة "الهدف" اللبنانية .

و في الساعة المحدّدة وصلت إلى المكان سيارة من نوع "بي.أم.دابليو" تحمل لوحات ترخيص لبنانية . و هذا الأمر لم يكن شاذاً لأن (إسرائيل) كانت قد منحت تصريحاً لبعض الشخصيات من الجنوب اللبناني بالدخول إلى أراضيها مع سياراتهم الخصوصية . توقفت السيارة إلى جانبه حيث كان بداخلها شابان من سكان جنوب لبنان و عندئذ انطلق رجالنا من الكمين و بسرعة فائقة قاموا بإلقاء القبض على الشابين دون أن يلاحظ ذلك أحد المارة في الطريق و نقِل الشابان إلى أحد منشآت التحقيق التابعة لجهاز الأمن العام حيث أحضرت سيارتهما و بعد فحص السيارة اكتشف أنها تحتوي على مخبأ بين الكرسي الخلفي و صندوق الحمولة في السيارة .

و لم يتمكّن أحدٌ من اكتشاف هذا المخزن أثناء عبور السيارة الحواجز اللبنانية المقامة على طريق بيروت و حواجز قوات الأمم المتحدة و الحاجز الحدودي في رأس الناقورة . و لدى الفحص اكتشفنا في المخزن رشاشاً و خزنات مليئة بالرصاص و قنابل يدوية و أجهزة كهربائية تستخدم في تركيب العبوات الناسفة .

الرؤيا خلال ثقب القفل

يعتبر قسم الإرشاد فرن الصهر في جهاز الأمن العام (الشين بيت) ، في هذا القسم يتم تأهيل و تجريب رجال الجهاز وفقاً لقدراتهم و وفقاً لمتطلبات الجهاز ، و في هذا القسم يمكن معرفة كلّ شيء عن أي شخص و تمييز المتفوّق و المجالات التي يصلح لها كلّ شخص و من هو المتخلّف بالمقارنة مع الآخرين ، و معرفة إلماماتهم بالأمور بشكلٍ كبير و من لا يولي أهمية كبيرة لها . في هذا القسم الذي كان يشرف على إدارته إبراهام أخينوف ، كان الرجال يتعلّمون حب القيم ، و الدوافع و الإخلاص للعمل . و من بين آلاف الأشخاص الذين اجتازوا امتحانات التصفية الدقيقة ، و بعد ذلك اجتازوا الدورات المكثّفة التي كان ينظّمها قسم الإرشاد و التي كان يركّز فيها على غرس مبادىء الجهاز في نفوس الدارسين ، كان هناك

عددٌ قليلٌ من الأشخاص الذين لم يتوقفوا في ذلك . كان خريجو قسم الإرشاد من أمهر الرجال ، الذين يفخر بهم الجهاز . لذلك اعتبرت الأمر شيئاً عظيماً عندما اقترح عليّ أخينوف رئيس الجهاز ، الانتقال من منطقة القدس و الضفة الغربية إلى رئاسة قسم الإرشاد .

تسلّمت مهام المنصب الجديد في الأول من تشرين الثاني من العام 1975 ، و أسندت ليَ مهمة رئاسة قسم الإرشاد في وقتٍ كان هذا القسم في بداية تشكيله ، و كان عدد الطاقم العامل فيه بسيطاً حيث كان يضم : رئيس القسم و سكرتيرته ، و مجموعة من المدرّبين الذين يعملون في التدريب على إطلاق النار ، إلى جانب عددٍ من المسؤولين في مجالات مختلفة . كان القسم تابعاً لرئيس قسم التخطيط و التنسيق ، و حيث إن هذا القسم لم يكن قد تمّ تعيين رئيس له ، فقد أسندت إدارة القسم إلى رئيس الجهاز . و بعدما تولّيت منصب رئيس قسم الإرشاد أصبحت تابعاً بصورة مباشرة لرئيس الجهاز الأمر الذي كان شرفاً عظيماً بالنسبة لي . كان أخينوف معلّماً و مرشداً من الطراز الأول ، و كانت له مؤلّفات في مواضيع الإرشاد . و على ضوء ذلك أولى عناية كبيرة لموضوع الإرشاد ، الأمر الذي جعله يهتم بصفة خاصة بالقسم الذي أسندت إلى رئاسته . و أدركت أنني سأحظى باحترامٍ خاصٍ من قبله و أنه سيحرص على "تدريبي و توعيتي بالسبل اللازمة لتطوير قسم الإرشاد" .

كان العمل في قسم الإرشاد يقوم على أكتاف مرشِدين خبراء على اطّلاع بما يجري في الميدان ، و كانوا على اطّلاع بآخر ما توصّلت إليه علوم الإرشاد ، و كانوا كذلك من ذوي الخبرات الواسعة في مجالات العمل الميدانية . و كان الهدف الاستعانة بهؤلاء المرشدين لتدريب رجال الجهاز على أحدث ما توصّلت إليه علوم الإرشاد .

و مع مضيّ الزمن بدأ قسم الإرشاد في التوسع ، و قد حملنا على كاهلنا مهمات كثيرة و متعددة في مجال الإرشاد . على سبيل المثال ركّزنا بصفة خاصة على موضوع الحراسة ، الذي حاولنا من خلاله تغطية جميع مواضيع الحراسة المخصّصة لحماية السفارات ، و الطائرات ، و المؤسسات (الإسرائيلية) في الخارج و غير ذلك من المواضيع . و في هذا الإطار ركّزنا على موضوع التدريب على إطلاق النار ، و خاصة للأشخاص الذين يقومون بحراسة الطائرات . و قمنا ببلورة تعليمات مفصلة للحراس – في الطائرات ، و في المطارات ، و في مكاتب شركة "إل عال" – تحسّباً لتعرّضها لاعتداءات (تخريبية) . و استعنّا في هذا المجال بشخصٍ يُدعى دايب بكرمان ، كان قد حصل على خبرة في هذا المجال من الجيش الأمريكي و كان يتحدّث اللغة العبرية بطريقة مثيرة للضحك حيث كانت مخلوطة بكثيرٍ من الكلمات الإنجليزية ، و كان هذا الشخص خبيراً متمرساً في موضوع الحراسة ، و ساهم بالتالي مساهمة كبيرة في تطوير هذا الموضوع . لقد عمل في الجهاز كخبيرٍ من خارج الجهاز و مع ذلك حظيَ باحترامٍ كبيرٍ من جميع العاملين فيه بحيث أصبح يشعر و كأنه واحد منا . كانت أول مهمة ألقيت على عاتقي ، هي إعداد كتابٍ خاص في موضوع الإرشاد حول الوسط العربي تحت عنوان "علم التغطية الأساسي" . و كان الهدف استعراض المشاكل الفنية التي يمكن أن يتعرّض لها رجل المخابرات أثناء أداء مهماته الميدانية . منها على سبيل المثال كيفية العثور على مصدر معلومات قيم ، و ما هي المصادر الملائمة للحصول على معلومات استخبارية في مجال معين ، و كيفية تجنيدها في خدمة الجهاز .

تعوّدت أن أقوم بإعداد مادة الكتاب في ساعات الليل ، و كنت أقدّم المادة العلمية التي أقوم بجمعها لأخينوف الذي كان يقوم بتعديلها و حذف ما يمكن حذفه منها حتى انتهيت من إعداد الكتاب . كانت المادة العلمية من أولها إلى آخرها (إسرائيلية) صرفة و قامت على أساس الخبرة و المعلومات التي اكتسبتها خلال عملي في الجهاز . و على مدى بضع سنوات كانت مادة الكتاب خلالها تدرّس للعديد من رجال الجهاز العاملين في الخدمة الميدانية ، و قد اكتسب الكتاب شهرة عالمية . و قامت جهازات استخبارية مشدّدة في دول العالم باستدعائي لإلقاء محاضرات في المواضيع الاستخبارية .

و بعد مضي أكثر من عامٍ تم تعييني نائباً لرئيس القسم العربي ، و أنيطت بي مهمة تطوير قسم الأبحاث في الشؤون العربية . منذ عدة سنوات كان الجهاز يفتقر خلالها إلى وحدة مستقلة للبحث في هذا الميدان . كان يستعين بالأبحاث التي تقوم بإعدادها الاستخبارات العسكرية و وزارة الخارجية ، و بأبحاث من إعداد وحدة بحثٍ صغيرة كانت تابعة لوزارة الخارجية . و حسب تصوّراتي كان من الصعب تحمّل المسؤولية . كان جهاز الأمن العام يفضّل الانشغال بجمع المعلومات و ترتيبها و توزيعها ، حيث كانت المسؤولية عن استخلاص النتائج الملقاة على جهاز الاستخبارات العسكرية . و بعدما تولّيت المنصب الجديد حاولت أن أضفي على أبحاث الجهاز صفة الاستقلالية ، مع أن الانطلاقة الحقيقية في هذا المجال لم تحدث إلا بعد مضيّ زمن طويل . بعد قيام الانتفاضة في كانون الأول من العام 1987 عندما ألقيت على جهاز الأمن العام (الشين بيت) مهمة تقويم الوضع لدى عرب (إسرائيل) و سكان المناطق المحتلة . و في هذه الفترة تردّدت أقاويل حول قدرات جهاز الأمن العام في مجال البحث و قيل إن الجهاز كان قادراً على التنبؤ بموعد حدوث الانتفاضة في وقتٍ مسبق قبل حدوثها . و على الرغم من أهمية الأبحاث التي كان

جهاز الأمن قد أجراها فإنني أعتقد بأن هذا الادعاء لم يكن صحيحاً . حقاً كانت هناك علامات تدلّ على احتمال وقوع الانتفاضة ، و لكن كان من الصعب على أي بحثٍ مهما كان سابقاً لأوانه التنبؤ بالموعد الدقيق لانفجار الانتفاضة .

من المعروف أن جهاز الأمن العام تابع بصورة مباشرة لرئيس الوزراء ، حيث يقوم رئيس الجهاز برفع تقارير مباشرة له . و في الفترة التي تولّى فيها إسحاق شامير رئاسة الحكومة ، لم تكن الاجتماعات بين رئيس الجهاز و رئيس الحكومة تعقد وفقاً لجدول زمني محدّد ، و إنما كانت تعقد وفقاً لمقتضيات الأحوال . و لكن بعد قضية الحافلة رقم 300 أصبحت الاجتماعات بين الإثنين تعقد في موعدٍ محدّد و ثابت بمعدل مرة في الأسبوع . و أصبح بعد ذلك من حقّ رئيس جهاز الأمن العام أن يرفع تقريراً أسبوعياً لرئيس الوزراء خلال اجتماعه معه بصفة شخصية ، و أصبح من حقه المشاركة في جلسات الحكومة و في جلسات المجلس الوزاري المصغر للشؤون الأمنية .

أخينوف لم يكن على علاقة حميمة مع إسحاق رابين ، كان أخينوف لا يتحمّس للاجتماع مع رابين ، و كان رابين من جانبه ، لأسباب خاصة ، لا يشتاق للاجتماع مع أخينوف . في أكثر من مرة كان أخينوف يطلب مني الذهاب إلى رابين و الاجتماع معه و إطلاعه على بعض المواضيع و كان يهمس في أذني قائلاً : "إذا سأل عن أسباب عدم مجيئي ، أخبره أنني في مهمة خارج المدينة" . و عندما كنت أتذرّع بهذه الحجة أمام رابين كان لا يبدي اهتماماً كبيراً و لا يسأل المزيد من الأسئلة .

يبدو لي أن منظومة العلاقات بين الرجلين تأثرت بالاختلاف القطبي في تركيبة شخصيتهما و في مزاجهما المتناقض . كان رابين شخصاً منطوياً و خجولاً . أما تصرّفات أخينوف كانت مقابل ذلك شديدة و حازمة و واضحة . و حسبما علم من مجريات الأمور أن الخلاف بين أخينوف و إسحاق رابين احتدّ في أعقاب الانتخابات البلدية في المناطق المحتلة التي أجريت في العام 1976 ، حيث فازت منظمة التحرير الفلسطينية بنصيبٍ كبير في هذه الانتخابات . في ذلك الوقت شنّ شمعون بيرس الذي كان يعمل وزيراً للدفاع حملة شعواء ضد إسحاق رابين بوصفه المسؤول عن جهاز الأمن العام (الشين بيت) و ادعى أن الجهاز عجز عن التنبؤ بنتائج الانتخابات و تسبّب في حدوث ضررٍ كبير . و لكن رابين دحض دعوى بيرس و دافع عن هذه التهمة الموجّهة لجهاز الأمن العام ، و مع ذلك لم يخفِ مشاعر خيبة الأمل من أداء رئيس الجهاز أخينوف .

في أحد الأيام طلب مني أخينوف الحضور إلى مكتبه . و عندما دخلت إلى المكتب سألني "هل لديك قميصاً أبيضاً يا بري ؟" قلت له على سبيل الفكاهة "ليس لي ، و لكن يمكن أن أشتري واحداً إذا لزم الأمر" . قال لي "اعتباراً من اليوم ، يتوجّب عليك الذهاب إلى منزل رابين في كلّ يوم سبت في ساعات الظهر و أن ترفع له تقريراً مفصلاً عن نشاطاتنا قبل انعقاد جلسة الحكومة يوم الأحد من كلّ "أسبوع" . و أعطاني رقم تلفون رابين في المنزل ، و منذ ذلك الوقت اعتدت الاجتماع مع رابين كلّ يوم سبت ، و إطلاعه على آخر التطورات على الساحة الفلسطينية ، و على المواضيع المتعلّقة بالأمن الداخلي و غير ذلك من المواضيع . كان رابين يصغي لأقوالي ، و اعتاد أن يطرح بعض الأسئلة الهامة ، و لكنه كان يعتمد اعتماداً كبيراً على التقارير التي كنا نقدّمها له .

كذلك اعتدت الاجتماع في أوقات متقاربة مع وزير الدفاع ، شمعون بيرس ، في إطار وظيفتي كنائب لرئيس القسم العربي . كانت الاجتماعات معه تكتسب طابعاً هاماً للغاية و كانت تتركّز على مواضيع فنية قيمة . تعوّدنا أن يخاطب أحدنا الآخر بصفة شخصية و ودية و لكنه حرص كلّ الحرص على التركيز على الأمور المهنية و لم يتطرّق أبداً إلى أسئلة تتعلّق بحياتي الشخصية . و مثله مثل رابين كان بيرس يولي أهمية كبيرة لعمل جهاز الأمن العام (الشين بيت) . و لكن على عكس رابين ، كان أحياناً يتلقى تقارير جهاز الأمن العام بشيء من التحفّظ و كان يتلقاها على علاتها . كان بيرس يمتاز بروح التمرّد و كان يشك في الأمور . كان يقول لي دائماً "أنظر يا يعقوب ، أنتم في جهاز الأمن العام تشبهون الشخص الذي ينظر إلى داخل البيت من خلال فتحة القفل . إن ما ترونه هام للغاية ، بطبيعة الحال ، لا ترون جميع موجودات البيت ، إنكم ترون ما يمكن أن يسمح لكم ثقب القفل برؤيته ، أنا بصفتي وزير الدفاع ، من واجبي أن أرى ما بداخل البيت كلّه ، لذلك تراني أحياناً متّفقاً مع توصياتكم و أحيانا غير متفق معها" .

لقد شعرت في أكثر من مناسبة أن تقويماتي للأوضاع تضع عصا بين عجلات العربة المنطلقة و أنها تعرقل سير مشاوره و تطلعاته السياسية . و مع ذلك كان الصدام بين بيرس و جهاز الأمن العام (الشين بيت) قليلاً بالمقارنة مع صداماته مع أجهزة الأمن الأخرى ، خاصة و أن مهماتنا كانت منصبة على المشاكل الداخلية ، و لم تكن تتعدّى ذلك إلى المواضيع الإقليمية . كان بيرس يحرص على جمع المعلومات من أيّ مصدر مهما كان ، سواء من وزارة الخارجية ، أو من حواره مع الدبلوماسيين ، أو من الصحف المختلفة . و بعد ذلك كان يتوصّل إلى التقويمات الخاصة به و التي كان يتصرّف بموجبها .

التنظيم السري يفاجىء "الشاباك"

في مساء يوم السبت الموافق الثاني من أيام من العام 1980 ، كانت مجموعة من سكان "كريات أربع" يبلغ عددها ثلاثين شخصاً في طريق عودتها بعد الصلاة في الحرم الإبراهيمي إلى "بيت هداسا" في الحيّ العربي من مدينة الخليل . و قبل أن تتمكّن المجموعة من عبور الفتحة أطلقت عليهم نيران الرشاشات من ثلاثة مصادر و ألقيت باتجاههم ست قنابل يدوية .

على إثر ذلك قتِل ستة من المصلّين ، و أصيب ستة عشر آخرين . و أعلنت فتح مسؤوليتها عن الحادث . و بعد مضي حوالي أربعة أعوام على وقوع هذا الحادث ، عندما اعتقل مناحيم ليفني ، من رؤساء المستوطنين في الخليل ، بتهمة انتمائه لعصابة يهودية ، ردّد على أسماع المحققين المشاعر التي انتابته عند وقوع الحادث و قال : "تم تنفيذ القتل على خلفية تحريض آخذ في الازدياد في الشارع العربي ضد اليهود" . كان هذا التحريض مصحوباً بعنف كلامي و جسماني ، و قد وجد تعبيراً له في قذف الحجارة ، و إحراق إطارات السيارات ، و الخروج في مظاهرات ، و إغلاق الطرق . و استمرت لجنة التوجيه الوطنية في ممارسة التحريض الشديد حتى بعد وقوع حادث القتل . ادعى المستوطنون أن الأجهزة الأمنية لا تؤدّي دورها على الوجه الأكمل من أجل حمايتهم ، صدرت الأوامر إلى الجنود تحظر عليهم إطلاق النار ، حتى في الهواء . لقد تحوّلت ظاهرة قذف الحجارة و هروب الجنود إلى شيء روتيني . انتشر الخوف في أرجاء كريات أربع . ألغى بعض أرباب الصناعة برامجهم لإقامة مصانع في المنطقة ، و حاولت عدة عائلات مغادرة المستوطنة ، و بعض العائلات التي كانت في طريقها للانتقال إلى كريات أربع ألغت خطتها . لقد ألقت الصدمة و الضياع ظلاً كئيباً على سكان المستوطنة . ساد الشعور بأن الحكومة أهملت تماماً هؤلاء الناس . كان من الواضح أن استمرار فعاليات لجنة التوجيه الوطنية ، التي حظيت بالتأييد من قبل الجماهير العربية المتحمّسة ، يشكّل خطراً على حياة اليهود في يهودا و السامرة . أما في كريات أربع فقد التهبت المشاعر ، و كان هناك من دعوات إلى ضرورة تنفيذ اعتداء عام ضد السكان العرب لتحذيرهم و ردعهم عن ارتكاب اعتداءات مسلحة أخرى ضد المستوطنين اليهود" .

و خلال اجتماع تضامني عقد بعد الكارثة في "بيت رومينو" في الخليل دعا الحاخام ليفنجر ، من زعماء المستوطنين ، إلى القيام بعملية انتقامية ضد العرب . و قد أيّد ذلك الحاخامان دوف ليئو و بوعيزر آريئيل اللذان حضرا الاجتماع .

في الثاني من حزيران من العام 1980 ، بعد مضيّ شهر على وقوع حادث الاعتداء في "بيت هداسا" ، سمعت أصوات انفجار قويّ في المناطق المحتلة . في الساعة 6.10 انفجرت عبوة ناسفة في بسطة تقع في سوق القصبة في الخليل . و أدّى الانفجار إلى إصابة سبعة من العرب . و قد وقع الانفجار بالقرب من المكان الذي اغتيل فيه يهوشاع سلومو أحد تلاميذ المدارس الدينية اليهودية عندما كان في طريقه لشراء الخضار من السوق . و قد قتِل هذا التلميذ بعد إطلاق النار عليه من مسدس .

في الساعة 7.50 خرج رئيس بلدية رام الله ، كريم خلف أحد رؤساء لجنة التوجيه الوطنية ، من منزله ، و توجّه إلى سيارته الخصوصية من نوع كاديلاك كان قد استعارها من أخيه . كان خلف يدرك جيداً أن سيارته معروفة و خشي أن تكون هدفاً للاعتداء من قبل عناصر يهودية . و لذلك حاول استعمال سيارته من واقع اعتقاده بأنها أكثر أمناً . و ما كاد خلف يدير محرك سيارته ، و الرجوع بها إلى الخلف كي يصل بها إلى الطريق حتى انفجرت عبوة قوية في السيارة أدّت إلى قطع إحدى رجليه .

بعد ربع ساعة خرج رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة ، من منزله . و كان هو الآخر من رؤساء لجنة التوجيه الوطنية و كان شديد الحذر . كان بسام يمتلك ثلاث سيارات ، و في كلّ مرة ، كان يختار واحدة من هذه السيارات بصورة عشوائية . و في ذلك اليوم حاول بسام استعمال إحدى سياراته من نوع "أوبل" ، و عندما قام بتشغيل محرّكها انفجرت عبوة . و أدّى الانفجار إلى قطع رجليه .

و فيما توالت التقارير في الوصول إلى جهاز الأمن العام (الشين بيت) أصدر الحكم العسكري أوامر بضرورة فحص جميع سيارات رؤساء البلديات في منطقة الضفة الغربية . و بالفعل قامت طواقم من خبراء المتفجرات في الشرطة (الإسرائيلية) و حرس الحدود ، يرافقهم ضباط من الجيش (الإسرائيلي) ، بالتوجّه بسرعة إلى منازل رؤساء البلديات لإجراء الفحص اللازم . و في إطار هذه الحملة توجّه خبير المتفجّرات الدرزي ، سليمان حرباوي إلى منزل رئيس بلدية البيرة ، إبراهيم الطويل ، يرافقه ضابط (إسرائيلي) يدعى روني جيلا . و لم يتضح أن هذا الضابط كان على علاقة بالعصابات اليهودية إلا بعد مضيّ عدة سنوات .

كان حرباوي خبير متفجرات متفوّق . و قام فعلاً بإجراء فحص دقيق على سيارة رئيس بلدية البيرة و سيارة زوجته اللتين كانتا تقفان بالقرب من المنزل ، و لم يجد بهما شيئاً . و لدى انتهاء الفحص أبلغ

رئيس البلدية خبير المتفجرات عن وجود سيارة أخرى يقوم أحياناً باستعمالها . توجّه حرباوي إلى الكراج . كان باب الكراج مغلقاً و لم تظهر أية علامات تدلّ على أن أحداً قام باقتحام الباب .
نظر حرباوي إلى داخل الكراج عن طريق نافذة جانبية و تأكد له أن أحداً لم يمسّ السيارة . و لكي يطمئن على سلامة السيارة قرّر مع ذلك الدخول إلى الكراج و فحص السيارة الثالثة التي كانت تقف فيه . و لدى وصوله إلى باب الكراج ارتطمت رجله بشرك خداع أدّى إلى تشغيل عبوة ناسفة . و أدّى ذلك إلى إصابة حرباوي بجراح خطيرة و فقدانه البصر .
لقد أحدثت محاولات اغتيال رؤساء البلديات دهشة شديدة لدى جهاز الأمن العام (الشين بيت) . و كنا قبل وقوع هذه الحوادث تلقّينا معلومات استخبارية عن خطط لاستعمال العنف ضد العرب ، تقوم بنسجها جماعات من المستوطنين المتطرفين . و علمنا أن عدداً كبيراً من هؤلاء المستوطنين ينتمي إلى حركة "غوش إيمونيم" المتطرفة . تأسّست حركة غوش إيمونيم في شباط من العام 1974 ، في أعقاب حرب الغفران . و قد تأسّست الحركة بمبادرة من الحاخام موشي ليفنغر و الحاخامين أليعيزر فيلدمان و حاييم دروكمان و أعضاء الكنيست زبولون هامر و يهودا بن مئير (من كتلة المفدال) و ثلاثة من المستوطنين في المناطق المحتلة و هم – يهودا هرئيل (من مستوطنة ماروم جولان) ، و حنان بورات (من كفار عتصيون) ، و يوئيل بن نون (من ألون شافوت) . و كان الهدف الأساسي إقامة كتلة تناضل من خلال حزب المفدال و تعزّز المطالبة بعدم الانسحاب من الضفة الغربية ، على خلفية الروح المعنوية المتديّنة و اتفاقات الفصل التي كانت مرتبطة بالانسحاب من سيناء و من مرتفعات الجولان . لقد تحدّث عددٌ من مؤسسي الكتلة عن "فعاليات اجتماعية و ثقافية" و لم يتحدّثوا عن إقامة مستوطنات في أقرب وقتٍ ممكن . و صدرت أدلة وثيقة عن مؤسّسي الحركة جاء فيها "أن الهدف إقامة حركة تعمل على تجديد الانتماء للحركة الصهيونية . و لكن فيما بعد شرعت الحركة في تنظيم المظاهرات . و بعد مضيّ عدة شهور ازداد عدد المطالبين من أعضاء الحركة بإقامة المستوطنات . في بداية الأمر قام أعضاء الحركة بإقامة مستوطنة "كيشت" في مرتفعات الجولان ، و بعد ذلك جرت أول محاولة للاستيلاء على المنطقة التي أقيمت فيها مستوطنة ألون موريه بالقرب من نابلس . و في هذه المرحلة انضم إلى الحركة الحاخام تسفي يهودا هكوهين كوك ، رئيس المدرسة الدينية المسماه "مركاز هراف" ، و شرع زعماء الحركة في إلقاء الخطب و توزيع المنشورات المتطرّفة . و انضم إلى حركة "غوش إيمونيم" فيها بعد رؤساء بعض التنظيمات المعتدلة ، الذين رأوا في نشاطات الحركة امتداداً لحركة الاستيطان في الفترة التي سبقت قيام الدولة (و امتداداً للاستيطان الزراعي الكلاسيكي) ، و انضمت إليهم جهات أعلنت أن نشاطاتها تدخل في إطار بداية "إنقاذ الأرض" ، لذلك لا يجوز إخضاع هذه النشاطات لقواعد اللعبة الديمقراطية و الانتظار حتى يتم الحصول على إذنٍ من السلطات الحاكمة . أما أشدّ هذه العناصر تطرّفاً فقد وضعت نصب أعينها هدفاً واحداً و هو "استيطان أرض (إسرائيل) لدوافع دينية" و أن هذا الهدف يبيح لهذه الفئة اللجوء إلى جميع الوسائل اللازمة لتحقيق هدفها بما في ذلك أساليب العنف . و كانت الفئة المتطرّفة التي نمت داخل الحركة ذات نزعات دينية غريبة تقترب من التشبه بالمسيح المنقذ . و وفقاً لهذا المفهوم دعت الفئة إلى عدم الانتظار حتى قدوم المسيح ، و لكن يجب العمل على تسريع قدومه . فعلى سبيل المثال ساد الاعتقاد في صفوف هذه الفئة بأنه في حالة تدمير المسجد الأقصى ، ستعلن الدول العربية عن الجهاد ضد (إسرائيل) ، الأمر الذي سيدفع الله إلى إنقاذ شعبه . و اعتقدت ذلك بأن تدمير المسجد الأقصى سيؤدّي إلى تحقيق الحلم في إقامة دولة (إسرائيل الكبرى) التي كانت قائمة في عصر الهيكل الثاني . و قد علمنا عن وجود فئة من هذا النوع داخل حركة "غوش إيمونيم" ، و قمنا بمراقبة نشاطاتها ، و لكنها كانت حركة منطوية على نفسها ، و محاطة بستار من السرية التامة ، لذلك فشلت جميع محاولاتنا الرامية إلى ختراق صفوفها . لم يخطر ببالنا ، مع ذلك ، بأنه في يومٍ من الأيام ستتحوّل أقوال هذه الفئة إلى أفعال . و جاءت الاعتداءات على حياة رؤساء البلديات لتثبت لنا أننا أخطأنا . و في الحال دعا رئيس جهاز الأمن العام (الشين بيت) أبراهام أخينوف إلى عقد جلسة طارئة . كانت الأجواء خلال الجلسة مشحونة للغاية . لقد شعر الحضور بالاستياء بسبب الفشل الاستخباري الذي انتموا إليه ، و الدهشة التي أصابتهم بعدما اتضح للجميع أنهم كانوا يتحسّسون طريقهم في ظلامٍ دامس . كان من الواضح لنا تماماً أن من واجب الجهاز أن يبذل أقصى طاقاته للعثور على الأشخاص الذين يقفون وراء عمليات محاولات الاغتيال . و في الحال صدر الأمر إلى قائد منطقتي القدس و الضفة الغربية لتولّي هذه المهمة، كما صدر الأمر إلى أحد كبار المسؤولين في الجهاز أن يقوم بمساعدته . و بالفعل قام الإثنان فوراً بإعداد قائمة بأسماء المشبوهين .
و لدى إجراء فحص شامل للحقائق المتعلّقة بمحاولات اغتيال رؤساء البلديات اتضحت عدة أمور من أهمها : أن جميع الأشخاص الذين تعرّضوا لمحاولات الاغتيال كانوا أعضاء في لجنة التوجيه الوطنية . و أن توقيت حوادث الاعتداءات تزامن بعد شهرٍ من حادث القتل في "بيت هداسا" ، و أن محاولات الاعتداء تزامنت في وقت واحد ، الأمر الذي أوحى بأن المعتدين خطّطوا لكسب تأييدٍ إعلامي قوي .

و من الطبيعي قادتنا هذه المعطيات إلى اتجاه واحد ألا و هو اليهود المتدينون المتزمتون ، الذين لم نكن على وعيٍ كامل بطبيعة نشاطاتهم .
و لم يكن هناك أدنى شكٍ في أن محاولات الاغتيال نفّذت وفقاً لمخطّطات عسكرية دقيقة و محكمة . في البداية قام المعتدون بجمع معلومات استخبارية مفصلة ، و بعد تحليل هذه المعلومات و دراستها قاموا بتنفيذ محاولات الاعتداء . و أظهر الفحص كذلك أن المواد المتفجرة التي استخدمت في محاولات الاغتيال كانت من نوع المتفجرات المستعملة من قبل الجيش (الإسرائيلي) .
و على أساس نتائج التحقيقات الأولية ، تأكّد لرئيس جهاز الأمن العام أخينوف أن محاولات الاغتيال ارتكبت من قبل مجموعة من الأشخاص ، تلقى قسمٌ منها تدريبات على كيفية استعمال المواد التخريبية أثناء عملهم في الخدمة العسكرية ضمن إحدى الوحدات القتالية المختارة . و طرح كذلك احتمال كون قسمٍ منها مرتبط بعلاقة قرابة مع ضحايا حادث "بيت هداسا" ، و أن محاولات اغتيال رؤساء البلديات العرب كانت ضرباً من محاولات الثأر لمقتل أقربائهم . لقد كان هذا التصوّر واقعياً و على درجة كبيرة من الأهمية ، و لكنه لم يجدِ نفعاً ، على الأقل في المراحل الأولى من التحقيق .
حاول جهاز الأمن العام على مدى أربعة أعوام ، أن يعثر على خيوط هذه الأعمال و لكنه كان كمن يتحسّس الطريق في ظلامٍ دامس . لقد عملنا على مدار ساعات الليل و النهار ، و سخّرنا جميع الوسائل الاستخبارية ، و التنفيذية ، و التكنولوجية التي في حوزتنا بصورة لم يسبق لها مثيل .
و في الحقيقة لم أشهد طيلة فترة عملي في جهاز الأمن العام حملة على هذا المستوى من السعة و الشمولية .
في نفس الوقت ، و على الرغم من جميع الجهود ، لم نتمكّن من الإمساك بطرف خيط . و بطبيعة الحال أصبح الأمر مدعاة للإحباط ، لأن المهمة لم تكن في غاية الصعوبة . من الناحية النظرية كان يكفي أن نتعقّب الفئات اليمينية المتطرّفة ، و أن نراقب تصرّفاتها ، و أن نبحث عن الأماكن التي تقوم بتخبئة السلاح فيها ، و الشروع في اعتقال المشبوهين . و لكن حدث ما لم نكن نتوقعه إطلاقاً . لقد اتضح لنا أننا نبحث عن إبرة في كومة من القش . اكتشفنا أن الفئات اليمينية المتطرّفة تغلق نفسها بشرنقة من السرية التامة . و أدركنا أن الدوافع الآيديولوجية التي تحكم تصرفات هذه الفئة تحول دون قيام بعض أفرادها بالتعاون معنا . و على الرغم من الوسائل المتعدّدة التي لجأنا إليها في تحليل محاولات الاغتيال ، لم نتمكّن من التوصل إلى نتيجة و باءت جميع محاولاتنا بالفشل و وصلنا إلى حالة من اليأس التام .
و أثناء التحقيق وقعت بطبيعة الحال عدة أخطاء على سبيل المثال كان القرار بشأن إرسال بعض رجالنا إلى مستوطنة كريات أربع بعد حوادث الاعتداء على رؤساء البلديات كي يتعقبوا بعض المشبوهين خاطئاً . فبعدما وصل رجالنا إلى المستوطنة في زي جنود من الجيش (الإسرائيلي) لم يتمكّنوا من الكشف عن أيّ مشبوه من المستوطنة . و اكتشف أمرهم بعد فترة قصيرة .
و بعد ذلك اتضح لنا أن إرسال أفرادٍ من جهاز الأمن العام كان أمراً مبكراً و كان يثير الشبهات . قمنا بفرض تعتيمٍ كامل على مجريات التحقيق . حاولنا التوصل إلى أية معلومة مهما كانت صغيرة و كنا مستعدين لفعل أي شيء كي نتوصل إلى طرف خيط . و اتضح ، على سبيل المثال أن شاباً من ذوي الميول المتطرفة كنا قد وضعناه تحت المراقبة متورّطاً في قصة غرامية يمكن أن يؤدّي نشرها إلى إحراجه .
اقتراح أحد العاملين في جهاز الأمن العام ممارسة الضغط على هذا الشاب ، و إبلاغه بأننا سنقوم بنشر تفاصيل قصة غرامية لجميع الناس . و كان الهدف من ذلك إرغام الشاب على الإدلاء ببعض المعلومات التي يمكن أن نستعين بها في التحقيق .
و هكذا قمنا باعتقال الشاب ، و أثناء التحقيق معه أوضحنا له أن جهاز الأمن العام على علمٍ بتفاصيل قصة الحب التي وقع فيها . و لكن الشاب ، بدلاً من أن يخضع لهذه الممارسة ، توجّه إلى محاميه و طلب منه التقدّم بشكوى ضد جهاز الأمن العام . و بالفعل قام المحامي برفع رسالة إلى رئيس الحكومة مناحيم بيغن شرح له فيها أساليب الضغط التي مورست ضد الشاب أثناء التحقيق معه من قبل جهاز الأمن العام . و على إثر ذلك استدعى مناحيم بيغن رئيس جهاز الأمن العام إبراهام أخينوف . و أثناء الاجتماع الذي عقده معه أعرب بيغن عن استهجانه للأساليب التي يمارسها جهاز الأمن العام ، و أعرب عن رفضه للادعاء بأن المقصود عصابة متطرّفة و أنه لا بد من اللجوء إلى جميع الوسائل اللازمة للقضاء عليها . و طلب بيغن من أخينوف الكفّ عن استعمال هذه الأساليب الدنيئة ضد الشاب . على ما أذكر كانت المرة الوحيدة التي حاول فيها جهاز الأمن العام استغلال قصة حبّ كوسيلة للضغط على أحد الخاضعين للتحقيق .
لا يمكن تصوّر المشاعر التي أحس بها أخينوف عندما لاحظ أن رئيس الحكومة متضامن مع الحركة الاستيطانية ، و أن بيغن لم يتورّع عن توبيخه بسبب الأسلوب الذي انتهجه مع هذا الشاب . على أية حال

، انقضت ستة شهور قبل قيام أخينوف بترك العمل في صفوف الجهاز ، حجّمت خلالها إجراءات التحقيق للكشف عن العصابة اليهودية . و بالنظر إلى الوراء يحتمل أن يكون أخينوف قد فهم أقوال بيغن بصورة غير صحيحة . و لكن ليس لديّ أدنى شك من أن بيغن كان متضامناً مع عددٍ كبير من أفراد العصابة اليهودية .

كانت العصابة تضم شخصيات مرموقة ، طلاب مدارس دينية ، و عناصر أشربت بروح الصهيونية ، و عدداً من الدعاة إلى تحقيق حلم "أرض إسرائيل الكبرى" . و الذين كانوا يعتبرون قدوة لغيرهم . و لكن بيغن كان من مؤيّدي الرسميات و لم يكن من الأشخاص الذين يفكّرون في وضع العراقيل في طريق جهاز الأمن العام . لذلك لم يحاول أن يصدر أية تعليمات بصورة مباشرة أو غير مباشرة من شأنها تقليص إجراءات التحقيق ضد العصابة اليهودية . و يمكن تلمسّ جانبٍ من مشاعر أخينوف في تلك الفترة من المقال الذي نشره في صحيفة "دافار" في الثالث عشر من آب عام 1983م ، عبد انقضاء حوالي سنتين و نصف على تركه الخدمة في جهاز الأمن العام . يقول أخينوف في مقاله : "إن عدم إلقاء القبض على الأشخاص الذين تسبّبوا في قطع أرجل رؤساء البلديات في الضفة الغربية ... يعكس أولاً و قبل كلّ شيء الفشل الاستخباري الذي لا يمكن تبريره ... و السؤال الذي يطرح نفسه إلى أيّ حدّ أضاع جهاز الأمن العام الفرصة في تعقّب مجموعة معينة من السكان مع كونه يعلم أن هذه المجموعة يمكن أن تمارس نشاطات سرية ... إن إقامة معظم المستوطنات غير القانونية لم تكن أمراً مفاجئاً للمستوى السياسي الأعلى الذي لم يعارض إقامتها و لم يكتفِ بإعطائها الصفة القانونية و لكنه حاول التصدّي لكلّ محاولة استخبارية لاختراق هذه المستوطنات و سكانها .. و إن الحصول على المعلومات الاستخبارية الكافية كان من شأنه أن يوقف التخبّط داخل جهاز الأمن العام و أن يضع نهاية لهذه العملية الخطيرة" .

قبل عدة أشهر من تركه الخدمة في جهاز الأمن العام أمر أخينوف بتعييني قائداً للواء القدس و لمنطقة الضفة الغربية . و تم الاتفاق فيما بيننا على أن أتولى هذه الوظيفة لمدة سنة . و بعد انتهاء السنة يتم إسناد الوظيفة إلى يوسي جينوسار القائد الجديد للواء الشمال . كان الهدف من وراء هذا الإجراء تهيئة الفرصة لجينوسار للحصول على الخبرة الكافية قبل توليه قيادة لواء القدس و الضفة الغربية المليء بالمشاكل . و لكن الواقع أملى أشياء مختلفة تماماً . عملت قائداً مؤقتاً لهذا اللواء لمدة ستة أعوام كاملة حتى تم تعييني نائباً لرئيس جهاز الأمن العام .

في كانون الأول من العام 1980 أنهى أخينوف مهام وظيفته كرئيس لجهاز الأمن العام (الشين بيت) و عين بدلاً منه نائبه إبراهام شلوم الذي كان يتولى رئاسة قسم الحراسة .

كان شالوم رجلاً تنفيذياً بكلّ معاني الكلمة يتطلّع إلى الكمال . هاجر إلى (إسرائيل) مع والديه عندما كان طفلاً من فيينا . كان والده من أسرة أسبانية محترمة و أمه من عائلة يهودية عريقة كانت تعيش في إيطاليا . في الأربعينيات كان يخدم في صفوف إحدى التنظيمات اليهودية المسماة (بلماخ) و لكن لم يسطع نجمه في تلك الفترة ، و لكنه كان منضبطاً و حريصاً على تطبيق أسس العمل . و بعد حرب الاستقلال قام إيسار هرئيل بضمّه إلى صفوف أجهزة الأمن السرية . كان يتحدّث الألمانية و الإنجليزية بطلاقة و كان مخلِصاً في عمله . و بفضل معرفته الجيدة باللغة الألمانية عيّنه هرئيل عضواً في الطاقم الذي تولّى مهمة إلقاء القبض على أدولف آيخمن في الأرجنتين . من الصفات التي تميّز بها أنه كان شخصاً غريب الطباع من الصعب معرفة حقيقته . كان أبراهام من النوع الذي يمكن أن تراه في كلّ لحظة و تفتقده في كلّ لحظة ، ليس بسبب كونه شفافاً للغاية و لكن لكونه من النوع الذي لا يثير فيك الشعور و الرغبة في النظر إليه بإمعان . قرأت في ذلك الوقت مقالاً في مجلة (مونيتين) تتحدّث عن صفات أبراهام بقلم الكاتب (ران إيدليست) .

يقول الكاتب عن أبراهام : (إنه يمثّل عالمين مختلفين لا ينتمي أبراهام شالوم الحقيقيّ إلى واحدٍ منهما : أحدهما يتمثّل في كونه رقيقاً ليّناً و الثاني في كونه حازماً صارماً في التعامل مع رجاله و مركزياً يجب الإمساك بجميع الخيوط) .

حاول أبراهام شالوم أن يحافظ على حاجز بينه و بين أصدقائه . كان يتحدّث مع الجميع في الأمور المتعلقة بالعمل فقط و بلهجة صارمة ، و كان يميل إلى اتخاذ القرارات الحاسمة . كان من عادة العاملين في جهاز الأمن العام أن يتبادلوا الزيارات العائلية . و لكن أبراهام لم يشارك إطلاقاً في مثل هذه المجاملات و عندما كان يدعو إلى مناسبات اجتماعية كان يحرص على الحضور و لكنه كان يظلّ منعزلاً و بعيداً عن الناس . لذلك تجنّب أصدقاؤه و العاملون معه الإكثار من دعوته إلى مثل هذه المناسبات . لقد تعوّد أن يدعو العاملين في جهاز الأمن العام مرة واحدة في السنة إلى منزله بمناسبة حلول عيد الأنوار . و على عكس غيره من المسؤولين لم يحاول الدخول في محادثات ودية أثناء تناول الوجبات في غرفة الطعام . تعوّد أن يقف في الدور مع الجميع و أن يحمل في يده صينية يضع عليها الطعام بنفسه و أن يأكل قسماً من الطعام و أن يشرب الشوربة و هو واقف في الدور و أن يأتي على باقي الوجبة و الحلوى

قبل أن يصل إلى صندوق الدفع لأنه كان يؤمن بأهمية الوقت . كان بدون شك رجلاً مثيراً للدهشة نادر الوجود . و قد أسس قسم العمليات و قسم الحراسة ، و كان يعد من المؤسسين و من ذوي الأفق الواسع . لقد طالع الكثير من الكتب و كان ملماً بالعلوم الاقتصادية .
لم يكن له عدد كبير من الأصدقاء و كان يقضي وقت فراغه القصير في رحلات بحرية مع ابنه الذي كان يعمل ضابطاً في سلاح البحرية . و كانا يخرجان في نزهة بحرية على قاربهما الذي كان يرسو في المرسى البحري قبالة تل أبيب .
تولى أبراهام رئاسة جهاز الأمن العام و هو مليء بالحيوية و الطاقة . و نجح في الحفاظ على المعايير التي أقرّها سابقوه و بذل جهداً في زيادة كفاءة الجهاز و الحفاظ على مركزه بين الأجهزة الاستخبارية و جعله مفخرة للجميع . لهذا حظيَ أبراهام باحترام و تقدير من جميع المحافل السياسية . و امتازت تحليلاته للأوضاع خلال جلسات الحكومة بالوضوح و الدقة و عندما كان يقف ليلقي كلمته أمام أعضاء الحكومة كان يسود الجلسة الصمت المطلق . و خلال حرب لبنان ازدادت قوته . و كلما اجتمعت معه في مكتبه أو في أي مكان آخر كنت أحاول التعرف على آفاق أفكاره . و لكن هذا الشيء لم يكن سهلاً . كان رجلا عنيداً متمسكاً بمبادئه و قد أصيب بدهشةٍ في أكثر من مرة نتيجة لتصرفاته الغريبة .
في أحد المرات بعد وقوع أعمال شغب شديدة في المسجد الأقصى ذهبت معه إلى هناك . كانت المنطقة تشبه ساحة حرب . و لدى مرورنا من أمام أحد جنود حرس الحدود الذي كان يبدو و كأنه خارج من معركة حيث كان يبدو عليه علامات التعب و الإعياء . و ما كان من أبراهام إلا أن أوقف الجندي و صاح به قائلاً : (إلبس الخوذة فوراً هل تسمع ذلك ؟) و أوشك الجندي الذي كان لا يعرفه أن ينهال عليه ضرباً .
لقد وضع أبراهام نصب عينيه دفع مجريات التحقيق في موضوع العصابات اليهودية بعدما كانت قد جمّدت . و كانت قد مضت فترة طويلة دون أن تضاف إلى ملف التحقيق معلومات هامة . في أيار من العام 1981م أوكل إلى رؤوبين حزاك ، رئيس قسم التنسيق و التخطيط ، و فيما بعد نائب رئيس الجهاز ، مهمة متابعة هذه القضية .
و بعد مضي عدة أسابيع قام حزاك بتشكيل هيئة خاصة برئاسته تكون مهمتها إجراء التحقيقات في هذه القضية المعقّدة . و ضمّ رؤوبين إلى الهيئة عدداً من كبار المسؤولين في جهاز الأمن العام . كان من أبرزهم كرمي جيلون الذي ترأس القسم اليهودي . و قد عكفت الهيئة على التفكير و التحليل و التخطيط الميداني و الاستعانة بمصادر المعلومات و الاستفادة من الدروس التي مرّ بها الجهاز . و خلال زمن قصير بدأت المعلومات تتدفق إلينا بصورة كبيرة بحيث أصبحنا ملزمين بفحصها و التعامل معها بشكلٍ موضوعي . و قد ساعدت الصلاحيات الممنوحة لأعضاء الهيئة على سرعة اتخاذ القرارات و السماح بالخروج إلى مهمات تنفيذية دون انتظار . و اتفق في أول جلسة لأعضاء الهيئة اتفقنا على عدم الاكتفاء بإصدار التعليمات للعاملين كي يقوموا بتنفيذ المهمات و لكن أن تقوم أعضاء الهيئة بأنفسهم بالخروج إلى ميدان العمل و الاجتماع مع مصادر المعلومات و القيام بفحصها و تدقيقها و اتفقنا كذلك على الحفاظ على السرية التامة و أن لا نسمح لأي شخص ليس له علاقة بهذا التحقيق بالاطلاع على مجرياته .

من يقرأ المجلات النسائية ؟

في الثامن و العشرين من آذار عام 1982 طرأ تحوّل مفاجئ على مجريات التحقيق . استدعيَ أحد عمال الكهرباء لإجراءات إصلاحات في مبنى الإدارة في كريات أربع . و فيما كان يقوم بالعمل بالقرب من خزانة الكهرباء في الطابق الثالث عثر على لوحة خشبية تغطّي كوة مظلمة . و في داخل الكوة وجد كيس بلاستيك و فيه كفات أيدي من المطاط و رزمة ملفوفة في عدة صفحات من مجلة قديمة متخصّصة في شؤون المرأة و اسمها "آت" و بداخل الكيس لوحظ وجود أسلاك كهربائية .
و ثارت الشكوك لدى الكهربائي أن في كيس البلاستيك عبوة ناسفة لذلك استدعى الأشخاص الذين كانوا في ذلك موجودين في مكاتب الإدارة . و كان من بينهم المستشار الاقتصادي ، و الأخصائية النفسية ، و رئيف فريدمان رئيس مجلس إدارة المستوطنة . تناول فريدمان الرزمة و قام بفتحها . كانت تحتوي على عدة أصابع من المواد التخريبية و لكنها لم تكن قابلة للانفجار ، و بطاريات و ساعة الأمر الذي يدلّ على أن هناك النية في إعداد عبوة ناسفة . و قال لمن حوله ، يبدو أن العبوة ليست خطيرة و طلب من ضابط

الأمن في المستوطنة أن يقوم بتسليمها للشرطة . و فيما بعد اتضح لنا أن فريدمان قام بإخفاء قسم من العبوة .

قمنا بفحص الأشياء التي تم العثور عليها ، و قد تمكّنا من العثور على أحد الموجودات الذي أيقظ فينا الشعور بأن هذا الشيء يمكن أن يساعدنا في التوصل إلى خيطٍ حول قضية محاولة اغتيال رؤساء البلديات . اتضح لنا أن الصفحات التي أخذت من مجلة "آت" و التي كانت تغطّي العبوة تعود إلى العدد الصادر بتاريخ أيار من العام 1980 – أي في موعدٍ قريب من تاريخ محاولات الاعتداء على رؤساء البلديات . و ساد الاعتقاد لدينا أن العبوة خبأت في مكان سرّي في مبنى إدارة كريات أربع ، لأنهم لم يتمكّنوا من استعمالها في يوم الاعتداء على رؤساء البلديات أو أنهم سعوا إلى تخزينها كي يستعملوها في اعتداء آخر . و أخذنا بعين الاعتبار أن الشخص الذي أخفى العبوة يشتري أعداد المجلة كي يقوم أبناء عائلته بقراءتها في المنزل . و لسببٍ أو لآخر توجّهنا إلى موزّع المجلة . و بعدما أجرى مراجعة حول توزيع المجلة توصل إلى نتيجة بأنه في أيار من العام 1980 قام ببيع سبع نسخ أو ثمانية نسخ من المجلة في منطقة كريات أربع ، و لكنه لا يذكر الأشخاص الذين اشتروا هذه النسخ . و حاولنا الاستفسار إذا كان الكهربائي أو فريدمان أو أي أحدٍ من أعضاء مجلس إدارة مستوطنة كريات أربع يشتري المجلة و كانت الإجابة سلبية .

و انطلق رجالنا كي يقوموا بعمليات استطلاع وهمية في المنطقة ، و كان الهدف معرفة مدى جدوى الإعلانات في مجلة "آت" ، و ذلك بقصد محاولة التعرّف على الأشخاص الذين تعوّدوا على قراءة المجلة – و لكن لم يتوصّلوا إلى نتائج . استدعينا فريدمان للفحص على آلة كشف الكذب ، و لكن النتيجة الوحيدة التي تمكّنا من التوصل إليها أنه هو و ضابط الأمن موشي روزنتال ، مسؤولان عن حيازة هذه العبوة بصورة غير قانونية و محاولة إخفاء بعض البينات المتعلّقة بهذه القضية . لم تتوفر أية بيانات لرفع دعوى في المحكمة حول الاشتباه بكونهما عضوين في العصابة اليهودية .. و قدّم فريدمان و روزنتال للمحكمة و حكم بالحبس تسعة شهور مع وقف التنفيذ ، أما روزنتال فقد حكم عليه بالحبس ستة شهور مع وقف التنفيذ كذلك . و قد فضل القاضي القبول بصحة دعواهم ، و وجّه اللوم إلى جهاز الأمن العام ، و حاول الاستفسار إذا كان الجهاز استعمل وسائل تعذيبٍ مرفوضة بهدف انتزاع اعترافات من المتهمين . و هكذا عدنا إلى نقطة البداية في موضوع التحقيق في حوادث محاولات الاعتداء على رؤساء البلديات .

في السابع من تموز 1983 تعرّض أحد تلاميذ المدارس الدينية في كريات أربع للطعن حتى الموت . و كان هذا التلميذ يدعى أهارون جروس . و قد قام المعتدون و كانوا ثلاثة أشخاص بالاستيلاء على سلاحه و الفرار من المكان .

و بعدما مرّت عدة ساعات على حادث مقتل جروس ، وصل إلى مكان الحادث وزير الدفاع ، موشي آرنس ، و رئيس أركان الجيش (الإسرائيلي) موشي ليفي . و كنت قد رافقتهم خلال هذه الجولة . و عندما غادرنا مكان الحادث حاول عددٌ من اليهود التعبير عن سخطهم أمام الوزير ، و تجمّعوا حول الوزير و حاولوا الاعتداء عليه و لكن جنود الجيش و الحراس حالوا دون تعرّض الوزير لأي مكروه . و من الأشياء التي لا يمكن أن أنساها التهجّمات على وزير الدفاع و رئيس الأركان العامة التي قام الحاخامات بإطلاقها عندما كان الوزير يستمع إلى تقريرٍ عن وقوع الحادث .

و في تلك الليلة اعتدى عددٌ من سكان مستوطنة كريات أربع على السوق في الخليل و قاموا بإحراق عددٍ من البسطات . و ساد الاعتقاد لدينا بأن العصابة اليهودية ستحاول القيام بأعمالٍ انتقامية رداً على الحادث . و لذلك عزّزنا من الفعاليات التنفيذية و المراقبة و محاولة جمع المعلومات من منطقة التوتر ، و لكن لم نتوصل إلى نتائج تشير إلى وجود محاولات للقيام بأعمال انتقامية . و مرّت الأيام . و ازداد التوتر . و كانت الهيئة تجتمع مرة في الأسبوع ، و ربما أكثر من مرة وفقاً لمقتضيات الظروف . و كان رؤوبين حزاك الذي ترأس هذه الهيئة ، رجلاً قوياً لذلك قرّر اللجوء إلى الحزم و الصرامة في تنفيذ جميع ما اتفق عليه .

و بينما كنا نقوم بأعمالٍ استخباريةٍ عاديةٍ ، و مراجعة المعلومات و التجارب التي لدينا و تحليل البيانات بطرق مختلفة ، لفت انتباهنا محاولة أحد الأفراد ، المدعو إسحاق جينرام من مستوطنة رامات مجشيميم ، نقل أشتالٍ من مرتفعات الجولان إلى مناحيم ليفني ، الذي تزعّم رابطة تعمل على إحياء الاستيطان اليهودي في الخليل . و كان إسحاق جينرام الذي كان يطلق عليه اسم "أكلا" يأتي بالأشتال من مرتفعات الجولان كي تتم زراعتها في منطقة جنوب الخليل . و من الناحية النظرية كانت النوايا صادقة و لا تثير أدنى شك ، لأن عملية نقل الأشتال لم تكن تدلّ على عمل شاذ . فالمستوطنة الجديدة كانت في حاجة إلى الأشتال ، التي كانت تزرع و يتم تحضيرها في مرتفعات الجولان . و لكن جهاز الأمن يجب أن يكون متيقظاً لإجراء متابعة و القيام بفحص كلّ معلومة مهما كانت بسيطة ، و لا يجوز له أن يمرّ مر الكرام على الأشياء . في هذه الحالة يتوجّب على رجل الأمن أن يسأل نفسه عن مدى الغرابة في قيامهم بنقل

الأشتال من مكانٍ بعيد إلى هذا الحد ، في وقتٍ يمكن فيه الحصول على هذه الأشتال من مكانٍ قريب . و من الغريب أن الحديث حول موضوع الأشتال أصبح من الأمور التي كان الإثنان يقومان بالتباحث فيها كلّ يوم . و في الحقيقة ، بدأ جهاز الأمن العام يشكّ في كون الأشتال هي كلمة السر للدلالة على أسلحة مواد ناسفة ، كان الهدف نقلها من مخبأها إلى مكان آخر . لهذا بدأنا في وضع جينرام و ليفني و المقربين منهما تحت المراقبة . كان ليفني أحد الزعماء البارزين في المجموعة اليمينية المتطرفة التابعة لحركة "غوش إيمونيم" . و كان قد تخرّج من المدرسة الدينية "نوعام" الكائنة في "برديس حنا" و بعد ذلك تخرّج من مدرسة "مركاز هراف" في القدس ، ثم تخرّج من دورةٍ لضباط الجيش (الإسرائيلي) ، و التحق بإحدى الوحدات العسكرية التي كانت تعمل في تطوير بعض المهمات الخاصة . و بعدما درس الهندسة الميكانية في معهد الهندسة التطبيقية (التخنيون) ، أقام في مستوطنة كريات أربع . كان شخصاً هادئاً و عنيداً ، و كان يمتلك ثقة كبيرة بالنفس و القدرة على القيادة .

و كلّفنا عدداً آخر من الضباط ، و اتخذنا جميع الحيل اللازمة كي نحصل على معلومات تسعدنا في الكشف عن العلاقة بينهم و بين حوادث الاعتداء على رؤساء البلدات .

و حاولنا محاولات كبيرة و جادة لجمع المعلومات ، و تقدّمنا ببطء كسير السلحفاة و في ساعات بعض الظهر من يوم السادس و العشرين من تموز عام 1983 ، بعد مضي ثلاثة أسابيع على مقتل أهارون جروس ، لم يبقَ لنا سوى أن نمسِك بشعر رأسنا عندما وقع حادث اعتداء آخر ارتكبته العصابة اليهودية ، و لم يكن بوسعنا منع وقوعه . و قد وقع الحادث في الكلية الإسلامية بالخليل عندما قام مجهولون بإطلاق النار و إلقاء القنابل اليدوية باتجاه مبنى الكلية . و قد أدّى ذلك إلى مقتل ثلاثة طلاب و جرح ثلاثة و ثلاثين .

كنت في تلك الساعة أشارك في جلسة مع وزير الدفاع عندما أبلغنا عن الحادث مما أدّى إلى نسف الجلسة . أقلعت بالطائرة فوراً إلى مكان الحادث برفقة رئيس الأركان العامة و منسّق أعمال الحكومة في المناطق المحتلة الميجر جنرال بنيامين بن أليعزر .

و أفاد شهود عيان أن المعتدين كانوا يحملون رشاشات من طراز كلاشينكوف و أنهم فرّوا من المكان في سيارة بيجو تجارية لونها فاتح . و لم يتمكّن أحد من الشهود من التعرّف على الأشخاص الذين أطلقوا النار .

و دلت النتائج الأولية على أن المعتدين استعملوا وسائل قتالية كالتي يستعملها الجيش (الإسرائيلي) و أنهم كانوا على مستوى جيّد من الخبرة . لم يكن في استطاعنا القيام بحملة اعتقالات ، لأننا لم تكن لدينا إثباتات واضحة عن الأشخاص الذين ارتكبوا العمل . و كان من الواضح أننا حتى في حالة قيامنا بإلقاء القبض على بعض الأشخاص الذين كنا نراقبهم ، فإنه لن يكون بوسعنا التحقيق معهم لأنهم كانوا على درجة كبيرة من العناد و الذكاء بحيث يصعب التحقيق معهم و إدانتهم بأشياء لا تتوفر لدينا عنها بينات واضحة . و عدا ذلك ، فإن معظم المشبوهين كانوا من نشيطي المجتمع و كانوا يمارسون أعمالاً مكشوفة للجميع من شأنها أن تغطّي على فعالياتهم السرية .

و قام عددٌ من عملائنا بالتغلغل داخل أوساط المستوطنين في الضفة الغربية ، و لكن كنا دائماً نضع في الاعتبار احتمال تلقي معلومات استخبارية مضللة خاصة من أولئك الذين كانوا على درجة كبيرة من الإخلاص للجهات اليهودية المتطرفة في المناطق المحتلة أكثر من إخلاصهم لنا .

و زاد من تأكيد هذه الحقيقة أن عدد العملاء كان قليلاً و أنهم لم يكونوا من النوع الذي يمكن أن نعتمد عليه بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، بالإضافة إلى احتمال كون المعلومات التي ينقلونها لنا غير صحيحة . كل هذه الأمور جعلت مهمتنا في غاية الصعوبة .

و لم يبقَ أمامنا سوى إجراء مقارنة بين جميع المعلومات التي كنا نحصل عليها ، و التأكد من صحتها ، و طرح العديد من الأسئلة لنتأكّد من مدى صحتها . و مع ذلك لم نيأس و لم نقلّص من عملية المتابعة و جمع المعلومات . كنا على ثقة بأننا إن عاجلاً أو آجلاً سنتمكن في النهاية من جمع المعلومات التي ستساعدنا في العثور على أفراد العصابة اليهودية .

و مرّ شهر كامل بعد وقوع حادث الاعتداء على الكلية الإسلامية ، و في نهاية المطاف توصّلنا إلى خيط من المعلومات ساعدنا في التقدّم بشكلٍ كبير . و قد حدث ذلك عندما أبلغ أحد كبار ضباط الجيش (الإسرائيلي) رئيس أحد الأقسام في جهاز الأمن العام عن قصة شخصٍ حضر إليه بوصفه أحد أصدقائه ، و عرض أمامه خطة لتفجير مسجد قبة الصخرة و كشف له النقاب عن أن الجماعة التي تخطّط لتفجير المسجد لديها جميع الوسائل القتالية اللازمة لتنفيذ الخطة . و رفض الضابط الإفصاح عن اسم صديقه ، و لكننا تمكّنا بعد إجراء تحقيق بسيط أن نتعرّف على صديقه ، و كان اسمه يشووع بن شوشاني .

كان بن شوشان رجلاً قصير القامة يبلغ من العمر ثمانية و ثلاثين عاماً ، شديد الطباع لا يحب الإكثار من الكلام و كان من مواليد القدس و مهنته الأساسية تدريس التوراة و أصول الدين اليهودي و أحكام الشريعة

اليهودية و كان يحترم كلّ من يتعامل معه . و عندما التحق بالخدمة العسكرية الإلزامية عمل في فرقة شكيد كمشرفٍ ديني على طهارة الطعام ، و لكنه في نفس الوقت طلب أن يلتحق بالوحدات القتالية .
و حدثت صداقة بينه و بين قائد الفرقة ، الذي استجاب لطلبه و أرسله للالتحاق بدورة ضباط . و أصيب في حرب يوم الغفران إصابة بالغة ، و عندما استعاد قوته ترك بن شوشان الخدمة العسكرية و تحوّل إلى أحد نشيطي حركة غوش إيمونيم . و مع مرور الأيام تم تعيينه ضابطاً في الجيش (الإسرائيلي) . و اتضح من الفحص الذي قمنا به أن اسم بن شوشان مدرج عندنا في قائمة الضباط اليهود الذين وضعناهم تحت المراقبة .
كانت القائمة تضمّ أحد عشر اسماً ، كانوا جميعاً مرتبطين بعلاقات اجتماعية قوية . و كان من الضباط البازرين في هذه المجموعة يهودا عتسيون ، الذي كنا على اعتقادٍ بأنه ملائم لتزعّم عصابة يهودية تقوم بتنفيذ اعتداءات في المناطق المحتلة .
تلقى عتسيون تعليمه في إحدى المدارس الدينية ثم تخصّص في الهندسة الميدانية ، و كان من مؤسسي مستوطنة عوفرا . كان عتسيون من أصحاب التطلعات الدينية الواسعة ، و لم يتورّع عن تأييده العلني لأعمال العنف ضد العرب . و قد تردّد اسمه أثناء التحقيق مع بن شوشان حول قضية المسجد الأقصى .
و كشف لنا مصدر موثوق أن يهودا عتسيون أعطى زوجة بن شوشان مفتاحاً و طلب منها الاحتفاظ به حتى يحضر و يأخذه في يومٍ من الأيام . و كان هذا المفتاح مفتاحاً لأحد مخازن السلاح و الذخيرة كان عتسيون أقامه في القدس . و فيما بعد داهمه رجال جهاز الأمن العام في جنح الظلام المخزن ، و أخرجوا منه السلاح و أخذوا عينة من الطلقات إلى المختبر كي يقارنوا بينها و بين الطلقات التي يحتمل أن تطلقها العصابة اليهودية في المستقبل لدى قيامها بارتكاب أحد الاعتداءات . و بعد الفحص أعيد السلاح إلى المخزن دون أن يشعر أحد بذلك . و في نهاية الأمر لم نحتجْ إلى الفحص و المقارنة لأنه تم إلقاء القبض على أفراد العصابة قبل أن يتمكّنوا من استعمال هذا السلاح . و أذكر أن أحداً من المشبوهين الذين قمنا بمراقبته أوقعنا في مشكلة صعبة . كان هذا الشخص يقيم في مسكن الطلاب التابع للمدرسة المسماه (مركاز هراف) في القدس ، و لم يتمكّن رجالنا من اتخاذ موقعٍ للمراقبة في مثل هذه المنطقة التي تمتاز بالطابع الديني . و قد اضطررنا إلى إقامة موقع للمراقبة في فندق هلتون ، على بعد حوالي كيلومتر هوائي من المدرسة .
و كان من الصعب تشخيص المشبوه لأن جميع طلاب المدرسة الدينية كانوا يرتدون لباساً موحداً : عبارة عن بنطلون جينز و قميص كاروهات و قبعة منسوجة . و كلهم كانوا ملتحين و لهم شوارب .
كان هذا المشبوه يمتلك دراجة نارية قديمة تعوّد أن يتجوّل بها في شوارع القدس في ساعات المساء . و كان من الصعب علينا مراقبة راكب دراجة نارية في القدس المزدحمة بالناس ، و لم يكتفِ هذا الشخص بذلك بل تعوّد أحياناً أن يركب دراجة عادية رياضية . و عندما كان يصادف إشارة مرور تمنع الدخول في الشارع ، كان يحمل الدراجة على ظهره و يدخل من بين المباني سيراً على الأقدام حتى يجتاز الإشارة ثم يواصل رحلته على الدراجة . و قد تعوّد أن يتجوّل في المناطق الهادئة و الخالية من السكان في ساعات المساء الأمر الذي زاد من صعوبة إخضاعه للمراقبة .
و استمرت المراقبة عدة أيام ، و في إحدى الأمسيات قامت وحدة المراقبة بمتابعته حتى وصل إلى عمارة متعدّدة الطوابق . و عندما وصل إلى العمارة أوقف دراجته النارية و دخل إلى الساحة الواقعة بالقرب من العمارة و بدأ يتجوّل فيها و ينحني من حين لآخر باتجاه الأرض . و اقترب أفراد وحدة المراقبة كي يفحصوا ما يقوم به بالضبط و لكنه تمكّن من مغادرة المكان . و راود أفراد الوحدة الشك أنه اشتبه بقيام الوحدة بمراقبته لذلك أسرع إلى الانصراف من المكان .
كان أفراد وحدة المراقبة على قناعة بأنه قام بإخفاء مواد أو بلاغات للعصابة في هذه الساحة و لكن بعد إجراء تمشيط لأرض الساحة اتضح أنه كان ينحني ليقوم بفحص رشاشات المياه التي كانت تسقي الحديقة لأنه كان يشرف على عددٍ من الحدائق الموجودة حول المنازل في تلك المنطقة .

مرهم صيني لتسكين الآلام

استمرت المراقبة وراء المشبوهين دون توقف . و في غضون ذلك اكتشف رجال وحدة العمليات أن اثنين منهم و هما : شاؤول نير و بنيامين تسيدون يزوران محلات لبيع طائرات صغيرة في تل أبيب و في بتاح تكفا و أنهما معنيان بشراء طائراتٍ من هذا النوع تعمل بنظام التحكم من بعد و جهاز راديو يبث على

موجتين . و في إحدى المحلات زعما أنهما بحاجة إلى طائرة صغيرة كي يستعملاها في التنقيب عن النفط ، و في إحدى المرات زعما أنهما يريدان شراء طائرة و جهاز راديو لابن واحدٍ منهما التحق بدورة للطيران . و في نهاية الأمر لم يتمّ شراء الطائرة ، و لم تتضح لنا الأهداف التي كانا يخطّطان لتنفيذها .
و بينما كنا مستمرين في التحرّي وقعت حادثة محرجة عند ساحة المسجد الأقصى . ذلك أن حراس الأوقاف الإسلامية شاهدوا أربعة أشخاص و هم يتسللون إلى مسجد قبة الصخرة . و في الحال انطلقوا وراءهم ، و لكن الأربعة فرّوا من المكان تاركين وراءهم الأمتعة التي كانت بحوزتهم . هذه المعلومات أثارت دوافع الشك لدينا . و كان الاعتقاد السائد لدينا حتى ذلك الحين أن عدداً من الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في القائمة التي أعددناها متورّطون في اعتداءات مسلحة . و قمنا بمطاردتهم دون توقف ، و توقعنا أن نتمكّن من إلقاء القبض عليهم و هم متلبّسون بالجريمة . و صدرت الأوامر إلى رجالنا بعدم التوقف عن مطاردتهم و ملاحقتهم أينما كانوا . و فجأة و على الرغم من جميع الوسائل التي لجأنا إليها ، جرت محاولة لتنفيذ اعتداء و لم نتمكّن من معرفة المتورّطين في هذا الاعتداء . و هكذا زادت لدينا مشاعر الإحباط ، عندما اتضح أنه ضمن المعدات القتالية التي تركها الأشخاص الأربعة مرهم صيني لتخفيف الصداع .
و اتضح من الاستخبارات التي قمنا بجمعها أن مناحيم ليفني يعاني من نوبات من الصداع . و سألنا أنفسنا كيف تمكّن من تضليل المراقبين و الوصول إلى المسجد الأقصى ؟ . و هل أخفقنا في ملاحقته و كيف جرى ذلك ؟ و من حين لآخر قمنا بمراجعة أساليب التحرّي التي نطبّقها و طرق الملاحقة التي لجأنا إليها في تعقبنا لأفراد العصابة . و كنا نحصل على تقارير مفصلة عن جدول أعمال المشبوهين . و النتيجة التي توصّلنا إليها أن أحداً منهم لم يكن في المسجد الأقصى . و خلال عدة أيام بذلنا أقصى ما لدينا من جهود ، و أجرينا مداولات مكثّفة حول مسألة نجاح المشبوهين في تضليلنا . و في نهاية الأمر اكتشفت الشرطة الأشخاص الأربعة الذين حاولوا نسف قبة الصخرة . لقد كانت مجموعة من المخبولين كانوا يسكنون في بيوتٍ وضيعة في قرية لفتا . و قمنا من جانبنا بالتحقيق معهم ، و تبيّن أنهم لم يكونوا على أية علاقة مع العصابة اليهودية .
و تنفّسنا الصعداء إلى حدّ ما بعدما اتضح لنا أن طريقة عملنا كانت أفضل طريقة قمنا ببلورتها . كان المشبوهون يتصرّفون بأسلوبٍ طبيعي و كأنهم لا يخضعون لأية مراقبة . لم يكن لدينا أدنى شكٍ في أن أحداً منهم لا يعرف دقة التحرّي الذي كنا نقوم بها . و المشكلة التي كانت أمامنا لم تتعدّ مشكلة الصبر . لقد احتجنا إلى الكثير من الصبر كي نلقي في النهاية القبض على المشبوهين أثناء محاولتهم تنفيذ اعتداء .
و في نفس الوقت أجريت استعدادات مكثّفة تأهباً لاحتمال إلقاء القبض على المجموعة . وحّدت ثلاث منشآت نجري فيها التحقيق مع المشبوهين ، و قمنا برفع تقريرٍ إلى رئيس الحكومة إسحاق شامير عن تطوّرات التحقيق . و تناول شامير الموضوع بشيء من الألم لأنه كان يدرك أن أفراد العصابات اليهودية يمكن أن يغالوا في أفعالهم . و مما أزعجه أن الحديث يدور عن أشخاص متديّنين ، متشبعين بفكرة أرض (إسرائيل الكبرى) ، و لكنه لم يحاول أن يصرفنا عن ممارسة عملنا . و في مرحلة متأخّرة بعدما اتضح لنا أن أحد المتهمين في هذه القضية المسمّى جلعاد بلاي كان أبواه صديقان حميمان لإسحاق شامير ، و قد ذهبت إلى شامير و أبلغته أننا ننوي اعتقال هذا الشاب ، و ما كان منه إلا أن تلقّى الأمر بشيءٍ من ضبط النفس و لم يبدِ معارضة و اكتفى بأن طلب منا إرجاء اعتقال الشاب لعدة أيام إلى ما بعد مرور أحد المناسبات التي كانت ستحتفل بها عائلته . و قد استجبت لطلب شامير بهذا الخصوص .

ثلاثة من اليهود و معهم عبوة ناسفة

نيسان 1984

و في نهاية المطاف بعد مرور أربع سنوات على قيامنا بأعمال التحرّش ، و في السادس و العشرين من نيسان تلقّينا معلومات من أحد مصادرنا عن وجود استعدادات لتنفيذ اعتداء . فقد شوهد ثلاثة من المشبوهين و هم يضعون رزماً داخل سيارة خصوصية في مستعمرة كريات أربع ، و أن السيارة توجّهت في طريقها إلى القدس ، عندئذ هبّ رجالنا لملاحقة السيارة . حدث ذلك في ساعة متأخرة من الليل و كانت الملاحقة صعبة إلى حدّ ما ، لأن حركة السير في هذه الساعة ، خاصة في القدس الشرقية قليلة جداً . و في بعض قطاعات الطريق كانت تقتصر حركة السير على السيارة المشبوهة و سيارة جهاز الأمن

العام التي كانت تقوم بملاحقتها . و في مثل هذه الحالات يمكن أن يثور الشك لدى المطاردين في كلّ لحظة لذلك حاولنا القيام بعدة مناورات و كنا نستبدل السيارة و نجري المراقبة و نحن في حالة عصبية مشدودة . و كان إيهود يتوم ، رئيس قسم العمليات قائد حملة الملاحقة و كنت قائد هيئة العمليات الكائنة في لواء القدس . و ظلّ أبراهام شالوم رئيس جهاز الأمن العام يتابع التطوّرات من منزله عبر جهاز اللاسلكي .

و حاول عددٌ من رجال الأمن العام الذين لهم علاقة بالتحرّي إجباري على توقيف سيارة المشبوهين و تفتيشها . كانوا على اعتقادٍ شبه مؤكّد بأن السيارة تحتوي على عبوات ناسفة . و لذلك أرادوا أن نقوم باعتقال المشبوهين في أقرب وقتٍ قبل أن يحاول المشبوهون الاختفاء عن أعيننا . و لكنني قرّرت الانتظار رغم الأخطار المترتبة على ذلك . و إذا كان في نية المشبوهين الثلاثة القيام بتنفيذ اعتداء كنت أود أن ألقي القبض عليهم و هم متلبّسون في وضع العبوة . و هكذا سنكون قد وصلنا إلى إثبات تورّطهم في العمل و ستكون هذه أكبر انطلاقة كنا نأمل في تحقيقها .

في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت سيارة المشبوهين إلى موقف للسيارات في أحد الأحياء العربية في القدس الشرقية . و نزل من السيارة ثلاثة رجال حيث دخلوا إلى خمس حافلات للركاب كانت تقف في المكان و وضعوا فيها عبوات ناسفة و عادوا إلى السيارة . و لم نلقِ القبض عليهم لأننا أردنا التأكّد من عدم نيتهم القيام باعتداءات أخرى . و لكنهم على ما يبدو انتهوا من المهمة التي كلّفوا بها و قرّروا مغادرة المكان . و سرنا وراءهم حتى وصلوا إلى منزلٍ في حيّ "رامات هشكول" و عندما نزلوا من السيارة قمنا بإلقاء القبض عليهم . كانوا من أصحاب الذقون إخوان هما شاؤول و براك مير ، من سكان كريات أربع ، و عوزي شريف ، من سكان القدس و هو صهر الحاخام موشيه ليفنجر . كان شاؤول مير يعمل مساعداً لمناحيم ليفني في تأسيس رابطة تهدف إلى استئناف الاستيطان اليهودي في الخليل و كان طالباً في قسم الهندسة الإلكترونية في جامعة تل أبيب . و كان عصبيّ المزاج متهوّراً تمكّن من أن يجرّ أخاه إلى الالتحاق بالتنظيم الذي كان يعمل فيه . قمنا في الحال بإدخال الثلاثة إلى غرفة الدرج في أحد المباني القريبة و ربطنا أيديهم بالقيود . لقد أصيبوا بصدمة لأنهم لم يكونوا يتوقّعون هذا الاعتقال . و في غضون دقائق معدودة اعترفوا بأنهم قاموا بوضع العبوات الناسفة في الحافلات و لكنهم رفضوا الإفصاح عن أسماء الأفراد الذين قاموا بإرسالهم . بقيَ علينا أن نعمل على إبطال مفعول العبوات الناسفة التي كان من المقرّر أن تنفجر في الصباح الباكر . بدأ الصباح يلوح في الأفق لذلك كان لا بدّ أن نتخذ إجراءات سريعة كي نحول دون تعرّض الناس للضرر . و بناء على خبرتنا السابقة كنا ندرك أن العبوات وضعت بطريقة محكمة و أنها ستلحق الضرر بكلّ من سيحاول تفكيكها . و توجّهنا في الحال إلى واحدٍ منهم المدعو شاؤول مير و قلنا له : "لقد قمنا بمطاردتكم طوال الليل . و الآن يتوجّب عليكم أن ترشدونا إلى المكان الذي قمتم بوضع العبوات فيه داخل الحافلات ، و إذا لم تفعلوا ذلك فإن تفكيك العبوات سيؤدّي إلى وفاة عددٍ من خبراء المتفجّرات في الجيش و الشرطة (الإسرائيلية)" . و بعدما أفاق من الصدمة قال لنا هيا اتبعوني كي أريكم على مكان العبوات ، و قال : "إنني أحترم جهودكم فأنتم أقوى جهاز أمن في العالم" .

عدنا إلى الحافلات و أصبنا بدهشة شديدة عندما تمكّنا من العثور على أربعة فقط . كانت الحافلة الخامسة قد خرجت من الموقف و توجّهت إلى العمل في نقل الركاب . قمنا بإرسال عددٍ من رجالنا للبحث عنها . و عثروا عليها بعد وقتٍ قصير و لحسن الحظ كانت خالية من الركاب . و عكف الثلاثة على تفكيك العبوات و بعد جهدٍ طويل قاموا بإبطال مفعولها دون وقوع أضرار .

خلال الفترة التي قمنا فيها بمطاردة المشبوهين لم نبلغ أحداً عن المهمة التي كنا نقوم بتنفيذها طيلة الليل . و لكن بعد اعتقالهم مباشرة قمت باستدعاء المستشار القانوني للحكومة و قائد شرطة لواء القدس و عدد من كبار الضباط في القيادة القطرية و أبلغتهم عما حدث . في الساعة الخامسة صباحاً صدرت أوامر اعتقال ضد جميع الأشخاص الذين أردنا اعتقالهم منذ زمن طويل و لكن لم تتوفر الأدلة الكافية ضدهم . و قد قمنا باعتقال سبعة و عشرين شخصاً على دفعتين . كان خمسة و عشرون منهم ينتمون إلى حركة غوش إيمونيم .

و قد تمت الاعتقالات في وقتٍ واحد في مناطق القدس و الضفة الغربية و مرتفعات الجولان . كان مناحيم ليفني يجلس داخل مكتبه في كريات أربع عندما حضر إليه أحد رجالنا و طلب منه أن يرافقه . كان شاحباً و متوتّراً و كانت والدة الأخوين مير و شاؤول اتصلت فيه قبل وقتٍ قصير لتسأله عن مصير ولديها . و قالت له إنها حاولت العثور عليهما منذ ساعات الصباح الباكر و لكنها لم تفلح في ذلك . كان ليفني متوتراً لأنه اعتقد أن كارثة وقعت ، و أن العبوات انفجرت عند وضعها و أدّت إلى مقتل الثلاثة .

أما بالنسبة ليهودا عتصيون الذي كان اسمه مدونا في قائمة المشبوهين لم نقم باعتقاله في نفس اليوم . أعطيناه فرصة لسماع الأنباء عن اعتقال زملائه على أمل أن ندخله في حالة من التوتر النفسي بحيث

يدفعه التوتر إلى الإسراع في نقل المواد التخريبية من المكان التي وضعت فيه إلى مكانٍ آخر و عندئذٍ سيكون باستطاعتنا اعتقاله و هو متلبّس . و لكن عتصيون لم يفعل ذلك و لم يتأثر بالتوتر و التزم الصبر حتى قمنا باعتقاله .

كان رجال الأمن العام يداهمون المشبوهين في بيوتهم و في أماكن عملهم . و كان المشبوهون يفاجأون عندما تأتي قوات الأمن لاعتقالهم . و لم يحاولوا معارضة الاعتقال ، و في إحدى المرات قالت لنا زوجة أحدٍ منهم "لقد أحسنتم إلينا و في النهاية هذا الكابوس" . و كان يشوع بن شوشان في مقدمة الأشخاص الذين تم اعتقالهم و كان يخفي السلاح في مخبىء داخل جدران بيته .

قمت بالتحقيق معه بمعرفة مخطّطاته الرامية إلى تفجير مسجد قبة الصخرة . كنت أحضر إلى منزله في ليالي السبت و العمل معاً بعض قطع الخبز و الشموع و كان يطلب مني أن أقدّم له البديل عن قيامه بالإدلاء بشهادته و ذلك أن أعمل على عدم تقديم المتورّطين للمحاكمة و قلت له إنني لا أستطيع أن أضمن ذلك (لكنه أثناء محاكمته ادعى أنني وعدته بذلك و أخلفت وعدي) .

أوضح لي بن شوشان أن فكرة تفجير قبة الصخرة قد ولدت من ذهن دان باري البالغ من العمر 39 عاماً من مواليد فرنسا يعود أصله إلى عائلة كاثوليكية ، تهوّد ثم هاجر إلى (إسرائيل) . كان من أصحاب الأفكار الداعية إلى إنقاذ (إسرائيل) ، و كان من المؤمنين بالدور التاريخي الذي تقوم به (إسرائيل) و على ضرورة التخلّص من الوضع القائم بين الديانات في (إسرائيل) لصالح اليهود ، و هو الذي اقترح على مناحيم ليفني و يهودا عتسيون و يشووع شوشان فكرة تفجير قبة الصخرة .

و لقد لقيت هذه الفكرة استحساناً لديهم . و بعد حوادث الاعتداء على رؤساء البلديات فكّروا في التخطيط لتنفيذ الفكرة التي اقترحها باري . و بدأ ليفني في اتخاذ الاستعدادات اللازمة و جنّد معه لهذه الغاية يوسي تسوريا و هو ضابط احتياط في كتيبة جولاني ، و نتان زون سكرتير حركة غوش إيمونيم و رجل الاتصال بين الحركة و الكنيست ، و شاؤول نير .

في بداية الأمر عقدت المجموعة اجتماعاً في إحدى مزارع الأبوكادو في مرتفعات الجولان ، و بعد ذلك قامت بمراقبة المسجد الأقصى . و قام أفراد المجموعة بتصوير الموقع من زوايا مختلفة من على جبل الزيتون و من المدرسة الدينية الواقعة بالقرب من حائط المبكى و من حديقة عامة صغيرة بالقرب من مستشفى المطلع ، و قاموا بفحص ترتيبات الحراسة و وضعوا خطة للانسحاب . و لم يكتفوا بذلك بل قاموا بمراجعة جميع المنشورات التي كتبت عن المسجد الأقصى و عن مكوّناته الداخلية و عن الثروة الفنية الموجودة فيه . و عندما شرعوا في التخطيط لتنفيذ عملهم طرحوا عدة احتمالات ، منها اقتحام بوابات المسجد الأقصى بسيارات مصفّحة و دخول باحة المسجد بالزي العسكري و إخلاء المصلين بحجة وقوع اعتداء مسلح و استغلال حالة الهلع لوضع مواد ناسفة في المسجد . و بلغ بهم الأمر أنهم درسوا إمكانية تفجير المسجد من الجو . و قامت المجموعة بإجراء حسابات دقيقة لتحديد الأماكن الملائمة لوضع المواد المتفجّرة بحيث تؤدّي إلى إحداث أكبر قدرٍ من الضرر . و بعد إجراء فحوصات دقيقة توصّلوا إلى استنتاج بأنه في الإمكان صنع حاويات بصورة معينة و أن تعبأ هذه الحاويات بالمواد الناسفة و توضع إلى جانب جدران المسجد . و بهذا الغرض طلبوا من أحد مصانع الألمنيوم في نس إتسيونا أن يصنع لهم 20 حاوية تتّسع كلّ واحدة لحوالي 350 كيلوغراماً من المواد الناسفة . و سرقوا من سلاح الهندسة منشئة تحتوي على مئات الكيلوغرامات من المواد الناسفة تستعمل في تمهيد الطرق الملغومة أمام الدبابات أو تدمير الحواجز المانعة و قاموا بإيداع المتفجرات في منزل أحد المعتقلين في كفار نوف . (و قد وجدنا الحاويات مخبأة في منزل أحد المعتقلين . كما اكتشفنا مخبأ فيه مسدّسات كاتمة للصوت ، لحراسة واضعي المتفجرات في المسجد) ..

و قد جمّدت مخطّطات تفجير المسجد في نهاية الأمر بعد المشاورات التي جرت بين أفراد العصابة و عددٍ من الحاخامات اليهود الذين نصحوهم بعدم ارتكاب هذا العمل لأن الشعب ليس مستعداً لوقوع مثل هذا الاعتداء و من المحتمل أن يسقط عددٌ كبير من الضحايا نتيجة لهذا الاعتداء .

و قد جُمعت البيانات من المتهمين بعد الاستعانة بقوات كبيرة من أجهزة الأمن و قدّمت البيانات إلى المحكمة . و لولا الحصول على هذه البيّنات و إلقاء القبض على المتهمين و هم متلبّسون بالعمل لكان من الصعب تقديمهم للمحاكمة و إدانتهم.

لقد علّمتنا تجارب الماضي أن أصحاب الأفكار الأيديولوجية يصمدون أمام المحققين و أن من الصعب انتزاع الإفادة منهم . و قد حكم على أفراد العصابة اليهودية البالغ عددهم سبعة و عشرين عضواً بالحبس لفترات مختلفة تراوحت من خمسة و عشرين شهراً إلى المؤبّد . و مع مضيّ الزمن تم الإفراج عن اثني عشر منهم بعد حصولهم على عفو من رئيس الدولة حاييم هرتسوغ بعدما أبدوا الندم على فعلتهم . و في نهاية القضية حاولنا حساب الوقت الذي استهلك في ملاحقة هذه العصابة حتى تم القبض عليها . و اتضح

لنا أنه خلال الشهور العشرة من تموز 1983 و حتى نيسان 1984 30.000 ساعة عمل في تعقب هذه العصابة و استعملنا مئات الألقاب و الأسماء المزوّرة للأشخاص و العمليات .
كانت هويّة العصابة اليهودية فريدة من نوعها . كانوا معظمهم من المثقفين من خريجي المدارس الدينية و من مسرّحي الجيش (الإسرائيلي) المشبّعين بالأيديولوجية الصهيونية الدينية . كانوا من المثقفين الذين يؤمنون بأهمّيات العمل لتحقيق الحلم . و هذا ما يفسّر الصعوبة التي واجهت جهاز الأمن العام عند محاولته زرع عملاء داخل صفوف هذه الفئات المتطرّفة . و علاوة على ذلك فإن معظم التنظيمات اليمينية و اليسارية المتطرّفة تدرك جيداً أن قوات الأمن تضعهم تحت المراقبة و أنها تتعقب نشاطاتهم الخطيرة بهدف إحباطها . لهذا سيطر عليهم الشك إزاء كلّ شخصٍ يحاول الانضمام إليهم ، و كانوا شديدي الحذر من كلّ شخصٍ يحاول أن يطرح عليهم أسئلة كثيرة .
من هنا يمكن معرفة الصعوبة التي واجهت جهاز الأمن العام "الشين بيت" عندما قام بزرع عميلٍ مثل "أفيشاي رفيف" في صفوف هذه الفئات المتطرّفة قبيل مقتل رئيس الحكومة السابق إسحاق رابين .
و عندما تتحدّث أجهزة الأمن عن اليمين المتطرّف فإنها لا تعني بذلك الفئات اليمينية المنشغلة بالفعاليات الاحتجاجية أو التي تطلق التصريحات الحادة كما يحدث عندما يدعو رؤساء مجلس المستوطنات اليهودية إلى إغلاق الطرق احتجاجاً على الاتفاق مع الفلسطينيين . و لكن جهاز الأمن يقصد بالفئات اليمينية المتطرفة الأفراد و المجموعات التي تحرّكها عقائد أيديولوجية منها على سبيل المثال الفئات التي تؤمن بقدوم المسيح لإنقاذ العالم و لكنهم يسعون إلى الإنقاذ عن طريق اللجوء إلى أعمال العنف أو أولئك الذين لا يعترفون بصالحيات المؤسسات الحاكمة بسبب مبادىء عنصرية أو عقائد دينية أصولية. و الخط العقائدي الذي يجمع هذه الفئات اليمينية المتطرّفة ليس واحداً و لكنه يمكن أن يكون مكوّناً من عدة خطوط أو من قسمٍ منها . و من أهم المكوّنات العقائدية لهذه الفئات : إلغاء الحكم الديمقراطي في الدولة و تطبيق الشرائع الدينية بكلّ معانيها ، و طرد العرب لأسبابٍ عنصرية و الإسراع في إنقاذ أرض (إسرائيل) و اتخاذ جميع السبل اللازمة لإقامة الهيكل اليهودي . و تجدر الإشارة إلى أن هناك مجموعة من الحاخامات تعتبر أن تسليم مناطق من أرض (إسرائيل) للعرب لا يختلف عن سفك الدماء . و إذا كانت هذه الأفكار لا تراود الكثيرين من حاخامات (إسرائيل) فإنهم لا يجرؤون على رفع أصواتهم و معارضة هذه الأفكار .
و شبيهاً بالتنظيمات الأخرى ، توجد لدى التنظيمات اليهودية المتطرّفة درجات متعدّدة من التعصب و الأصولية . فبعد إخراج حركة "كاخ" عن القانون برزت مجموعتان تؤيّدان مئير كهانا و تعتبران أنفسهما استمراراً لحركته . هاتان المجموعتان تحتويان على نواة من الطباع الغريبة و الحمق المستوردين من الولايات المتحدة و قد انسجمت هذه الحركة مع حركات أخرى متطرّفة داخل (إسرائيل) . و من التنظيمات التي اشتهرت بالتطرّف التنظيمي المسمّى بأمناء جبل الهيكل التي قرّرت تغيير الوضع القائم في هذا المكان الحساس و ارتكاب أعمالٍ اعتبرتها دائرة الأوقاف الإسلامية على أنها أعمال استفزازية ، و إلى جانب هذه التنظيمات التي كانت تخطّط لإقامة الهيكل المقدّس و تعدّ العدّة لإقامته و تزويده بما يلزم كانت تعمل جماعات أخرى في منطقة الضفة الغربية وصفت نفسها بأنها من مؤيّدي أرض (إسرائيل الكبرى) . كلّ هذه المجموعات سواء كانت مكشوفة أو سرية استوجبت نشاطاً استخبارياً مستمراً لأن أعمالها كانت تتميّز بالخطورة و تهدّد حياة الناس و كفيلة بأن تعطّل مجرى الحياة اليومية و أن تزجّ (إسرائيل) إلى منزلقات سياسية .
هذه النشاطات التي كان يقوم بتأديتها جهاز الأمن العام لم تكن معروفة لدى عددٍ كبيرٍ من الناس . و من الصعب حصر الحالات التي نجح فيها جهاز الأمن في إحباط محاولات من جانب العصابات اليهودية للاعتداء على حياة السكان العرب و قذفهم بالحجارة و إغلاق الطرق و ارتكاب أعمال العنف و غير ذلك من الفعاليات العدائية التي تمكّن جهاز الأمن العام من إحباطها . إن المستوطنين المتطرّفين يعرفون أن هناك فريقين من أجهزة الأمن العام : الفريق المحبوب لديهم الذي يقوم بالعمل داخل الوسط العربي و يحاول منع وقوع اعتداءات ، و يقوم باعتقال (المخرّبين) و يبحث عن المطلوبين . و الفريق الثاني هو الفريق السيء الذي يقوم باعتقال أعضاء العصابة اليهودية و هو الذي قام بزرع آفيشاي رفيف في صفوفهم بهدف محاولة منعهم من ارتكاب الأعمال التي تحلو لهم .
إن زرع عميلٍ أمر محفوف بالصعاب . و إن تجنيد عميلٍ للعمل في منطقة الضفة الغربية يعتبر مهمة صعبة و معقدة . إن تجنيد مثل هذا العميل يشبه السير في حقل ألغامٍ سواء كان المقصود المحافظة على سلامة الجمهور أو المحافظة على حرية العمل و حرية التعبير اللتين لا بد من وجودهما في النظام الديمقراطي ناهيك عن الأبعاد السياسية العامة . لذلك يتوجّب قبل كلّ شيء التعامل مع هذا الموضوع بشيء من اللين و الصبر و بالإضافة إلى ذلك إذا حاولنا أن نطلب من أحد العملاء أن يدلي بمعلومات استخبارية عن زميله فإنه يخاف و ربما يؤدّي ذلك إلى تحقيق هدفٍ مختلف عما كنا نتوقع .

من شأن هذا الشخص أن يتوصّل إلى استنتاج بأننا نطلب منه أن يخون صديقه و أن يتنكّر للمبادىء التي يؤمن بها . لذلك من الضروري التمهيد لذلك بوسائل الإقناع غير المباشرة و المحكمة و الإيجابية . على سبيل المثال يمكن التمهيد لذلك بأن نقول له : "في المنطقة التي تقيم بها يوجد توتر مقلق بين اليهود و العرب و نحن نريد أن نحافظ على الهدوء . لذلك نرجو منك أن تنتبه لما يجري و أن تبلِغنا عن أيّ عملٍ شاذ من شأنه أن يؤدّي إلى حدوث فوضى و اضطراب في مكان سكناك".

و إذا كان الرجل معنياً بالمحافظة على الهدوء في البيئة المحيطة به ، من شأنه أن يوافق على التعاون معنا دون أن يرى في ذلك خيانة أو إخلالاً بالأمانة . و كلّ ما أعرفه أننا لم نقم أبداً بتجنيد شخصٍ لهذا الغرض كانت دوافعه الحصول على المال فقط و ذلك لسببين الأول الخوف من الطعن في القيم التي يؤمن بها لأن معظم المستوطنين اختاروا هذا الأسلوب من الحياة لأسباب أيدولوجية ، و الثاني يعود لاعتبارات استخبارية ذلك أن العميل إذا كان في حاجة ماسة إى المال فإنه قد يحاول اختلاق المعلومات الاستخبارية كي يحصل على مزيدٍ من المال . لا شك أن المال على درجة كبيرة من الأهمية و لكن لا يجوز أن يكون الدافع الوحيد . لا بد من وجود دوافع أخرى و شخصية تتميّز بصفات معينة أو تعاني من ضائقة اجتماعية . فعلى سبيل المثال تعاون معنا عددٌ من المستوطنين اليهود في المناطق الفلسطينية لأنهم كانوا لا يؤيّدون العناصر المتطرفة التي تعمل في مستوطناتهم .

لقد آمن هؤلاء الناس بأن أعمال العناصر المتطرّفة تعيق تطوّر الاستيطان في الضفة الغربية . لقد تطلّع الأشخاص الذين تعاونوا معنا إلى الاستمرار في العيش بدون مضايقات . و كانوا تواقين إلى تحقيق التعايش و السلام مع جيرانهم من العرب بعيداً عن المضايقات التي يتعرّضون لها من العناصر المتطرّفة في الجانبين العربي و اليهودي . و بفضل المساعدة التي قام هؤلاء الأشخاص بتقديمها لجهاز الأمن العام ، دون أن يكون الهدف من ورائها الحصول على المال ، تمكّن الجهاز من إحباط الكثير من أعمال العنف التي كان من شأنها أن تلحق أضراراً يصعب التنبؤ بنتائجها . لقد ألحقت قضية العصابة اليهودية ضرراً كبيراً بالأيدولوجية التي كانت تحدو زعماءها . فحقيقة وجود عصابة يهودية أثار قسماً كبيراً من سكان الدولة . فالأعمال التي ارتكبتها العصابة و التي كان من بينها التسبّب في قطع أرجل رئيس بلدية نابلس و رئيس بلدية رام الله و قتل طلاب الكلية الإسلامية في الخليل و الإصابة التي تعرّض لها خبير المتفجّرات الدرزي حرباوي و زرع العبوات الناسفة في الحافلات المدنية ، كلّ هذه الاعتداءات اعتبرت لدى الشارع (الإسرائيلي) على أنها أعمال انتقامية منبوذة و ألحقت ضرراً بجميع المستوطنين و جعلت العرب ينظرون إلى المستوطنين على أنهم وباء لا بد من التخلّص منه . و عدا ذلك فإن إلقاء القبض على أعضاء العصابة و هم متلبّسون بجرائمهم أوضح لغيرهم من العناصر المتطرّفة أن أعين أجهزة الأمن ساهرة و أن مصيرهم يمكن أن يكون كمصير أولئك الذين أقدموا على ارتكاب أعمال العنف . إن الإقرار بأن أعمال الإرهاب لا يمكن أن تؤثّر على المسيرة السياسية و الاستراتيجية و الاعتراف بأنه من الصعب الحصول على تأييدٍ جارف لأعمال العنف من قبل المستوطنين في الضفة الغربية ، و زج أعضاء العصابة إلى داخل السجون – كلّ هذه الأمور دفعتني إلى الاعتقاد و إلى الأمل في أن تؤدّي إلى نتيجة واحدة و هي أن أعمال العنف و الانتقام لا يمكن أن تحقق الأهداف المنشودة على المدى البعيد .

إن إدراك الصعوبات التي تكتنف تشغيل عصابة يشكّل عاملاً رادعاً و لكن ليس من شأن ذلك أن يسقط هذا الموضوع من جدول أعمال جهاز الأمن العام . فعلى العكس من ذلك يتوجّب على جهاز الأمن العام أن يبذل جهوداً كبيرة في هذا المجال و السبب في ذلك واضح و هو أن أي جهة متطرّفة تسعى إلى تنفيذ اعتداءات ستنظر إلى ما حدث للعصابة اليهودية و بالتالي سيدفعها ذلك إلى اتخاذ أسباب الحذر . و بالإضافة إلى ذلك فإن تشكيل عصابة منظّمة في هذا النوع من الواقع الذي نعيشه كفيلٌ بأن يؤدّي إلى تكرار ظاهرة المجرم يغئال عمير التي يسعى جهاز الأمن العام إلى الحيلولة دون تكرارها .

في كثير من الأحيان كنت أسأل نفسي هل ستقوم عصابة يهودية جديدة في الدولة . و بطبيعة الحال لم أتوصل إلى إجابة شافية لهذا السؤال . باستطاعتي القول إنه طالما ظلّ الجدل الأيدولوجي قائماً بين اليمين و اليسار و طالما ظلّت الفوارق و التمزّقات قائمة داخل المجتمع (الإسرائيلي) فإن احتمال ظهور عناصر عدوانية يظلّ قائماً و لا يستبعد أن تظهر مجموعات ثانوية متعطّشة للانتقام أو مجموعات تسعى إلى تحقيق إنجازات سياسية بالقوة . و على ضوء ذلك تبدو أهمية العمل الاستخباري و النشاطات الوقائية التي يقوم بها جهاز الأمن العام في هذا المضمار و خاصة الملاحقة المستمرة لهذه العناصر المتطرفة و متابعة ما يجري داخلها و وضع الأصابع على الزناد .

من الطبيعي أن فعاليات أجهزة الأمن لا تكفي في هذا المجال الحساس . فالحقيقة أن جهات أخرى يتوجّب عليها أن تخلِص العمل لخدمة هذه المهمة الحيوية و ثمة دوراً حاسماً للجهاز القضائي و للشرطة . ليس سراً أن أقول إن الشرطة تراجعت في أكثر من مرة من فتح ملفات وإجراء التحقيقات ضد عددٍ ممن اتهموا بالإخلال بالقانون و النظام العام . و كذلك النيابة العامة لم تتبع أساليب كافية لتقديم المتطرفين

اليهود للمحاكمة . أضف إلى ذلك فإن نشر قوات عسكرية كبيرة في المناطق الفلسطينية أدخل الأمن إلى صفوف المستوطنين اليهود و أن غياب الشعور بالأمن يعدّ من أهم العوامل التي تدفع بالناس إلى الانخراط في العصابات .
لذلك يتوجّب على الجيش (الإسرائيلي) و على المستوى السياسي أن يجروا مفاوضات دائمة مع المستوطنين في كلّ مكان و على جميع المستويات كي يقتلعوا من نفوسهم الشعور بالعزلة و الإنكار ، كما أن زعامة الحاخامية في الدولة مدعوة إلى إصدار بيانات تدين فيها جميع أنواع التطرّف . و من الضروري كذلك التفكير في كيفية التعامل مع اليهود الذين يدخلون إلى المسجد الأقصى . و لا بد من وضع حراسة مشدّدة عند الأبواب المؤدّية إلى المسجد الأقصى. و مع ذلك لا بدّ من البحث عن طرقٍ تحول دون تعرّض كلّ يهودي لفحصٍ دقيق عند دخوله باحة المسجد الأقصى ، لأن أساليب الفحص و التفتيش الدقيق تؤدّي إلى تصلّب مواقف أصحاب النظريات المتطرّفة و في هذا الصدد يرجى أن يسمح لي بالتعبير عن رأيٍ شخصيّ يقوم على أساس أنه في إطار الحلّ الدائم مع الفلسطينيين لا مانع من النظر في إمكانية تخصيص مكانٍ في باحة المسجد الأقصى يقوم اليهود بتأدية صلواتهم فيه .

"كل و اشرب فغداً نموت"

الحرب في لبنان المسمّاة "سلامة الجليل" لم تكن مفاجئة لجهاز الأمن العام "الشين بيت" . لقد تم إطلاع رئيس الجهاز و كبار العاملين فيه على الاستعدادات التي اتخذت للحرب و لكن لم يطلب منهم تقديم خطة عمل من إعدادهم . كلّ ما طُلب منا عشية قيام الحرب هو إلغاء الإجازات في المنطقة الشمالية و إعلان حالة الاستعداد في صفوف العاملين في جهاز الأمن العام خاصة في تلك المنطقة . حتى قيام الحرب تجمّعت لدينا خبرة في مجال إحباط الفعاليات العدائية في القطاع الأمني داخل لبنان ، و خلال فترة عملي قائداً لهيئة الاستخبارات الشمالية (خلال العامين 1979 – 1980) ، حاولنا إدخال أحد عناصرنا للعمل في وحدة الارتباط التابعة للجيش (الإسرائيلي) في لبنان . عدا ذلك لم يكن لجهاز الأمن العام أي نشاط فيما يجري في المنطقة.
بعد خمسة أيام على اجتياح الجيش (الإسرائيلي) للبنان ، أي في الحادي عشر من حزيران 1982 ، طالبت جهات عسكرية كبيرة من جهاز الأمن العام "الشين بيت" أن يبدأ في ممارسة نشاطاته في لبنان . و قد استنفدت الحاجة ذلك نظراً لأن الجيش (الإسرائيلي) لم يكن يمتلك الخبرة الكافية في مجال إحباط الفعاليات العدائية . و هكذا توجّه رئيس الجهاز ، أبراهام شالوم للمستوى السياسي و طلب التعرّف على رأيه في هذا الموضوع . و تمّ الحصول على الردّ بعد مضيّ يومين حيث رحب المستوى السياسي لعمل الجهاز في لبنان ، بهدف إحباط أعمال (تخريبية) . و بعد مضيّ عدة أيام جرى خلالها اتخاذ الاستعدادات اللازمة ، شملت جولات ميدانية قام بها قادة الجهاز و إجراء مناقشات عند رئيس الجهاز ، و في العشرين من حزيران بدأ جهاز الأمن العام (الشين بيت) في ممارسة فعالياته في الأراضي اللبنانية .
لم يكن باستطاعة اللواء الشمالي في الجهاز قادراً وحده على توفير القوة البشرية اللازمة التي تطلّبها العمل في لبنان . لذلك تم تعزيز القوة العاملة في لبنان من بين جميع العاملين في صفوف الجهاز بما في ذلك العاملون معي في قيادة منطقة القدس و الضفة الغربية ، و العاملون في اللواء الجنوبي و حتى العاملين في القيادة العامة للجهاز ، و في نهاية الأمر ، استأثرت العناصر التابعة لي بنصف عدد العاملين في لبنان ، لأن معظمهم حصلوا على تجربة واسعة أثناء عملهم في المناطق الفلسطينية المحتلة تؤهلهم للقيام بالعمل الاستخباري في لبنان .
و قد شرعت عناصرنا بالعمل في لبنان اعتباراً من العشرين من حزيران ، قبل أن يتمّ إدخال المعدّات اللازمة إلى الغرف التي خصّصت لنا في إحدى المدارس في مدينة صور . و كان أولِ عمل قمنا به هو التحقيق مع أحد السكان العرب في تلك المنطقة بهدف الحصول منه على معلومات عن (المخرّبين) و نشاطاتهم في لبنان .
كانت الأراضي اللبنانية مليئة بكبار (المخرّبين) ، و لم يكن يمرّ يوم دون الحصول على معلومات عن تحركات أحد عناصر فتح . و قد ركّزت عناصر الجهاز جهدها في هذا المجال و حاولوا الحصول على جميع المعلومات المتعلقة بنشاطات فتح في لبنان . و بالفعل قمنا باعتقال عددٍ كبيرٍ من (المخرّبين) من

أفراد المنظمات (التخريبية) على اختلاف قياداتهم . و من العمليات الناجحة ، التي تجدر الإشارة إليها بصفة خاصة ، كانت عملية اغتيال عزمي الصغير و الضابط المرافق له زكي الواسط . كان اسم عزمي معروفاً لدينا جميعاً . و من المؤكد أن جميع أجهزة الأمن المختارة التابعة للجيش (الإسرائيلي) ، لم توفّر جهداً في التخطيط – حتى قبل حرب لبنان – للقضاء على هذا الشخص ، الذي شارك في أعمال (إرهابية) متعدّدة داخل (إسرائيل) و في المناطق المحتلة .

و قد تمّ الحصول على معلومات استخبارية عن المكان الذي كان الصغير و الضابط المرافق له فيه قبل أسبوع من دخول جهاز الأمن العام "الشين بيت" إلى الأراضي اللبنانية . و علم أن الإثنين يقيمان في فيلا فاخرة على شاطئ البحر ، على بعد ثمانية كيلو مترات من مدينة صور ، و بعدما تأكّد رجالنا من صحة هذه المعلومات خرجت في ساعة متأخرة من الليل مجموعة من القوات الخاصة – إحدى الوحدات المختارة التابعة لحرس الحدود – يرافقها أحد رجال جهاز الأمن العام و أحد القرويين اللبنانيين كان على اتصال مع المطلوبين و يعرفهم شخصياً . و كما هو معروف ، قاموا بوقف السيارات بعيداً عن البيت ، و نزلت القوة و استمر في طريقه مشياً على الأقدام داخل البيّارات . و قد أحاطت القوة بالمنزل دون أن يعلم أحد سكانه ما يجري ، و لدى صدور الأمر اقتحمت القوة المنزل و خلال المعركة التي دارت قتِل الإثنان . و قد أثارت الحملة صدى واسعاً و ساهمت في رفع معنويات جهاز الأمن العام في المنطقة و حظيت بمدحٍ من كبار قادة الجيش (الإسرائيلي) .

حتى منتصف العام 1983 ، بعد مضيّ سنة على دخول الجيش (الإسرائيلي) الأراضي اللبنانية ، تم اكتشاف 106 من التنظيمات المعادية ، و تم اعتقال 5300 شخص و جرى إبطال مفعول 92 حادث اعتداء . و بعد اعتقال آلاف المشبوهين بالقيام بأعمال (تخريبية) في لبنان انضم إلى الجهاز عددٌ كبير من المتقاعدين ذوي الخبرة بالوسط العربي .

و أحد المصادر الناجعة التي لجأ إليها جهاز الأمن العام في بيروت كان حارساً عربياً يقوم بحراسة المقبرة اليهودية في بيروت . و اتضح أن الحراسة لم تكن هي شغله الوحيد . ففي أوقات الفراغ كان يشتغل في إعداد المتفجّرات . و قد تمكّنا من اكتشافه و تحوّل إلى عميلٍ يعمل لصالحنا ، و بالفعل قام هذا العميل بتزويد معلومات قيمة عن (المخرّبين) المطلوبين . و طيلة الوقت لم يترك عمله كحارسٍ للمقبرة .

و بعد دخول لبنان اقترح جهاز المخابرات الخارجي (الموساد) على رئيس جهاز الأمن العام "الشين بيت" ، أبراهام شالوم الشروع في حوارٍ مع الكتائب اللبنانية المسيحية . و بالفعل توجّه رئيس الجهاز و مساعده رئوفين حازاك إلى بيروت بعد دخول الجيش (الإسرائيلي) المدينة ، كي يجتمع مع رئيس الأجهزة الأمنية و الاستخبارية التابعة للكتائب زاهي البستاني . و هناك التقيا مع قائد القوات المسيحية بشير الجميل ، و تحدّث بشير الذي كان مرشّحاً لرئاسة لبنان في العام 1982 عن استعداد الكتائب لشن حربٍ ضد الفلسطينيين و أبدى استعداداً للتعاون مع جهاز الأمن العام (الإسرائيلي) في جنوب لبنان . و على الرغم من الشكوك في مدى صحة نوايا الجميّل ، خرج رئيس جهاز الأمن العام ، أبراهام شالوم بانطباع بأنه من الجدير دراسة هذه الفكرة .

و بعد يومين أو ثلاثة عقد لقاء عمل عند مصب نهر الزهراني شارك فيه البستاني و تم الاتفاق على خطوات العمل و التنسيق و هكذا بدأت العلاقة بين أجهزة الأمن التابعة للكتائب اللبنانية و جهاز الأمن العام "الشين بيت" .

و خلال فترة طويلة تلقى جهاز الأمن العام فيضاً من المعلومات الزائفة حتى أنه في نهاية تموز من العام 1982 اضطر رئيس إحدى وحدات جهاز الأمن العام إلى طرد أحد العملاء بعدما قام بإبلاغنا معلومات زائفة عن ملجأ تحت الأرض تختبىء فيه مجموعة كبيرة من (المخرّبين) ، و في آب من العام 1982 حاولنا الحصول على معلومات استخبارية من الكتائب و لكن نتبيّن أنها زائفة ، و اتضح لنا أن الكتائب تسعى إلى توريط (إسرائيل) في حربٍ ضد خصومهم لأسبابٍ دينية أو سياسية . و في نهاية هذا العام تم قطع العلاقات مع الكتائب و على الرغم من ذلك حاول بعض أفراد أجهزة الأمن التابعة لهم التوجّه إلى قيادة جهاز الأمن العام في صور بهدف الحصول على منافع أو الإدلاء بمعلومات كاذبة .

و من ناحيته امتنع جهاز الأمن العام عن نقل معلوماتٍ إلى الكتائب . و بعد أحداث صبرا و شاتيلا و الأعمال الشاذة التي ارتكبها المسيحيون في جنوب لبنان بدون تنسيقٍ مع الجيش (الإسرائيلي) أو مع جهاز الأمن العام – توقف الجهاز عن تقديم معلومات للمسيحيين .

و بعد فترة من الزمن ، و تحت ضغطٍ من جهاز الأمن العام الخارجي (الموساد) اضطر جهاز الأمن العام "الشين بيت" أن يزوّد الكتائب بمعلومات ليست ذات قيمة كبيرة . و قد حرصنا على عدم ذكر أسماء المشبوهين في المنطقة خوفاً من أن يتعرّضوا للأذى بناء على أخبارٍ تسرّبت من (إسرائيل) . و بالإضافة إلى ذلك حرصنا على مراجعة و تدقيق المعلومات قبل إرسالها . و كانت المعلومات تمرّ عبر مراقبة

شديدة من قبل رئيس القسم العربي في جهاز الأمن العام ، و أحياناً كنا نضطر إلى التشاور مع رئيس الجهاز نفسه .

في كانون الثاني من العام 1983 اضطر جهاز الأمن إلى الاستجابة لطلب الموساد و الاجتماع و مع رؤساء الأجهزة الأمنية التابعة لحزب الكتائب . و دار خلال الاجتماع تبادل الآراء حيث أظهر المسيحيون قدرتهم على العمل ، طلبوا استلام المشبوهين الذين يقومون بتسليمهم لجهاز الأمن العام بعد الانتهاء من التحقيق معهم ، و لكن رئيس جهاز الأمن العام رفض هذا الطلب و طلب من الأجهزة الأمنية الكتائبية معاً العمل داخل المنطقة التي تحتلها (إسرائيل) .

و في أعقاب ذلك ، و على ضوء إصرار المسيحيين على ضرورة التعاون معنا ، قرّرنا إجراء تجربة لمعرفة مدى صدق نواياهم . و قد اجتمع قائد منطقة صور مع نظيره اللبناني . و بعد فحص المعلومات التي حصلنا عليها ، تبيّن أنها لم تكن معلومات حديثة و أنها تتعلّق بأمورٍ كانت موجودة قبل حرب لبنان في العام 1982 .

في الثامن من عشر من شباط 1983 اقترح قائد المنطقة الشمالية الاستخبارية يوسي جينوسار ، أثناء المداولات التي جرت في مكتب رئيس جهاز الأمن العام قطع العلاقات مع الكتائب و ذلك بسبب تصرفاتهم الوحشية و اعتداءاتهم المتكرّرة على النساء الفلسطينيات . و قرّر جينوسار قطع العلاقات مع الكتائب خوفاً من أن يفسّروا التعاون (الإسرائيلي) معهم على أنه بمثابة إضفاء صفة الشرعية على الأعمال الوحشية التي كانوا يرتكبونها . و هكذا اتخذ الجهاز قراراً بقطع العلاقات مع الكتائب و إبلاغ الموساد و قائد المنطقة العسكرية الشمالية بهذا القرار . كما تقرّر مطالبة الكتائب بنقل المعلومات إلينا عن طريق الموساد . و في مقابل ذلك رأى جهاز الأمن العام أنه لا بدّ من إقامة علاقات مع الحكومة الشرعية في بيروت . و على الرغم من معرفتنا التامة بأن قدرات جهاز الأمن اللبناني محدودة إلا أننا قرّرنا التعامل معها لمعرفة ما لديها . و كان من أحد الأسباب التي دفعتنا لذلك أن بيروت تحوّلت إلى مركزٍ لاستقبال البعثات السرية و المكشوفة التي تمثّل المنظمات (التخريبية) المختلفة التي كانت تعمل في الجنوب اللبناني . و بالفعل اجتمع رئيس جهاز الأمن العام "الشين بيت" في الثالث عشر من تشرين الأول عام 1982 مع رئيس جهاز الأمن العام اللبناني . و تحدّث رئيس جهاز الأمن العام اللبناني عن البناء الهيكلي للجهاز الذي يترأسه ، و طلب منا التعاون معه و قد استجاب رئيس جهاز الأمن العام "الشين بيت" على هذا الطلب ، و تمّ الاتفاق على بلورة خطة للاتصال في المستقبل .

و في الثالث عشر من كانون الثاني من العام 1983 عقد لقاء آخر في منزل رئيس جهاز الأمن العام اللبناني . و قد خرج رجال الأمن (الإسرائيليين) بعد اللقاء بانطباع سيء عن مدى قدرة جهاز الأمن العام اللبناني في التصدّي للمنظمات (التخريبية) . لذلك لم يحاول جهاز الأمن العام "الشين بيت" نسج علاقات قوية مع جهاز الأمن اللبناني . و قد قام هذا الجهاز بنقل معلومات استخبارية لجهاز الأمن العام "الشين بيت" عن طريق الموساد و لكن الشين بيت لم يولِ اهتماماً كبيراً بهذه المعلومات . لقد اهتم رئيس "الشين بيت" ، أبراهام شالوم بالموضوع اللبناني من واقع إدراكه بأن هذا الموضوع يحتل الصدارة في جدول اهتمامات الحكومة ، و هكذا أصبح أبراهام شالوم مرجعاً للحكومة و للهيئات السياسية الرسمية في كلّ ما يتعلّق بالموضوع اللبناني . و قد حرص رئيس الحكومة مناحيم بيغن و وزير الدفاع آرئيل شارون على الرجوع إليه في كلّ ما يتعلّق بلبنان .

و التساؤلات حول مصداقية الوجود (الإسرائيلي) في لبنان لم تمرّ مرّ الكرام على جهاز الأمن العام . فقد بدأ رجال الأمن العام مثلهم مثل جنود الجيش (الإسرائيلي) في الدخول في متاهات بسبب الوجود (الإسرائيلي) في لبنان ، و لكن هذا الوضع لم يؤثّر على عمل الجهاز ، بل استمر في أداء مهماته على الوجه الأكمل ، و لم يحاول إبداء رأيه في مسألة البقاء أو الانسحاب من لبنان لأن من عادة جهاز الأمن العام تنفيذ قرارات المستوى السياسي و الالتزام الكامل بقرارات الحكومة و هذا هو سرّ قوته . و مع ذلك أصبح في الإمكان الإحساس بالانهيار داخل الجهاز و خاصة لدى زوجات رجال الجهاز الذين أرسِلوا للعمل في لبنان . و قد حاولت خلال إحدى الاجتماعات مع هؤلاء النساء إقناعهن بالمهمات الملقاة على عاتق جهاز الأمن العام و لكنهن أصررن على ضرورة الخروج من لبنان و باءت جميع محاولاتي لإقناعهن بالفشل .

لقد دفع جهاز الأمن العام "الشين بيت" ثمناً غالياً خلال عمله في جنوب لبنان . ففي الحادي عشر من تشرين الثاني من العام 1982 انهار مبنى الحكم العسكري في صور . و كان من بين القتلى تسعة من عناصر الشين بيت . و بعد عامٍ و في الرابع من تشرين الثاني اقتحمت سيارة مفخّخة قاعدة للجيش (الإسرائيلي) في صور و انفجرت بالقرب من المبنى الذي كان يقيم فيه عددٌ من رجال الأمن العام . و أدّى ذلك إلى مقتل ثلاثة منهم . و كان عددٌ من الذين قتِلوا في لبنان من العاملين في قيادة لواء القدس و

قد تبرّعوا للعمل في جنوب لبنان بهدف أداء مهمات قومية و ليس السعي وراء الأموال . و عندما كانت تصلني الأنباء عن مقتل رجال الجهاز كنت أشعر أنني فقدت أصدقاء مقرّبين و مخلصين .
و بعد انسحاب الجيش (الإسرائيلي) إلى الحزام الأمني ، في منتصف العام 1985 ، بادر جهاز الأمن العام "الشين بيت" إلى تشكيل أجهزة أمنيّة التحق بها عددٌ من جنود جنوب لبنان ، و أقيمت هذه الأجهزة في كلّ مدينة و قرية من المنطقة المحتلة . و كانت هذه الأجهزة تقوم بجمع المعلومات ، و تشغيل العملاء الذين كانوا يقومون بإرسالهم إلى شمال لبنان ، و قد أوكلت إليهم كذلك مهمة الإشراف على المعابر الحدودية المختلفة (و من بينها رأس الناقوة و الزمرية) . و قاموا بمتابعة كلّ ما يتعلّق بالأمن الداخلي و إجراء التحقيقات داخل سجن الخيام . و جميع هذه الفعاليات كانت تتم بالتنسيق مع جهاز الأمن العام (الإسرائيلي) "الشين بيت" الذي قام بإرشاد جيش لبنان عن طريق عقد دورات خاصة حول المواضيع المتعلّقة بالعمل الاستخباري ، سواء التحقيقات أو الحراسة أو ما أشبه ذلك من المواضيع . و لم تكن مهمتهم سهلة لأنهم تولّوا العمل في مناطق مليئة بالأعداء ، و كثيراً ما تعرّضوا للاغتيالات من قبل منظمة حزب الله و التنظيمات الفلسطينية و الشيعية العاملة في شمال لبنان .
أقيمت قيادة "الشباك" في مبنى قديم في المطلة ، و من هذا المبنى قام رجال الأمن (الإسرائيليين) بمتابعة ما يجري في الجانب الآخر من السياج الأمني . وقد تعوّد رجالنا السفر إلى داخل الأراضي اللبنانية للاجتماع مع أجهزة الأمن التابعة لجيش الجنوب اللبناني ، بهدف إعطائهم التوجيهات بشأن طرق العمل و الحصول منهم على التقارير الاستخبارية التي قاموا بإعدادها و استخلاص النتائج منها . و لكن تمكّنا مع الزمن من إقامة جهاز استخباري قوي ، و حصلنا عن طريقه على معلومات قيّمة ساعدت على منع وقوع عددٍ كبير من الاعتداءات المسلحة .
لقد نجحت منظمة حزب الله في خلق قاعدة قوية في جنوب لبنان ، و مع حقيقة كونه تنظيماً أصولياً مثل حماس و الجهاد الإسلامي ، كان من الصعب على جهاز الأمن العام "الشين بيت" اختراق صفوفه . بالإضافة إلى ذلك لا توجد لمنظمة حزب الله قواعد و منشآت ثابتة و لكنها كانت تتخذ قواعد لها في الحقول و الجبال و في بيوت بعض المتعاملين معه ، لذلك كان من الصعب ملاحقة أفراد حزب الله أو زرع عميلٍ بينهم .
إن تدخّلي فيما كان يجري في الجنوب اللبناني لم ينتهِ بعد عودتي للعمل في قيادة منطقة القدس و الضفة الغربية . ففي الأول من أيار عام 1987 عُيّنت نائباً لرئيس جهاز "الشين بيت" و بعد عشرة شهور عُينت رئيساً للجهاز . و بحكم هذه الوظائف التي أسنِدت إليّ أكثرت من التجوال في الحزام الأمني . و وفقاً للأنظمة الإدارية ، كنت أسافر في سيارة "مرسيدس" مدنية تحمل لوحات ترخيص لبنانية بمرافقة عددٍ من الحراس . و كنت ألتقي مع العاملين في الميدان ، و مع ضباط و جنود جيش الجنوب اللبناني و كنت أتابع سير التحقيقات مع المشبوهين و أتحدّث مع سكان المنطقة . كنت ألاحظ أشياء غريبة ، فبعض الشباب كانوا يستقلون سيارات مرسيدس حديثة و كانت الحوانيت مليئة بالبضائع من جميع أنحاء العالم من بينها الجبنة الفرنسية و الويسكي الأسكتلندي و غير ذلك من البضائع و كانت دور اللهو و الدعارة مليئة بالأشخاص و كان الشعور السائد لدى الناس "كُل و اشرب لأنك ستموت غداً" و في مقابل ذلك كان جنود جيش الجنوب اللبناني يواجهون حياة صعبة حيث كانوا يقومون بالدوريات و إقامة الحواجز على الطرق و تشغيل رجال الأمن و مطاردة المطلوبين و المخاطرة بحياتهم . و بحكم علاقتي معهم أستطيع القول إنهم كانوا يؤدّون المهمات الملقاة على عاتقهم ليس لمصلحة (إسرائيل) و لكن لتأمين حياة أسرهم و ضمان مستقبلهم و لم يكن لهم خيارٌ عن ذلك.
كانت علاقتنا مع هؤلاء الناس قويّة و لكن كان يسيطر عليهم الخوف من أن يأتي اليوم الذي نتركهم فيه يواجهون قدرهم و خاصة بعدما أعلنت (إسرائيل) عن احتمال انسحابها من لبنان بناء على القرار 425 الصادر عن مجلس الأمن الدولي . كان أفراد جيش الجنوب اللبناني يخافون من أنه في حالة انسحاب (إسرائيل) فإن الحكومة اللبنانية و السوريين سيوجّهون لهم تهمة الخيانة و التعامل مع العدو و أن كثيراً من أقربائهم سيفقدون مصدر دخلهم بعد حرمانهم من العمل في (إسرائيل) .
لقد اقتضت الظروف دراسة موضوع الانسحاب من جنوب لبنان . فقد مضت عدة سنوات و نحن غارقون في الوحل اللبناني و قدّمنا خلالها عدداً كبيراً من الضحايا الأمر الذي وضع علامة سؤال كبيرة أمام المجتمع (الإسرائيلي) . إن وجودنا في لبنان لا يحمي حدودنا الشمالية فقط و إنما يحمي العديد من القرى و التجمّعات السكنية التي لا تنتمي إلينا و السؤال هل يمكن الدفاع عن القرى الشمالية بدون وجودٍ عسكريّ في الحزام الأمني ؟ . إن عدونا الرئيس هو منظمة حزب الله الذي يعتبر من أخطر المنظمات المتطرّفة التي تدعمها إيران و الذي يستمد قوته من المبادىء الدينية الشيعية . و بالإضافة إلى ذلك فإن جميع التنظيمات (الإرهابية) التي نواجهها متمسكة بالإسلام السني المعتدل . و أفراد حزب الله معروفون بإصرارهم و قسوتهم و لا يتورّعون عن الخروج إلى أي مهمة حتى و لو كان مصيرهم الموت فهم في

كثير من الأحوال يشبهون (الانتحاريين) من حركتي حماس و الجهاد الإسلامي و عدا ذلك توجَد لحزب الله أهداف استراتيجية تتعدّى تحرير الجنوب اللبناني إلى تحرير القدس . و إن تأثير سورية في لبنان واضح لدى المسيحيين أكثر مما هو واضح لدى منظمة حزب الله ، فسوريا ليس لديها القدرة الكافية للتأثير على حزب الله . لذلك لا أعتقد أن السلام مع سورية سيؤدّي إلى كبح جماح حزب الله . صحيح أن السلام مع سوريا سيغيّر قواعد اللعبة و توازن القوى في لبنان و سيؤثّر على قوة حزب الله و لكنه لن يضع حداً لتطلّعات و أهداف هذا التنظيم البعيدة المدى .

إن إعلان (إسرائيل) عن الانسحاب من لبنان لا يدلّ على نواياها الحقيقية و هو لا يتعدّى كونه محاولة لمواجهة النقد الذي تتعرّض له الحكومات (الإسرائيلية) بعد توقيع السلام مع الفلسطينيين و هذه الأسباب التي دفعت (إسرائيل) إلى إدخال الولايات المتحدة و غيرها من دول العالم في هذا المعترك .

لهذا كلّه أعتقد أن أفضل طريقٍ لحلّ المشكلة اللبنانية المعقّدة هو التوصل إلى تسوية مع سورية . و لكن يجب ألا نستبعد إمكانية الحوار مباشرة مع حزب الله لأنه لا يخلو من عناصر معتدلة و قيادته ليست متجانسة فهي تحتوي على عناصر متطرّفة و عناصر أقلّ تطرّفاً و أعتقد أن الوساطة يمكن أن تؤدّي إلى نتائج جيّدة في مجال الحوار مع حزب الله . و في نفس الوقت لا بد من محاولة الاتصال مع جميع القوى العاملة في لبنان مثل الشيعة و الدروز و اتخاذ جميع الخطوات اللازمة لحلّ النزاع القائم . إن التسوية مع لبنان تستوجب تقوية الدفاعات الحدودية الشمالية و العمل على إغلاق هذه الحدود بشكلٍ تامٍ.

نزهة شارون

منذ اليوم الأول الذي طرحت فيه المشكلة اللبنانية على جدول الأعمال السياسي بدأ رجال جهاز الأمن العام "الشين بيت" يشاركون في جلسات المجلس الوزاري المصغر . و قد ظهر هذا الدور بشكلٍ واضح خلال الفترة التي تولّى فيها إسحاق رابين الحكم . و كنت بحكم عملي كرئيسٍ للجهاز أشارك في الجلسات الأسبوعية للحكومة . كنت أجلس إلى جانب رئيس الأركان و القائد العام للشرطة و منسّق أعمال الحكومة في المناطق المحتلة و كان كلّ واحدٍ منا يقدّم تقريراً عن مجال عمله . كنت أستعين عند إعداد التقرير بقسم الأبحاث و بالمسؤولين في مكتب و تعوّدت خلال الجلسات أن أقدّم استعراضاً مزوّداً بالرسوم و التصاوير عن النشاطات التي كان يقوم بها جهاز الأمن العام لإحباط الاعتداءات المسلحة . و لأن الوزراء لم يكونوا عادة موجودين في موقع الأحداث فإن تقارير الشين بيت كانت تقدّم لهم صورة صادقة و أمينة عن الوضع . و كان من بين الوزراء الذين اهتموا بمعرفة كلّ صغيرة و كبيرة وزيران هما آرئيل شارون و موشيه شاحال . بدأت أتعرّف على شارون عندما كنت قائداً للواء القدس . كان يعمل في ذلك الحين وزيراً للدفاع و أكثر خلال هذه الفترة من مرافقته خلال الجولات التي كان يقوم بها في الضفة الغربية . كان من عادته أن يجلس بالقرب من نافذة الطائرة المروحية و أن يتطلّع إلى جميع المناطق التي يمكن مشاهدتها من الطائرة ، و مع مضيّ الزمن عرفت أنه كان خلال هذه الجولات يبحث عن أماكن لزراعة مستوطنات جديدة و في كثيرٍ من الأحوال كان يطلب من الطيار الهبوط في أماكن قاحلة و كان يخرج من الطائرة و يقارن بين المنطقة على الطبيعة و على الخرائط التي كان يحملها . و بعد انتهاء كلّ جولة كانت لا تمرّ أيام حتى نرى الجرافات و هي تمهّد الأرض لوضع البيوت النقالة "الكرفانات" .

و على الرغم من أنني كنت أحياناً لا أتفق مع شارون بشأن جميع القرارات التي كان يتخذها إلا أنني وجدت نفسي مضطراً على تقدير إصراره و إلحاقه بتفاصيل الأمور . كان يحمل قصاصات من الورق تحتوي على جميع المعلومات التي كان يقوم بجمعها من أي مصدر كان . لقد أحببت الجولات التي كان يقوم بها . كنا في بعض الأحيان نخرج في جولة بالسيارات و كان شارون إذا مرّ بغابة أو منظر طبيعي يتوقف عنده و يقوم مساعدوه بإخراج كميات كبيرة من الطعام و كأننا نقوم برحلة و خلال تناول الطعام كان شارون يروي لنا الفكاهات و كان أول من يضحك بصوتٍ عالي عند الانتهاء من الفكاهة .

يعتبر شارون من الأشخاص الذين يجيدون الحديث و تقديم المرح و كان يهتم بالقادة و المسؤولين حتى بعد استقالتهم من الخدمة أو عندما كانوا يتعرّضون للأذى خلال قيامهم بأداء مهامهم . و من رجال السياسة الذين أكنّ لهم التقدير آريه درعي . اجتمعت معه عندما كان وزيراً للداخلية كنا نحتاجه في بعض الأمور مثل طرد بعض الجهات المعادية من البلاد و إغلاق بعض الصحف العربية التحريضية أو إلغاء الجنسية من بعض السكان العرب أو تقديم المساعدة لبعض السلطات المحلية العربية كي نتجنّب الشعور بالظلم .

كانت المحادثات مع درعي هامة و جدّابة . كان يحسن استقبالنا و كان لا يتورّع عن تقديم أية مساعدة نطلبها . كان ملماً بجميع الأمور المتعلقة بشؤون عمله و كان على معرفة شخصية بجميع رؤساء السلطات المحلية . و الحق يقال إنه لم يحاول في أية مناسبة أن يسألني عن أي مهمة سرية قمنا بها كي يتجنّب إجراحي .

في أحد الأيام ، و في ساعات ما بعد الظهر ، بعدما كنت قد تعرّضت لحادثٍ كسرت من جرائه رجلي و التزمت الفراش ، سمعت طرقات على الباب و كان الطارق هو آريه درعي الذي حضر لزيارتي دون بلاغ مسبق . و دار الحديث بيننا حول مواضيع مختلفة و في النهاية أحسسنا بالتعب . و بدأ درعي الذي كان جالساً على الكنبة يشعر بالنعاس .

كان درعي يحرص على الحصول على أية معلومة مهما كانت حتى أنه في إحدى جلسات الحكومة سألني لماذا لم أقم بوضع تعويذة على باب المنزل الجديد الذي انتقلت إليه . و قد أصبت بدهشة من وصول هذه المعلومة له . و قلت له إنني لست رجلاً كافراً و لكني لست متديّناً . و قلت له إنني أؤمن بالقدر و بأن هناك قوة خارقة تتحكّم في مجرى حياتنا ، و هنا قاطعني درعي و قال "أنت تعني الله" . و بعد ذلك أصر على أن يحدّد موعداً لزيارتي ، و في تلك الأمسية حضر إلى منزلي و قام بوضع تعويذة (مزوزا) على أبواب المنزل . و قبل أيام من تركي الخدمة في جهاز الأمن العام ، أثيرت قضية محاكمة درعي ، و خلال المحاكمة ادعى شاهد الدولة أن جهاز "الشين بيت" أجرى تنصّتاً خفياً على الشرطة و أن قائمة بأسماء الأشخاص الذين تعرّضوا للتنصّت تم تسريبها إلى درعي و أن درعي كان من بين الأشخاص الذين تعرّضوا للتنصّت . و قد علمت بذلك عن طريق الصحف التي كتبت عن الإفادات أمام المحكمة .

من حقّ جهاز الأمن العام ، الذي يمتلك أجهزة متطورة ، أن يجري تنصّتاً على الشرطة بعد الحصول على إذن من أحد قضاة المحكمة المركزية . و لكن تدخله في أعمال التنصت لا يعدو كونه عملاً تكتيكياً فقط . إنه يعمل بدور مقاولٍ ينفذ العمل المطلوب منه دون الحاجة إلى الدخول في التفاصيل الدقيقة . و قد شعرت بغضبٍ شديد بعدما قرأت الأنباء التي نشرتها الصحف لأنه ما دام قد حدث تسريبٌ للأخبار فإن ذلك يدلّ على ارتكاب مخالفة خطيرة . كان من الضروري الشروع في التحقيق للكشف عن الشخص الذي قام بتسريب الأخبار لأنه لا يجوز تسريب أخبار ظلّت محفوظة في ملفات النيابة لمدة سنوات طويلة .

و بينما كانت الصحف أمامي حاولت الاتصال مع المستشار القانوني للحكومة ميخائيل بن يئير . و قد تمكّنت من العثور عليه بعد ساعاتٍ طويلة حيث كان يقوم بجولة في جنوب لبنان مع عددٍ من أعضاء الحكومة . طلبت منه التحقيق فوراً في أمرين هما : امتناع الشرطة و النيابة عن إبلاغنا بهذا الأمر و ضرورة معرفة الشخص الذي قام بتسريب الأخبار إلى درعي .

و قد استجاب بن يئير لطلبي و عيّن لجنة تحقيق برئاسة مراقب الأجهزة الأمنية جنرال الاحتياط موشيه جدرون و عضوية محققي سلطة الأوراق المالية ريئوفن كونبت و عيزر صفرير . و قام طاقم التحقيق باستدعاء عشرات الأفراد من الشرطة و جهاز الأمن العام و غيرهم و استغرق التحقيق وقتاً طويلاً . و قد استدعيت للإدلاء بشهادتي و كنت في ذلك الوقت أعمل مديراً لشركة سيلكوم . حاول المحقق كونبت أن يربط بين قضية التعاويذ الدينية التي قام درعي بوضعها على أبواب منزلي بحجة أنه ما دام قد حضر درعي إلى منزلي في ساعات الليل فهذا يدلّ على أنني كنت على علاقة قوية معه و أنني قمت بإبلاغه عن موضوع التنصّت أو أن أخباراً حول هذه المسألة تسرّبت مني عن غير قصد .

و قد استدعيت مرتين بعد استقالتي من جهاز الأمن العام للفحص على جهاز كشف الكذب و حاول المحققون ممارسة ضغط لإجباري على الاعتراف بأشياء لم أكن قد قمت بفعلها . لم يتوصّل جهاز فحص الكذب إلى نتائج ملموسة و بالتالي لم يكن في الإمكان استخلاص النتائج و في النهاية لم يتم العثور على أدلة تدين العاملين في جهاز الأمن العام .

أستطيع القول إن تقارير جهاز الأمن العام كانت تحظى بالتقدير خلال جلسات الحكومة و المجلس الوزاري المصغّر و كان الوزراء يهتمون بها دون الأخذ في الاعتبار الاتجاهات الحزبية . صحيح أن الأمر لم يخلُ أحياناً من توجيه بعض الانتقادات و لكنها كانت انتقادات موضوعية و جادة و بعيدة عن إثارة المشاعر . كان إسحاق رابين يولي عناية كبير بالاستماع إلى التقارير الصادرة عن أجهزة الأمن و المخابرات بشكلٍ حرّ و كان يعطي المسؤولين عن الأجهزة الأمنية فرصة لتقديم توصياتهم حتى مع كونها في بعض الأحيان لا تروق لبعض الوزراء لأنها كانت تتعارض مع مواقفهم أو الخط السياسي الذي يمثّلونه ، زيادة على ذلك كان رابين يرى أن هذا العمل من واجب الخبراء المختصين كلّ في مجاله .

كنت أشعر بالضيق من تسريب الأخبار عن جلسات الحكومة ، فعلى سبيل المثال إذا رفعت تقريراً عن الوضع في الشارع الفلسطيني كان الخبر ينشر بعد ساعة ضمن نشرات الأخبار و كان المذيع يبلغ الناس أن رئيس جهاز الأمن العام قدّم تقريراً صعباً للحكومة عن الأوضاع الفلسطينية أو أنه نقل إلى الحكومة

مشاعر الرضا في الشارع الفلسطيني نتيجة لتصرّفات الحكومة . و قد بلغ هذا الأمر حداً أنني كنت أستشير إسحاق رابين حول إمكانية طرح بعض المواضيع أمام جلسات الحكومة أو من الأفضل التكتم عليه .

في الماضي طلِب من الجهاز أن يقوم بالتحقيق في تسريب بعض الأخبار عن الحكومة أو الجيش (الإسرائيلي) أو غيره من الجهات الرسمية ، و لكن سياسة الجهاز كانت و لا تزال تقوم على أساس عدم التدخل في مثل هذه الأمور و على الرغم من ذلك كان الجهاز يستجيب في بعض الأحيان لطلبٍ من هذا القبيل و على العموم لم يحدث طيلة مدة خدمتي في جهاز الأمن العام تحقيقٌ من هذا القبيل .

في بعض الأحيان النادرة كان شامير و رابين يطلبان مني إجراء التحقيق في حادثة تسريب أنباء خاصة عندما كانت تقع حادثة حساسة أو محرجة و يعلم بها الجمهور ، و في بعض الأحيان توجّهت إلى جهات من رئاسة الأركان و بعض المديرين الصامتين للوزارات الحكومية و جهات أخرى و لكن ردّي كان صارماً و كنت أقول لهم لقد وضع جهاز الأمن العام نصب عينيه صفة الرسمية لذلك لا داعي إلى زجّه في الوحل السياسي ، و علاوة على ذلك كنت أتذرّع بحجة واقعية و هي أنه في مثل هذه القضايا من الصعب العثور على المتّهم . فإذا اختفى مثلاً مبلغ من المال من إحدى الخزائن و تجري محاولات لمعرفة السارق يمكن إجراء التحقيق مع كلّ الأشخاص الذين كانوا قريباً من المكان و يمكن لجهاز فحص الكذب أن يساعد في ذلك ، و لكن عندما يدور الحديث عن تسريب أخبارٍ فإن هذا أمر معقّد للغاية لأن الحديث يدور عن أحد الأشخاص قام بهمس المعلومة لشخصٍ آخر و الشخص الآخر قام بالتلميح عنها لغيره و هكذا دون نهاية .

و لا يمكن لأيّ محقق أن ينجح في تعقب مثل هذه القضايا المعقّدة و لذلك من الأفضل عدم التدخل فيها من البداية . و مع مرور السنين قامت علاقات صداقة بيني و بين عددٍ كبيرٍ من الوزراء من بينهم يوسي سريد الذي عارض تعييني رئيساً لجهاز الأمن العام تحوّل فيما بعد إلى صديق مقرّب .

و كذلك شولميت ألوني و إسحاق موداعي . كنت على علاقة جيّدة مع روني ميلو أثناء عمله وزيراً للشرطة و قد وقعت حادثة اعترف ميلو بنفسه أن معرفتي به أبعدت عنه الكثير من المشاكل التي كانت ستنجم عن هذه الحادثة .. و قبل أن أدخل في تفاصيلها أودّ القول إنه منذ أعلنت (إسرائيل) عن بسط سيادتها على القدس الشرقية في أعقاب حرب حزيران من العام 1967 ، تحوّل المسجد الأقصى إلى أحد المواقع الأكثر حساسية حيث وقعت فيه أعمال عنفٍ كثيرة شارك فيها اليهود و العرب على حدّ سواء و استوجبت حراسة المسجد تنسيقاً كاملاً بين الجهات السياسية و الاستخبارية و التنفيذية في (إسرائيل) بالتنسيق مع عددٍ من الجهات الإسلامية و على رأسها المجلس الإسلامي الأعلى و دائرة الأوقاف التي تقوم بخدمة المسجد و من الطبيعي أن يكون لجهاز الأمن العام دور في هذا الميدان و الجميع يذكرون ثورة الاحتجاج التي انتابت العالم العربيّ في آب من العام 1969 و الدعوة إلى الجهاد في أعقاب قيام الأسترالي مايكل دنيس روهان بإحراق المسجد الأقصى . إننا نبذل محاولات كبيرة لمنع حدوث مواجهات في هذا المكان الذي يعتبر مقدساً في نظر الديانتين .

في أواخر أيلول من العام 1990 أعلن (أمناء جبل الهيكل) اليمينيين المتطرّفين أنهم كلّفوا خمسين شخصاً للقيام بتنفيذ شعائر رمزية في باحة الحرم القدسي و وضع حجر الأساس لبناء الهيكل الثالث . و قد تحدّد الموعد لهذا الحدث في الثامن من تشرين الأول الذي يصادف موعد عيد المظلة . و رفضت المحكمة العليا السماح لأمناء جبل الهيكل بممارسة هذا الطقس و أوضحت الشرطة لرجال الدين المسلمين الذين يحرسون المسجد الأقصى بأن الشرطة ستمنع دخول أمناء جبل الهيكل إلى باحة الأقصى و مع ذلك وجّه المسؤولون عن الأوقاف الإسلامية دعوة إلى اجتماع جماهيري في المسجد الأقصى و توقعت أن يؤدّي ذلك إلى صدامٍ بين المسلمين و بين اليهود الذين قرّروا التجمّع في باحة الأقصى لتأدية شعائر دينية تقليدية .

في الثالث من تشرين الأول اتصلت بوزير الشرطة روني ميلو و أبلغته عن مشاعر القلق التي أحِسّ بها و طلبت منه عقد اجتماع لمراجعة الوضع و لكنه لم يستجب فوراً بحجة أنه ليس لديه الوقت الكافي ، و لم أتوقف عن الإلحاح عليه حتى وافق على تخصيص وقت لعقد الاجتماع . و في يوم الجمعة قبل أربعة أيام من الحادث المتوقع اجتمعنا في ساعات الصباح المبكر في مكتبه بتل أبيب و حضر الاجتماع القائد العام للشرطة يعقوب تيرنر و قائد لواء القدس آريه بيبي و رئيس قسم المباحث في القيادة القطرية رافي بيليد و ممثل عن قائد المنطقة العسكرية الوسطى . قدّمت لهم شرحاً مفصلاً عن الوضع في القدس . و أعلن القائد العام للشرطة أنه اتخذ قراراً بتعزيز وجود الشرطة في القدس بمناسبة الأعياد و قد أمر الوزير باتخاذ هذا الإجراء بشكلٍ سريع و وقعت بعد أربعة أيام أحداث لم أكن أحلم بها . في يوم الإثنين حوالي الساعة التاسعة صباحاً كانت جماهير يهودية قد ملأت باحة حائط المبكى ، و اجتمع في باحة الأقصى آلاف المسلمين الغاضبين ، و بدأت مكبّرات الصوت تدعو إلى إطلاق نداءات "الله أكبر" "الجهاد

.. إذبح اليهود" و ما أشبه ذلك . و توالى وصول الشبان العرب إلى المكان . و ألغيت الدراسة في المدارس العربية في القدس الشرقية ، و قام المدرّسون بتشجيع تلاميذهم للتجمّع في المسجد الأقصى . و عاد ضباط الشرطة و أبلغوا المسؤولين عن الأوقاف الإسلامية بأن أمناء جبل الهيكل لن يُسمَح لهم بدخول باحة المسجد الأقصى ، و طلبوا منهم تهدئة الأوضاع ، و لكن دون جدوى ، فقد قام الخطباء المسلمون و على رأسهم نائب المفتي الشيخ محمد الجمل الرفاعي بتحريض المسلمين ضد اليهود . و في الحال اندفع آلاف المسلمين باتجاه حرس الحدود الذين كانوا يحرُسون المكان و انهالوا عليهم بالحجارة و قطع الحديد . و قام عددٌ من الشبان بالاستيلاء على مركز الشرطة مما دفع رجلا الشرطة اللذين كانا بها إلى الفرار . و على الرغم من إطلاق العيارات النارية في الهواء و إطلاق قنابل الغاز إلا أن الأمر ازداد سوءاً . و عاد الشبان المسلمون إلى الاقتراب من الشرطة و أعادوا إليهم قنابل الغاز التي أطلقوها . و قد أصيب عشرة من رجال الشرطة ، و تم إجلاء القوة من المكان . و في نفس الوقت استمرّت عملية إخلاء المصلّين اليهود من ساحة حائط المبكى . و لدى خروج الشرطة من باحة المسجد الأقصى ازداد قذف الحجارة . و تمّ قذف كتلٍ ضخمة من الحجارة إلى ساحة حائط المبكى و باتجاه رجال الشرطة التي تقوم بحراسة المكان . و تمّ قذف الحجارة باتجاه الطريق التي كانت تقف فيها حافلات مليئة بآلاف اليهود الذين عادوا إليها بعد تأدية الصلاة أمام حائط المبكى . و أدّى ذلك إلى إصابة عددٍ من ركاب الحافلات .

في حوالي الساعة الحادية عشرة بدأت قوات الشرطة في الدخول إلى باحة المسجد الأقصى و لكن الجماهير الغاضبة لم تتراجع أمام الشرطة التي كانت تطلق العيارات المطاطية و بعد ذلك بدأت تطلق الرصاص الحيّ في الهواء و بعد ذلك باتجاه الجماهير الغاضبة . و أدّى الاستيلاء على المسجد الأقصى إلى قتل واحدٍ و عشرين مسلماً من بينهم أحد العرب من مواطني (إسرائيل) و أصيب ثلاثة و خمسون شخصاً و نتيجة لقذف الحجارة أصيب واحدٌ و عشرون شرطياً و تسعة من المصلين اليهود .

و قد أثار هذا الحادث الأليم العالم العربيّ . و دعت منظمة التحرير الفلسطينية إلى نشر قوات دولية في المسجد الأقصى . و سارعت الأردن إلى تقديم شكوى لمجلس الأمن و أعلنت لجنة المتابعة العربية في (إسرائيل) عن إضرابٍ احتجاجي لمدة يومين و بدأت المحافل (الإسرائيلية) بتناول التهم و ارتفعت أصوات تنادي بفصل القائد العام للشرطة الذي تغيّب عن القدس عند وقوع هذه الأحداث .

في العاشر من تشرين الأول عين رئيس الحكومة إسحاق شامير لجنة تحقيق برئاسة جنرال الاحتياط تسفي زامبر للتحقيق في أحداث المسجد الأقصى . و في التقرير الذي قدّمته اللجنة وجّهت النقد إلى قيادة الشرطة و ذكر أن قائد اللواء الجنوبي و قائد لواء القدس لم يأخذا بعين الاعتبار ظروف الانتفاضة المستمرة و الجو العام الذي تتزعمه مصادر (إرهابية) و امتدحت اللجنة الجهود التي قام بها جهاز الأمن العام الذي كان يتوقع حدوث مثل هذه المواجهات في الوقت الذي لم تنتبه فيه الشرطة إلى ذلك . أما روني ميلو فقد خرج من هذه الورطة دون أن يتعرّض لنقدٍ شديد من معدّي التقرير و ذلك بفضل الاجتماع المسبق الذي عقده في مكتبه بمبادرتي و بهذا لم يخفِ ميلو مشاعر التقدير لجهاز الأمن العام و لي شخصياً . و قد أجرى مشاورات معي عدة مرات حول مستقبل القائد العام للشرطة تيرنر و كان ميلو يميل إلى إقالته و لكن اقترحت عليه أن يكتفي بتوجيه لفت النظر له و قد استجاب ميلو لهذا الاقتراح .

لقد ساعدتني العلاقات القوية مع أعضاء الحكومة في حلّ جميع المشاكل عن طريق الاتصال الهاتفي بالوزير الذي له علاقة بالمشكلة . كنت على علاقة مميزة مع دان مريدور الذي عمل وزيراً للعدل خلال الأعوام من 1988 و حتى 1992 . و بحكم وظيفته كان يتابع مواضيع متعدّدة لها علاقة بجهاز الأمن العام خاصة فيما يتعلّق بالجهات التي يخضع لها جهاز الأمن من الناحية القانونية .

تجدر الإشارة إلى أن التنصّت لا يستمر وقتاً طويلاً و إنما لفترة قد تصل إلى عدة شهور وفقاً لما ينصّ عليه القانون . و بعد انتهاء الفترة المحدّدة للتنصّت لا يجوز لجهاز الأمن العام الاستمرار في إجراء التنصّت وفقاً لرأيه الخاص . و بالإضافة إلى ذلك يجوز للجهاز أن يتنصّت على مواضيع أساسية بعد الحصول على إذنٍ من رئيس الحكومة . فإذا حدث أن قام رجالنا بالتنصّت على المكالمات التلفونية لشخصٍ مشبوهٍ بالتجسّس و خلال ذلك اكتشف الجهاز أن هذا الشخص أخفى معلومات عن ضريبة الدخل لا يجوز لجهاز الأمن أن يستغل هذه المعلومات لسببين الأول ان التنصت لم يكن لهذا الغرض و الثاني أن مثل هذه المخالفة لا تدخل في إطار عمل جهاز الأمن العام .

هناك أمور تحكم هذا النظام فلا يجوز إبلاغ الجهة المختصة إلا بعد الحصول على إذن من أحد كبار المسؤولين في الجهاز و ربما من رئيس الجهاز نفسه . مثلاً في حالة اكتشاف مخالفة جنائية خطيرة كالقتل أثناء التنصّت على موضوع آخر من الضروري إبلاغ الجهات المختصة و هي الشرطة عن هذه المعلومات و لكن يجب اتخاذ الحيطة و الحذر بحيث لا يبدو أن كشف المعلومات تم بواسطة التنصّت .

في كثيرٍ من الحالات كنا خلال التنصّت نسجّل مكالمات ليس لها علاقة بموضوع التنصّت . منها على سبيل المثال : محادثات تتعلّق بتشكيل تنظمات سياسية جديدة و عن مبادرات سياسية مختلفة و عن

مخطّطات لإقامة مستوطنات جديدة . و كنت في غالب الأحيان أترك هذه الأمور لاعتباراتي الذاتية و لا أبلّغ عنها لأنني لم أرَ فيها خطراً على الوضع السياسي . إن تدخّل رئيس الجهاز مباشرة مطلوب في مجالٍ آخر ألا و هو اكتشاف محادثات بين الشخص المراقب و رجال الحكم في هذه الحالة يجوز لرئيس الجهاز فقط أن يصادق على تسجيل هذه المحادثات و الإبلاغ عنها و في حالة عدم الحصول على مصادقته فإنه يتوجّب شطب هذه المحادثات من التسجيل .

و أودّ القول إن الجهاز حريصٌ كلّ الحرص على عدم تجاوز التنصّت الحدود المسموح بها و هذا الأمر يتضح من التقرير الذي أعدته مراقبة الدولة في حينها مريم بن بورات و كلّ من يطلع على هذا التقرير يلاحظ أنه لا توجد ملاحظات خاصة تشير إلى وقوع تجاوزات في هذا المجال.

إن التنصّت هو أحد المواضيع التي يقوم بها الجهاز بالتنسيق مع وزير العدل و هذا الأمر يستولي على جانب كبيرٍ من اهتمام الوزارة و النيابة العامة للدولة و نيابة الألوية . و كذلك الحال بالنسبة لمواضيع التحقيقات و تقديم المتهمين للمحاكمة و الاعتقالات الإدارية و الالتماسات المقدّمة إلى المحكمة العليا ضد جهاز الأمن العام و الطرد من البلاد و غير ذلك من الأمور .

و قد أبدى دان مريدور أثناء عمله كوزيرٍ للعدل اهتماماً كبيراً بهذه الأمور . و في عدة مرات قام باستدعائي لإجراء جولة في منشآت التحقيق الخاصة بجهاز الأمن العام و في بعض الأحيان كانت تنضم إلينا النائبة العامة للدولة دوريت بينيش . و في أعقاب كلّ جولة كان مريدور يبعث لي بكتاب تقدير و شكر و خلال المقابلة التلفزيونية التي أذيعت بعد الإعلان عن توصيات لجنة ليندا حول وسائل التحقيق التي يستعملها جهاز الأمن العام امتدح مريدور عمل الجهاز . و لم أتمكّن من إخفاء مشاعر الدهشة التي أصابتني عندما اتضح لي أنه يعمل من وراء ظهري في أعقاب تقديم توصيات لجنة فاردي التي باشرت عملها في أعقاب الشكاوي التي قدّمت و التي جاء فيها أنني خالفت الأنظمة المتبعة في الجهاز . و علمت فيما بعد أن مريدور اقترح على رئيس الحكومة إسحاق شامير تعيين شخص آخر بدلاً مني و هو الجنرال ماتان فيلنائي و بطبيعة الحال لم يبلغني عن أشياء حول هذا الموضوع ، و على الرغم من العلاقات القوية التي تربط بيننا فإنني لم أتمكّن من الحصول على معلومات أخرى حول هذا الموضوع و لم أتمكّن من التغلغل إلى داخل نفسه . أما من ناحيته أبدى الكثير من مشاعر الصداقة تجاهي و الكثير من الحساسية و طيبة القلب مع أنني كنت أشكّ في مدى صدق هذه المشاعر . و في كثيرٍ من الأحيان كانت تصل إلى مسامعي أنباء عن انتقاداته لي و لكن هذا النقد لم يكن يمسّ كفاءتي في العمل.

رئيس الشاباك يفرض تعتيماً

في مساء يوم الخميس ، 12 نيسان 1984 ، صعَد أربعة (مخرّبين) من سكان قطاع غزة ، مسلّحين برشاشات ، إلى حافلة ركاب رقم 300 في محطة الباصات المركزية في تل أبيب ... انطلقت الحافلة إلى عسقلان في الساعة 18:20 . كانت تقلّ حوالي أربعين راكباً . اثنان من الركاب نزلا في الطريق و أبلغا عن الاختطاف . المطاردة التي بدأت على الفور لم تنجح في إيقاف الحافلة ، إلى أن ثقب المطاردون إطاراتها قرب دير البلح في قطاع غزة .

كنت في ذلك الوقت قائداً للواء القدس و منطقة الضفة الغربية ، منشغلاً في عملية تعقّب و ملاحقة مستمرة لتنظيمات و خلايا (المخرّبين) .. قائد المنطقة العسكرية الوسطى اتصل بي ، و أخبرني عن حادث اختطاف الحافلة ، و قال إنه سيطير إلى مسرح الحادث ، و سألني إن كنت أرغب بالانضمام إليه .. ترددّت و أجبت بالسلب .

أثناء سيطرة قوات الأمن على الحافلة ، قتِلت إحدى الراكبات ، المجنّدة عيريت بوتوغاز .. خلال الاشتباك قتَل الجنود اثنين من (المخرّبين) ، فيما أُسِر المخرّبان) الآخران و نقلا للتحقيق لدى جهاز الشاباك . و على الرغم من أن حادث الاختطاف لم ينشر في وسائل الإعلام ، إلا أن النبأ ذاع بسرعة ، و عجّ مسرح الحادث بالصحافيين و المصوّرين من وسائل الإعلام المحلية و العالمية .. و سادت في المكان حالة من الفوضى ، حيث تجوّل الصحافيون قرب الحافلة كما يحلو لهم ، صوّروا و حاولوا استدراج و سماع حديثٍ على لسان الخاطفين .. بعد انتهاء استجواب (المخرّبين) ، أعطى رئيس جهاز المخابرات ، أبرهام شالوم ، أمراً بقتلهما .. رئيس قسم العمليات ، إيهود ياتوم ، و عددٌ من رجاله ، اقتادوا (المخرّبين)

إلى حقلٍ و نقذوا ما أمر به رئيس الجهاز . في بيانٍ رسميّ صدر من المتحدّث بلسان الجيش (الإسرائيلي) ، قيل إن جميع (المخرّبين) الأربعة قتِلوا أثناء عملية السيطرة على حافلة الركاب المخطوفة .

بعد مرور بضعة أيام ، نُشِرت في صحف أجنبية أنباء أولية عن أن اثنين من (المخرّبين) قُتِلا في مرحلة متأخّرة أكثر . و قد استندت هذه الأنباء إلى تقارير و صور أرسلت من البلاد ، كانت قد شطِبت و مُنع نشرها كلياً على يد الرقابة العسكرية (الإسرائيلية) .. فاضطرت وسائل الإعلام (الإسرائيلية) للاكتفاء باقتباس ما نشِر في وسائل الإعلام و الصحف الأجنبية .. بعد وقتٍ قصير من ذلك ، خرقت صحيفة "حداشوت" أوامر الرقابة و نشرت صورة (المخرّبين) ، اللذين اعتقلا و هما لا يزالا على قيد الحياة ، بينما كانا مقتادين على يدِ آسريهما خارج الحافلة .. في (إسرائيل) قامت ضجّة عيّن في أعقابها وزير الدفاع موشيه آرنس ، في 26 نيسان 1984 ، لجنة فحصٍ برئاسة الجنرال (احتياط) مائير زورع .
و مثل معظم العاملين في جهاز الشاباك ، لم أعرف في البداية أن عناصر الجهاز هم الذين قتلوا (المخرّبين) اللذين تم أسرهما على قيد الحياة .. فقد فُرِض في الجهاز تعتيم كامل على القصة ، و لم تُسرّب تفاصيلها .. أبرهام شالوم حرص على عدم إطلاع أي شخصٍ على سرّ الموضوع باستثناء أولئك الذين كانوا متورّطين و مشتركين في الحادث بشكلٍ مباشر ، و حفنة أشخاص كانوا مقرّبين منه بصفة خاصة .. روبين حزاك ، القائم بأعمال رئيس جهاز "الشباك" ، لم يكن في مسرح الحادث أثناء سيطرة قوات الأمن على الحافلة المختطفة .. فقد غادر دير البلح في وقتٍ مبكر ، ليسافر في زيارة عائلية إلى الولايات المتحدة .. عند عودته إلى البلاد ، التقيناه في مكتبي .. كنا مرتبطين بصداقة حميمة جداً .. سألته عما إذا كانت الشائعات عن قتل (المخرّبين) صحيحة .. "دعك من ذلك" أجاب . ردّه المبهم هذا ، ولّد شكاً لديّ بأن الشائعات صحيحة ..
فكّرت مراراً بيني و بين نفسي – و سُئلت أيضاً في غير مرة – كيف كنت سأتصرّف في هذا الحادث لو أنني كنت أنا رئيساً للجهاز .. حاولت أن أضع نفسي في مكان أبرهام شالوم و أن أحلّل اعتباراته ، و إن كان ذلك يعدّ من قبيل حكمة بعد فوات الأوان .. لقد أشغلني جداً السؤال الذي حلّق مراراً في الأجواء ، و هو ما إذا كان الأمر بقتل (المخرّبين) قد أعطيَ "بإذن و تفويض" .. إسحاق شامير (رئيس الحكومة في حينه) ادعى أن التقرير الذي تلقاه من مسرح الحادث لم يكن صحيحاً .. رئيس الجهاز ألقى بداية المسؤولية عن إعطاء الأمر على وزير الدفاع ، ثم عاد و عدّل روايته ليدّعي أن (المخرّبين) كانا "شبه ميتين" عندما أُقتيدا على يد عناصر جهاز "الشاباك" للتحقيق .. بعد سنوات ، اعترف أبروم (أبراهام شالوم) بأنه أعطى الأمر (بقتل الأسيرين) على أرضية السياسة العامة التي رسمها في هذا الشأن ، رئيس الحكومة إسحاق شامير .. و بصرف النظر عما إذا كان الأمر قد جرى على هذا النحو أو ذاك ، فأنني لم أجد لنفسي حتى اليوم إجابات قاطعة .. و مع ذلك ، لا تزال تُدهشني حقيقة أن أبراهام شالوم بالذات ، و هو المعروف بكونه رجل عمليات حذر ، دقيق ، و يقظ للغاية ، لم يستطع تكهّن ما يمكن أن ينتج عن حادث ، كان ممثلو وسائل الإعلام يتجوّلون خلاله بحريّة أكبر من أفراد قوات الأمن ..
عندما عُيّنت لجنة الفحص برئاسة الجنرال مائير زورع ، طلب رئيس الجهاز من يوسي غينوسار العمل كممثلٍ لجهاز "الشباك" في اللجنة .. لاحقاً ، روى غينوسار أن أبروم أخبره أثناء ذلك اللقاء بينهما ، بأن أفراد الجهاز هم الذين قتلوا (المخرّبين) ، و أنه أبلغ بنفسه عن ذلك بعد مرور يومين إلى رئيس الحكومة .

غينوسار ، قصير القامة ، متين البنية ، ذكي و صارم ، كان قد تعرّف و ألمّ قبلي بأوضاع جهاز "الشباك" و ما يدور داخله بشكلٍ متعمّق .. ولد غينوسار في "فيلنا" في العام 1946 ، قدِم إلى (إسرائيل) مع والديه في العام 1957 ، ضمن موجات الهجرة الروسية – البولندية ، في المدرسة التي تعلّم فيها بروسيا ، دعوه باسم "غيد" و في (إسرائيل) نعته الأولاد بألقاب من قبيل "روسي" و "شيوعي" .. لم يرو عن ذلك لأبويه ، مفضّلاً الردّ على الألقاب و النعوت المهينة بلكمات قبضته ..
عندما كان يدرس في الجامعة ، اندلعت حرب الأيام الستة (حزيران 1967) .. جهاز الشاباك اتسع و احتاج إلى أشخاصٍ جدد ، فقطع غينوسار دراسته ليلتحق بصفوف الجهاز .. "رأيت في ذلك رسالة و مساهمة اجتماعية هامة" قال في إحدى المناسبات .. في نفس الفترة ، انخرط في صفوف الجهاز كلّ من روبين حزاك و بيلغ رداي ، خريجا لواء "الناحل" المظلي ، اللذين نالا ودّ و محبة قائدهما ، يهودا آربيل .. غينوسار وضع لنفسه هدفاً أن يكون واحداً من أفراد هذه الشلة .. السبيل الوحيد إلى ذلك كان التميز في العمل ، و هكذا فعل .. ("الشاباك" هو نهج حياة ، نمط حياة ..) اعتاد على القول فـ "السرية و عدم الانكشاف للمحيط الخارجي يميّزان بدرجة كبيرة الثقافة الخاصة بالجهاز".
كنت مسؤولاً عن يوسي غينوسار في طولكرم و منذ ذلك الحين تابعت عن قربٍ تقدّمه السريع . و يخيّل إليّ أنني لا أبالغ إن قلت إنه كان المحقق الأبرز في تاريخ الجهاز .. فقد أجاد بشكلٍ ممتاز العربية و

الروسية و لكنه تمتّع فوقَ كلّ شيء ، بالمؤهلات الفطرية التي تميّز محققين و قادة لامعين : ذكاء ، دهاء ، سعة حيلة و معرفة و درجة نادرة من الدقة و الإتقان في كلّ مجال و نشاطٍ أياً كان .. فعندما قرّر على سبيل المثال ، بعد استقالته من الجهاز ، الانتقال إلى تدخين السيجار ، أضحى خلال وقتٍ قصيرٍ خبيراً من الطراز الأول في كلّ ما يتعلق بهذا الموضوع .. لقد تعرّف على كلّ أصناف التبغ ، و السيجار بمختلف أنواعه و أشكاله و عرف بالضبط أين يتم إنتاج كلّ صنف منها .. عند سفره إلى الخارج ، كان يصل إلى هناك دوماً مستعداً و مهيئاً لاستنفاذ كامل المتعة من فترة مكوثه .. و حتى في المرات التي تكون فيها زيارته هي الأولى لبلدٍ ما أو مدينة معيّنة ، فقد كان يعرف أين توجد المطاعم الجيدة ، و نوع الطعام الذي يختصّ كلّ منها بتقديمه ، و كم عدد النجوم الممنوحة لكلّ منها .. لقد مرت علاقاتنا في غير مرة ، بصعودٍ و هبوط .. في فترة خدمتي كقائد لواء يهودا و منطقة الضفة الغربية ، كان يوسي قائداً للواء الشمال .. في تلك الأيام كانت لديّ انتقادات معيّنة لمعاملته الصارمة أكثر من اللازم ، من وجهة نظري ، لمستخدمي و عاملي جهاز "الشاباك" الذين خدموا تحت مسؤوليته في لبنان .. لكن في المحصلة نشأت بيننا صداقة طيّبة ، أمتحنت في أكثر من مرة .. لقد وقف يوسي إلى جانبي في أصعب الأوقات التي مررت بها .. عندما جلست طريح الفراش جريحاً في مستشفى "هداسا" في عين كارم ، بعد حادث الطرق الذي وقع لي في العام 1972 ، حرص يوسي على عيادتي من حين لآخر ، بالرغم من انهماكه في العمل المستنزف في قطاع غزة و في أماكن أخرى ، ليحضِر لي أصناف الطعام التي أحببتها و ليحيطني بعنايته .. بعد سنوات من ذلك ، و عندما قتِل ابنه الجندي ، "شاحر" ، جرّاء صدمه من قبل سيارة في قطاع غزة ، ذهبت إليه مع أمنون ليبكين – شاحاك ، و هو أيضاً من أصدقائه المقربين ، لنزفّ له الخبر الفظيع .. كان "شاحر" حينئذ ضمن دورة مساعدي ضباط استخبارات .. في البداية ظنّوا أنه أصيب جراء اعتداء ، لكن اتضح في نهاية الأمر أن ما جرى كان حادث طرق تسبّب به عربيّ من سكان غزة .

لجنة زورع قدّمت استنتاجاتها بعد حوالي ستة أسابيع من الحادث في دير البلح . و قد وجدت أن (المخرّبين) توقيا بفعل كسورٍ في الجمجمة نتجت عن الضرب و أنه ليس واضحاً من هو الذي قتلهما .. و أكدت اللجنة أنه ما من شكٍ في أنهما تلقيا ضربات على يد إسحاق مردخاي (الذي كان في حينه ضابط مظليين و قائد مشاة رئيسي برتبة ميجر جنرال ، تولى قيادة عملية الإنقاذ لرقابة الحافلة المختطفة) ، و كذلك على يد رئيس قسم العمليات في جهاز "الشاباك" ، إيهود ياتوم ، و على يد رجل آخر من جهاز "الشاباك" و ضابط في الشرطة ..

بعد حوالي سنتين من تقديم لجنة زورع لاستنتاجاتها ، كشفت قضية الباص 300 و انشغلت فيها وسائل الإعلام ليلاً و نهاراً . في هذه المرحلة وجّهت السهام نحو يوسي غينوسار . قيل ضده إنه كان في ساعات الصباح يشارك بصورة فعالة في عمل اللجنة ، بينما كان في ساعات المساء يلتقي مع أبراهام شالوم و مع مستشارين قانونيين للجهاز ، ليطلعهم على الشهادات التي قدّمت في نفس اليوم ، و ليُعجّ بالتنسيق معهم سلفاً إفادة شهود "الشاباك" الذين استدعوا للمثول أمام اللجنة . في اليوم التالي ، أثناء مداولات اللجنة ، كان يصغي لأولئك الشهود أنفسهم ، و يعطي رأيه حول شهادتهم ، سوياً مع أعضاء اللجنة الآخرين .. غينوسار ، نفسه ، نفى بشدة الادعاء بأنه نسّق الشهادات .. لكن مائير زورع ، قال لاحقاً إن غينوسار ، حسب تقديره ، "نظّم" شهادات أفراد جهاز "الشاباك" .. "لقد اشتمّيت شيئاً ما .. حتى أنني قلت له مازحاً إن بإمكانه إعداد و تهيئة الشهود من مكتب .. أعطيته عدة إيحاءات بأن الشهادات منسقة . قال زورع .. و حول السؤال كيف كان ردّ فعل غينوسار ، أجاب : "لقد ضحكا سوياً معي و بدأ يستخدم التليفونات في مكتبي" .

غينوسار ردّ في وقتٍ لاحق بألم بالغ ، في مقابلة مع أدام باروخ ، نشرت في صحيفة "سبعة أيام" ، على الاتهامات القاسية بحقّه بقوله : "هل قاتلت مرة بينما يداك مكبلتان ؟ أي نوع من البشر يستطيع في رأيك أن يحتمل طيلة أكثر من سنة تلقي ضربات بمثل هذه القوة مثلما تلقيت أنا" ، و صمت .. و أنا مستمر في صمتي ، أحمل بصمة على ظهري ، في كلّ يوم ، الصليب الضم .." ..

من الصعب معرفة كيف كان يمكن لشخصٍ آخر أن يتصرّف لو كان في مكان يوسي ، لكنني أجرؤ على القول إن تورّطه يكمن ، جزئياً ، على الأقل ، في تمسّكه الصارم بالأهداف التي وضعها لنفسه . لقد بلغ مكانة مرموقة في الجهاز و أشغل في تلك الفترة مناصب رفيعة .. يصعب الافتراض أنه كان بوسعه رفض طلب رئيس الجهاز بانتدابه كممثّل "للشاباك" في اللجنة .. ميول يوسي الطبيعية كانت دوماً نحو تقديم المشورة ، التنظيم ، و الوجود في بؤرة الأحداث و الأمور .. و فوق ذلك ، فإن محنة الجهاز أشغلت باله ، حيث اعتقد بإيمان راسخ أن كفاءاته و خبرته ، و ولاءه لـ "أبروم" ، للجهاز و للهدف ، ستساعد في إخراج العربة من الوحل .

وجوهٌ متجمّدة .. عيون باردة

بعد مشاورات رفيعة المستوى قرّر المستشار القانوني للحكومة ، البروفيسور إسحاق زامير ، تعيين طاقم فحص إضافي ، ذو صلاحية قضائية ، ليحدّد من المتهم شخصياً في قتل (المخرّبين) .. و قد ترأس الطاقم مدّعي عام الدولة و بُرّئ كلياً .. كذلك قدّم بموجب ما أمرت اللجنة ، لمحاكمة انضباطية ، خمسة من أفراد الشاباك كانوا في مكان الحادث ، بتهمة ارتكاب تصرّف غير ملائم ، ليبرّأوا هم أيضاً .. و بعبارة مقيّدة ، يمكن لي أن أشير إلى أنه و بقدر ما أعرف لم يكن ثمة أساس للشائعات التي راجت حينئذٍ – و لا تزال تتردّد حتى اليوم – عن مؤامرة حيكت في جهاز "الشاباك" من أجل تجريم إسحاق مردخاي حتى يخرج أفراد الجهاز نقيين من القضية .. أبروم ، قال في حديثٍ شخصي إنه إذا اتهم إسحاق مردخاي بالقتل ، فإنه سيأخذ على عاتقه كامل المسؤولية .. في تلك الأيام تأثرت غير مرة من قوة شكيمة و صلابة روح مردخاي .. فالمعاناة الشخصية القاسية التي مرّ بها لم تظهر تقريباً على ملامحه .. لقد عكس في تصرفاته و سلوكه "وضعاً اعتيادياً" و أشرك فقط قلائل من مقربيه في مشاعره ..

بعد تبرئة إسحاق مردخاي ، و عندما بدا أنه أسدلت بذلك الستارة على القضية ، سافر أبروم مع زوجته في إجازة لمدة شهر في الخارج .. و في غيابه خارج البلاد قام بأعماله روبين حزاك .. و في تقديري ، فقد تبلور خلال هذه الفترة لدى روبين القرار بالمطالبة باستقالة رئيس الجهاز .. و قد انضم إليه في هذه يونا بيلتمان ، فيما تألفت عضويته من ممثلين عن أجهزة الأمن و وزارة العدل .. و بانتهاء عمل الطاقم ، تقرّر تقديم الميجر جنرال إسحاق مردخاي ، الذي كان كما أسلف ، قائداً لعملية إنقاذ الرهائن ، إلى محاكمة انضباطية .. فبعد استجواب (المخرّبين) اللذين بقيا على قياد الحياة ، تخوّفاً من أن تكون قد تركت داخل الحافلة عبوات ناسفة مفخّخة ، و خلال ذلك ضرب (مردخاي) أحد (المخرّبين) في مؤخّرة رأسه .. و بعد انتهاء الاستجواب سلّم مردخاي (المخرّبين) الأسيرين إلى رجال جهاز "الشاباك" . لقد توصّل الطاقم بعد شهورٍ طويلة من الشهادات و "حروب الأطباء الشرعيين" إلى أن الفحص أظهر وجود أدلة و إثباتات قاطعة بشأن استخدام العنف ضد (المخرّبين) الأسيرين بواسطة ضربات بعقب مسدس على يد إسحاق مردخاي ، و بواسطة ضربات و ركلات على يد خمسة من أفراد جهاز "الشاباك" و ثلاثة من أفراد الشرطة .. و لاحقاً ، كشف مسلسل التغطية ، التنسيق و تلفيق الأدلة على يد أفراد جهاز "الشاباك" في طاقم الفحص ..

إسحاق مردخاي قدّم لمحاكمة عسكرية أمام قاضٍ واحدٍ و الذي طالب مسؤولين كبيرين آخرين ، و هما بيلغ رداي ، رئيس قسم الأجانب ، و رافي مالكه ، رئيس قسم الإدارة . لقد اعتبر هؤلاء الثلاثة ، أن "شالوم" ، بعدما ورد إسحاق مردخاي ، و زوّر أدّلة و كذب على سلطات قضائية ، فقدَ بذلك الصلاحية و الأهلية الأخلاقية و القيادية في الوقوف على رأس الجهاز .. غداة عودته إلى البلاد مثّل عنده روبين حزاك و طلب منه تقديم استقالته .. لم يجادله حزاك مطلقاً حول الأمر بقتل (المخرّبين) في حد ذاته .. بل اكتفى بالقول إن إصدار الأمر بينما كان صحافيون و مصوّرون و أناسٌ عاديون يتجوّلون في مسرح الحادث ، كشف جهاز "الشاباك" في موطن ضعف ، و على رئيس الجهاز أن يدفع الثمن . أصغى له أبروم ، و ردّ بما ردّ ، لكنه رفض الاستقالة . طلب حزاك الإذن بمقابلة رئيس الحكومة ، شمعون بيرس ، فوعده أبروم بمتابعة الأمر .. و بالفعل ، بعد مرور نحو أسبوعين دُعيَ حزاك لمقابلة بيرس . أصغى رئيس الحكومة لحجج حزاك دون أن يقبلها ..

مرّت على أبروم فترة صعبة . لقد كان إنساناً صلباً ، مؤهلاً و موهوباً جداً ، رجل تنفيذي من الدرجة الأولى ، حقق إنجازات هامة في ميدان الاستخبارات أسهمت كثيراً في خدمة أمن الدولة .. و استناداً إلى تجربتي المهنية و معرفتي به ، أقدر أنه أعتقد في قرارة نفسه أن قتل (المخرّبين) في مسرح الحادث سيشكّل عامل ردع . و بحسب ادعائه ، فقد تصرّف بـ "إذن و تفويض" و بموافقة رئيس الحكومة في حينه ، إسحاق شامير . أسِفت لرؤيته في معاناته ، لكنني تألمت أكثر لمحنة جهاز "الشاباك" . قلت له إنني شخصياً أزمع الذهاب إلى رئيس الوزراء ، شمعون بيرس ، بغية التحدث معه حول مستقبل الجهاز . و بحواسه المرهفة ، فهم أن هذا اللقاء قد يسهم في إنهاء ولايته . "بماذا سيساعد ذلك ؟" سألني في محاولة لثنيي عن نيّتي .. أصريت على طلبي ، فأعطى موافقته على اللقاء .

استقبلني بيرس في مكتبه . اقترحت عليه أن يمثل أمام كبار المسؤولين في الشاباك و أن يعدُهم بدعمه و مساندته . إنهم يحتاجون لتشجيع ، قلت له ، و من مثله مؤهلٌ و قادر على إعطائه لهم . عبّرت كذلك عن رأيي أنه سيكون من صالح الجهاز و صالح أبروم نفسه ، لو فكّر رئيس الوزراء باستبداله . أبلغته بأنني شخصياً ملتزم بالبقاء في "الشاباك" لمدة سنة على الأقل ، بعد تعيين رئيسٍ جديد للجهاز ، من أجل

مساعدته .. أصغى بيرس بصمت و بعدما أنهيت كلامي قال : "شكراً يعقوب . سآتي للتحدّث مع هيئة قيادة الجهاز" . لكنه لم يأتِ .. كما أنه تجنّب التعليق على أقوالي بشأن استبدال رئيس الجهاز . الأيام التالية بيّنت لي أن رئيس الحكومة قبل ادعاء أبروم أن حزاك و زملائه يحاولون إقصاءه ليحلّوا مكانه . لذلك قرّر كما يبدو تقديم الدعم لرئيس الجهاز .

خلال العاصفة المتجدّدة التي اجتاحت صفوف "الشاباك" أعلن "حزاك" و "رداي" عن استقالتهما فيما أقصيَ مالكه عن منصبه . أصداء العاصفة وصلت إلى مسامع المستشار القانوني ، البروفيسور إسحاق زامير ، بعدما أثار الثلاثة ادعاءاتهم أمام مسؤولين كبار في النيابة العامة للدولة . و قد التقى زامير بهم و حصل منهم على معلومات و وثائق عن قتل (المخرّبين) و عن محاولات التستر و التغطية . و باقتناعه بصدقية أقوالهم ، توجّه إلى رئيس الحكومة مطالباً بالاستقالة الفورية لرئيس الجهاز . رفض بيرس الاستجابة لطلبه .. إحدى الشائعات القوية قالت إن زامير تعهّد ، قبل ذلك بوقتٍ طويل ، عندما أفتضحت القضية ، أنه إذا أعلن أبرهام شالوم عن استقالته فسوف ينتهي الموضوع بذلك من ناحيته ..

في 14 آيار 1986 ، بعد أن أعاده رئيس الحكومة خالي الوفاض ، قدّم زامير لمفوّض عام الشرطة شكوى جنائية ضد رئيس "الشاباك" . في هذا الوقت ، كانت قد انقضت مدة تزيد عن سنتين منذ وقوع الحادث في دير البلح . في المقابل التمس رافي مالكه للمحكمة العليا ضد رئيس الحكومة و ضد رئيس "الشاباك" ، داعياً إلى مطالبتهما بالمثول لإيضاح أسباب إقصائه و لماذا لا يُقال رئيس الجهاز على الفور .

في نفس الشهر اندلعت دوامة هزّت جهاز "الشاباك" بقوة شديدة . التلفزيون (الإسرائيلي) أعلن أنه تم فتح تحقيقٍ ضد "موظف رفيع في أجهزة الأمن" بسبب قضية غامضة ، فيما كشفت محطة الـ "بي.بي.سي" عن أن الأمر يتعلق بـ "أبرهام شالوم" .

في هذه الأثناء دعا رئيس "الشاباك" هيئة قيادة الجهاز إلى الاجتماع . و كالعادة لم تش ملامح وجهه و تصرّفاته بما يعتمل و يدور في دخيلة نفسه . لقد ظلّت متجمّدة فيما بدت عيونه هادئة باردة . استعرض تسلسل الأحداث في مسرحها ، و قال إنه أعطى أمراً بقتل (المخرّبين) ، لكنه لم يسهب في الحديث حول هذه النقطة .. طلب منا نقل فحوى حديثه إلى مرؤسينا . تولّد شعورٌ غير مريح من حيث إن رؤساء الأقسام ، و أنا بضمنهم مدعوون بذلك ليس إلا ، إلى تلاوة مراجعات على مسامع المرؤوسين ، كتبت على يدِ رئيس الجهاز ، دون أن تتوفر لهم قدرة الطعن أو الاعتراض على ما كتب فيها .

و بمقدار ما كان أبروم يكثر فيه من عرض تقارير على هذا النمط و المنوال ، بمقدار ما تعزّزت لديّ الشكوك التي أشغلتني منذ وقوع حادثة القتل ، ذلك لأنهم يطرحون أمامنا الصورة بكاملها ، و إنما فقط ما يريدون لنا معرفته ، يكشِفون مقداراً و يخفون مقدارين .. كنت حينئذٍ قائداً للواء القدس و منطقة الضفة الغربية . و كانت تلك فترة صعبة وقعت فيها موجة اعتداءات ، جرت خلالها تحقيقات كثيرة و كشفت بؤر و شبكات (تخريبية) .. هيئة أركان الجهاز اجتمعت مراراً ، لكن المعلومات التي زوّدت لنا في هذا الإطار كانت شحيحة ، و أقلّ دقة من تلك التي تناقلتها وسائل الإعلام . شعرت بالقلق و التخوّف على معنويات العاملين الذين طرحوا عليّ أسئلة كثيرة ، واجهت صعوبة في الردّ على معظمها .. و عوضاً عن ذلك أخبرتهم صراحة بما يعتريني من شكوك . قلت لهم إنني غير قادر على التعاطف تماماً مع الإيضاحات و التبريرات المقدمة إليّ ، و أنني أرغب في أن يعرفوا ذلك . النتائج لم تتأخّر في الوصول : فقد وضعوني في مزيدٍ من العزلة ، و لم يشركوني في المداولات و القرارات و التقارير المتعلّقة بالتطوّرات .

في هذه الأثناء ، أثيرت مطالبة بإقامة لجنة تحقيق رسمية لتقصي القضية .. و في محاولة لتهدئة الخواطر ، قرّر وزير العدل ، إسحاق موداعي – بموافقة رئيس الحكومة شمعون بيرس ، و القائم بأعماله إسحاق شامير – قبول طلبٍ سابق للمستشار القانوني للحكومة ، إسحاق زامير ، بإنهاء مهام منصبه .. و في الأول من حزيران 1986 عيّن القاضي اللوائي ، يوسف حريش ، خلفاً لزامير في المنصب . في محافل عديدة تردّد ادعاءٌ مفاده أن الاستبدال المتسرّع لزامير استهدف إخراجه من الصورة ، و إحلال مستشار قانوني مريح أكثر للحكومة في مكانه . في المشاورات التي جرت لدى رئيس الوزراء ، بمشاركة المستشار القانوني الجديد للحكومة ، اهتُدِيَ إلى سبيلٍ لوضع حدّ للقضية بكلّ ما يتفرّع عنها : أبرهام شالوم يعلن عن استقالته و يطلب في نفس الوقت من رئيس الدولة ، حاييم هرتصوغ ، العفو عنه سلفاً ، قبل أن تقدّم لائحة اتهام بحقه ، فيما يتعلّق بكافة المخالفات المنسوبة إليه في القضية .. في 25 حزيران 1986 ، قدّم أبروم استقالته لرئيس الحكومة . رئيس الجهاز المستقيل و ثلاثة من مساعديه قدّموا طلبات استرحام و عفواً قبل أن يُدانوا ، و استجيب لطلباتهم بعدما وجد رئيس الدولة، بمساعدة عددٍ من القانونيين ، أن القانون يتيح له ذلك .. هذا العفو ، في حدّ ذاته ، أفضى تلقائياً إلى إبطال الشكوى الجنائية التي قدّمها زامير . أبروم قال في طلب العفو ، مثلما أسلفت ، إنه أعطى الأمر بقتل (المخرّبين) "بإذن و

تفويض" ، أي بموافقة رئيس الحكومة في حينه ، إسحاق شامير .. شامير ادعى في المقابل بإصرار أن تصفية (المخرّبين) تمت دون علمه و بالتالي بدون إذنه .. هذا فيما أصدر رئيس الدولة في وقتٍ لاحق ، عفواً عن متورّطين آخرين من أفراد جهاز "الشاباك" . و في المحصلة بلغ عدد الحاصلين على عفوٍ أحد عشر مسؤولاً ..

في تموز 1986 ، عيّنت لجنة ثلاثية برئاسة الجنرال (احتياط) أهارون ياريف ، لتحديد أنظمة عمل جهاز "الشاباك" .. توصيات اللجنة لم تنشَر على الملأ . في كانون الأول من العام نفسه قرّرت لجنة قضائية برئاسة المستشار القانوني للحكومة يوسف حريش أن شامير بريء من جميع التهم التي وجّهها إليه أبراهام شالوم .. كذلك أوصت اللجنة بعدم محاكمة أيّ من أفراد جهاز "الشاباك" ، الأحد عشر ، الذين عفى عنهم رئيس الدولة من دون أن يُدانوا . في أعقاب صدور قرارات العفو ، قدّمت ستة التماسات إلى المحكمة العليا و رفضت كلّها بأغلبية أصوات قضاة المحكمة . رئيس المحكمة العليا ، مائير شمغار ، توصّل إلى نتيجة بأن لرئيس الدولة صلاحية بالعفو قبل الإدانة ، و انضمت لهذا الرأي نائبة رئيس المحكمة ، مريم بن فورات . القاضي أهارون باراك ، توصّل إلى نتيجة معاكسة .

بعد مرور عشر سنوات ، اعترف إيهود ياتوم ، في مقابلة مع صحيفة "يديعوت أحرونوت" أنه قتل بيديه (المخرّبين) بناء على تعليمات من رئيس جهاز "الشاباك" .

لغاية قضية الباص 300 ، أُدير جهاز "الشاباك" كدفيئة غطّت جنباتها بستائر محكمة الإغلاق .. كثيرون منا لم يفكّروا بإمكانية إزاحة الستارة من حين لآخر ، للنظر إلى ما يدور في الخارج ، لتفحّص حالة الجو السياسي ، و مدى قوة و تأثير وسائل الإعلام و الرأي العام . كان كلّ شيء مقفلاً و محصوراً داخل غرف معتمة ، قمنا بعملنا في السر ، بعيداً عن الأضواء ، دون أي خوفٍ تقريباً من تدخل أو انتقاد من وسائل الإعلام . هذا الواقع كان مريحاً لنا ، لكنه عمل أيضاً في صالح الشعب (الإسرائيلي) ، لأننا استطعنا بهذه الطريقة توجيه كلّ طاقاتنا لإحباط (الإرهاب) و تأمين سلامة السكان . قضية الباص 300 انفجرت داخل البيت ، من دون أن نكون مستعدّين لأخذ مواقع احتماءٍ من الشظايا التي مزّقت الجدران و جرحتنا كلنا .. وسائل الإعلام بدأت تتشغل بنا و تلاحقنا يومياً ، كما لو كانت تجلس بيننا ، لترسل تقاريرها و تبلغ من هناك عما يدور لدينا . أعمِلنا اعتباراتنا ، طرق عملنا التي حافظنا على سرّيتها بتشدّد و صرامة متناهين ، غدت كلّها مكشوفة ، لأعين الجميع ؟ . بيد أن ذلك لم يكن أهم ما في الأمر .. ففجأة ، تعلّمنا على جلدنا ما سبق لآخرين أن تعلّموه قبلنا بوقتٍ طويل : في نظام ديمقراطي كالذي يقوم عندنا لا توجد في متناول اليد تغطية و حماية سياسية مطلقة .. فعندما يفهم السياسيون أن كراسيهم في خطر ، تجدهم يسرعون للتنصل من كلّ ما يُشتَمّ من النار . أبروم لم يحسن إدراك ذلك . و كحال كثيرين منا ، فقد سار سنوات طويلة فوق جبل رفيع في المنطقة المظلمة من القانون ، ذلك لأن الظروف أملت ذلك . عندما حصل الفشل الكبير ، كان عليه أن يدرك أنه سيبقى منذ هذه اللحظة بمفرده ، كهدفٍ وحيد لطابور الرماة . لقد كان واضحاً منذ البدء أنه عندما تقرّر إجراء تحقيق ، كان عليه الذهاب إلى رئيس الحكومة و إلى المستشار القضائي ، ليضع مفاتيح مكتبه على الطاولة و ليقول "سادتي ، أنا مسافر للدراسة في هارفرد أو في كيمبريدج ، و سلام عليكم" . لكنه لم يفعل ذلك ، فعانت الدولة سوياً مع جهاز "الشاباك" من صدمة صعبة ، و بدرجة كبيرة غير مبرّرة .. في نهاية المطاف اضطر أبروم للاستقالة ، فيما ترك نخبة من كبار المسؤولين – روبين حزاك ، رافي مالكه ، بيلغ رداي و آخرين – الجهاز كأشخاصٍ موصومين مغلوب على أمرهم .. صحيح أنهم تدبّروا أمورهم في الخارج من ناحية اقتصادية ، لكنهم ظلّوا في أعماقهم كما لو أن شيئاً ما قد خبا و انطفأ بداخلهم .

يوسي غينوسار أيضاً دفع ثمناً باهظاً عن تورّطه في القضية . لقد حصل على عفو و استقال من الجهاز بألمٍ و حزن . و في الواقع ، فقد عارض غينوسار موضوع قرار العفو ، لكنه قال إنه وافق على ذلك في النهاية لأنه قيل له إنه إذا رفض ، فإن الأمر قد يحرم آخرين من الحصول على العفو الذي رغبوه . كذلك كان هناك تبريرٌ آخر هوّن عليه القرار ، و هو التعهّد الذي أُعطيَ له بأن العفو لن يلطخ اسمه و سمعته . فضلاً عن ذلك ، فإن قبوله هو السبيل الوحيد لتفادي فتح تحقيق ، كان من الممكن أن ينشأ عنه وضع يضطر فيه مسؤولون و موظفون لكشف أساليب عمل و قضايا سرية و حساسة بغية الدفاع عن أنفسهم .

كان غينوسار محبَطاً و مهموماً للغاية .. فآماله فيأ يعيّن ذات يومٍ رئيساً لجهاز الشاباك ، ضاعت و تبدّدت ، و كذلك تطلعاته في أن يجسّد داخل الجهاز المعرفة و الخبرة اللذين اكتسبهما في تشكيلة واسعة من الميادين . و بضمنها تلك المتصلة بنسيج العلاقات مع الفلسطينيين و تنظيماتهم .

آرئيل شارون ، الذي كان قائداً للمنطقة العسكرية الجنوبية حينما خدم غينوسار في لواء الجنوب "الشاباك" ، لم يتخلَّ عنه . فعندما أشغل شارون وزيراً للصناعة و التجارة ، اهتم بتعيين غينوسار مديراً لمعهد التصدير و ذلك على الرغم من معارضة مجلس الإدارة . غينوسار ، ظهر بعد ذلك كحليفٍ سياسي لشارون ، لكن و لسببٍ ما نشأ خلاف بين الإثنين .

في مطلع سنوات التسعينيات ، بدأ غينوسار بالنشاط في إطار حزب "العمل" ، و طلب أن يتمّ انتخابه من طرف الحزب للكنيست ، و عندئذٍ إنصب عليه غضب حاييم تسادوق ، وزير العدل السابق ، الذي دعا أعضاء الحزب إلى الامتناع عن انتخابه . بعد انتخابات الكنيست الـ 13 في العام 1992 ، طلب وزير البناء و الإسكان بنيامين أليعزار ، تعيينه مديراً عاماً لمكتبه ، لكن المحكمة العليا منَعت التعيين في أعقاب التماساتٍ قدّمت على خلفية قضية الباص 300 . لقد واجهْتُ صعوبة حينئذٍ – و لا زلت غير قادرٍ حتى اليوم أيضاً – على فهم كنه رأي المحكمة العليا في هذه المسألة .

أبرهام شالوم نأى بنفسه و انقطع بشكلٍ تامٍ تقريباً عن دولة (إسرائيل) . فهو يتنقل بين نيويورك و لندن ، و يأتي في زياراتٍ إلى (إسرائيل) مرة كلّ بضعة شهور .. و هكذا فإن من كان واحداً من الأشخاص الأكثر تدخّلاً و تأثيراً في ما يحدث بالدولة ، أضحى اليوم يعرف أقلّ بكثيرٍ من المواطن العادي . في إحدى زياراته هنا ، سألني بشكلٍ فاجأني : "قل لي يا يعقوب ، من هو وزير المالية حالياً ؟!" .

قرارات العفو عن كبار موظفي "الشاباك" ، أصدرها كما هو معلوم ، رئيس الدولة في حينه ، حاييم هرتصوغ . منذ أن عُيّنت قائداً للواء القدس و لغاية انتهاء ولايته ، التقينا بشكلٍ منتظم ، مرة في الشهر على الأقل ، لنتناول معاً طعام الغداء .. في الأيام التي سبقت إصدار العفو ، شعرت بأنه يفتّش عن اعتباراتٍ تدعم القرار الصعب الذي تعيّن عليه اتخاذه . و افترض أنه تحادث حول ذلك مع أشخاصٍ آخرين . العفو في حدّ ذاته كان حسب اعتقادي المتواضع ، ضرورة أملاها الواقع ، على الرغم من الانتقادات الشعبية القاسية التي وجّهت لهرتصوغ بسبب ذلك . فجهاز الشاباك برمته احتاجَ لهذه الخطوة بغية تنقية الأجواء .

عندما عُيّنت رئيساً للجهاز ، طلبت منح الرئيس هرتصوغ الشعور بأننا مدينون له بالشكر على تجنّده لمساعدة الجهاز في وقت محنته . أكثرت من دعوته لاجتماعاتنا كمتحدثٍ و خطيبٍ مركزي . لقد كان خطيباً مقتدراً و مؤثراً ، لا سيما و أنه كرئيسٍ سابق لهيئة الاستخبارات العسكرية ، كان يتمتع بخلفية استخبارية لا يستهان بها . دعيته أيضاً لزيارة وحداتنا المختلفة للتحادث مع موظفي الجهاز ، كما و أشركناه في التصويت بقاعات و ساحات الرماية . و هناك تكشّف لنا بُعد مفاجيء في شخصيته . فالرجل الذي أحبّ شكليات و مظاهر المراسم ، الرسمي الصارم الذي كان قادراً على تنغيص حياتي بسبب ما بدا له كمظهرٍ خارجيّ غير أنيق لحارسٍ ما ، انتشى كصبيّ فرح عندما أصاب الهدف .

إحدى النتائج للهزّة الكبرى التي أصابت جهاز "الشاباك" تمثّلت في إحضار يوسف هرملين لفترة ولاية ثانية كرئيسٍ للجهاز خلفاً لأبرهام شالوم . لقد عاد إلينا من مكتب مراقب الدولة ، حيث تولّى هناك إدارة شعبة مراقبة أجهزة الأمن . و عند عودته إلى مكتب رئيس الجهاز في أيلول 1986 ، كان قد بلغ السادسة و الستين من عمره ، رجل مُجرّب ، متّزنٌ للغاية ، لكنه يتصعّب مواكبة وتيرة الأحداث الجنونية المتسارعة التي فرضت على جهاز "الشاباك" .

أحضر هرملين إلى الجهاز ليونة ، أكثر من أيّ شيء آخر ، بمثابة حبّة مهدىء بعد قضية الباص 300 . فقد أبطأ الوتيرة ، ليتسبّب بذلك بهبوطٍ ما في عزيمة الوحدة .. لكننا كنا نعلم أنه موجود هناك بصورة مؤقتة فقط ، إلى حين العثور على خلفٍ له . و بالفعل و بعد فترة وجيزة ، بدأ بمقابلة نخبة من كبار العاملين في الجهاز ، ليختار من بينهم الرجل الذي سيوصي عليه ليحلّ في مكانه . لم أكن قد عرفته عن قرب ، لكن منذ المقابلة الأولى التي استدعاني إليها ، دار بيننا حديثٌ مطوّل بروح طيبة .. في أيار 1987 ، بعد حوالي تسعة شهور من توليه للمنصب ، قام بتعييني نائباً لرئيس الجهاز ، لكنه حرص على أن يضيف لكتاب التعيين : "عليك أن لا ترى في ذلك تعهّداً بتعيينك رئيساً للجهاز" .

كيفية الحذر من التنويم

يوسف هرملين سعى في المحصلة إلى العودة للبيت بسلام .. "كلّ ما أنشده .." قال لي في لحظة صراحة ، "هو قضاء وقتٍ أطول مع أحفادي و مساعدتهم في إعداد دروسهم" . لم يتوقّع أو ينتظر هزّات كبيرة في فترة ولايته القصيرة ، ناهيك بالطبع عن أن يضطر لمجابهة مع لجنة تحقيقٍ هي الأهم في شؤون عمل "الشاباك" ، عدا عن لجنة شمغار التي شكّلت بعد قتل إسحاق رابين .

فاللجنة التي ترأسها القاضي موشيه لنداو ، عُيّنت لتحقق في أساليب التحقيق التي يمارسها جهاز "الشاباك" مع معتقلين مشبوهين بنشاطات (تخريبية) معادية . و قد أتت هذه اللجنة بدرجة كبيرة في أعقاب قضية

نافسو . الملازم أول عزات نافسو ، المتحدر لعائلة شركسية من قرية "كفر كما" في الجليل الأسفل ، خدم في وحدة الارتباط بجنوب لبنان . كان مسؤولاً عن نقل إمدادات السلاح و الذخائر و المعدات الطبية لقوات الميجر سعد حداد ، و شارك في دوريات هذه القوات ليقوم بجمع معلومات من قرى المنطقة ، عن منظمات (المخرّبين) . و في نطاق مهامه هذه ، التقى مع عددٍ من (المخبرين) ، اللذين كان ولاءهم المزدوج أمراً لا يرقى إليه الشك .. أحدهم كان مختار قرية "كفر شبا" يلقّب بـــ "أبو قاسم" .

كان "أبو قاسم" يخضع لمراقبة من جانب جهاز "الشاباك" ، و في النهاية اعتقل و اقتيد للتحقيق بتهمة التعاون مع منظمات (المخرّبين) . أثناء التحقيق معه قال إن "نافسو" التقى في لبنان مع مسؤول في منظمة التحرير الفلسطينية و تسلّم منه حقائب تحتوي على متفجّرات ليقوم بنقلها إلى (إسرائيل) . و قال أيضاً إنه علِم أن "نافسو" تلقى مبلغ 5000 ليرة لبنانية لقاء كلّ عملية نقل و تسليم .

استناداً لهذه الإفادة اعتقل نافسو في كانون الثاني 1980 و تمّ التحقيق معه على يد يوسي غينوسار ، ليقدّم بعد ذلك للمحاكمة بتهمة التجسس و نقل وسائل قتالية للعدو . و قد أدانته محكمة عسكرية بجميع الاتهامات المنسوبة إليه و حكمت عليه بالسجن لمدة ثمانية عشر عاماً ، و تخفيض رتبته إلى جنديّ و بالطرد من صفوف الجيش (الإسرائيلي) ، على الرغم من أن "نافسو" ادعى أن اعترافاته انتزعت منه بأساليب تحقيقٍ غير قانونية . استأنف على حكمه أمام هيئة قضائية عسكرية أعلى لكن استئنافه رفض .

بعد أكثر من سبع سنوات على اعتقال نافسو ، كشفت في وسائل الأعلام للمرة الأولى ، عقب قضية الباص 300 ، شخصية يوسي غينوسار ، الذي استقال من جهاز "الشاباك" و عيّن مديراً عاماً لمعهد التصدير . نافسو ، الذي شاهد صورته في الصحف ، شخص غينوسار بصفته الرجل الذي تولى التحقيق معه ، و قدّم استئنافاً على إدانته إلى المحكمة العليا . و لحسن حظه ، كان قد أدخل في العام 1986 تعديل على قانون القضاء العسكري ، مكّنه من أن يطلب من رئيس المحكمة العليا إعادة النظر في ملفه . و قد استند الالتماس إلى التحقيق الذي أُجريَ مع غينوسار في الشرطة بشأن عرقلة مجرى القضاء في قضية الباص 300 ، و الذي أقرّ فيه أن الجهاز لجأ في الماضي أيضاً إلى استخدام أساليب تحقيقٍ مماثلة .

نافسو قال إن حالته هي واحدة من الحالات التي قصدها غينوسار ، و أن التحقيق معه تم بطرقٍ غير قانونية . غينوسار ، هكذا قال نافسو ، نكّل به ، بصق في وجهه ، نعته بـــ (المخرّب) ، و قال إنه غير جديرٍ بأن يتحدّثوا معه باللغة العبرية ، و قام بتعريَته من ملابسه و طرحه على الأرض و داس عليه برجله . كما تحدّث عن ضغوط نفسية مورست عليه .

خلال بحث الاستئناف وافق الادعاء العسكري و محامو الدفاع على صفقة ادعاء ، ألغِيت بموجبها جميع الاتهامات السابقة الموجّهة لنافسو ، و استبدلت ببند اتهامٍ بسيط و هو تجاوز الصلاحيات .

اعترف نافسو أنه أثناء زيارته ، في مهمة ، لمنزل "أبو قاسم" التقى بشخصٍ قدّم نفسه بصفة من له ارتباطٌ بمنظمات (المخرّبين) و أنه يستطيع تزويد الجيش (الإسرائيلي) بمعلومات عن نشاطاتها .. و في لقاءٍ ثانٍ ، تمّ بعد بضعة شهور روى نفس الشخص لنافسو بأنه مسؤولٌ كبير في حركة "فتح" و أن اللقاء السابق بينهما صوّر سراً . و قد طلب من نافسو في المناسبة ذاتها أن يتعاون ، وسط تهديده بأنه إن لم يفعل ذلك فسوف تُنقَل الصوّر إلى المخابرات (الإسرائيلية) . رفض نافسو الطلب و غادر المكان ، لكنه لم يخبر أحداً من مسؤوليه عن اللقائين .

هيئة المحكمة العليا المكوّنة من ثلاثة قضاة ، أقرّت بالإجماع صفقة الإدعاء . كذلك أخذ قضاة المحكمة بنظر الاعتبار أن نافسو كان قد سجن لمدة سبع سنوات و نصف ، في حين أن العقوبة القصوى على التهمة التي اعترف بها كانت السجن لخمس سنوات فقط . و بناء عليه تقرّر أن يحكَم عليه بالسجن لمدة سنتين من تاريخ عتقاله و تخفيض رتبته من ملازم أول إلى رقيب أول . و بحكم ذلك أمر القضاة ، بطبيعة الحال ، بالإفراج الفوري عنه .

الضجة الإعلامية التي أثارتها قضية نافسو ، تفاقمت بعد نشر تقريرٍ منظمة "بتسيلم" الذي جاء باتهامات خطيرة ضد الشاباك بسبب أساليب التحقيق التي يتّبعها الجهاز . و هكذا و بعد فترة غير طويلة من ضجة الرأي العام التي قامت حول قضية الباص 300 ، وُجّهت الأنظار مجدّداً إلى ما يحدث في غرف و أقسام التحقيق التابعة للجهاز . الآن أصبح واضحاً للجميع أن الموضوع لن يهدأ بدون أن يُفحَص لى نهايته .. و على هذه الأرضية ، قرّرت الحكومة إقامة لجنة تحقيقٍ "حول أساليب و قواعد التحقيق التي يتّبعها جهاز "الشاباك" في مواضيع النشاطات (التخريبية) المعادية ، و تقديم شهادة في محكمة فيما يتعلّق بهذه التحقيقات" . و قد ترأس اللجنة كما هو معروف ، رئيس المحكمة العليا المتقاعد ، موشيه لنداو ، فيما تألفت عضويتها من مراقب الدولة ، يعقوب ميلتس ، و الجنرال (احتياط) إسحاق حوفي ، رئيس جهاز الموساد السابق .

كان ذلك في تاريخ 31 أيّار 1987 ، بعد حوالي الشهر من تعييني نائباً لرئيس الجهاز . إحدى المهام الأولى التي كلّفت بها هرملين في نطاق منصبي الجديد كانت بلورة موقف جهاز "الشاباك" تجاه هذه المواضيع و جمع المواد الملائمة التي تدعم هذا الموقف . شريكي في هذا العبء كان المحامي تسبي تيرلو ، كولونيل الاحتياط الذي أشغل قبل ذلك منصب مدير عام وزارة العدل . كنّا كلانا متنبّهين لحقيقة أن تحقيقات جهاز "الشاباك" أضحت بمرور الزمن موضوعاً حساساً و مغطّى إعلامياً بدرجة كبيرة . و كما هو معلوم فلغاية حرب الأيام الستة ، كان جلّ عمل و نشاط جهاز الأمن منصبّ في مجالين : التصدّي لأنشطة التجسّس القادم من أوروبا الشرقية ، و منع و إحباط التحرّكات و النشاطات القومية العادية في صفوف عرب (إسرائيل) . و قد تكوّنت وحدة المحققين بأكملها في حينه من سبعة محققين فقط ، أربعة منهم تولّوا معالجة المجال العربي . في العام 1966 ، في السنة الأولى من خدمتي في صفوف جهاز "الشاباك" ، جرى التحقيق مع عددٍ لا يزيد عن 150 شخصاً من مختلف قطاعات السكان . حرب الأيام الستة ، في العام 1967 ، أوجدت واقعاً جديداً ، مختلفاً في الجوهر . فألقيت على عاتق جهاز "الشاباك" مهمة التصدّي لموجات (الإرهاب) الفلسطيني المتصاعدة في المناطق (الضفة الغربية و قطاع غزة) و في داخل مناطق الدولة (الإسرائيلية) و كذلك خارج حدودها . كانت التحقيقات واحدة من الوسائل الأكثر أهمية لكشف النشاطات المعادية و لمنعها و إحباطها .

في مقر جهاز "الشاباك" ، يعمل قسم تحقيقات ، غير أن الغالبية العظمى من المحققين موزّعون و منتشرون في منشآت و مراكز التحقيق التابعة للجهاز في أنحاء البلاد ، و هم يخضعون من حيث المسؤوليات القيادية و المهنية لرؤساء الأقسام . مراكز التحقيق كانت موجودة في كلّ مدينة تقريباً في المناطق الفلسطينية لغاية خروج الجيش (الإسرائيلي) من هناك .. أحد أكبر مراكز التحقيق هذه كان يقوم في غزة .. تأهيل المحققين و شروط خدمتهم مماثلين تقريباً لتلك الخاصة بمركزي العمل الميداني .. فمسار التأهّل المهني لهم يشتمل على دراسات في معاهد لتعليم اللغة الغربية ، و مشاركة في دورات للاستخبارات و فترة تخصّص . و الفارق الوحيد يتمثّل في أن المركزين يجرون تحقيقات في أحيانٍ متباعدة فقط ، ضمن ظروفٍ عاجلة في الميدان ، بينما المحققون ينشغلون في ذلك طيلة الوقت و بشكلٍ مكثف ..

طيلة ثمانية و عشرين عاماً منذ حرب الأيام الستة و لغاية انتهاء ولايتي كرئيسٍ للجهاز تمّ التحقيق مع عشرات الألوف من (المخرّبين) و المشبوهين بهذه التهمة . طواقم المحققين التي قامت بالمهمة ضمّت في مجموعها بضع عشرات من الأشخاص العاملين في الجهاز ، لكن في أعقاب تحقيقاتهم ، تمّ الكشف ، وفق تقديراتنا ، عن ما لا يقل عن 70 في المائة من التنظيمات و الخلايا المعادية و (المخرّبين) الأفراد و عن نصف الوسائل القتالية تقريباً .. تنامي قوة (إرهاب) حركة "حماس" و تنظيمات إسلامية أصولية أخرى ، وجد بدوره أيضاً انعكاساً و تعبيراً عنه في إحصائية التحقيقات : في العام 1991 ، على سبيل المثال ، كان هناك 21 في المائة فقط من مجموع الذين حُقّق معهم ، أعضاء في تنظيمات إسلامية دينية .. بعد سنتين وصلت نسبة هؤلاء إلى 54 في المائة .

و للاعترافات بتنفيذ اعتداءات و نشاطات (تخريبية) أخرى ، تعزى كما هو معروف ، أهمية بالغة .. لكن الحصول على معلوماتٍ تمنع و تحبط عمليات (إرهابية) في المستقبل أمر له أهمية أكبر من ذلك ، و في هذا المضمار أثمرت التحقيقات عن نتائج قيّمة و مفيدة للغاية .

التحقيق مع المعتقلين العرب في مراكز جهاز "الشاباك" ، كان شاقاً و مضنياً . فمنذ لحظة اعتقالهم كان يخيّم على الخاضعين للتحقيق شبح منظمات (الإرهاب) التي لم تتوانَ – حتى داخل السجون – عن قتل مشبوهين بالتعاون مع السلطات (الإسرائيلية) . كان الجميع يعرفون أنه لا أسرار داخل الجدران .. الشخص المحقق معه الذي يفتح فمه و يسلّم (مخرّبين) آخرين كان عرضة لخطر الموت .. الشائعة بأن المعتقل الفلاني باح لمحققي جهاز "الشاباك" بكلّ ما أرادوا معرفته ، كانت تنتقل بسرعة بواسطة طرقات على الجدران و نداءات صوتية تنتقل من زنزانة إلى أخرى .. و حتى إن لم يكن السر قد تسرّب في هذه المرحلة ، فإنه سيتكشّف غالباً في وقتٍ لاحقٍ داخل قاعة المحكمة .. ليس هذا و حسب ، فالاكتظاظ الشديد في مراكز التحقيق و في داخل السجون أضرّ جداً بشرط عزل الخاضعين للتحقيق و مكّن رفاقهم من الضغط عليهم حتى لا يتعاونوا مع محققيهم .

لقد قتل (المخرّبون) آلافاً من أبناء شعبهم الذين اتهموا بالتعاون معنا .. في حالات كثيرة لم يكن هناك أساس لهذه الاتهامات لكنه في جوهر الأمر نجح (المخرّبون) في زرع الخوف بين السكان ، و في جعل كثيرين من الخاضعين للتحقيق لا يسارعون إلى البوح بما في حوزتهم من معلومات .. و بالمناسبة فإن من صمَد في التحقيق كان يحظى بمكانة مرموقة بين زملائه .. عدا عن ذلك ، كثيرون من الذين خضعوا للتحقيق ، التحقوا بمنظمات (المخرّبين) من منطلق دوافع أيديولوجية ، اسهمت في حدّ ذاتها في زيادة و

تعزيز قدرة الصمود لديهم .. لقد تعلّموا التمسّك بالهدف ، و إظهار الولاء و الإخلاص لرفاقهم ، و عرفوا أيضاً أن هناك جزاء على سلوكهم هذا .. فطالما أن اسمهم لم يلطخ أو يوصم ، كان مؤمناً لهم بأن اعتقالهم لن يضر بالوضع الاقتصادي لعائلاتهم ، و أن أياً من أفراد أسرهم لن يعاني مرارة الجوع .. أجهزة الدعم التي أقامتها منظمات (الإرهاب) لمساندة عائلات المعتقلين كانت ناجعة و سخية .. و الاتفاقات التي تمّت بين فترة و أخرى مع منظمات (الإرهاب) حول إطلاق سراح معتقلين كان لها تأثيرها هي الأخرى . معظم المعتقلين وصلوا إلى مراكز التحقيق معبّئين بقناعة مؤدّاها أنه إذا التزموا الصمت و عوقبوا على ذلك بمواصلة اعتقالهم ، فإن (إسرائيل) ستضطر إلى إخلاء سبيلهم في أعقاب صفقة من هذا النوع أو ذاك .

و لتصعب علينا مهمتنا أكثر ، وزّعت منظمات (المخرّبين) نشرات مختلفة ، تتضمّن قواعد لتحسين و زيادة قدرة المعتقلين على الصمود في تحقيقات جهاز "الشاباك" .. غالبية المعتقلين حفظوا هذه القواعد و الإرشادات عن ظهر قلبٍ تقريباً .. احتفظت بإحدى هذه النشرات كتذكار .. و هي تحتوي ، أولاً ، على تقديم مسهب ، يدعو (المخرّبين) إلى عدم الرضوخ في التحقيق و إلى الصمود في وجه أي ضغط جسدي أو معنوي – نفسي . "من المهم أن نتذكّر بأن الشخص الخاضع للتحقيق يستطيع التحكّم بأقواله و أعماله" أوضح معدّو النشرة ، "إنه يستطيع الجلوس إذا أمره المحقق بالوقوف .. يستطيع التكلّم إذا أمروه أن يصمِت .. و ضربات يتلقّاها الجسد لا تحرّك اللسان .. إسماع أقوالٍ و عبارات مهينة ، و زجّ الخاضعين للتحقيق في زنزانة و استخدام معتقلين آخرين انهاروا في التحقيق بغية التأثير على الخاضع للتحقيق ، كلّ هذا و سواه لا يبرز الاعتراف" .

بعد ذلك تعرض النشرة لقائمة طويلة من أساليب التحقيق ، وفقما أبلغ عنها معتقلون محرّرون . المبالغات و الاختلاقات تستخدم هنا في مزيج عشوائي .. و فيما يلي عدداً من النماذج المميزة :

"أسلوب المحقق الطيّب و المحقق الشرير : هذا الأسلوب يمارَس على نطاقٍ واسع في المخابرات (الإسرائيلية) . فمعظم مراحل التحقيق تتم بواسطة شخصين – محققين . الأول يظهر بصورة مجرمٍ عديم الرحمة ، فيما الثاني يكون رقيقاً ، صبوراً و يحاول دوماً وقف التعذيب و يقدّم نفسه كمن يسعى لحماية المعتقل . فعندما يقوم الأول بضرب و إهانة المحقق معه ، تجد المحقق الجيّد يقول له : "كف عن سلوكك الوحشي ، و عامل المعتقل كإنسان.." . ثم تجده بعدئذ ينصح المحقق معه بالتكلّم ليجنّب نفسه المتاعب . عندما يدخل المحقق الطيب ، يشعر المعتقل بالارتياح ، و عندما يدخل المحقق الشرير ، فإنه يشعر بالخوف . باستطاعة كلّ معتقلٍ أن يقاوم هذا الأسلوب . فكلمة واحدة من فمه يمكن أن تقلِب المحقق الطيّب إلى محقق سيّئ ، و في النهاية سيفشلوا في استعمال هذا الأسلوب ضده" .

"أسلوب المعلومة المكتملة" : يسعى المحقق إلى التقليل من أهمية الاعتراف ، بزعم أنه لا فرق إذا اعترف المحقق معه أم لم يعترف ، لأن المحققين .. يعرفون ، أصلاً ، كلّ شيئ ، و هم يريدون فقط .. معرفة دوافع المحقَق معه .. و إذا سيطر المعتقل على نفسه ، سيتخلّى المحقق عن استخدام هذا الأسلوب" .

"أسلوب إثارة العواطف" : و المقصود بهذا الأسلوب محاولة التأثير على معنويات المعتقل عن طريق إثارة مشاعر الحب أو الكره لديه ، أو جعله يعيش في جزع و خوف على حياته أو على أعضاء جسمه أو قدرته الجنسية ، أو تهديده باغتصابه أو اغتصاب أمه أو قريباتٍ له ، أو أنهم يضغطون عليه بالضرب و التعذيب و جعله يظنّ أنه سيبقى في هذا الوضع لوقتٍ طويل .. أسلوب إثارة و تحريك العواطف هذا ينطوي على أهمية خاصة ، لأن المحقق يستخدم فيه إلمامه بالقيم الاجتماعية للمحقَق معه . معتقلون رهن التحقيق ، يتصفون بالبساطة و السذاجة ، و غير واعين بأمور و جوانب التحقيق ، سيكونون مستعدين لكلّ شيئ عندما يشاهدوا شقيقتهم تتعرّض للضرب أو معرّاة من ملابسها ، أو يهدّدون باغتصابها و هتك عذريّتها .. سيكون المعتقل عندئذٍ مستعداً للتضحية بنفسه في سبيل منع استمرار مسلسل الإذلال هذا .

"أسلوب الأزمة الفجائية" : عندما يكون المعتقل قابعاً تحت الضغط و التعذيب ، يقوم المحقق بإدخال عميلٍ يتظاهر كمن يعذّبونه ، إلى زنزانته ، أو حجرته . و في كلّ يوم ، عندما يعود العميل المدسوس إلى الغرفة من التحقيق المزعوم ، تجده يشكو بأنهم ضربوه على خصيتيه . و أنهم أحضروا إليه ابنته و هي عارية ، أو أنهم حقنوه بمادة تسبّبت بفقدان الوعي .. كلّ ذلك بهدف خلق أزمة لدى المحقَق معه لدفعه إلى الاعتراف .

"أسلوب تشتيت التفكير" : مجموعة محققين تقف قبالة المناضل . كلّ واحدٍ منهم يسأله في موضوع مختلف ، محاولين بلبلته و إرباكه لكي يرهقوه و يدفعوه للانهيار . مجموعات المحققين تتبدّل مرة كلّ بضع ساعات بغية التأثير على الوضع النفسي و الجسدي للمحقَق معه . يجب على الأخير أن يصمت أثناء التحقيق و أن يحافظ على رباطة جأشه . فمثل هذا التحقيق لن يستمر بطبيعة الحال إلى ما لا نهاية .. إنه سينتهي إلى إحدى نتيجتين : إما أن يقتنِعوا ببراءة المعتقل ، أو أن يوصلهم إلى استنتاج بأنه لا يمكن انتزاع اعتراف منه .

"أسلوب الضرب" : إذا أظهر المعتقل الخاضع للتحقيق على سبيل المثال خوفه من أن يؤدّي الضرب على أذنه إلى إصابته بالطرش ، أو أنه يتخوّف من إصابته بضعفٍ جنسيّ بعد تلقيه ضرباتٍ على خصيتيه ، أو إذا جاء ردّ فعله على الضرب بالصراخ و التأوّه من الألم ، أو بتوسّل الشفقة و الرأفة به ، فسيواصل المحقق ضربه إلى أن يدلي باعتراف . أما إذا تحلّى المعتقل بالصمود و الثبات ، فإن المحقق سيتعب و يملّ . فبين وجبة ضربٍ و أخرى ، هناك استراحات ، يستغلها المحقق لتبديد و إزالة تعبه و إرهاقه و ليسأل المعتقل الخاضع للتحقيق إذا كان قرّر الاعتراف .. على المعتقل أن يستغل هذه الوقفات بأخذ قسطٍ من الراحة لنفسه .

"أسلوب الشراء" : عندما يفشل المحقق بالحصول على معلومات من المعتقل الخاضع للتحقيق بالأساليب المختلفة ، فإنه سيحاول استدراج و دفع المعتقل ، بكلمات معسولة ناعمة ، للتفكير بمصلحته الشخصية .. و سيعرض عليه ، على سبيل المثال ، مساعدته في الدراسة ، أو العودة إلى عمله ، و يعِده بأن لا يتمّ نسف بيته ، كلّ ذلك بشرط أن يدلي باعتراف .

"أسلوب التنويم المغناطيسي" : هذا الأسلوب يهدِف إلى كسر ردود الفعل الإرادية . و من المفترض أن يتجاوب المعتقل الخاضع للتحقيق ، بمقتضى ما يطلب منه خبير التنويم . من المهم أن نعرف أنه لا يمكن بأيّ حالٍ إجراء عملية تنويم من دون تنسيق و تعاون بين المنوِّم و المنوَّم ، و لذلك فإن هذا الأسلوب لن يكون مجدياً إذا رأى المعتقل الخاضع للتحقيق بالمنوّم عدواً . و يمكن إفشال التعاون عن طريق عدم الاستجابة لما يطلبه المنوِّم . فإذا طُلِب من المعتقل أن يحدق في اتجاه معين ، عليه أن يحدّق باتجاه آخر . و إذا طُلِب منه أن يجلس بدون حراك ، عليه أن يتحرّك بدون توقف ، و أن يفكّر في أشياء أخرى و يصرف انتباهه عن أقوال الخبير و حركاته" .

و تشتمل القائمة الطويلة كذلك على أساليب تحقيقٍ تعتمد على فحوصات جهاز كشف الكذب ، و على استخدام عقاقير و أدوية ترمي إلى إنهاء المعتقل الخاضع للتحقيق ، و على افتعال و تلفيق أوضاع و ظروف غايتها إقناع المعتقل بأنه لم تعد ثمة جدوى في إصراره و صموده . معظم الأشياء المكتوبة في النشرة لا أساس لها .. إنها اختلاقات تهدف إلى تهيئة المعتقل الذي يخضع للتحقيق إلى أسوأ الاحتمالات .

مركز التحقيق ، هو بوجهٍ عام ، مبنى ملاصق للسجن أو قسم داخل السجن . و هو يحتوي على غرفة انتظار ، غرف للتحقيقات و زنازين اعتقال للمحقق معهم ، و غرفة لقائد أو مسؤول المركز ، و غرف للطاقم . غرف التحقيقات تخلو من أي مظاهر زينة ، و لا يوجد صور على جدرانها . مكوّنات الأثاث الوحيدة فيها عبارة عن طاولة و كراسي لاستعمال المحققين و المعتقلين الخاضعين للتحقيق . جزءٌ من هذه الغرف مزوّدة بوسائل مراقبة . في غرفة الانتظار ، التي لا تكون مقاعدها مريحة بشكلٍ خاص للجلوس ، ينتظر المعتقلون دورهم للتحقيق .. و هم في الغالب معزولون عن بعضهم البعض بواسطة أكياس ، فيها ثقوب صغيرة للتهوية ، يتم إلباسها لرؤوس المعتقلين .

عوض حمدان ، كان معتقلاً توفيّ في العام 1987 بينما كان الكيس على رأسه ، و قد ثارت شبهات بأن وفاته نتجت عن انعدام الأوكسجين داخل الكيس . في أعقاب الحادث قدّم عددٌ من المحققين إلى محاكمة انضباطية . سبب الموت لم يثبت بشكلٍ قاطع . و قد أثيرت من ضمن ذلك إمكانية تعرّض المعتقل للدغة أفعى سامة .. و على أي حال ، فمنذ هذا الحادث ، جرى تغيير جزء من التعليمات ، فيما اضطر رئيس شعبة في قسم التحقيقات ، هو شخصٌ توقعت له مستقبلاً باهراً في الجهاز ، إلى الاستقالة .

بدأنا ، أنا و تسبي تيرلو بتحضير و إعداد المواد للجنة لنداو ، التي كان من المقرّر لها أن تركز في نطاق مهمتها على تقصّي أساليب التحقيق التي يمارسها جهاز "الشاباك" .. كان الجهاز في حينه واقعاً في ضائقة ، متخَناً من قضية الباص 300 ، و يلعق جروح قضية نافسو .. فبينه و بين نيابة الدولة ، سادت أجواء من انعدام الثقة . كما أن ما فسّر كمحاولة لإلقاء التهمة على إسحاق مردخاي في قضية قتل (المخرّبين) في دير البلح ، عكّر صفو العلاقات مع الجيش (الإسرائيلي) .. و من مختلف النواحي ، كان مرغوباً أن تقوم لجنة تحقيق رسميّة في نهاية المطاف ، بتحديد قواعد عمل واضحة لجهاز "الشاباك" ، و تخرجه من منطقة الظلمة التي كان يقبع فيها .. و لحسن حظّنا ، فقد تواءمت رغبة جهاز "الشاباك" في هذه الحالة مع نوايا المستوى السياسي .

أمضينا شهوراً عدة في إعداد و تحضير المواد للجنة . تسبي تيرلو ، رجلٌ غير معافى ، دخّن بدون توقف و احتاج إلى علاجات و أدوية ، لكنه ظهر كحصان عمل لا يكلّ . و قد وضعت تحت تصرّفنا غرفة في مقرّ قيادة لواء القدس ، حيث عملنا فيها مراراً بشكلٍ متواصل حتى ساعات الصباح الباكر . جمعنا موادّ كثيرة عن أساليب التحقيق التي نتّبعها و عن النظريات التي استندت إليها و قدّمناها في الموعد إلى اللجنة . و لأجل تفادي أي وصولٍ أو اقترابٍ لأفراد جهاز الشاباك إلى المواد ، كلّفت بحراسته وحدة الحراسة التابعة لوزارة العدل ، و ليست التابعة للجهاز .

لجنة لنداو ، عقدت جلساتها في مدرسة التمريض المرفقة بمستشفى "شعاري تسيدق" ، في طابقٍ كاملٍ تمّ استئجاره لهذا الغرض . تسبي تيرلو كان يرافق اللجنة في عملها كمراقبٍ من طرف الجهاز و ساعد أعضاءها في تحديد و انتقاء وثائق من بين المواد الكثيرة التي زوّدناها لهم .. و بدوري فقد عدت لمزاولة مهامي و أعمالي المعتادة في مقرّ قيادة الجهاز ، و ظهرت مرة واحدة فقط أمام اللجنة من أجل تقديم إفادة .. و رغم أنني كنت أشغل حينئذٍ نائباً لرئيس الجهاز ، إلا أن إفادتي تعلّقت في شكلٍ أساسي بمنصبي السابق كمسؤولٍ عن لواء القدس و منطقة الضفة الغربية .. استعرضت طرق عمل المحققين و شرحت الاعتبارات التي مثلت أمامنا في إدارة التحقيقات .

قدّمت اللجنة استنتاجاتها إلى رئيس الحكومة ، إسحاق شامير ، في 30 تشرين الأول 1987 ، بعد ما عقدت 43 جلسة ، و استمعت إلى 41 شاهداً ، بينهم رؤساء حكومة في السابق و في الحاضر ، و رجال جهاز القضاء المدني و العسكري ، و خبراء في مهنٍ مختلفة و كذلك أشخاص حقّق معهم على يدِ جهاز "الشاباك" .. أعضاء اللجنة تجوّلوا أيضاً في مراكز التحقيق التابعة للجهاز .

التقرير المطوّل الذي قدّم إلى رئيس الحكومة ، إسحاق شامير ، كان مؤلّفاً من جزئين ، أحدهما علنيّ و الآخر سرّي .. في الجزء العلني ، قرّرت اللجنة أن هناك حالات توجد فيها ضرورة ، لا يطعن بها ، لاستخدام و ممارسة الضغط الجسدي بهذا القدر أو ذاك في التحقيقات مع مشبوهين بنشاطات (تخريبية) . كذلك أكّد التقرير على وجوب عدم محاكمة أيّ من محققي "الشاباك" الذين قدّموا إفادات كاذبة ، على الرغم من الخطورة البالغة الكامنة في أعمالهم ، و ذلك تفادياً لما قد يترتّب على مثل هذه الخطوة من ضررٍ و تعطيلٍ محتملٍ لعمل وحدة المحققين في جهاز "الشاباك" .

إلى ذلك ، خلص التقرير إيضاً إلى وجوب عدم تقديم محققي "الشاباك" المتورّطين في ممارسة أساليب الضغط الجسدي أو النفسي ، للمحاكمة ، باعتبار أنهم تصرّفوا بموجب أوامر و تعليمات المسؤولين عنهم ، بغية انتزاع معلومات حيوية عن منظمات الإرهاب .. لكن اللجنة دانت ، مع ذلك ، تحويل شهادات الكذب و الزور في جهاز "الشاباك" ، إلى قاعدة مألوفة .. و على الرغم من أن هذه الطريقة لم تتّبع من جانب رؤساء و قادة "الشاباك" ، إلا أن هؤلاء وجَدوا أنهم يتحمّلون المسؤولية عن كون هذه الطريقة – الوسيلة تحوّلت إلى عرفٍ استمر و عمّر طويلاً .. كذلك قرّرت اللجنة أن من الجدير تعيين مراقبٍ داخليّ و مستشار قانوني رفيع لجهاز "الشاباك" ، و أوصت بأن يتولّى مراقب الدولة مراقبة "الشاباك" أيضاً في مواضيع و مجالات تنفيذية .

منذ حرب الأيام الستة دأبت جهات سياسية و منظمات تعنى بقضايا حقوق الإنسان على انتقاد و مهاجمة أساليب التحقيق التي يتبعها جهاز "الشاباك" ، و من هنا فقد أوليت أهمية كبيرة لاستنتاجات لجنة لنداو .. لقد كانت هذه المرة الأولى التي يعطي فيها مستوى رفيع – لجنة تحقيق رسمية – شرعية لضرورة التمييز بين تحقيقٍ بوليسي يتم لغرض جمع أدلة و بين تحقيق مخابراتي هدفه منع أعمال (إرهابية) .. هذا البعد أو الجانب وجد تعبيراً له في لائحة توجيهات مفصّلة في الملحق السرّي من تقرير اللجنة .. و قد تضمّنت اللائحة قواعد سلوك عامة في التحقيقات ، و حدّدت مجموعة من المحاذير ، كما عيّنت صلاحيات المستويات و الرتب المختلفة في الجهاز المخوّلة بإباحة أساليب و وسائل تحقيق مختلفة ، أطلق عليها "ضغط جسديّ معتدل" ، من قبيل منع النوم ، العزل ، التكبيل بالقيود ، الهزّ ، تغطية الرأس و غيرها من أساليب ، إضافة إلى الفترات الزمنية القصوى لاستخدام هذه الأساليب .. و جاء بضمنٍ ما أتت عليه تحديدات اللائحة ، أيضاً ، أن توجيه صفعة إلى معتقلٍ وقح قيد التحقيق ، يحتاج إلى إذنٍ مسبق من مستوى عالٍ في الجهاز .. كذلك أوصت اللجنة بتشكيل لجنة وزارية خاصة لتتولّى بحث حالات استثنائية و متابعة تنفيذ التوجيهات التي أدرجت في الملحق السري .

و قد تبنّت الحكومة توصيات اللجنة بأكملها .. مهمة جهاز "الشاباك" لم تصبح أكثر سهولة نتيجة لذلك ، لكنه تمّ ربط و إرساء خطٍ واضح بين الماضي غير المنظّم و بين واقع جديد ، ممؤسّس و خاضع لقواعد ملزمة . توجيهات اللجنة أتاحت لنا تشكيل و إعداد لائحة صلاحيات و أذون داخلية ، تلزم بصورة واضحة جميع المحققين في كلّ المستويات . و منذ ذلك الحين قدّم عددٌ لا يحصى من الالتماسات إلى المحكمة (الإسرائيلية) العليا ، سعى من خلالها خاضعون للتحقيق و منظمات تقف وراءهم إلى تقويض شرعية لائحة التوجيهات التي أعدّتها لجنة لنداو . الغالبية الساحقة من هذه الالتماسات ، رُفضت ، لكن حتى اليوم لم يجرَ بحثٌ قضائي معمّق لهذه المسألة ، حيث ظلّت آراء رجال القانون منقسمة و مختلفة تجاهها .

و أعتقد أن استنتاجات اللجنة هي بمثابة تحديدات و قرارات جريئة ، و أنها كانت بطبيعة الحال أيضاً حتمية لا مفرّ منها ، إذ لم يكن هناك خيار آخر .. و في دولة لا تزال غارقة في حرب ضد (الإرهاب) ، من المناسب أن يتمّ تبنّي أجزاء كبيرة من هذا التقرير لتتخذ تعبيراً دستورياً – قانونياً لها .. لقد تبنّيت هذا

الرأي أيضاً عندما عملت في إعداد قانون جهاز "الشاباك" .. و لأسفي ، فقد قرّرت وزارة العدل في نهاية المطاف عدم إدراج تفصيلٍ لموضوع التحقيقات في مشروع القانون الذي قدّم إلى الكنيست .

تضليل مفبرك بعناية

لقد تعاطى "الشاباك" بمنتهى الاهتمام و الجدية مع استنتاجات لجنة لنداو ، و عندما تسلّمت مهام منصب كرئيس للجهاز في مطلع نيسان 1988 ، بذلت قصارى جهدي من أجل تطبيقها .. هذا التقرير ، و تقارير أخرى جاءت في أعقابه في السنوات اللاحقة ، أسهمت في تنقية الجو العام ، لكنها صعّبت بالطبع ، من جهة أخرى ، و بدرجةٍ غير قليلةٍ ، عمل الجهاز ، و بصورة خاصة عمل المحققين .. و في ظلّ هذا الواقع الجديد ، ازداد ، بطبيعة الحال ، وزن وسائل التحقيق المحكمة و المتطوّرة ، و أساليب الخداع و التحايل على اختلاف أنواعها .. فالاستغلال الناجع لهذه الوسائل ، يشكّل دليلاً و برهاناً واضحاً على كفاءة المحقق .. و من البديهي أنني لا أستطيع هنا التعرّض بالتفصيل إلى جميع الخدع و المكائد التي استخدمناها ، و لذا سأكتفي بالتطرق إلى عددٍ منها فقط .

في حالاتٍ كثيرة ، عندما كان المعتقل الخاضع للتحقيق يصر على عدم فتح فمه ، كان المحققون يدخلونه إلى غرفة اعتقال يكون فيها عددٌ من المتعاونين . كان هؤلاء ينتحلون صفة مسؤولين في إحدى منظمات (المخرّبين) ، و كانوا في الغالب يتقنون تأدية الدور الملقى عليهم : حيث شتموا المحققين ، و أشركوا المعتقل الجديد بأسرارٍ دفينة مزعومة لتنظيم (المخرّبين) الذين ادعوا أنهم من قادته و مسؤوليه ، و حذّروه من زملائه بدعوى أنهم متعاونون .

و في بعض الحالات كانت تمرّ أسابيع إلى أن يتمكّن العملاء المدسوسين من كسب ثقة المعتقل الرّافض للاعتراف .. و لكن بعد ما ينجحوا في الإيقاع به ، كانت ثقته بهم تبلغ حداً كبيراً في بعض الأحيان لدرجة استعداده بأن يقدّم لهم خطياً كلّ ما يعرفه "حتى يقوموا بتهريب المعلومات من السجن إلى قيادة التنظيم" .

إحدى المكائد المعقدة و المحكمة التي أذكرها نفّذت في تموز عام 1993 . غداة الليلة التي حدث فيها الأمر ، كتبت في مفكّرتي :

"سعيد ، (مخرّب) قديم ، و صلب كحبة جوزة الهند التي يصعب جداً كسرها .. المعلومات الاستخبارية المتوفرة في حوزتنا تنسب له ، من ضمن ما تنسب ، زرع عبوات ناسفة من صنع يدويّ في مقر الحكم العسكري في بيت لحم ، أدّى انفجارها إلى مقتل جنديّ و جرح جنديين آخرين . لدينا اشتباه مسنود أنه توجد في حوزته معلومات قيّمة عن استعدادات لغرض تنفيذ اعتداءات في (إسرائيل) .. لذا كان من المهم إرغامه على التّكلم و الاعتراف قبل فوات الأوان ، لكنه يصرّ على التزام الصمت . كلّ وسائل الضغط المسموح بها لم تجد نفعاً .. حاولنا استدراجه بكسب وده ، بتقديم شتّى الوعود .. لكنه لم يتزحزح قيد أنملةٍ عن صمته .. و في النهاية ، بعد أيام من التحقيقات المكثّفة ، لان و وافق على البوح لنا بكلّ ما يعرفه بشرط أن نتعهّد بمساعدته في اجتياز الحدود إلى الأردن . عندما نوصله إلى مياه نهر الأردن ، هكذا قال ، سيقدّم لنا اعترافاً مفصلاً .. مثل هذا الاعتراف ، كان بالضبط ما رغبنا به ، لكن تخوّفنا من أنه سيقودنا حتى النهر ، ثم "يختلق" قصة لا أساس لها و يختفي إلى الأبد ، قبل أن نتمكّن من التأكّد من التفاصيل و الحيثيّات .

درسنا جيّدا كلّ الإمكانيات و قرّرنا القيام بعملية تضليل منقطعة النظير ، تجعل (المخرّب) يروي الحقيقة .. أشركنا في هذه العملية عشرات الأشخاص ، من موظفي الجهاز و جنود الجيش .. اخترنا موقعاً معيناً يشرف على وادي ، بعيداً عن نهر الأردن ، و وضعنا على طول الطريق المؤدّي للمكان لافتات "إحذر ، الحدود أمامك" كتبت باللغات العبرية و الإنجليزية و العربية . و في ساعات متأخّرة من الليل قمنا بإخراج (المخرّب) من السجن ، و وضعناه في سيارة تابعة لجهاز "الشاباك" ، و انطلقنا في طريقنا .. في الطريق صادفنا من حينٍ لآخر حاجز تفتيش مفبرَك ، ليدسّ عنده شخصٌ ما برأسه إلى داخل السيارة ، متفحّصاً بضوء مصباح الركّاب ، ثم يتظاهر كما لو أنه تلقى أمراً بتركنا نمرّ في طريقنا .. أحد حرّاس الحواجز يخبرنا أيضاً بأن الجنود ، المفترض أن يساعدوا (المخرّب) في عبور النهر ، مستعدّون بانتظارنا في مكان الملتقى المتفق عليه . (المخرّب) الذي يفهم العبرية ، يتابع بترقب و قلق ما يحدث ..

واصلنا السفر في طريقنا ، و خلال ذلك قدّمنا للعربي رزمة أوراق نقدٍ أردنية كـ "ترتيبات أولية" . انتهى السفر قرب موقع للجيش (الإسرائيلي) ، و هو موقعٌ حقيقيّ ، أرشد قائده جيّداً . هذا القائد ، لفت انتباهنا إلى بقعة مياه غير بعيدة عن هناك و قال إنها نهر الأردن .. بعد ذلك بسط أمامنا خريطة طوبوغرافية ظهر فيها مقطعٌ من النهر ، و أشّر على نقطة معيّنة كمكانٍ ينصح بعبور النهر منه .

"حسنا" يقول (المخرّب)" ، "الآن سأخبركم بكلّ شيء" . و مثلما تخوّفنا ، فقد بدأ بالفعل باعترافٍ عارٍ عن الصحة ، نسجه بكامله من خياله .. لكننا لم نقمْ بإبداء أي ملاحظة على حديثه ، و تظاهرنا بأننا نصدّق

كلّ كلمة قالها . و في النهاية ، قلنا له طالما أنك التزمت بالاتفاق فإننا بدورنا سنحترمه ، ليقوم جنود الجيش (الإسرائيلي) بعد ذلك بتأمين حراسته حتى مكان العبور في الجانب (الإسرائيلي) من النهر .
أرسلناه في طريقه ، لتفتح في نفس اللّحظة بالضبط النار من الطرف الآخر للوادي ، الذي يفترض أن يكون نهر الأردن ، و لتضيء قنابل إضاءة السماء و المنطقة بأكملها .. (المخرّب) يرتعد خوفاً ، و يسأل بقلق "ما هذا ؟" . لم يتبادر إلى ذهنه حتى هذه اللّحظة ، أن رجالنا هم الذين أطلقوا النار بالضبط حسب الخطة .. قلنا إن الجنود الأردنيين لاحظوا كما يبدو حركة مريبة و باشروا بإطلاق النار .. تجمّد العربي في مكانه ، و قال : "أنا خائف .. سوف يقتلونني" . إنه يريد العودة إلى السجن و بسرعة ، لكننا لا نوافق . قلت له بدوري : "طلبت أن نساعدك في اجتياز النهر ، أتعبنا الجيش (الإسرائيلي) حتى يمكِنك من القيام بذلك ، الآن فات أوان التراجع . مع السلامة و بدون إلى اللقاء !" .
استمر إطلاق العيارات النارية طيلة الوقت ، و هو يتوسّل أن نعيده إلى غرفة سجنه .. في هذه الأثناء قلنا له "أنت لا تستطيع أن تلعب بعقولنا .. نحن نعرف أنك قدّمت لنا إفادة كاذبة .. لا نريد أن نراك بعد الآن . إنهض و انصرف من هنا !" . رفض ، و طلب ألا نرسله ليموت ، ليدلي بعد ذلك بإفادة كاملة و مفصّلة ، تماماً مثلما توقّعناها" ..
كرئيس لجهاز الأمن العام ، فإنني لم أقم بنفسي بالتحقيق مع مشبوهين ، باستثناء حالات مميزة ذات أهمية خاصة . لكنني ساعدت مراراً المحققين في ترك انطباع لدى المحقّق معه عن إحضار شخصية رفيعة المستوى إلى غرفة التحقيقات . و قد اعتادوا على تقديمي بصفة "جنرال" يزور بالصدفة مركز التحقيق كضيفٍ على جهاز "الشاباك" . في تلك الحالات بادرت بحديثٍ مع المحقَّق معهم ، و حاولت خلاله إقناعهم بأسلوبٍ ودي رقيق بالتعاون و التجاوب مع محققيهم . و قد تأثروا جداً في غير مرة ، من كون "جنرال" يتوجّه إليهم و يخاطبهم ، و وافقوا على مساعدة المحققين .
من أجل التثبّت من صحة إفادة محقّق معه وحيد ، من الضروري مطابقتها مع معلومات تتعلّق بنفس الموضوع ، تم الحصول عليها من جهات أخرى مرتبطة بالشخص أو بأعماله .. إحدى الوسائل التي طوّرناها لهذا الغرض ، كانت جمع المعتقل المحقَّق معه في مواجهة مراقبة – عفوية ظاهرياً – مع أحد الأشخاص الذين يشكّوا في إفادته . هنالك طرق مختلفة لذلك . مثلاً : يخرج المحقّق من الغرفة بهذه الذريعة أو تلك ، و في غيابه يدخلون إلى الغرفة المشبوه الآخر . ردة فعل المحقَّق معه ، و التي تشاهد بالسرّ ، تساعد بدرجةٍ كبيرةٍ في معرفة ما إذا كان قد أعطى إفادةً صحيحةً بالفعل .
إحدى القواعد الأساسية التي توجّه و ترشِد محقّقي "الشاباك" ، تتمثّل في ضرورة أن تتضمّن إفادة المعتقل المحقّق معه ما يدْعى بلغة المهنة "وقائع ضمنية" . و أقصد تلك الوقائع أو القرائن التي لم ترد ، على سبيل المثال ، في تقارير وسائل الإعلام عن الحادث أو الاعتداء الذي اعتقل الشخص في أعقابه .. فتلك التفاصيل "الضمنية" التي تكون معروفة فقط لنا و للمحقّق معه ، تمكّن من التأكّد من صحة إفادة المعتقل الخاضع للتحقيق .
في حالاتٍ قليلة ، اعترف محقَّق معهم ، في ظلّ خضوعهم للضغط ، بأعمال لم يكن لهم ضلع فيها . عندما كان الأمر يتكشّف ، كنّا نطلق سراحهم بدون تأخير . و هنا تجدر الإشارة بأن الجهاز حرص دائماً على بثّ الوعي لدى المحققين بمسألة أن تحصيل إفادة كاذبة و اعتمادها باعتبارها حقيقية يمثّل فشلاً مهنياً خطيراً .
الانتقادات لطرق و أساليب تحقيق "الشاباك" ، وجّهها بالأساس أشخاص لم يعيشوا أو يمرّوا في حياتهم في وضع محقّق ، يعرف أن المحقّق معه يخفي معلومات عن اعتداءٍ وشيك الوقوع ، لكن يده أقصر من أن ترغم الشخص – المعتقل – على التّكلم و الاعتراف بما يخفيه .. حرمان المعتقل من النوم ، يعدّ وسيلة مقبولة و مجازة في ظروف معيّنة ، حدّدتها لجنة لنداو . فعندما لا ينام المحقَّق معه قدراً كافياً من الوقت ، تجده يغدو عصبياً ، منهكاً و فاقداً القدرة التركيز . في ظلّ مثل هذا الوضع سيكون من الصعب عليه البقاء محصّناً من احتمال تداعي و تحطّم الحواجز التي أحاط بها نفسه . و مع ذلك ، ثمة مخاوف من أن انعدام و قلّة النوم قد يخطىء الهدف في حالات متطرّفة : فمعتقلٌ يحقق معه ، يعاني من إرهاقٍ زائدٍ قد يلجأ إلى تقديم معلوماتٍ كاذبةٍ ، فقط من أجل أن يتركوه لينام . منذ أن تسلّمت منصب رئيس الجهاز وضع حاسوبٌ في كلّ غرفة تحقيقات مؤهلة لهذا الغرض ، حيث يتعيّن على المحقّق أن يدوِّن الساعة المحدّدة التي بدأ فيها التحقيق من دون نوم .
و عند انتهاء السقف الزمني الأقصى الذي سمحت به لجنة لنداو ، يطلق الحاسوب صفيراً ، يضطر المحقّق بعد سماعه لإتاحة المجال أمام المعتقل الخاضع للتحقيق كي يأخذ قسطاً من النوم . ترتيب مشابه ينطبق أيضاً على بقية أساليب التحقيق ، بشكلٍ غدا فيه الحاسوب بمثابة وسيلة إشرافٍ و رقابةٍ فعالةٍ طوال الوقت . و يشار إلى أن الإشراف و الرقابة على أساليب و طرق التحقيق يعدّان من الأكثر تقدّماً و تشدّداً بين المتّبعة لدى كلّ أجهزة الأمن في العالم . في الماضي حوّلت شكاوى المحقّق معهم لمعالجة

مراقب الجهاز . و لأجل تشديد الإشراف منع وضعٌ يفحص فيه "الشاباك" بنفسه الشكاوى ضده ، قـرّرت – بالتشاور مع وزير العدل و نيابة الدولة – إخراج مجال النشاط هذا من أيدي الجهاز . معالجـة هـذه الشكاوى أودعت في يد شعبة التحقيق مع أفراد الشرطة (ماحش) التابعة لوزارة العدل .
المشتكون ليسوا المحقَّق معهم فقط ، بل أيضاً أبناء عائلاتهم و المحامون الموكّلون من طرفهم . شـكاوى كثيرة تصل أيضاً إلى "ماحش" من الصليب الأحمر ، من جمعيات حقوق المواطن في البلاد و الخـارج ، من منظمة العفو الدولية (أمنستي) ، من أعضاء كنيست ، من شخصيات عامة و من جهات عديدة أخرى .. مرسلوا الشكاوى يدركون جيداً كم هو حسّاس الرأي العام (الإسرائيلي) في هذا الموضـوع ، و هـم يعتقدون أن كثرة الشكاوى ستدفع الحكومة نحو تقليص أو حتى الوقف التام لاستخدام أساليب تحقيق أثبتت نجاعتها في كبح (الإرهاب) . في الحالات التي ظهر فيها تجاوز و خروج عن القواعد حرصـت دومـاً على اتخاذ الخطوات اللازمة ، من إجراءات انضباطية و حتى تقديمٍ للمحاكمة في غيـر مـرة . و مـن الجدير بالإشارة في هذا السياق أن أغلب أساليب التحقيق التي يتّبعها جهاز "الشباك" ليست ثمرة اختـراع (إسرائيلي) . ففي دول متنوّرة في الغرب ، و التي لا تعتبر النشاطات (التخريبية) منتشرة فيها ، يمارس المحققون وسائل و أساليب أكثر و أشد خطورة و تعسّفاً في التحقيقات مع مشبوهين بأعمالٍ (إرهابية) .. لكن الانتقادات الشعبية الواسعة و الضجة الكبيرة حول موضوع التحقيقات هي قدرنا .. لم يكـن أمامنـا خيارٌ و الحال سوى معالجة ذلك .
يجب فهم أن القهر و الاستنزاف الذي يتعرّض له محقق في "الشاباك" ، كبير جداً . ففي المحصلة ، كـم من الوقت يمكن للإنسان أن يجلس في غرف تحقيقات ضيّقة و أن يتصارع و يتقابـل فيهـا مـع قتلـة (مجرمين) يبغضون (إسرائيل) ؟ كم من الوقت يستطيع الإنسان أن يحافظ على هدوئه بينما يجلس مقابله (مخرّب) قتل جنوداً و مدنيين ، و يسخر منه بوقاحة ؟ و رغم هذه الظروف يتعيّن على المحقق أيضاً أن يطلب تصريحاً كي يمسك بأهداب ثياب المحقَّق معه و يهزّه ، ناهيكم عن التحدّث عن صفعة لمرة واحدة ..
يبذل الجهاز قصارى ما يمكنه من أجل الحدّ قدر المستطاع من الضرر المتراكم لدى المحققـين جـراء التوتر النفسي . الوسائل لذلك عديدة و متنوعة : ملدّات و متع نهاية الأسبوع مع أفراد أسرهم ، إجازات للانتعاش ، استكمالات و دورات مهنيّة . و كحال سائر العاملين في الجهاز الـذين يواجهـون ضـائقة شخصية ، يحقّ للمحققين أيضاً أن يطلبوا مساعدة طبيب نفساني من خارج الجهاز، مع تحمّـل الأخيـر بالطبع لكامل النفقات المترتبة على ذلك . تفاصيل و حيثيات العلاج تحفظ و تحاط بسرية تامة . الطبيـب النفسي يقوم فقط بإبلاغ الجهاز عن عددِ الحالات التي وصلت لعلاجه ، دون ذكرٍ لأسماء المعـالجين . و يشار إلى أن عدد المحتاجين للعلاج ، كان ضئيلاً جداً ، و بشكلٍ عام كانت تكفي ثلاث أو أربع لقاءات ، لتتيح "التنفيس" عما يغلث على المعالجين و إزالة "الكبت" المتراكم في صدورهم .
و أذكر فقط حالة واحدة بادرنا فيها نحن لإجراء علاج نفسي . حدث ذلك في أحد مراكز التحقيق . فبعـد شكاوى متكرّرة من جانب جهات هيئات مختلفة ، بينها "أمنستي" و "جمعية حقوق المواطن" ، تبيّن لنا أن أحد المحققين يعامل المعتقلين بقسوة مفرطة .. تحدّثت مع مسؤوله ، و استجوبت عدداً من زملائـه ، و بهذه الطريقة اكتشفت حيثية هامة أخفاها عند قبوله للعمل في الجهاز : فقد كان في صباه ضحيّة لعنفٍ في أسري . أقنعته بتلقّي علاجٍ نفسي ، و نقلناه إلى وظيفة أخرى . كلّ ذلك تمّ بتكتّم من دون أن يتسرّب أيّ شيء .. الرجل لا يزال يخدم في جهاز "الشاباك" و يقوم بدوره على نحوٍ مرض] تماماً للمسؤولين عنه .
خالد الشيخ علي ، كان (مخرّباً) من غزة ، اشتبه بموجب معلومات استخبارية ، أنه نصب كميناً لدوريـة تابعة للجيش (الإسرائيلي) في قطاع غزة ، و بفتح النار عليها من بندقية كلاشينكوف . في هذا الاعتـداء قتل ضابطين .. و قد تم اعتقاله و نقله للتحقيق في مركز تحقيقات "الشاباك" في غزة . التحقيـق أُجـري على يد طواقم محققين عملوا بالتناوب و جهدوا كثيراً لاستدراجه كي يتكلّم . خالد علي ردّ عليهم بتحدّ و صلافة ، استفزهم و أخرجهم عن طورهم . أحد المحققين سدّد قبضته و ضربه في بطنه . انحنى خالد و استلقى على الأرضية يتلوّى من شدة الألم . استدعى المحققون ممرّضاً ، أوعز بنقله فوراً إلى المستشفى ، هناك ، قضى "عليّ" نحبه .
لقد حدث ذلك بعدما قدّمت لجنة لنداو استنتاجاتها ، لكن "الشاباك" ، كان لا يزال هدفاً لانتقـادات الـرأي العام . موت خالد علي أثار ضجّة صاخبة فور ما نشر عن القضية . لقد انتظر الجميع لرؤية ما إذا كان الجهاز يطبّق بالفعل توجيهات اللجنة بشأن القيود المتعلّقة بالتحقيقات . و بإيعاز من المدعيّة العامة للدولة ، دوريت بينيش ، فتحت الشرطة تحقيقاً في ظروف الوفاة ، و جمعت إفادات من محققي "خالـد" و مـن المسؤولين عنهم في مركز التحقيق بغزة ، لكنها لم تتوصّل إلى نتائج . وسـائل الإعـلام اسـتاءت ، و دوريت بينيش هاتفتني على عجل . طلبت أن أتولّى شخصياً التحقيق . "أنت الشخص الوحيد المؤهل على القيام بذلك" قالت لي . لم أستطع ردّ طلبها .. كان واضحاً أنه ارتكبت هنا مخالفة للقانون ، لكن الشرطة

لم تكشِف للمدنيّين . رفض طلب المدعية العامة للدولة ، كان من الممكن له ، و بحقّ ، أن يذكي النار ، وأن يضرّ مرة أخرى بسمعة "الشاباك" . اضطررت عن غير طيب خاطر ، للردّ بالإيجاب على الطلب .. لم يكن أمراً أو عملاً مألوفاً أن يقوم رئيس الجهاز بالتحقيق مع رجاله .. و قد عرفت أنه إذا قيّض لي النجاح في كشف هوية الذي ضرب (المخرّب) ، فلن يكون مناص من تقديمه لمحاكمة ، و أنه إذا أدين الرجل ، فلربما يزجّ به في السجن أيضاً . اختليت بنفسي لساعات طويلة في مكتبٍ حتى أتأمل الأمر .. مشاعر مختلفة تصارعت في داخلي . كان بمقدوري أن أضمن كم ستكون كبيرة خيبة أمل محققي الجهاز عندما يتضح لهم أنني بدلاً من أحميهم و أغطّي عليهم ، أقوم بـ "تسليمهم" للشرطة . و مع ذلك فقد ردّدت بيني و بين نفسي مراراً و تكراراً ، بأن عليّ أكثر من أي شيء آخر أن أحمي الجهاز و أن أحرص على نقاء و نظافة أكفأ العاملين فيه ، و التيقن من أن مبدأ حفظ و صون القانون يشكّل هادياً و منارة تضيء طريقهم . و على أي حال ، أيقنت أنني أقف أمام قرارٍ صعب للغاية .

في النهاية ، و في ساعة متأخّرة من الليل ، بعدما خلا مقر قيادة "الشاباك" بصورة تامة تقريباً ، استدعيت طاقم المحققين من مركز غزة ، و معهم مسؤولهم و رئيس قسم التحقيقات في الجهاز . كان هناك حوالي نصف دزينة محققين شاركوا بالتناوب في التحقيق مع خالد الشيخ علي . تحدّثت طوال ساعة عن أخلاق الجهاز ، ذكّرت بالحملات الشعبية التي وجّهت ضدنا في كلّ مرة حدث فيها خروج و انحراف عن قواعد التحقيق و شددت على الضرر الذي لحق نتيجةً لذلك بالجهاز . أوضحت أنه لا يجوز لنا أن نكنس و نخفي التجاوزات تحت البساط ، بل واجبٌ علينا أن نعالجها .. لذا ، فإنني أتوقع ، هكذا قلت ، أن يتقدّم الذي ضرب (المخرّب) ، ليمثل أمامي و يعترف بفعلته . لم أتعهّد بألا يقدّم لمحاكمة ، لكنني وعدت بأنني سأهتم شخصياً بأن ينال معاملة منصفة . الأجواء في الغرفة كانت صعبة . المجتمِعون في مكتبي استمعوا لي بإصغاء شديد ، و بوجوهٍ مكفهّرة .

عندما أنهيت كلامي ، طلب المحققون مغادرة المبنى ليتشاوروا فيما بينهم في الباحة . بقيت في غرفتي و انتظرت . كانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل عندما سمعت طرقةً على الباب . محققان شابّان دخلا إلى الغرفة ، و انفجرا بالبكاء معترفين بالحادث . و بعدما هدَءا قليلاً ، قصّا عليّ تسلسل الأمور . قالا إن وقاحة و تبجّح (المخرّب) جعلاهما يفقدان الصواب و السيطرة .

في الساعة الثالثة و النصف فجراً ، أيقظت دوريت بينيش من نومها ، و أخبرتها بما حدث . حوّلتني إلى ضابط التحقيقات اللوائي في الشرطة ، المقدّم "طال" ، فطلب بدوره أن يتوجّه المحققان إليه في الحال .. تعقبت من خلف زجاج نافذة غرفتي سيارة "الشاباك" التي أقلت المحققين للتحقيق في الشرطة . كان ذلك مشهداً تمنّيت بيني و بين نفسي ألا أراه بعد الآن إلى الأبد .

جمّد المحققان من عملهما إلى حين انتهاء التحقيق بحقّهما .. و قد تلقيا راتباً جزئياً فقط ، فأقام زملاؤهما صندوقاً خاصاً من أجل مساعدتهما .. التقيت بهما من حين لآخر لأسأل و أطمئن عن وضعهما .. أحد المحققين عمِل في السابق حارساً لشخصيات سياسية رفيعة . المحروسون السابقون ، و خاصة آرئيل شارون ، اتصلوا بي و استفسروا عما إذا كانت هناك سبل تمكّنهم من تقديم العون و المساعدة له . لم أستطع أن أفعل الكثير في هذا الشأن .

بعد فترة قصيرة من الوقت قدّمت لائحة اتهام ضد الإثنين ، ليحاكما في المحكمة المركزية بالقدس بتهمة القتل غير المتعمد نتيجة الإهمال . مثلت كشاهد دفاع في المحاكمة . تحدّثت عن المصاعب النفسية و الجسدية التي يواجهها المحققون . شرحت كيف تجري التحقيقات . تحدّثت عن الإحباط الذي يعتري المحققين و هم يحاولون انتزاع معلومات من (مخرّب) ، أيديه ملطّخة بالدم ، يمكن لها أن تنقذ أرواح و حياة الناس ، لكنهم يخفقون في مهمتهم . طلبت من المحكمة أن تأخذ بنظر الاعتبار حقيقة أن المتهمين اعترفا بإرادتهما بالعمل الذي ارتكباه .. أملت ألا يزجّ بهما في السجن . توقعت أن تفرض عليهما عقوبة يمكن استبدالها بأعمال خدمة للصالح العام ، لكن المحكمة حكمتهما بالسجن الفعلي لمدة ستة شهور . كثيرون من موظفي الجهاز زاروهما في السجن . و قد تابعت من جهتي بشكلٍ مستمر أخبارهما و أوضاعهما ، و حاولت مساعدتهما بكلّ وسيلة ممكنة . بعدما أطلق سراحهما ، استقالا من الجهاز و هما يحمِلان جروحاً نفسية لا تندمل بسرعة .

المعتقلون أكثروا دوماً ، كنمط ، في الشكوى عن محققين تجاوزوا قواعد التحقيق المتعارف عليها .. بعضهم فعلوا ذلك حتى يبرّروا أمام زملائهم كونهم قدّموا اعترافاتٍ كاملة لمحققيهم . معظم الشكاوى تعلّقت بمركز التحقيقات في غزة . في أغلب الحالات لم يكن هناك أساس حقيقيّ لهذه الشكاوى ، لكن رغم ذلك شكّلت ، بإيعاز من المدعية العامة للدولة ، دوريت بينيش ، و بموافقة جهاز "الشاباك" ، لجنة مشتركة لتقصّي أساليب التحقيق في المركز المذكور . و قد ترأس اللجنة ، نائبة المدعية العامة ، راحيل سوكر ، بينما تألّفت عضويتها من المراقب الداخلي للجهاز ، حاييم حوفي ، و رئيس القسم العربي في

تلك الفترة . رئيسة اللجنة ، تعهّدت سلفاً بأن المواد التي يتم جمعها خلال عملية الفحص و التقصّي ، لن تستخدم لغرض محاكمة المراقبين .
طريقة عمل اللجنة تسبّب لي بخيبة أمل شخصية عميقة و ذلك قبل أن تبلور استنتاجاتها . فاللجنة أقيمت ، كما أسلفت ، بموافقة مشتركة من النيابة العامة و الجهاز كي تتحرّى بموضوعية شكاوي المعتقلين و لإصلاح ما يحتاج و يستدعي الإصلاح . لكن من خلال الأسئلة التي طرحت علي ، و من التقارير التي تلقيتها من حين لآخر ، اتضح لي بسرعة الاتجاه الذي تهب الريح إليه . علمت أن أعضاء اللجنة الثلاثة – و من المهم أن نذكر أن اثنين منهما كانا ممثلان "للشاباك" – يهاجمون الجهاز من دون أن يولوا الوزن المطلوب لعدد الاعتداءات الكبير ، و للظروف الصعبة في مركز التحقيقات ، و للوضع النفسي للمحققين ، و للعبء الجسيم الملقى على عاتقهم و لاستنزافهم و تعبهم السريع . نبهت أعضاء اللجنة إلى ذلك مراراً .. و أكّدت مع ذلك أنني لا أنشد أو أتوقع أن يزوروا أو يحرّفوا الواقع ، لكن من الواجب و المنصف أن يأخذوا كلّ هذه العوامل بنظر الاعتبار بغية الحفاظ على التوازن .
إيضاحاتي و ملاحظاتي كانت بلا جدوى . فقد وجدت اللجنة أنه كانت هناك في مركز التحقيقات المذكور في غزة ، تجاوزات أكثر مما أبلغ "الشاباك" . لقد ألحق تقرير اللجنة ، في رأيي ، ظلماً و إجحافاً كبيراً بالجهاز و عكّر الأجواء في صفوفه . عضضت على نواجذي حنقاً و استياء ، لكنني اضطررت لاستخلاص النتائج . عجّلت في استبدال قائد المركز ، الذي كان يوشك أصلاً على إنهاء مهام منصبه هناك ، و بدأت حملة إعلام و توعية بين صفوف المحققين . طلبت منهم بحزم أن يحرصوا أشدّ الحرص على مراعاة المسموح و الممنوع .
و لشديد الأسف فقد استخدمت نتائج "لجنة سوكر" أساساً لتقرير مراقبة الدولة مريم بن فورات عن تحقيقات "الشاباك" في الفترة الواقعة بين نهاية عام 1987 و صيف العام 1992 . الذي قام بالفحص و التقصّي تصرّف كموظفٍ يعمل في إدارة و جرد حسابات . فقد تحرّى ، على سبيل المثال ، كم من الهزّات المسموح بعملها في ثلاث ثوان و كم فعل المحققون ، أو كم عدد الصفعات التي سمح بها و كم وجّه المحققون فعلياً . لم أستطِع التخلّص من الانطباع أن الفاحص نسيَ ببساطة من هو الذي نحاربه و نتصارع معه ، و إلى أيّ درجة يمكن لكلّ عملية تحقيقٍ أن تكون مصيرية ، و كيف نبدو نحن في نظر تلك الحيوانات الآدمية بينما نضطر لتكريس الاهتمام لعدد الهزات بدلاً من أن نركّز على الغاية المهمة حقاً : كيف نجعلهم يكشفوا تلك الأسرار المفزعة التي يرفضون كشفها .
بعدما تسلّمت المسودة الأولية للتقرير ، استدعيت تسبي تيرلو كي يساعد الجهاز في الردّ عليه . قرأ المسودة و اشتعل غضباً ، فمه أطلق بلا توقفٍ وابلاً من التعابير التي لا يحتملها الورق . استقر في مكتبي خلال ساعات الليل و أجهد نفسه في كتابة الردّ لمراقبة الدولة . عندما كنت أصل إلى مكتبي في الصباح ، بعد وقتٍ قصير من ذهاب تيرلو للنوم ، كنت أجد على طاولتي أكواماً من صفائح المشروبات ، و بقايا خبز و أعقاب سجائر لا تحصى خلفها وراءه . لكنه قام بعملٍ رائع . بعد شهور عديدة من العمل الدؤوب قدّمنا ؟إجابات و ردوداً حقيقية – و مقنعة في رأيي – على أكثر من تسعين في المائة من ادعاءات مراقبة الدولة . قبل بضعة شهور من إنهائي لمهام منصبي كرئيسٍ للجهاز قدّم التقرير لرئيس الحكومة ، إسحاق رابين ، و كذلك إلى رئيس لجنة رقابة الدولة و لرئيس لجنة الخارجية و الأمن التابعة للكنيست . وثيقة مراقبة الدولة لم تنشر على الملأ . الجهات المخوّلة قبلت موقفنا الداعي إلى عدم نشر التقارير التي تكشف أساليب التحقيق .
بعد وقتٍ قصير من استقالتي من الجهاز ناقشت اللجنة البرلمانية لشؤون رقابة الدولة التقرير ، و خلال النقاش نشب جدال حادّ بين ممثلي "الشاباك" و بيني و بين مراقبة الدولة . رجالنا قالوا إن التقرير يكشف قلّة دراية و فهم للاحتياجات المهنية – التنفيذية للجهاز و يبرز تجاوزات هامشية . إضافة لذلك ، فإن كل ما حدث في الفترة الممتدة حتى مطلع سنوات التسعينيات التي يغطيها التقرير ، لم يعد عملياً الآن . فالثغرات ، إن كانت قد وجدت ، أصلحت منذ وقت .
و بمرور الزمن ، تدهورت إلى أسفل الدرك علاقاتي مع مراقبة الدولة ، مريم بن فورات . اعتقدت ، و لا أزال أعتقد ، أنها لم تتصرّف كما يجب مع "الشاباك" ، و معي شخصياً ، في قسمٍ كبير من أجزاء التقرير . كان ذلك نهاية شبكة علاقات بدأت بودّ و صداقة ، بارسال باقة ورد و تهاني عندما منحت جائزة (إسرائيل) ، و هو عملٌ أثار ضدّي انتقاداً في تقرير الجنرال (احتياط) رفائيل وردي ، الذي سأسهب في الحديث عنه لاحقاً . و يبدو ليس أن نقطة التحوّل كانت عشيّة الانتخابات في العام 1992 . فقد نشرت المراقبة تقريراً عن الليكود ، على الرغم من أن عدداً من وزراء و نواب هذا الحزب طلبوا منها تأجيل النشر . بعد نشر التقرير توجّه إليّ باسمها موظّف كبير في مكتب مراقب الدولة ، و هو ضابط كبير سابق في الجيش (الإسرائيلي) ، و قال لي إنها تخشى على حياتها .. سألت إن كانت قد تلقّت تهديدات ، فأجاب بأنه ليس لديه فكرة أو معرفة عن الأمر .. قلت له إن مراقبة الدولة ، حسب تقديري ،

ليست في درجة خطر تستوجب ترتيبات حراسة شخصية . و رغم ذلك ، أوعزت لقائد وحدة حراسة الشخصيات بإجراء سلسلة فحوصات ، تتم عادة بالنسبة لشخصياتٍ ليست عرضة لخطر من الدرجة الأولى . و هكذا تمّ تفحّص ما إذا كان منزلها و مكاتبها محميّان كما يجب ، و ما إذا كان سائقها مؤهل للتعامل مع حالات طوارئ . في أعقاب هذه الفحوصات اتخذت وسائل حماية عديدة .
بعد مرور عدة شهور أبلغني نفس الموظف الكبير أن المراقبة تخشى على حياتها . قلت له إنني سأتحدّث معها في الأمر . ذهبت إلى مكتبها في القدس ، و استقبلتني بحضور اثنين من معاونيها . قلت لها إنني تلقيت طلباً لحمايتها ، و لذلك أريد أن أستمع منها إذا كانت تلقت تهديداً على حياتها بأي شكلٍ كان – شفوياً ، عبر التليفون أو بالبريد . نظرت إليّ بعيونٍ باردة ، و قالت بلهجة جافة : "سيّد بيرس ، أنا لم أطلب حراسة ، لكن القرار لك سيّدي إن كنت أستحق أو أحتاج لحراسة .." . حاولت كسر الجليد ، لكن لم أفلح . في نهاية الأمر لم أجد ما يبرّر أو يستدعي الموافقة لها على حراسة شخصية . لغاية اليوم يلازمني الشعور بأن رفضي الاستجابة لطلبها ساهم بهذا القدر أو ذاك في زيادة حدّة التطرّق إليّ في تقرير مراقبة الدولة حول موضوع التحقيقات .

الثمن : أزمة شخصيّة

ليس سهلاً أن يكون المرء من رجال "الشاباك" . لقد تعلّمنا ذلك على لحمنا و جلدنا ، لكننا لم نكن دوماً واثقين من أن المرشّحين الجدد يدركون ذلك ، خاصة إذا عبّر المرشح عن شكوكٍ او قلة ثقة . لذلك ، و منذ مراحل التصنيف و الاختبار لمرشحين للعمل في "الشاباك" ، اقترحنا عليهم أن يفكّروا مجدّداً في الأمر ، أن يتشاوروا مع أشخاصٍ قريبين منهم قبل أن يقرّروا ما إذا كان هذا هو المسار الملائم لهم بالفعل . "تحدّث مع زوجتك أو صديقتك" اعتدنا القول لهم "إشرح لها أن العمل الذي ستأخذه على عاتقك ، مرهق و مستنزف ، و أن التغيبات عن البيت كثيرة و طويلة" .
حذّرنا المرشحين بأن عليهم أن يكونوا مهيّئين لأن يضطروا مراراً ، بعدما يتواعدوا مع رفيقتهم على الذهاب للسينما أو إلى مطعم ، إلى إلغاء مشوار المتعة في اللحظة الأخيرة . في أحيان متقاربة ، أوضحنا لهم ، بأنهم لن يروا أبناءهم ينهضون في الصباح و يذهبون للنوم في المساء .
و بالفعل ، كان هناك مرشّحون عادوا إلينا و قالوا : "فكّرت بالأمر و تشاورت مع زوجتي . إنها لا توافق" . بشكلٍ عام ، كنا نتخلّى عن مرشح من هذا النوع . لكن عندما كان لنا اهتمام خاص بمرشّح معين ، لم نكن نرغب بالتخلّي عن ذلك بسرعة . في حالات كهذه ، تجشّمنا مقابلة زوجة أو صديقة المرشح لنشرح لها كم هو الرجل حيوي و ضروري لنا ، و كم هي مهمة الرسالة الوطنية التي أبدى استعداده لأخذها على عاتقه ، حتى تتمكّن عائلته و كلّ شعب (إسرائيل) من العيش بهدوء و اطمئنان .
و لكن حتى عندما كنا نحصل في نهاية المطاف على موافقة الزوجة ، في ظلّ معرفتها لما سيحدث في المستقبل ، حصل غير مرة أن الواقع جاء أصعب و أقسى مما صوّرته لنفسها . التقيت مع زوجات عددٍ كبير من موظفي الجهاز ، اللواتي واجهن صعوبة في التعايش مع التغيّبات المستمرة و الطويلة للزوج و مع القلق و الخوف من أن يلحق به مكروه ، و بذلت قصارى جهدي كي أطمئنهن . هذه المقابلات و اللقاءات كانت تتم في الغالب من دون أن يعرف الموظف ذاته عن ذلك سلفاً.
لم أرَ في هذه الأحاديث شيئاً لافتاً للنظر . فالشاباك ، على اختلاف مستوياته ، هبّ لمعالجة المشكلات التي ظهرت داخل البيت ، حتى يتوفر للعاملين الهدوء النفسي اللازم لتنفيذ المهام الملقاة على كاهلهم . ليس القادة و المسؤولون و حسب ، بل موظّفون عاديون كذلك حاولوا و جاهدوا لمساعدة زملائهم الذين واجهوا محنة على أرضية شخصية . أكثر من مرة كنت شاهداً على صداقة حقيقية في هذا السياق . هذا ما حصل ، مثلاً ، أثناء خدمتي في محافظة نابلس . الرجال لم يذهبوا تقريباً إلى بيوتهم ، فأضحت الحياة الزوجية لعددٍ منهم مهدّدة بالخطر . زملاؤهم أجبروهم على أخذ إجازات طويلة ليتمكّنوا من إصلاح علاقاتهم مع نسائهم . و ليكون ذلك متاحاً ، كان على "المجبرين" – بكسر الباء – أن يتطوّعوا للقيام بأعمال و مهام الخارجين في إجازة ، إضافة إلى مهامهم . كان ذلك عبئاً ثقيلاً ، لكنهم أخذوه على عاتقهم طوعاً ، بل حتى بسرور .
عندما تزوّجت من "ياعيل" ، لم يخطر ببالي أن حياتنا الزوجية أيضاً سوف تتعثر بسبب متطلبات الوظيفة . فكلّما ارتقيت في سلّم المناصب ، اضطررت تبعاً لذلك للتغيّب أكثر فأكثر عن البيت ، و هكذا أخذ العبء النفسي يزداد و يكبر شيئاً فشيئاً . و بمرور السنين ، أخذنا ، ياعيل و أنا ، نشعر أكثر بأكثر ،

بأننا غريبان الواحد عن الآخر . حتى و إن لم نتكلّم عن ذلك صراحة ، كان واضحاً لكلينا بأنه إن لم أبادر من جانبي لاتخاذ خطوات على الفور ، فإن زواجنا قد يصل إلى نهايته .
و من نواحي معينة ، كانت مهامي في الشاباك ، وصفة شبه مضمونة لتقويض حياتي الزوجية . و قد حدث ذلك ، بالطبع ، مع آخرين ممن أمضوا و وصلوا الليل بالنهار في العمل الأمني الشاق ، بعيداً عن البيت و الأسرة . أكثر من مرة بادرت لمساعدة أصدقاء اكتشفوا فجأة أن الصلة مع زوجاتهم و أبناء أسرهم مهتزة أو واهنة . منذ البدء ، كان واضحاً لي و لياعيل أن الخدمة في الجهاز ستحتاج و تسلب مني طاقات هائلة ، و عرفنا أن العمل بوتيرة عالية سيكون على حساب البيت . لكننا انطلقنا نحو حياتنا المشتركة من قناعة بأنه لن يكون بمقدور أي شيء أن يعكّر صفوها أو يخلّ بها ، حتى و لا انقطاعي عن البيت لفترات طويلة . لقد أخطأنا كلانا . كانت هناك أوقات احتاجتني فيها ياعيل أكثر من أي شيء آخر . على سبيل المثال ، أثناء فترة الحمل قبل مولد "أمير" ابننا البكر . كان عليّ أن أكون إلى جانبها ، لأشجّعها ، لأخفّف عنها بكل وسيلة ممكنة . لكنني كنت في تلك الأيام منشغلاً في ملاحقة و مطاردة (مخرّبين) في أزقة حي القصبة بمدينة نابلس ، و في تجنيد عملاء ، و في البحث عن مخابىء للمتفجّرات التي أُعدّت لشنّ هجمات في (إسرائيل) ، و بالتالي ، لم يكن بمقدوري ، بطبيعة الحال ، أن أكون في البيت .
كانت ياعيل ، زوجة رائعة ، حكيمة و متفهمة . لم أسمع في أي مرة على لسانها تذمّراً أو شكوى من عبء العمل الذي كان ملقى على كاهلي . لم تماهك في أيّ مرة ، و لم ينشب بيننا في أيّ وقتٍ خصام على هذه الخلفية . لقد سرّت بتقدّمي في الجهاز ، و كانت فخورة بالعمل الذي أقوم به . لكنها هي الأخرى ، رغم كل ما تحلّت به من صبرٍ و تفهّم ، واجهت مثلي صعوبة في التأقلم مع نشوء و وجود تصدّعات في حياتنا الزوجية لهذه الأسباب و العوامل بالذات . ابتعدنا عن بعضنا . كنت أذهب إلى البيت في أوقات متباعدة ، و كثيراً في حالة ضغط و عصبية . بدأت أقترب من أبنائي فقط بعدما كبروا و بلغوا سن الرشد . في السنوات الأولى ، التي يكثر فيها الآباء من المكوث بمعية أبنائهم ، ليضحكوا و ينفعلوا لكلّ نادرة جديدة تصدر عنهم ، لم أكن أنا هناك . الشرخ أخذ يتّسع بوتيرة أشدّ عندما انتقلت لتولي قيادة لواء القدس . قرّرت ياعيل البقاء في ناتانيا ، لأن تنقّلاتنا و ترحالنا الناجمين عن تبدّل مهامي و مناصبي كانا أكثر من اللازم . كان لدينا حينئذٍ ثلاثة أبناء . أصغرهم سناً "طال" و لدت قبل ثمانية شهور من ذلك فقط ، في أكتوبر 1980 . في كلّ مرة جرجرنا الأولاد إلى المكان الجديد ، و وضعناهم المرة تلو الأخرى أمام الحاجة للتأقلم و التكيّف . ياعيل قرّرت أن تضع حداً لذلك . من ناحيتها و كذلك الأولاد كانت ناتانيا دفيئة لطيفة ، قريبة من الجد و الجدة . بالنسبة لي كانت بعيدة جداً . شعرت بمرور كلّ يوم أن الصلة بيني و بين أسرتي تضعف . كنت حزيناً لذلك . رغبت في أن أعطي لياعيل ، و لنفسي و للأولاد فرصة أخرى لإصلاح أمور العائلة .
قرّرت التوجّه لصديقي روبين حزاك ، الذي أشغل حينذاك منصب نائب رئيس الجهاز ، حتى يساعدني . الصداقة بيننا كانت قد توطّدت منذ المراحل الأولى من عملنا في الشاباك . كانت تلك صداقة نبيلة و متينة ، شملت عائلتينا أيضاً . روبين و زوجته ، نيرا ، أقاما في حينه في "تسهلا" ، و ياعيل و أنا في ناتانيا . المسافة بين المنزلين لم تكن بعيدة ، فأمضينا كثيراً من الوقت سوياً . عندما كان عملنا يسمح بذلك ، كنا نعدّ وجبات عشاء مشتركة في أمسيات السبت ، و نخرج سوياً في نزهات بأنحاء البلاد . النساء وجدن لغة مشتركة ، و الأولاد كبروا معاً . توجّهت إلى روبين عندما علِمت أن رافي مالكة يوشِك على إنهاء منصبه كرئيسٍ لجهاز الحراسة في أوروبا . قلت له إن تعييني في هذا المنصب قد يفيدني في إعادة اللحمة لعائلتي . أملت بأنني سأتمكّن بهذه الطريقة من تكريس وقتٍ أطول لأبناء عائلتي ، و أن يتمكّنوا هم من الاتصال بي أكثر . و على الرغم من أن الحراسة لم تكن المجال المهني الذي خطّطت للتقدّم فيه ، كنت مستعداً لقبول الوظيفة ، فقط على أن أعرف و أتأكد بأنني قمت بالخطوة الصحيحة في اللحظة المناسبة حتى أوحّد و أجمع العائلة .
قلت لروبين إنني أستطيع ، بطبيعة الحال ، التوجّه مباشرة إلى رئيس الجهاز ، أبرهام شالوم ، بطلب التعيين . لكن ، في رأيي ، سيكون من الأسلم و الأجدى إن قام هو ، النائب لرئيس الجهاز ، بالتوصية على إسناد المنصب إليّ . اعتقدت أنه سمع أبروم الأمور على لسان روبين ، الذي سيشرح له أيضاً الخلفية الشخصية ، فإنه قد يوافق . حاول روبين ، في البداية أن يقنعني بمحاولة إصلاح حياتي العائلية في البلاد ، لكنه إبدى في نهاية المطاف استعداده لأن يقترح على أبروم بأن يعينني في المنصب الذي أصبح شاغراً في أوروبا .
بعدما مرّت عدة أسابيع دون أن أسمع شيئاً ، سألت روبين عما يحدث . "ذهبت لأبرهام" أجاب قائلاً : "لكن يستحسن أن تعلم : لم أوصي عليك . و أكثر من ذلك ، قلت له إنه لا يجوز ، في رأيي ، إرسالك إلى أوروبا .." . ذهلت مما سمعته من روبين و سألته لماذا قال ذلك . جوابه كان مقتضباً : "أنت

المسؤول الأرفع و الأكثر إلماماً في المجال العربي . سيرتكب الجهاز خطأ مهنياً فادحاً إن تخلّى عنك في هذه الفترة بالذات" ..
"و ماذا بالنسبة لحياتي الزوجية" سألت بغيظٍ مكتوم "لقد اعتقدت أننا أصدقاء ، و أنك أنت أكثر من أيّ شخص آخر ، ستتفهم دوافعي الشخصية" . قال : "في مثل هذه الأمور ، مصلحة الجهاز تقف فوق كلّ شيء آخر" . حتى ذاك الوقت ، كان لديّ ثقة راسخة بروبين . أحسست بأنه ربما يكون الشخص الوحيد الذي أستطيع اللجوء إليه في وقت محنة أو ضائقة . كلّ ذلك انهار و هوى كغمضة عين . اجتاحتني خيبة أمل شديدة ، و أخبرته بالضبط بما يتنابني .
منذ ذلك الحين أخذت العلاقات فيما بيننا بالفتور . عندما كلّف روبين بتولّي مسؤولية التحقيق في كشف التنظيم (الإرهابي) اليهودي ، كان يأتي للجلوس في مقر قيادة لواء القدس . أنا كقائدٍ للواء ، جلست في الطابق الأول ، بينما نزل هو في الطابق الثالث ، لتنشأ بيننا توترات غير قليلة ، نبعت من تحديد صلاحيات غير واضحة بشأن التحقيق في قضية التنظيم السري اليهودي .
عندما طرح تعييني لرئاسة الجهاز ، كان روبين حزاك قد أصبح خارج الشاباك . فقد استقال ، كما هو معلوم ، في أعقاب قضية الباص 300 ، لكن مقرّبيه – و خاصة بيلغ رداي الذي استقال هو الآخر في نفس الظروف – قاموا بكلّ أمر ممكن تقريباً من أجل إفشال و عرقلة التعيين . لقد تحدّثوا عن علاقات وثيقة أكثر من اللازم أقمتها كما زعموا مع شخصيات عربية و هاجموني لوقوفي على الحياد عندما ثارت قضية الباص 300 . كانت تلك تهمة سخيفة . ففي تلك الأيام طلبت مرات عديدة أن أسمع من فم روبين حول ما يحدث ، لكنه امتنع عن الحديث . عندما استقال من الجهاز سألته لماذا لم يشِرني في حينه بالتحرّك ضد أبروم (أبرهام شالوم) فأجابني : "أردت أن تكون خارج كلّ هذا ، لأنني نويت تعيينك لتكون نائبي عندما أعيّن رئيساً للشاباك" .
لم أنتقم و لم أحقد ، لكنني غضبت على ما تسبّبوا به للجهاز و لي شخصياً .. رأيت في ذلك قلة استقامة ، إن لم يكن أسوأ من ذلك ، و انقطعت العلاقات فيما بيننا تقريباً .
ذات يومٍ كشف لي صديق ، أن روبين حزاك ، بيلغ رداي و رافي مالكه ، يتنافسون في مناقصة لتسلّم الحراسة في مطار كيندي بنيويروك ، و أن الـ "أف.بي.آي" يبحث عمن يمكن أن يوصي عليهم . "الأمريكيون سيتوجّهون بالتأكيد إليك أيضاً" قال الرجل ، و أضاف : "ستكون هذه فرصتك لتنتقم منهم" . فأجبت "دعك من ذلك .. إذا توجّهوا لي ، فسوف أعطي أفضل توصية مهنية .. أنا أعرف أن هؤلاء الأشخاص محترفون من الطراز الأول . أنا أدرك أيضاً حجم ما قدّموه للشاباك . إنهم يستحقون كلّ مساعدة ممكنة" .

مخرّبان يعتمران قبّعتين دينيتين

في الأول من نيسان (أبريل) 1988 ، عيّنت رئيساً لجهاز الأمن العام . حسب التقاليد المتبعة ، يحتفل بالتغيير في المنصب ، بمراسم تقام في مكتب رئيس الحكومة ، لكنني طلبت إعفائي من هذه المراسم الاحتفالية . أوضحت لرئيس الوزراء ، إسحاق شامير ، بأن التوقيت غير ملائم ، في رأيي . فالجهاز كان لا يزال مصاباً و يلعق جروح قضية الباص 300 . بدا لي أيضاً أن مراسيم كهذه لم تكن ضرورية بالنسبة لرئيس الجهاز المنتهية ولايته ، يوسف هرملين ، الذي كان قد عاد في الواقع للشاباك قبل أقل من سنتين حتى يعيّن وريثاً .. استجاب شامير لرغبتي و اكتفى بأن دعانا كلينا لجلسة الحكومة ، حيث شكر هرملين على جهوده و إسهامه ، و قدّمني للوزراء ثم سلّمني كتاب التعيين . كنت في الرابعة و الأربعين من عمري ، و من الأصغر سناً بين رؤساء الشاباك .
لم ينظر الجميع إلى التعيين بعين الارتياح . و كما هو معلوم ، فقد كان هناك من ادعى أنني لا أستحق المنصب لأنني لم أتخذ موقفاً عندما تفجّرت قضية الباص 300 . صحافي معيّن كرّر على مسامع وزير الدفاع إسحاق رابين ، الادعاء بأنه توجد لي علاقات صداقة لافتة للنظر مع شخصيات عربية . و قد قال له رابين إنه غير مستعد للتعليق على كلامٍ يقال على سبيل الثرثرة ، منهياً بذلك الحديث بينهما .
تسلّمت مهام منصبي بعد حوالي خمسة شهور من اندلاع الانتفاضة . الأجهزة الأمنية ، و بضمنها الشاباك ، لم تكن مستعدة لموجة الاضطرابات التي اجتاحت المناطق الفلسطينية . لقد حدّر الجهاز في الواقع ، قبل ذلك بوقتٍ طويل ، من المزاج العام و الاتجاهات السائدة في الشارع العربي (الفلسطيني) و من الاتجاه

الذي تسير فيه الزعامة المحلية . شعرنا كمن يطلّ على غرفة مليئة بالمتفجّرات . كان واضحاً لنا أن أحداً ما سيشعِل ذات يوم الفتيل ، لكن لم نعرف بالضبط متى سيتم ذلك .
لقد انطوت الانتفاضة على مغزى تاريخي .. إذ كانت هذه المرة الأولى في تاريخ الشرق الأوسط ، التي يهبّ فيها الشارع ، بدون قيادة ، ليأخذ زمام المبادرة بيديه . لم تتشاور الجماهير مع منظمة التحرير الفلسطينية بشأن البدء بالاضطرابات . كما أنها لم تتلقّ أوامر من القيادة حول كيفية العمل . شيئاً فشيئاً ، و على مرّ سنوات ، أقام الشارع الفلسطيني علناً القاعدة التي أتاحت الاستعداد و التحضير للاضطرابات . و قد ظهر لاحقاً ، بعد فوات الأوان ، أنه لو كانت (إسرائيل) عملت مسبقاً و نجحت في منع ، أو على الأقل الحد ، من قيام و تشكيل مئات الاتحادات و النقابات المهنية و الأطر و الهيئات الطلابية التي ضمّت عشرات آلاف الطلبة الجامعيين الفلسطينيين في نطاق اتحادات جامعية مزعومة ، و كذا اتساع و تجذّر التنظيمات و الحركات الشبابية التابعة لحركة فتح و الجبهة الشعبية ، فلربما كانت الانتفاضة قد تأجّلت أو تأخّرت إلى موعدٍ لاحق ، بل و ربما لم تكن لتندلع على الإطلاق . جميع العوامل المذكورة شكّلت جوهر و أساس القوى التي حملت على أكتافها الانتفاضة في المناطق .
و يمكن القول ، و يا للمقارنة ، إن (إسرائيل) ساهمت بذلك بنفسها ، و بدرجة كبيرة ، في وضع و إرساء القاعدة التي قامت عليها الانتفاضة .
عندما أصبح الشارع مهيّئاً للانتفاضة ، كان ما ينقص فقط هو الحافز أو الشرارة ، و قد جاء ذلك سريعاً جداً . ففي التاسع من كانون الأول (ديسمبر) 1987 ، قتل ثلاثة شبان عرب في قطاع غزة صدمتهم شاحنة (إسرائيلية) . ظاهرياً بدا ذلك حادث طرق لم يخرج عن المألوف . لكن في هذه الحالة ، كان ذلك كافياً لإشعال برميل البارود . في نفس اليوم اندلعت هبة عنيفة في مخيم جباليا للاجئين امتدت بسرعة إلى مخيم بلاطة للاجئين . و قد وجدت الأحداث انعكاساً و تعبيراً لها في عددٍ لا يحصى من المظاهرات و حوادث الإخلال بالنظام ، و توزيع المناشير و إلقاء الحجارة و الزجاجات الحارقة ، و حوادث الطعن بالسكاكين و اعتداءات في تجمّعات السكان بـ (إسرائيل) .
في الأيام الأولى للانتفاضة ، أرسلني يوسف هرملين لتقديم تقريرٍ شامل في جلسة الحكومة . وزير الدفاع ، إسحاق رابين ، كان حينئذٍ في زيارة خارج البلاد . أبلغت عن اضطرابات بحجمٍ و نطاق يتجاوز حوادث إخلال النظام المألوفة .. تقدير الشباك الذي أعد في وحدة البحث التابعة للقسم العربي ، اعتبر أن الأحداث ليست تطوّراً اعتيادياً . في هذه المرحلة اعتقدنا أنه يمكن في الواقع إخماد و خنق التمرّد ، لكن لن يكون ممكناً ، في رأينا ، منع و تفادي الهبة القادمة . قلت للوزراء إن الشاباك يقترح إرسال قوات عسكرية كبيرة للمنطقة بغية قمع الاضطرابات . رئيس الحكومة ، إسحاق شامير ، وافق على أن الوضع في المنطقة مقلق و أن من الضروري التصدّي له لكنه امتنع عن اتخاذ قرار واضح . حتى أنه لم يقل بشكلٍ واضح أنه يجب إرسال الجيش للمناطق .. الوزراء أيضاً لم يبدُ عليهم التأثر و الانفعال بشكلٍ زائدٍ عن الحد .
خلال أيام معدودة خرجت الأمور عن نطاق السيطرة . حوادث الإخلال بالنظام تحوّلت إلى كرة ثلج ، اكتسبت اندفاعة و أبعاداً هائلين . الهيئة الأمنية وجدت نفسها في خضم واقع جديد ، مرهِقاً و مثيراً للمتاعب و الإشكاليات بما لا يقاس : فالأمر لم يعد ينحصر في عمليات تخريب متفرقة ، يتورّط فيها عددٌ قليل من (المخرّبين) ، و تعالج بشكلٍ ملموس كلاً على حدة . من الآن أصبحت كلّ الجهات و الأجهزة الأمنية مدعومة لمواجهة عشرات الآلاف من مثيري الشغب و العنف ، شباناً و شيباً ، في أماكن مختلفة ، و في آنٍ واحد .. كلّ طفلٍ و صبي ، تسعفه قوته على رفع حجر و إلقائه ، تحوّل إلى عدو . وصلت من الميدان قوائم إسمية لا حصر و لا نهاية لها لناشطين في الانتفاضة . لم نتمكّن ، بالطبع ، من معالجة أمر كلّ هؤلاء . ليس من الصعب تخمين كم كان الإحباط كبيراً عندما تصل إليك قائمة تضمّ أسماء عشرات رماة الحجارة في قرية معينة ، و أنت لا تتمكّن من تولّي أمرهم و معاقبتهم لأن سلّم الأولويات يملي نشاطاً في مكان آخر .
طيلة الوقت اضطررت لإعداد و تحديد ميزان الأولويات ، و لإقرار إلى أين يجب أولاً توجيه الجمهور : لإخماد بؤر المقاومة التي لا تزال في مراحل التبلور و التنظيم الأولى ، أم لإخلاء و فتح محاور طرق رئيسة في ذات المنطقة ، أغلقَت على يد متظاهرين غاضبين .
شكّلت في المناطق "لجان شعبية" الواحدة تلو الأخرى ، و هي التي قادت جزءاً كبيراً من المناشطات الانتفاضية . على رأس الانتفاضة ، وقفت ، "القيادة الوطنية الموحدة" .. لم يكن لها قائدٌ أو زعيم محدّد . إذ كانت من ناحية عملية ، بمثابة لجنة تنسيق بين "اللجان الشعبية" . و بوجهٍ عام ، قامت القيادة الموحّدة بنقل و تعميم تعليماتها عبر منشورات و بيانات حملت أرقاماً متسلسلة . و بهذه الطريقة ، دُعيَ السكان للإضراب ، لمقاطعة بضائع و سلع (إسرائيلية) ، لمقاصعة و ضرب المتعاونين مع (إسرائيل) ، و سماسرة الأراضي ، و عملاء المخابرات .

عمليات قتل المتعاونين العرب الذين أدينوا و شهّر بهم على يد القيادة ، و إحراق و تخريب ممتلكاتهم تحوّلت إلى ظواهر مألوفة .. الشاباك فكّك عدة مرات "القيادة الوطنية الموحّدة" و اعتقل أعضاءها ، لكنها عادت للظهور في كلّ مرة مجدّداً بتشكيلة مختلفة .

الانتفاضة فرضت عدداً من الزعماء البارزين . أبرزهم جميعاً ، كان الشيخ أحمد ياسين . عندما كان فتى في السادسة عشرة من عمره ، قام ياسين بحركة وقوف على الرأس على شاطيء البحر في غزة ، سقط على ظهره و تعرّض لإصابة بالغة في عموده الفقري . الأطباء لم ينجحوا في إشفائه ، فتفاقمت حالة الإعاقة الجسمانية التي ألمّت به منذ ذلك الحين . في العام 1974 ، عندما حجّ إلى مكة ، كان لا يزال يقف على قدميه ، و إن احتاج إلى الإسناد . في مطلع سنوات الثمانينيات ، كان لا يزال ينجح بالطير ببطيء بقواه الذاتية . اليوم ، بعد أن تخطّى سن الستين ، أصبح جليس كرسيّ معاقين ، يستطيع فقط تحريك رأسه و يعاني بشكلٍ دائم من نوبات سعال شديدة ، و التهابات في مجاري التنفس ، و قرحة في المعدة ، و بواسير و غيرها .. و هو متزوج من امرأتين و أب لأولاد ..

إعاقته الشديدة ، تواضعه و بساطة ورقة طباعه ، مضافاً إليها سعة معرفته و إلمامه الكبيرين بخبايا و جوانب الشريعة الإسلامية ، كلّ ذلك جعل منه ما يشبه ولياً مقدّساً بين سكان القطاع . لقد روى هؤلاء بتأثر و انفعال صنائع المعجزات و قدرة الإشفاء العجيبة التي يتمتع بها . صوره علقت على ملصقات و كتب قرآن ، و بطاقات بريدية و علاقات مفاتيح . كان بمثابة مرجع و مفتي في شؤون دينية ، و هو الرجل الذي أسّس ، عملياً ، حركة حماس .

في البداية عملت المنظمة كجمعية خيرية اجتماعية باسم "المجمّع الإسلامي" ، سجّلت بشكلٍ قانوني لدى مسجّل الجمعيات في (إسرائيل) .. على رأس الجمعية ، التي حاولت إيجاد حلولٍ لمشكلات التعليم و الضائقة الاقتصادية ، وقف أحمد ياسين . تردّدنا غير مرة ، سوياً مع جهات حكومية رفيعة ، بشأن السياسة التي يتوجّب علينا تبنّيها إزاء الجمعية . كان هناك من قالوا إنه جدير فحص إمكانية تشجيع نشاطات الشيخ ياسين كوزنٍ مضادٍ لمنظمة التحرير الفلسطينية . أنا عارضت ذلك . فلو كان واضحاً لنا أن تنظيم ياسين سيعمل دوماً ضمن إطار إجتماعي ، هكذا قلت ، لكانت الفكرة عندئذ جيدة بالتأكيد . لكن الإسلام ، بحكم جوهره ، لا يستطيع الاكتفاء بنشاط من هذا النوع .

ففي الدين الإسلامي تكمن أسس و أركان الجهاد ، و محاربة الكفار ، و السعي لنظام حكم إسلامي . هناك إذاً أكثر من احتمال لأن تتحوّل الجمعية ، في يومٍ من الأيام ، في ظلّ ظروف معينة ، إلى منظمة (إرهابية) عنيفة . و بناء عليه ، اقترحت شطب الموضوع من جدول الأعمال ، و بالفعل فقد استبعدت الفكرة و لم تثرْ مجدّداً منذئذ .

حصل ياسين على أموال ، و راكم قوة ، ليحوّل بمرور الزمن ، كما كان متوقعاً ، جمعيته إلى منظمة مقاتلة باسم "حركة المقاومة الإسلامية" .. و تشكّلت كلمة "حماس" اختصاراً يتألف من الأحرف الأولى لكلمات التسمية المذكورة ، لكنها أيضاً كلمة قائمة بذاتها لها مدلولاتها التي تعني الجرأة و البطولة . في العام 1984 ، اعتقل الشيخ ياسين و قدّم للمحاكمة بتهمة حيازة أسلحة و وسائل قتالية و قيادة تنظيم معادي ، و قد أدين و حكم عليه بالسجن لمدة اثني عشر عاماً . بعد مرور سنة واحدة أطلق سراحه في صفقة تبادل الأسرى مع أحمد جبريل .

لقد كان أحمد ياسين و لا يزال الزعيم المتنفّذ في "حماس" ، و الرجل الذي لا يتمّ شيء إلا بإذنٍ و إيعازٍ منه . فهو الذي أصدر التعليمات ، و صاغ المنشورات و البيانات التي لعبت دوراً هاماً في الانتفاضة : فهي التي أمرت متى يجب الإضراب و متى و أين تلقى الحجارة ، و متى يتم الخروج للمظاهرات . و إلى جانب التوجيهات العمليّة ، كانت هذه المنشورات تحفل بالمواعظ و الدعاوي الأيديولوجية .

لقد قوّضت الانتفاضة بدرجة كبيرة جهاز القضاء المحلي الذي أقيم بمساعدة (إسرائيل) . المحاكمات المدنية و الجنائية جمدت بصورة تامة تقريباً . في قطاع غزة وفّر الشيخ ياسين البديل . فقد تحوّل إلى محكّمٍ في النزاعات ، و فرض عقوبات على منتهكي القانون ، و هكذا جذّر أكثر سيطرة حماس في القطاع . في يهودا و السامرة (الضفة الغربية) كان نفوذ ياسين ، في المقابل ، أقل بكثير .

رغبنا ، بالطبع ، في اعتقاله و تقديمه للمحاكمة إن كان ذلك ممكناً ، و ذلك بغية تشويش نشاطات حماس ، لكنه لم يكن سهلاً دسّ عملاء في صفوف حماس من أجل جمع أدلة ضده . حتى أولئك العملاء القلائل الذين كانوا لنا رفضوا التعاون ، عندما طلبنا منهم معلومات عن الشيخ ذاته . "نفعل أي شيء .. إلا هذا .." و هكذا قالوا . هالة الاحترام الذي أكّنوه له وقفت فوق كلّ شيء آخر .

خلال الانتفاضة اكتسبت حماس دفعة و انطلاقة كبيرة في قطاع غزة .. تفحّص نشريات المنظمة يبيّن بما لا يدع مجالاً للشك ، أن التوجّه لم يكن فقط نحو القيام بأعمال شغب و الإخلال بالنظام ، و إنما أكثر من ذلك بكثير . لقد وضعت حماس ، الجهاد – في سبيل تحرير فلسطين – على رأس أولوياتها ، و كان لهذا الشعار – الهدف أن ألهب مشاعر الجماهير التي انضمت إلى الحركة بأعدادٍ متزايدة . ازدياد قوة حماس

، جاء بطبيعة الحال على حساب حركة فتح و تنظيمات أخرى ، حيث تحوّلت بسرعة لتغدو تنظيم المقاومة الأكبر في قطاع غزة ، الذي حمل على أكتافه الانتفاضة بأكملها . ليس هذا و حسب ، فقد نالت حماس شهرة و سمعة واسعين بفضل كونها نقية من الفساد . و خلافاً لباقي التنظيمات التي اختلس مقرّبون على اختلافهم من أموال التبرعات التي تلقتها ، حرصت حماس على نقاء الأكف على طول الطريق .

في 16 شباط 1989 ، انتظر الجنديّ آبي سسبورتس نقلة بالمجان في مفترق "هوديا" جنوب البلاد .. سيارة تحمل لوحات ترخيص (إسرائيلية) توقفت بالقرب منه . في داخلها جلس رجلان بشرتهما حنطية يعتمران على رأسيهما قبعات متدينين يهود . سسبورتس ، الذي لم تساوره أية شكوك ، دلف إلى الداخل ، و انطلقت السيارة مسرعة من المكان . معتمرا القبعات كانا محمد ناصر و محمد المبحوح ، ناشطا "حماس" من غزة ، أرسِلا لاختطاف جنديّ و قتله . السيارة التي استخدمت في عملية الاختطاف سرقت من داخل (إسرائيل) . أثناء السفر أطلق ناصر على رأس و صدر سسبورتس رصاصتين من مسدس "برتا" عيار 0.22 ملم . بعدما مات ، نزع الإثنان عنه ملابسه ، و دفناه بين مفترق "هوديا" و مفترق "غبعاتي" و لاذا بالفرار من المكان . سلاح الجندي و أشياؤه الشخصية ، نقلا مع عضوين آخرين في خلية (القتل) ، كانا بانتظار (القاتلين) في قطاع غزة . بعد ذلك نقل القتلة السيارة إلى بئر السبع ، أوقفوها هناك و عادوا إلى غزة .

في الثالث من آيار ، قبل أيام معدودة من العثور على جثة آبي سسبورتس ، سرقت الخلية نفسها سيارة من "رمات غان" ، و اختطفت الجنديّ إيلان سعدون ، ثمّ قامت بقتله . دفن (القتلة) جثته في منطقة "بلماحيم" و سارعوا بالهرب باتجاه غزة . عندما حاولا تهريب السيارة إلى القطاع ، عبر حقول كيبوتس "مفلسيم" ، لاحظهم حارس الكيبوتس . تركوا السيارة و لاذوا بالفرار . أفراد قوات الأمن الذين هرعوا إلى المكان فحصوا السيارة و عثروا بداخلها على بقع دم . قدّرنا أنه تم تنفيذ عملية قتل ، لكننا لم نعرف في الحال من هو القتيل .

المنطقة التي سعى القتلة للوصول إليها في قطاع غزة ، شكّلت نقطة انطلاقٍ في التحقيق . كان الاعتقاد الراجح أن هناك صلة ما بينهم و بين المكان ذاته : فلربما أنهم أنفسهم أقاموا فيه ، أو ربما تلقوا مساعدة من السكان . و استناداً للتجربة ، افترضنا أن الأمر لا يتعلّق بـ (مخرّبين) بارزين ، ممن يحرصوا على عدم تلطيخ أياديهم بالدماء ، و إنما ناشطون اعتياديون من الصف . استعرضنا قائمة أعضاء حماس المعروفين لنا في المنطقة .

اعتقلنا أحدهم بالسر ، و اقتدناه إلى حاجز آيرز ، و أجرينا التحقيق الأولي معه هناك . لم أشارك في التحقيق ذاته ، لكنني جلست على مقربة من المكان و تابعت التطوّرات . في البداية تخوّفنا من أننا ربما اعتقلنا الرجل غير المناسب . إذ اتضح أنه لم يشارك في القتل و لا في التحضيرات . لكن التحقيق كان مع ذلك مثمراً و مفيداً . فقد نجحنا في الحصول منه على أسماء عددٍ من ناشطي حماس ، من سكان مخيم جباليا للاجئين ، الذين كان يمكن في تقديره أن يعرشفوا شيئاً . سارعنا إلى تجنيد قوات ، حاصرت المخيم و بدأت عمليات تفتيش و بحث من بيتٍ إلى بيت . في هذه المرحلة تولّيت بنفسي الإشراف على قيادة الحملة من طائرة عمودية حلّقت فوق المخيم ، أثناء عمليات التفتيش عثِر على المخابىء التي أخفيَ فيها السلاح و الحاجيات الشخصية للجنديّ إيلان سعدون ، لكن القتلة أنفسهم لم يعثروا عليهم .

واصلنا التحقيق ، و بعد مرور بضعة شهور تمكّنا من الكشف عن هوية القاتلين . وجدنا أيضاً بأنهما نجحا في الهرب إلى مصر . هكذا فعل في حينه عددٌ غير قليل من (المخرّبين) المطلوبين . السلطات المصرية عالجت أمرهم بطريقة بسيطة : اعتقلت الفارّين ، استجوبتهم و قامت بعد فترة قصيرة بطردهم ، لكونها لم ترغب بتعزيزات متطرّفين إسلاميين .

سفيرنا في القاهرة ، البروفيسور شمعون شامير ، طلب بمبادرته لقاء عاجلاً مع الرئيس حسني مبارك . أوضح لمبارك أن (إسرائيل) تتفهم الوضع الحسّاس لمصر ، و لذلك فهي لا تطلب تسليماً فعلياً للقاتلين و عوضاً عن ذلك ، دُعيَ الرئيس لإصدار تعليماته إلى وزير داخليته ، المسؤول عن جهاز المخابرات المصرية ، كي يتم التحقيق مع المعتقلين بشأن مكان دفن إيلان سعدون . في حضور شامير ، هاتف الرئيس المصري وزير الداخلية و أمره بلهجة صارمة بالحصول على المعلومات المطلوبة . تعهّد الوزير بعمل اللازم ، بل و طلب أن يتصل شامير به بعد ثلاثة إلى أربعة أيام حتى يحصل على نتائج التحقيق . فعل السفير ذلك ، لكنه و لدهشته لم يحصل على أية معلومات . بعد أيام معدودة طرد القاتِلان من مصر . فقط في وقتٍ لاحق تبيّن لنا أنه لا الرئيس و لا الوزير قصدا منذ البداية مساعدتنا و أن ما فعلاه كان مجرد "مسرحية" تظاهرا بها أمام السفير .

في نهاية المطاف نجحنا في الوصول إلى مكان دفن إيلان سعدون . كان ذلك بعد أن كنت قد استقلت من الجهاز ، و بناءً على طلب رئيس الحكومة ، إسحاق رابين ، أخذت على عاتقي مهمة التنسيق بشأن قضية

الأسرى و المفقودين (الإسرائيليين) و هي مهمة لا زلت أواصل القيام بها بتطوّع حتى لحظة كتابة و تأليف هذا الكتاب .
وحدة البحث عن المفقودين التابعة لقسم الطاقة البشرية في الجيش (الإسرائيلي) (إيتان) ، و جهاز الشاباك و الطاقم لشؤون الأسرى و المفقودين ، عملوا فوراً و بكامل الجهد كلّما كانت تصل نُزر معلومات يمكن له أن تقودنا إلى جثة الجندي . السلطة الفلسطينية أيضاً ساعدتنا كثيراً . في 28 تموز 1996 ، تكللت جهودنا بالنجاح . فقد عثِر على الجثّة في منطقة "بلماحيم" ، تحت الشارع الذي شقّ حديثاً ، و تم إحضارها للدفن في مقبرة بـ (إسرائيل) .
في أعقاب مقتل سسبورتس و سعدون ، نفّذنا حملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف أعضاء حماس . و خلال ذلك كشفنا قاعدة واسعة و متجذّرة للحركة في مناطق مختلفة بقطاع غزة ، و اعتقلنا معظم الناشطين في الجناح العسكري لحماس . في حصيلة الأمر اعتقلنا حوالي خمسمائة مسؤول و ناشط ، اعترفوا بمهاجمة (إسرائيليين) و بقتل مشبوهين من أبناء شعبهم بالتعاون مع (إسرائيل) .
التحقيقات كشفت أنه رأس جميع الأجنحة و الأذرع التي نفّذت هذه الفظائع ، وقف الشيخ ياسين ، الذي كان قد عمِل منذ ما قبل سنة و نصف السنة من التأسيس الرسمي لحركة "حماس" ، في إقامة و تشكيل خلايا القتل .. "فتوى" دينية صدرت عنه ، و أباحت قتل كلّ من لم يتمسك بمبادىء الإسلام ، عرباً و يهوداً على حد سواء ، شكّلت هادياً للقتلة . و بموازاة ذلك ، أقام ياسين على نحو دؤوب و فعال ، جهازاً تنظيمياً واسعاً ، ضمّ جهاز الدعاية المؤلّف من أكاديميين و طلبة جامعيين ، و خصوصاً من الكلية الإسلامية في غزة ، و جهازاً تولّى شؤون الطلبة ، و جهازاً عسكرياً أشرف على إدارة و توجيه كتائب عز الدين القسام في تنفيذ الهجمات و الاعتداءات . جلّ قوة "حماس" تركّز في قطاع غزة ، بينما في المناطق الأخرى – في رام الله و الخليل و المنطقة القروية في نابلس و القدس الشرقية – كان لحماس امتدادات و فروع صغيرة فقط.
غالبية الناشطين البارزين في الجهاز العسكري لحماس جنّدوا من بين الطلبة في الكلية الإسلامية بغزة ، و التي كانت و لا تزال معقلاً بارزاً لحماس ، مثلما أن جامعة النجاح في نابلس كانت و لما تزل معقلاً للتنظيم في يهودا و السامرة .. المساجد أيضاً لعبت دوراً هاماً في النشاطات السرية لحماس . فبداخلها أخفيت أرشيفات التنظيم ، و جرت لقاءات سرية و عقدت الصلة أو الاتصال بين كبار مسؤولي التنظيم و مرؤوسيهم . لقد شكّلت المساجد دفيئة مثالية لـ (الإرهاب) . فكل مسلم مؤمن يذهب للمسجد مرة واحدة على الأقل في اليوم . و من الطبيعي و الحال ، أن يتوجه ناشطو (الإرهاب) إلى هناك أيضاً . و في المقابل فإن قدرتنا على الدخول للمساجد قاربت درجة الصفر . كان أي دخول كهذا يحتاج إلى إذنٍ من وزير الدفاع ، و حتى عندما كان لدينا سببٌ وجيه و ملح للدخول إلى مسجدٍ ما ، لم نكن متأكدين فيما إذا كنا سنحصل على الإذن بذلك . كان واضحاً لكلّ ذي بصيرة أن دخول رجال أمن (إسرائيليين) إلى دور الصلاة و العبادة ، سواء بالزي الرسمي أو بدونه ، يمكن له أن يولّد ضجة كبرى و أن يشعل ناراً رهيبة .
الشيخ ياسين أدرك أن حملة الاعتقالات الواسعة لا بدّ و أن تطاله . فقد كان القائد الأعلى ، الذي قادت كلّ الآثار و الدلائل إليه . كانت هذه مسألة وقتٍ فقط إلى أن يطرق جهاز الشاباك على باب بيته ليقتاده إلى الاعتقال . خلال المهلة القصيرة التي بقيت له في الحرية ، سارع إذن لتعيين قائمٍ بأعماله ، يعيد بناء التنظيم بعد ضربة الاعتقالات الكبرى . و كان هذا إسماعيل أبو شنب ، رجل حماس معروف في القطاع .
التقيت معه عدة مرات في سجن أشمورت بكفار يونا . كان هناك معتقلان يلازمانه بشكلٍ دائم ، حتى يساعداه . أبديت اهتماماً كبيراً بطريقة تفكيره و بالأسلوب الذي عبّر فيه عن أفكاره . لم ألاحظه يوماً يخرج عن طوره ، يفقد صبره أو ينفجر بالصراخ . بصوته المتهدّج الناعم أصدى لمحادثه باعتدالٍ مقصود . لكن هذا كان اعتدالاً لرجل متطرّف جداً ، لن يكون أبداً سافراً ، و لن يقول أبداً "نحن سنبيدكم" أو "سنلقي بكم في البحر" ، بل سيتحدّث عن "التعايش" الذي يعني في عالم مفرداته و مصطلحاته دولة يعيش فيها العرب و اليهود و أتباع ديانات أخرى في كنف نظام حكم إسلامي . لم يعترف الشيخ ياسين باي ضلع أو تورّط في نشاطات حماس ، لا في عمليات القتل ، و لا في الاختطاف ، و لا في هجمات . و يمكن القول ، مع مراعاة الفارق و الاختلاف الشديد بين الإثنين ، أنه عمل بدرجة كبيرة بأسلوب مؤسس حركة "كاخ" الحاخام مائير كهانا الذي لم يأمر قط بتنفيذ اعتداء ، و إنما فتى بشيء ما ، بثّ مقولة أو مثالاً ، كان من المفترض لأتباعه أن يفهموا و يفسّروا معانيها و مدلولاتها العملية .
ياسين وُجِد مذنباً و حُكم عليه بالسجن المؤبد و فوقه خمسة عشر عاماً . بالتشاور مع إسحاق رابين ، تم بلورة مبادرة لطرده من البلاد ، بشرط أن يتعهّد بعدم العودة قبل مرور عشر سنوات . لكنه رفض الاقتراح من دون أن يفكّر فيه مرتين . "سأخرج من السجن إلى بيتي فقط ، و ليس إلى أيّ مكانٍ آخر"

قال لنا بهدوء و تصميم .. و يتضح أنه كان يعرف ما يقوله . فقد أطلق سراحه ، كما هو معروف ، في العام 1997 ، بأمر رئيس الوزراء ، في أعقاب التسوية التي تمّ التوصل إليها مع الملك حسين من أجل إنهاء قضية المحاولة المحرجة لاغتيال رجل حماس القيادي خالد مشعل في الأردن .
معتقل آخر من حماس ، و الذي اشتبه بتورّطه في اختطاف و قتل الجنديين سبسورتس و سعدون ، كان صلاح شحادة ، أحد كبار مسؤولي الجهاز العسكري للتنظيم . و قد كان شحادة ، رجل أسرار ياسين و ساعده الأيمن ، رجل دينٍ مؤثّر و محبوب في منتصف العقد الثالث من عمره ، يطلق لحية طويلة ، و يتمتع بملامح و طباع رقيقة . خلف هذه الصورة و الطلعة الوادعة ، اختبأت شخصية واحدٍ من القادة (الإجراميين) الأكثر وحشية في حركة حماس . كان شحادة ، مسؤولاً في نطاق ما عهد إليه من مهام ، عن تجنيد المرشّحين الجدد . أسماؤهم أحيطت و حفظت بسرية تامة . في أحيانٍ قليلة جداً عرف مرشّح للتنظيم عن آخرين تضمّهم القائمة خلافاً له . كلّ مرشّح اجتاز عدداً لا يحصى من الاختبارات و الاستجوابات ، بغية التأكد من أنه ليس مدسوساً من طرف المخابرات (الإسرائيلية) ، "الشاباك" .
تحدّثت مع شحادة مطولاً في السجن . و من أجل إثارة جوّ من الرهبة أثناء محاولتي لإقناعه بتقديم اعترافٍ أحضرت معي مرات عدة للتحقيق قائد المنطقة الجنوبية ، إسحاق مردخاي ، و ضباطاً كباراً آخرين . منعناه من النوم و حققنا معه بشكلٍ مكثف و متواصل . لكن شحادة كان مسؤولاً صلباً لا يرضخ . وافق على الاعتراف فقط بوقائع ثابتة لا تقبل الجدل أو الطعن ، عرضناها أمامه ، لكنه رفض بشدة الإدلاء و لو بنزرٍ قليل من المعلومات الجديدة . من السهل فهم ذلك ..
فقلة من الناس فقط ، يتمتعون بإرادة و عزم قويان مثله ، يستطيعون النهوض بالدور و المركز الذي أشغله شحادة في حماس . أشخاص من هذا النوع ، قادرون على امتصاص و تحمّل أي وضع أو ظروف صعبة ، و الصمود في وجه أي ضغطٍ و أي إغراءٍ في التحقيق .
اعتقلنا أيضاً محمد شراتحة ، قائد "خلية 101" و هي التي دعيت أيضاً بـ "خلية جباليا" . إنها الخلية التي قتل أفرادها سسبورتس و سعدون . شراتحة نفسه كان قاتلاً محترفاً ، بلطجّي و كاذب بالفطرة ، شُغل على يد شحادة . كلّ الخيوط أدّت من هؤلاء إلى زعيمهم المحبوب ، الشيخ ياسين "أيديولوج" أعمال القتل . إبان سنوات الانتفاضة وجّه "الشباك" ، من ناحية عملية ، جهود جميع قوات الأمن في المناطق – الجيش (الإسرائيلي) ، حرس الحدود و الشرطة الزرقاء . الجهاز نفسه اضطر إلى ملاءمة نظريته القتالية للواقع الجديد .
التحقيقات مع الأعداد الكبيرة من المعتقلين أثمرت نتائج ممتازة . لذلك قرّرنا أن نوسّع بدرجة ملموسة جهاز التحقيقات . و في نطاق ذلك ، بادرنا أيضاً إلى إقامة وحدة محققين دروز في إطار الجيش (الإسرائيلي) . أفراد الوحدة ، وجّهوا على يد "الشاباك" .. في البداية تم وضعهم في مركز اعتقال الفارعة ، على الطريق المؤدّي من نابلس إلى غور الأردن ، حيث اقتيد إلى هناك المشاغبون المخلّون بالنظام . و في وقتٍ لاحقٍ عمِل أفراد الوحدة أيضاً في معسكر أنصار بقطاع غزة ، الذي اعتقل فيه كثيرون من منظّمي و قادة الاضطرابات و المشتركين فيها . و في محاولة لتحييد و إبطال فاعلية ناشطي الانتفاضة ، أجرينا آلاف الاعتقالات الإدارية . عزّزنا بشكلٍ ملموسٍ أيضاً نظام الحماية الجسدية حول رجالنا الذين عملوا في الميدان وسط تعريض حياتهم للخطر .
و قد مكثت بنفسي فترات طويلة من الوقت في مراكز التحقيقات و التقيت دون توقف مع رجالنا الذين انتشروا في كلّ مناطق التوتر . يجب أن نذكر أن الجهاز عمل في نفس الفترة أيضاً . في مجالات كثيرة أخرى ، تُعزى لها كذلك أهمية بالغة . فقد عالجنا أمر جواسيس روس ، و يمين متطرّف و يسار متطرّف ، قمنا بمهام حماية و حراسة جميع الشخصيات العامة في دولة (إسرائيل) ، و السفارات و طائرات شركة "إل عال" و بواخر النقل (الإسرائيلية) في أنحاء المعمورة ، و مجموعات المهاجرين من دول الاتحاد السوفييتي.
الانتفاضة الطويلة في المناطق هي التي أفضت أيضاً إلى بداية عملية (السلام) .. الجمهور العربي أصيب بالتعب و الإنهاك ، حيث تدهور وضعه الاقتصادي و وهنت قدرة التحمّل لديه . لكن أيضاً في الجانب الآخر للمتراس وقع أمر جلل : إذ توصل صانعو السياسة في (إسرائيل) إلى نتيجة و إقرار بأنه من دون عملية مصالحة لن يكون ثمة مخرج من المأزق .
رئيس "الشاباك" ، يقوم في الواقع أيضاً بدور "وزير خارجية" للجهاز . لذلك ، و إضافة إلى كوني متدخلاً في كافة تلك النشاطات ، فقد التقيت بشكلٍ دائمٍ مع رؤساء الحكومة و وزراء الدفاع في جلسات أسبوعية شخصية و في اجتماعات الحكومة و مجلس الوزراء المصغر و في مداولات و مشاورات خاصة .. اللقاءات مع وزراء الدفاع جرت أحياناً عدة مرات في الأسبوع . عندما أشغل رابين منصبي رئيس الحكومة و وزير الدفاع كانت اللقاءات معه تتم بوتيرة متقاربة و عالية بشكلٍ خاص . أحببت على وجه الخصوص الجولات الميدانية برفقته . لقد حرص و واظب رابين على الخروج في جولة بالمناطق مرة

واحدة على الأقل في الأسبوع . التجوال معه ، تحرياته الدقيقة و المتعمّقة و أحاديثه مع الجنود ، كانت دوماً تجربة ممتعة . إضافة لذلك ، دُعيت بشكلٍ منتظم للمشاركة في اجتماعات لجنة الخارجية و الأمن التابعة للكنيست ، و قدّمت تقارير مفصلة إلى اللجنة البرلمانية الفرعية لشؤون أجهزة المخابرات السرية ، حاضرت في دوراتٍ للجهاز ، أجريت أحاديث خلفية مع صحافيين ، و هذه قائمة جزئية فقط .

قبلة خطيرة

كانت حماس قادرة أكثر من أي منظمة (إرهابية) فلسطينية أخرى على الانتعاش بسرعة هائلة من كلّ ضربة أنزلت بها . استطعنا اعتقال مئات الناشطين ، و أن نضبط كميات كبيرة من الوسائل القتالية ، و نصادر ماكنات طباعة ، و منشورات و خطط عمل ، و أن نتسبّب نتيجة لذلك بهبوط معيّن في نشاطات حماس . لكنها كانت ، بعد شهورٍ معدودة ، ترفع رأسها من جديد .. تصفية "المهندس" يحيى عياش في العام 1996 ، كانت إحدى الضربات الصعبة التي تلقتها حماس . مع ذلك ، و بعد وقتٍ قصير أعلنت حماس الخروج للجهاد مجدّداً ، بل و نفذت سلسلة عمليات (انتحارية) .
و في المقابل احتاجت الحركة لفتراتٍ زمنية طويلة نسبياً من أجل إحياء قاعدتها التنظيمية و السياسية بعد حملات الإحباط (الإسرائيلية) . تتمتع حماس بقدرة مثبتة على تجنيد (انتحاريين) .. رجال الدين يلعبون دوراً هاماً في تهيئة و تحضير (الانتحاريين) لمهامهم . فهم يعدونهم بالفوز ، بفضل مشاركتهم في حرب الجهاد المقدّسة ، بمكانة "شهيد" ، و هو مكان مرموق في جنة عدن ، و بدعم و مساندة عائلاتهم بعد موتهم .
كنت على صلة وثيقة بكلّ مراحل التصدّي لحماس . كان ذلك موضوعاً ذو أهمية عليا ، استوجب اهتمامي الدائب كرئيس "للشباك" . كنت متدخّلاً في إصدار التوجيهات لشعبة البحث ، شاركت في تخطيط العمليات لإلقاء القبض على المطلوبين ، تابعت النشاطات في الميدان ، ساهمت في استجواب معتقلين و التحقيق معهم ، قرأت مئات الاعترافات ، قدّمت تقارير عن التطوّرات إلى رئيس الحكومة في لقاءات شخصية و للوزراء في اجتماعات المجلس الوزاري المصغر و الحكومة . لم أستطع أن أخفي تأثري و انفعالي إزاء مستوى السرية و الإحكام في عمل حماس . على سبيل المثال ، قلائل فقط من بين مئات المعتقلين الذين خضعوا للتحقيق ، عرفوا صلاح شحادة ، و حتى هؤلاء لم يعرفوا تفاصيل كثيرة عن نشاطه . السرية في خلايا القتل كانت مشدّدة أكثر . كان ذلك واحداً من الأسباب و العوامل وراء الانتعاش السريع لحماس بعد كلّ موجة اعتقالات و كشف وسائل قتالية . فبمقدار ما عرف أعضاء التنظيم أقلّ ، هكذا قلّت و تضاءلت فرصة نجاحنا في اعتقال كبار المسؤولين الذين وقفوا وراء النشاطات (الإجرامية) و في إثبات الاتهامات ضدهم .. آلة حماس عمليّة جيّداً داخل السجن أيضاً . القادة الذين سجِنوا أداروا و وجّهوا خلايا الذراع العسكري بواسطة زوّار من أقاربهم و أصدقائهم .. كشفنا وسائل و طرق مختلفة لنقل التعليمات التي اتخذها المعتقلون .. و من بين ذلك ، قاموا بنقل قصاصات صغيرة من فم إلى فم أثناء تبادل قبلة مع أحد الأقارب .
على الرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهتنا في دسّ عملاء داخل صفوف حماس ، إلا أننا حققنا نجاحات لا يستهان بها في هذا المجال . في مطلع سنوات التسعينيات تمكّنا ، بمجهودات كبيرة ، من تجنيد عميلٍ كان قريباً جداً من محافل حماس . لم يكن شخصاً متديّناً بكلّ معنى الكلمة ، لكنه أكثر من ارتياد المساجد و الإصغاء للخطب و المواعظ الدينية ، و الأهم من كل ذلك ، فقد تمتع بثقة كاملة لدى ناشطي حماس . كان يناهز الثلاثين من عمره ، و قد رغب بالسفر للأردن حتى يستكمل تعليمه هناك . منسّق "الشباك" في المنطقة استدعاه لحديثٍ كي يكوّن انطباعاً عنه ، فنشأ بينهما انسجام و ودّ متبادلين . في البداية قام بتزويدنا ، بشكلٍ أساسي ، بمعلومات عن نشاطات اجتماعية و خيرية لحركة حماس . بعد ذلك أتيحت له الفرصة ليساعدنا في مواضيع أكثر جدية . بعد بضعة شهور من بدء عمله و تعاونه معنا ، هرب من سجن الظاهرية قرابة نصف دزينة من المعتقلين الشبان ، الذين اعتقلوا بتهم الإخلال بالنظام . حسب المعلومات التي وصلت إلينا ، التحق اثنان من الفارين بخلية عسكرية تابعة لحماس ، خطّطت لشنّ هجمات ضد (إسرائيليين) . أفراد تلك الخلية كانوا مطلوبين بارزين كانت تتوفر لدينا معلومات نسبَ لهم الاعتداء على يهود داخل الخليل و على الطريق المؤدّي للقدس ، و بضمن ذلك قتل المستوطن مردخاي

لفيد و ابنه شالوم . في السادس من كانون الأول 1993 ، في ساعات الغروب ، نزل مردخاي لفيد ، البالغ 65 عاماً ، من منزله في تلة الخارصينا بـ "كريات أربع" إلى شارع الخليل – القدس . كان يرافقه أربعة من أبنائه الأربع عشر ، و من ضمنهم "شالوم" البالغ 19 عاماً ، الذي كان يدرس في معهد ديني بـ "أفرات" . مردخاي لفيد و أبناؤه الثلاثة الآخرون قرّروا الانتظار مع "شالوم" إلى أن تصل سيارة لتنقله بالمجان إلى القدس . و بينما كانوا ينتظرون أطلّت من الشرق شاحنة صغيرة من نوع "بيجو" بيضاء اللون ، ترجّل منها اثنان أو ثلاثة (مخرّبين) مسلحين بسلاح أوتوماتيكي ، ليشرعوا بإطلاق النار على لفيد و أبنائه .. مردخاي و شالوم أصيبا بجروح بليغة و ماتا بعد مرور بضع دقائق .. الأولاد الثلاثة الآخرون ، الأصغر ، أصيبوا بجروح بين طفيفة و متوسطة .

مردخاي لفيد كان مهندساً هاجر من الاتحاد السوفييتي في العام 1968 ، و كان مع زوجته "مريم" من طلائع المستوطنين في السامرة (شمال الضفة) ثم انتقلا لاحقاً إلى كريات أربع . هذا الاعتداء أثار صدمة كبيرة في الدولة و في صفوف المستوطنين . بعد أقل من ثلاثة شهور ، عندما فتح صديق العائلة ، د. باروخ غولدشتاين ، النار على مصلّين مسلمين في الحرم الإبراهيمي ، و قتل 29 مصلياً و جرح 125 آخرين ، كان هناك من اعتبر هذا العمل الفظيع ردّ فعلٍ انتقامي لمقتل مردخاي و شالوم لفيد .

صور أعضاء الخلية التي قتلت لفيد و ابنه و تفاصيل تشخيص أخرى كانت موجودة في حوزة جميع أفراد قوات الأمن في المنطقة . هذه الحقيقة عرفت لهم ، و لذلك فقد قلّلوا من الخروج من الشقق السرية التي آووا إليها .

أحد أفراد الاتصال القلائل لهم كان عميلنا ، الذي أولوه ثقة كبيرة ، و بذلك تأكّدت صحة قرارنا بتجنيده . و في المحصلة ، فإن غاية تشغيل العملاء تمثّل في استغلال حقيقة كونهم معروفين في محيطهم كأناسٍ موثوقين ، بما يتيح انضمامهم لخلايا محليّة و إيجاد اتصال يؤدّي إلى المطلوبين . ذات يومٍ أخبرنا العميل أنه كلّف بمقابلة أحد الفارّين من سجن الظاهرية .. كان باستطاعتنا ، بالطبع ، أن نتعقّبه حتى مكان اللقاء ، و أن نعتقل الرجل و نحاول انتزاع اعترافٍ منه أثناء التحقيق عن مكان وجود زملائه ، لكن افترضنا أن خطوة كهذه سوف "تحرق" على الأرجح ، عملينا . قرّرنا إذاً تعقب و مراقبة ما يحدث من بعيد ، دون التدخل في هذه الأثناء .

اللقاء بين العميل و السجين الهارب جرى في ساعة متأخرة من الليل على أطراف قرية قريبة من الخليل . لم يذكر (المخرّب) أسماء زملائه ، لكنه قال إن الخلية التي انضم إليها تعتبر نفسها كـ "رأس حربة" خلايا (المخرّبين) في الضفة الغربية . و كشف أن قسماً من أعضائها جاءوا من غزة . و قد طلب من العميل أن يخبر أحد سكان قرية بيت أمّر ، بأن "ينقل ما وعد به" إلى "النقطة الميتة" المتفق عليها . وقع القرويّ في الفخ و كشف بدون خوفٍ المكان . سارعنا إلى وضع مراقبة هناك . عاد العميل إلى مرسله ، و أبلغه أنه قام بمهمته و اتفق الإثنان على معاودة اللقاء . في اللقاء التالي جلب معه العميل ، حسب توجيهاتنا ، خبزاً و لحوماً معلبة و مشروبات خفيفة . الهارب ابتلع الطعام بشهية كبيرة ، و توثّقت الصلة بين الإثنين . واصلنا مراقبة مكان النقطة الميتة ، لكن دون جدوى . أفراد الخلية تحرّزوا لسببٍ ما من الذهاب إلى المكان . و مع ذلك استمرت اللقاءات بين عميلنا و (المخرّب) كالمعتاد .

في إحدى هذه اللقاءات كشف (المخرّب) للعميل بأن خليّته تخطّط لعملية كبيرة بعد حوالي ثلاثة أسابيع ، في عيد الفصح اليهودي . كما و أسرّ في أذنه بأن أعضاء الخليّة يختبأون في حارة أبو سنينة بمدينة الخليل . قمنا على الفور باستدعاء الجيش (الإسرائيلي) ، حيث حاصرت قوة ضمّت مئات الجنود ، تحت جنح الليل ، خمسة منازل في الحيّ . توقعنا أن نجد في إحداها الخلية .. جرت العملية تحت قيادة الجنرال شاؤول موفاز ، الذي أشغل حينذاك منصب قائد قوات الجيش (الإسرائيلي) في الضفة الغربية . قائد المنطقة العسكرية الوسطى ، داني ياتوم ، كان هو الآخر في ميدان العملية . في الساعة السادسة صباحا أحضرنا إلى المكان عدداً من وجهاء الخليل و طلبنا منهم الدخول إلى المنازل الخمسة ليقترحوا على (المخرّبين) الاستسلام . إذا رفضوا الاستسلام ، أوضحنا للوجهاء ، فإنهم يعرّضون بذلك أنفسهم لخطر أن ننسف البيوت على من فيها . الوجهاء فعلوا مثلما طلبنا منهم ، و عندما عادوا بعد وقتٍ قصير أبلغونا "لم نجد هناك أي (مخرّب)" . تصعّبنا تصديقهم . بقينا في المنطقة ، و استخدمنا مكبّرات الصوت لندعو بواسطتها دون توقف (المخرّبين) للاستسلام . في ساعات بعد الظهر ، أطلقت فجأة عدة عيارات من داخل أحد المنازل . منذ تلك اللحظة ، و طيلة ثمانية عشر ساعة متواصلة ، دارت هناك معركة قتِل في نهايتها عددٌ من (المخرّبين) ، فيما سلّم الباقي أنفسهم .

كانت تلك معركة صعبة ، استخدم فيها الجيش (الإسرائيلي) الصواريخ . امرأة فلسطينية قتِلت عندما خرجت لنشر غسيلها في منطقة الاشتباك .. خمسة جنود (إسرائيليين) أصيبوا بجروح طفيفة ، و بضمنهم الجنرال شاؤول موفاز الذي عولج في المكان . في أوج الاشتباك دعا ياسر عرفات وزير الخارجية الأمريكي و الرئيس المصري إلى التدخّل من أجل وقف القتال ، لكن تبادل إطلاق النار خمد قبل أن

تتدخّل الجهات السياسية . كان ذلك اشتباكاً غير مألوف من حيث المدة الزمنية التي استغرقها ، و الوسائل القتالية التي استخدمت فيه و الضجة الدولية التي أثارها .
في نطاق الصراع ضد حماس كرّسنا و بذلنا جهوداً كبيرة بهدف سدّ منافذ تمويل المنظمة . و بمقدار ما اتسعت حماس ، و ازدادت نشاطات التجنيد و الدعاية التي تقوم بها ، بمقدار ما ازدادت الحاجة لمبالغ مالية أكبر لتغطية مصاريفها و إنفاقاتها . كان يجب دفع رواتب ، و تمويل عمليات و طباعة منشورات ، و سفريات و بنود صرف عديدة أخرى . الأموال جاءت من تبرّعات قدّمتها جهات و هيئات إسلامية متعاطفة في السعودية و الكويت و دول عربية أخرى . العلاقات التي أقامتها حماس مع الإخوان المسلمين و تنظيمات أصولية أخرى في مصر و الأردن و السعودية ، ساعدت هي الأخرى .
مبالغ مالية لا يستهان بها ، وصلت أيضاً من الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث نشطت حماس هناك منذ العام 1988 . النشاطات ركّزها وتولاها عربي يقيم في شيكاغو ، اسمه محمد صلاح ، و يدعى "أبو أحمد" ، في الأربعين من عمره ، مواليد مخيم قلنديا للاجئين . في كانون الثاني (يناير) 1993 ، بلغتنا معلومات من مصادر شغّلناها داخل حماس ، مفادها أن مواطنين أمريكيين من أصل عربي ، قد وصلا إلى البلاد كلاً على حده ، و ذلك حتى يعيدا بناء القاعدة التنظيمية و العسكرية للحركة ، التي كانت تلقّت ضربة قوية في أعقاب حملة الاعتقالات و الإبعاد التي طالت عدداً كبيراً من ناشطي التنظيم . أحد الرجلين كان محمد صلاح (أبو أحمد) و الثاني محمد جراد ، الملقب بـ "أبو أنس" ، و عمره 37 عاماً ، من مواليد "عين يبرود" قضاء رام الله ، و هو يقيم أيضاً في شيكاغو . بعيد وصولهما ، قاما بالاتصالات ، حسب توجيه قادة حماس في الولايات المتحدة و بريطانيا مع ناشطي التنظيم الذين بقوا طلقاء في المنطقة ، في رام الله و القدس و الخليل و قطاع غزة ، و حوّلوا لهم مئات آلاف الدولارات بما يمكّن من استمرار النشاطات (التخريبية) . كذلك كلّفا أيضاً بإقامة اتصال مع زعماء الحركة الإسلامية الناشطة بين عرب (إسرائيل) .. عثرنا عليهما في فندق الـ "Y.M.C.A" في القدس الشرقية ، و بعد مراقبة لصيقة اعتقلنا الرجلين في 25 كانون الثاني ، بعد خمسة عشر يوماً من قدومهما إلى (إسرائيل) . في أعقاب التحقيق معهما اعتقلنا نحو أربعين من ناشطي حماس . اكتشفنا أيضاً أن صلاح قام قبل سفره إلى (إسرائيل) ، بإعداد و تهيئة أربعة شبان عرب لتنفيذ اعتداءات في (إسرائيل) ، و أن هؤلاء خطّطوا للوصول في أعقابه بفترة وجيزة . إضافة لذلك ، فإن هذه لم تكن الزيارة الأولى التي يقوم بها صلاح للبلاد . فقبل حوالي نصف سنة من ذلك ، في أيار 1992 ، كان قد وصل إلى الخليل حتى يرسي قاعدة لإقامة خلايا تتبع "كتائب عز الدين القسام" في المنطقة .
اعتقال "أبو أحمد" و "أبو أنس" لم يؤدّ فقط إلى تشويش خطط القائمين على تشغيل الخلية الجديدة ، بل و كشف أيضاً الوسائل و الطرق التي استخدمت في نقل و تحويل الأموال . وجدنا أن مبالغ كبيرة بشكلٍ خاص ، خصّصت بالأساس لتمويل النشاطات العسكرية لحماس ، نقلت في الغالب عن طريق رسلٍ و موفدين . و في المقابل جرى استخدام وسيلة التحويلات البنكية على نطاق واسع ، من أجل تمويل النشاطات الاجتماعية و الخيرية للحركة .. و قد أودعت الأموال في بنوك عربية في الأردن و في دول مجاورة أخرى ، على اسم صرّافي عملة في القدس الشرقية . كان هؤلاء يسافرون إلى هناك ليأتوا بالأموال و يسلّموها لحماس ، مع خصم عمولة بنسبة عشرة في المائة . بهذه الطريقة تدفقت ملايين عديدة إلى صندوق حماس الذي أدير بشكلٍ مباشر على يد الشيخ ياسين في غزة و على يد الشيخ جميل حمامي في الضفة الغربية . كانت هذه طريقة مجرّبة ، استغلت على مدى سنوات طويلة على يدِ قسمٍ كبيرٍ من سكان المناطق الفلسطينية دون الاهتداء إلى وسيلة قانونية لسدّها و إقفالها .
خلال التحقيق مع الرجلين ، هاتفني رئيس الوزراء إسحاق رابين و طلب مني أن أقابل مراسلة صحافية من جريدة "نيويورك تايمز" تدعى جوديت ميلر ، لأعطيها تفاصيل يمكن نشرها عن مجرى التحقيق . و قد تمّ ذلك بعدما كنا قد نقلنا النتائج الأولية إلى أجهزة الاستخبارات الأمريكية التي تعاطت معها ، من جهتها ، بتشكّك و ارتياب . لبّيت طلب رئيس الحكومة ، حيث التقيت مع الصحافية في فندق "هيلتون" بتل أبيب ، و تحدّثت لها عن قاعدة حماس في الولايات المتحدة ، عن نشاطاتها الواسعة و المتشعبة هناك و عن طريق نقل الأموال إلى ناشطي الحركة في المناطق ..
المعطيات و الوقائع تركت انطباعاً لديها ، لكنها طلبت حتى تقتنع بصحتها ، السماح لها بحضور جانب من التحقيقات . خاطبت رئيس الحكومة في هذا الخصوص ، فأعطى ، على نحو غير مألوف على الإطلاق ، إذناً بذلك بشرط ألا تتكشف لأنظار المعتقلين الخاضعين للتحقيق . أخذتها إلى مركز التحقيقات في رام الله ، و سلّمت المحققين قائمة أسئلة أعدتها سلفاً ، حيث قام هؤلاء بطرح الأسئلة في حضورها ، من دون أن يتمكّن المحقق معهما ، بالطبع ، من رؤيتها . الإجابات جاءت مرضية بالنسبة إليها ، و التقرير الذي أرسلته في أعقابها إلى صحيفتها "نيويورك تايمز" نشر بشكلٍ بارز على الصفحة الأولى للصحيفة .

بعد انتهاء التحقيق توجّهت للولايات المتحدة لأطلع الشرطة الفيدرالية الـ "أف.بي.آي" على التفاصيل و الحيثيات المتعلقة بشأن قاعدة حماس هناك ، نشاطها و طرق الاتصال و نقل الأموال للمناطق الفلسطينية . المسؤولون الأمريكيون الذين تحادثت معهم تعاملوا مع تقاريري بقلة ثقة مؤدّبة ، بل و ألمحوا بصورة شفافة للغاية بأنني ، حسب رأيهم ، بالغت بدرجة غير قليلة . بقيت مصراً على رأيي ، و طلبت منهم تعميق و تشديد الرقابة على نشاطات حماس في بلادهم . بعد تحريّات مطولة ، مصحوبة بمناقشات حادة ، اقتنعوا في نهاية المطاف بصحة ادعاءاتي ، و تمّ بالفعل تشديد المراقبة . فضلاً عن ذلك ، فقد اعتمد في العام 1997 في الولايات المتحدة قانون يحدّ بدرجة كبيرة من إمكانيات نقل أموال إلى حماس و تنظيمات (إرهابية) أخرى . نتيجة لكلّ ذلك اعتقل هناك قبل حوالي السنة محمد صلاح ، الذي عاد إلى شيكاغو بعدما أمضى عقوبته بالسجن في (إسرائيل) واستأنف نشاطه في حماس . التعاطف الذي أثاره اعتقاله أفضى إلى نشر تقارير و مقالات عديدة في وسائل الإعلام الأمريكية حول أساليب العمل و نقل الأموال التي تتبعها الحركة .

لم تكن حماس في ذلك الوقت تملك هرماً تنظيمياً مشابهاً لذاك الذي كان قائماً في "فتح" و الجبهة الشعبية و الجبهة الديمقراطية .. و بمرور الوقت تبلور أسلوب عملٍ واضح : تنظيم النشاطات الاجتماعية و العسكرية ملقى على أكتاف ناشطين بارزين في الحركة ، مما عيّنهم الشيخ ياسين مباشرة . نشاط هؤلاء يتم بقدرٍ من الاستقلالية بوصية و توجيه من الشيخ ياسين ، من دون أن يكونوا مؤطّرين بإطار رسمي ، من قبيل لجنة تنفيذية . و هؤلاء هم الذين يحدّدون أهداف الهجمات ، و سلّم الأولويات ، و الغايات التي توجّه إليها التبرعات . و هناك ما يشبه قيادات محلية في دول أخرى ، و بضمنها الولايات المتحدة . و تستخدم هذه القيادات بصورة أساسية لنقل المعلومات و الأموال و في إدارة علاقات عامة ، و للتشاور و يشارك أعضاؤها أحياناً في بلورة السياسة العامة .

و تنشب بين حين و آخر صراعات على مراكز القوة و النفوذ و تنشأ انقسامات مؤقتة بين القيادات المختلفة و بينها و بين الزعامة في المناطق الفلسطينية . لكن تطوّرات من هذا النوع لا تنطوي على درجة تؤثر سلباً على نشاطات حماس في الميدان ، ذلك لأن القرارات المبدئية و التنفيذية ، تتخذ كما هو معروف على يد الزعيم المتنفذ و حفنة من كبار المسؤولين الموالين و المذعنين لزعامته و إمرته بلا منازع .

أحد الأهداف الرئيسية لحماس يتمثل ، كما هو معلوم ، في ضرب و تقويض عملية (السلام) . كبار الحركة يعتقدون أنه إذا صعّدوا وتيرة الهجمات ، فإن الرأي العام في (إسرائيل) سيضغط على الحكومة لوقف العمليّة . حماس في حدّ ذاتها لا ترغب بقيام دولة فلسطينية علمانية و ديمقراطية . فهي تتطلع إلى دولة إسلامية بكلّ ما تعنيه الكلمة .. لكن زعماء المنظمة يدركون أن الدخول في صراع مع السلطة الفلسطينية سيكون في هذه المرحلة خطوة خاطئة من ناحيتهم . بعد سلسلة الهجمات في العام 1996 ، و التي أفضت إلى وقوع صدامات بينهم و بين السلطة الفلسطينية ، أيقنوا أن السلطة قادرة على توجيه ضربة قوية للحركة ، و أن في متناول يدها أن تفعل ذلك على نحو مستمر و ممنهج . لذلك حرصت حماس على عدم تخطّي الخط الأحمر في علاقاتها مع السلطة ، و هي تواصل في الوقت ذاته توسيع قاعدتها و زيادة قوتها .

في الشارع العربي ثمة تأييد و تعاطف لا يستهان به مع حركة حماس . في نظر فلسطينيين كثيرين تبدو الحركة بوصفها الطرف الذي يتحمّل الآن وحدة عبء النضال ضد المحتل الصهيوني . كتائب عز الدين القسام ، الذراع العسكري لحركة حماس ، تشكّل مصدراً للإعجاب و الاعتزاز . حتى الأغلبية الصامتة مستعدة للاستجابة طوعاً و عن طيب خاطر لطلبات ناشطي الحركة بمدّ يد العون و المساعدة و التبرّع بالمال و تقديم خدمات شتى للخلايا المسلحة الموجودة في الميدان .

من المحتمل أن تفكير حماس في قابل الأيام بالتحوّل إلى حركة سياسية ، تتنافس على الزعامة داخل السلطة الفلسطينية أو على إقامة و تشكيل إطار بديل للسلطة . تطوّرٌ من هذا القبيل يمكن أن يحصل إذا ضعفت قدرة تأثير السلطة كنتيجة لخيبة أمل الفلسطينيين من إنجازاتها . حماس ، الذي تضم نواتها الصلبة بضعة آلاف الأعضاء ، قد تحشد في انتخابات تأييد عشرات الآلاف و ربما مئات الآلاف .

في حال نشأت ضرورة لحسمٍ سياسي مصيري ، تستطيع حماس جني فائدة قصوى من آلتها الضخمة في الجامعات و المساجد و في مراكز القوة الأخرى . لكن في الوقت الحالي المجابهة مع السلطة ليست سهلة ، ذلك لأن قسماً من الجمهور العربي (الفلسطيني) العلماني ، على الأقل ، يرى في نشاطات حماس الاجتماعية بمثابة إكراهٍ ديني ، بينما السلطة الفلسطينية أوجدت نوعاً من الانفتاح بعد عهد من التسمّم .. فعلى سبيل المثال تم بناء متنزه (كورنيش) على شاطيء غزة ، و فتحت مقاهي ، و عائلات تستحم في البحر من دون فصل بين الرجال و النساء .. لكن ، علاوة على كلّ هذه الأمور ، فإن حماس تتمتع بقدرة تنفيذية مثبتة . قدرة كهذه ، و إن بدرجة أقلّ بكثير ، تتمتع بها أيضاً حركة الجهاد الإسلامي .. هذين

التنظيمين ، قادران على أن يجنّدا بسرعة ، (انتحاريين) لتنفيذ هجمات عنيفة . و هما يستطيعان في الوقت الحالي العمل بسهولة أيضاً . فبسبب المماطلة و التسويف في عملية (السلام) و تجميد إنجازات السلطة الفلسطينية في المجال السياسي نتيجة لذلك ، فهي لا تقوم بالحدّ من خطى و نشاطات حماس .
و طالما ظلّت عملية (السلام) تعرج و تتعثّر ، فمن المحتمل أن يستمر الوضع الذي تمتنع فيه حماس عن القيام بهجمات ، و السلطة الفلسطينية عن التصدّي للحركة . عندما تتقدّم العملية ، ستتجدّد الهجمات بالتأكيد . لكن حينئذ ، هكذا يجب الافتراض ، ستكون للسلطة الفلسطينية مصلحة في ضرب و إضعاف حماس و منع نشاطاتها ، استمراراً مكمّلاً للنشاطات الشاملة لجهاز "الشاباك" و الجيش (الإسرائيلي) .

رسالة شكوى لرئيس الحكومة

كانون الأول 1990 – كانون الثاني 1991

منصب رئيس جهاز الأمن العام العالي لا يقف فقط عند تنصيبه حاكماً وحيداً يقف على رأس تنظيم معقّد و متشابك و إنما يحوّله أيضاً إلى متحمّل مباشر للمسؤوليّة عن كل ما يحدث فيه . "الشاباك" هو جسمٌ صغيرٌ نسبياً ، عاطفيٌّ بدرجةٍ كبيرةٍ يتوجّب عليه أن يكون على أهبة الإستعداد بلا كللٍ أو مللٍ و أن يبدي الحساسيّة كلَّ الوقت ، و يكفي أن يقدّم أحد عناصر "الشاباك" على خطوةٍ خاطئةٍ دون أن يكون ذو رتبةٍ عاليةٍ حتى لخلق تعقيدٍ سياسي حقيقي و أن يضع رئيس "الشاباك" على خطّ نار الانتقادات الأوّل .
هذا الأمر صحيحٌ بدرجةٍ مضاعفةٍ عندما يتعلّق بما يأمر رئيس "الشاباك" نفسه بالقيام به . كلُّ العيون بما فيها عيون أولئك الذين يغارون من نجاحه تتابع بلا كللٍ كلّ عملٍ من هذا القبيل و تحلّله إلى عناصر متفرّقة عندما يثور خوفٌ ما بأن شيئاً ما ليس كما يرام .
في السادس و العشرين من كانون الأول 1990 قُدِّمت للقائي الأسبوعي مع رئيس الحكومة إسحاق شامير . الأمر الأول الذي اصطادته عيناي مع دخولي إلى ديوانه كان ورقة رسائل صفراء وضعت في وسط مكتبه . هذا المنظر كان أمراً غير عادي لأن مكتب شامير الخشبي كان على الدوام فارغاً من الأوراق و الملفات . الأمر الثاني الذي أثار اهتمامي هو تعابير وجه رئيس الحكومة التي كانت متجهِّمة أكثر من العادة .
منذ قضية الخط 300 اعتاد رئيس الحكومة إجراء محادثاته مع رئيس جهاز الأمن العام بوجود شخصين – سكرتيره العسكري عزريئيل نافو و موظفة الاختزال المخضرمة للمسائل الأمنية الحسّاسة ميتكا يافا التي سجّلت و كتبت الأمور . في هذه المرة فاجأني جداً و هو يطلب منهما الخروج من الغرفة ، و عندما أصبحنا لوحدنا توجّه إليّ و قال :
"إسمع يا يعقوب ، لقد وصلتني رسالة من أوساطٍ مقرّبة منك . و هي رسالة ليست لطيفة حيث تتضمّن شكاوى ضدّك حول تصرّف غير لائق . في "الشاباك" يتحدّثون الآن عن هذه الأمور و يوجد لذلك تأثير غير بسيط على الناس" .
شامير صمت لبرهة من الزمن متفحّصاً وجهيَ المذهول ، و واصل "يدّعون أن لك أصدقاء عرب ، و أنك تتبع نهج حياة استخفافي لا يليق برئيس "الشاباك" و غير ذلك من الأمور" . أنا بدوري سألت شامير من الذي كتب الرسالة و ما هي الادّعاءات المطروحة بها بالضبط . شامير رفض ذِكر اسم الكاتب ، إلا أنه تطرّق للادعاءات التي كانت في أغلبيّتها تدور حول صغائر الأمور مثل نفقات ضيافة المكتب ، إعادة دهان سيارتي و غيره .
أنا أردُّ على الأمور المطروحة بالنفي – لست أعرف بالضبط من الذي كتب الرسالة و لكن لا شكّ لديّ بالنسبة لضلوع مراقب "الشاباك" حاييم حوفي الذي كان يحرّك على الأقل اثنين من رؤساء الفروع الذين يبغون بتر عنقي .
لتجسيد سخافة هذه الشكاوى سأذكر مثلاً تلك التي تعلّقت بدهان سيارتي . إيهود ياتوم ترأس في ذلك الحين فرع الإدارة الذي يتوجّب عليه أن يغيّر سيارة رئيس "الشاباك" مرةً كلّ عدة سنوات . عندما حان موعد استبدال سيارة البيجو (405) الخاصّة بي حصلت على سيارةٍ جديدةٍ مدهونةٍ بلونٍ بنفسجيٍّ مرعبٍ و فاقع . أنا بدوري طلبت أن يستبدلوها بسيارةٍ بيضاءَ لا تكون بارزةٍ إلى هذه الدّرجة على الأرض .

ياتوم أوضح لي أنه لا توجد في احتياطي الجهاز مثل هذه السيارة و اقترح عليّ دهنها باللون الأبيض . فقبلت اقتراحه ، و بذلك اتهمت بإهدار أموال الشعب .
عدت إثر تلك المقابلة مع رئيس الحكومة إلى مكتبي غاضباً ، و استعدت بيني و بين نفسي الشكاوى الشيطانيّة التي أوصلوها إلى أسماع رئيس الحكومة . متأملاً ما يحتاج للتفحّص و جالساً لكتابة كلّ ما دار بقلبي في حينه .
"منذ عُرضت أمامي سلسلة من الاتهامات التي تدور حول تصرّفات غير لائقةٍ" ، كما بدأت رسالتي "ترافقني مشاعرُ قاسيةٌ جداً من الإهانة و التحقير لأنني أجد نفسي مضطراً للانشغال – و مضطراً للتطرّق أيضاً – باتهاماتٍ فارغةٍ و فرية نكراء . ما يقلقني بشكلٍ خاص حقيقة وجود عاملين داخل الجهاز – الذي بذلت جهوداً كبيرةً لإعادة بنائه و بلورة شخصيته الداخلية و الخارجية و تطوير و رعاية قدراته الميدانية على وجه الخصوص – واضعاً نصب أعينهما و لأسباب أجهلها هدف تلطيخ سمعتي و تسويد وجهي بواسطة إلصاق التهم بي" .
"نسبوا لي علاقات غير معقولة مع العرب . عشرون سنة من سنّي خدمتي في داخل جهاز الأمن العام عملت في الوسط العربي . من بين آلاف أبناء الأقليات الذين كنت أفعلهم و الذين التقيت معهم و من بين عشرات آلاف العرب الذين عالجت شؤونهم بقيت لديّ علاقات ضعيفة مع ثلاثة أشخاص فقط و ليست لديّ علاقات قويةٍ مع أي واحدٍ منهم .
"في أحيانٍ متباعدةٍ يتصلون للاطمئنان على أحوالي و أحياناً يطلبون هذه المساعدة أو تلك كما جرت العادة في العالم العربي . كنت أساعدهم فقط إن كان الأمر متاحاً من الناحية القانونية و بشكلٍ يتوافق مع أنظمة الجهاز ، و لم أخدم أبداً أيّة مصلحة لهم" .
بعد أن قمت بالرّدّ على كلّ جملة من الادعاءات الموجّهة إليّ تطرقت بعدة كلمات لتهمة أتباعي "أسلوب حياة استخفافي لا يليق برئيس الشاباك" إذ أن هذه التهمة تبعث في نفسي شعوراً خاصاً بالسقم : "منذ عامين قمت بتقليص انشغالاتي الاجتماعية كلياً . من المسموح لي أن أقول إنني لم أعِشْ أبداً حياةً استخفافية رغم أنني لا أخجل من انفتاحي و من علاقاتي الاجتماعية المتنوعة" .
قمت باختتام رسالتي بلهجةٍ شخصيةٍ لا تخلو من الأسف : "كرئيسٍ للشاباك أقوم بما يتوجّب عليّ و أتحمّل المسؤولية الجسيمة التي ألقيت على كاهلي عن إيمانٍ و عقيدةٍ و نزاهةٍ من خلال التجربة المخلصة – التي أعطت مع كلّ التواضع ثمارها التي لا يستهان بها – لإنجاح القضايا الملقاة على كاهل الجهاز و العاملين فيه" .
"يؤسفني أن "الأوساط المقرّبة" التي تخضع لأمرتي تحاول إلحاق ضررٍ شخصيٍّ فادحٍ بي دون أساسٍ أو مبررٍ من خلال دوافعَ لا أفهمها ، و بهذه الصورة يُلحقون الضّرر "بالشاباك" و بالعاملين المخلصين فيه" .
شامير أخّر جوابه فترةً من الزمن للتشاور مع عددٍ من رجال القانون . ثم قام بدعوتي إليه أخيراً و قال لي إنه يصدّقني تماماً ، و لكن من الأفضل أن يتحدّث معي حول هذه القضية شخصٌ محايدٌ حتى يظهر الحق . بكلماتٍ أخرى حتى لا يظهر شخصٌ ما و يدعي أننا "أنهينا المسألة فيما بيننا نحن الإثنين".
شامير سألني عن رأيي في الالتقاء باللواء (إحتياط) رفائيل فاردي قائد منطقة يهودا و السامرة سابقاً . أنا أعرفه جيداً و أعرف أنه إنسانٌ نزيهٌ جدّاً و لذلك كان جوابي بالإيجاب . بعد عدة أيام دعاني فاردي إليه في مكتبه في مقر وزارة الدفاع في تل أبيب .
فاردي كان جالساً قبالته كومة ملفات ذات صلة بالادعاءات الموجّهة إليّ و بدأ يحقق معي بشكلٍ منظّم حول تسلسل الأمور في كلّ قضيةٍ يوماً بيومٍ و ساعة بساعةٍ .
و أخذ يطرح عليّ أسئلة كانت مثابة إهانةٍ : مثلاً لماذا اشتريت لرئيس جهاز الأمن البلجيكي هدية بقيمة 320 شيكل و لم أكتفِ بهديةٍ أرخص ثمناً ؟ ، و لماذا أرسلت زهوراً بمبلغ مائة شيكل لمراقبة الدولة و زهوراً بـ 120 شيكل للقاضي لنداو عندما حاز على جائزة (إسرائيل) ؟ . و لماذا توجّب إنفاق 1250 شيكل على الضّيافة في استقبال وفد السي.آي.إيه و ألف شيكل في استقبال مديرة بارزة في جهاز أمن أوروبي كانت في زيارة للبلاد ؟ .
عندها قرّرت : كفى إلى هنا . عدت إلى البيت غاضباً و أعلمت عيدنه أنني قرّرت الاستقالة ، فحاولت تهدئتي و دفعي للتراجع عن قراري . صديقي المحامي أوري سالونيم سعى هو أيضاً لإقناعي بأن لا أتخذ مثل هذه الخطوة الخطيرة و اقترح عليّ أن أتحدث مع رئيس الحكومة أولاً .
أنا بدوري التقيت مع شامير و أنا حانقٌ و محبطٌ و قلت له إنه لا توجد هنا تسمية أخرى لما ارتكب بحقّي إلا التنكيل الخالص و أنني لست على استعداد لتحمّل ذلك أكثر .
طريقة معالجة رئيس الحكومة للقضية أهانتني و لديَّ شعورٌ واضحٌ بأن الأمر لا يقلقه كما كنت قد توقعت . و لم يثِر انطباعي إدراكه بالضرر الكبير الذي ستلحقه الشكاوى الواهية ضدّي "بالشاباك" الذي عانى من

صدمات صعبة . إلى جانب ذلك لم ألمس عند رئيس الحكومة اكتراثه لإمكانية إلحاق الضرر بي أو بتشويه سمعتي و اسمي .
(في وقتٍ لاحق علمت بأمر ضلوع وزير العدل دان مريدور العميق في هذه القضية . و كان قد بادر في سياق ذلك إلى دعوة قاضي المحكمة العليا السابق موشيه لنداو للتداول بشأني مع رئيس الحكومة ، بل و نصح شامير باستبدالي) .
أنا قمت بطرح جملة الشكاوى الموجّهة ضدّي في جلسة قيادة "الشاباك" بشكلٍ واضح جداً ذلك لأن الأمر يتعلّق بأشخاصٍ و أنظمةٍ خاصةٍ بالجهاز . الأجواء كانت متعكّرة ، الأمر الذي زاد من مشاعري بالسقم و القرف .
عندما قدّم فاردي في آخر المطاف استنتاجاته لرئيس الحكومة أحجم هذا الأخير عن إطلاعي على الملف . و دعاني إليه ليقول لي و هو مبتهج القسمات : "يسعدني أن أزفّ إليك البشرى بأن كلّ شيءٍ على ما يرام" ، هذا كلّ شيء .
قضية التحقيق لم تختفِ عن أنظار وسائل الإعلام طبعاً . صحيفة "دافار" كتبت : "بأمر من شامير تم التحقيق مع رئيس "الشاباك" للاشتباه بارتكاب مخالفات سوء إدارة و نزاهة" . عدد "معاريف" الذي صدر في نفس اليوم أبرز العنوان : "فاردي أعطى انطباعه الإيجابي لشامير" .
قمت بمهاتفة والدتي و بدت غاضبة و شاعرة بالمرارة . "أترك الشاباك" قالت لي ، "قم و انصرف من هناك في أقرب وقتٍ ممكن . خسارة على صحتك".
ابنتي طال أيضاً ، ابنة العشرة أعوام ، استاءت بشكلٍ شخصيّ مما نشر . "لماذا يفعلون لك هذا ؟" سألتني بألم .. "لماذا يسيئون إليك ؟" . ابني أمير هاتفني و قال : "أنا أحبك يا أبي و كلنا معك" . الدعم الذي قدّمه لي أبناء عائلتي خفّف من وطأة الألم بعض الشيء .
في الغد جرت جلسة اعتيادية لقيادة "الشاباك" للتداول في سلسلة من القضايا الجارية . أنا بدأت الاجتماع بشكلٍ يتوافق مع جدول الأعمال و قلت : "أريد أن أوجّه عدة ملاحظات حول موجة النشر الإعلامي . أولئك الذين يوجَدون في داخلنا و الذين لم يشعروا بالرضى من نتائج الفحص الإيجابية – و أنا أقصد الأشخاص الموجودين في قيادة "الشاباك" – قرّروا الصعود لمرحلة أخرى غير نهائية على ما يبدو في مسعاهم القبيح و الزائف ضد الجهاز و ضدّي على وجه الخصوص . و قد قاموا أيضاً بتسريب قضية التحقيق للصحافة . حتى نشر هذا الأمر في وسائل الإعلام صمتٌ ليس من منطلق الضعف و إنما بدافع الرّغبة الصّادقة و الحقيقية للحفاظ على معنويات "الشاباك" و على قوته و إنجازاته المهنية بناءً على ذلك . في نظري ليس "الشاباك" في نظر من بادروا إلى عمليّة الفحص و النشر قيمة مقدّسة و هامة ، و رئيس "الشاباك" هو "الشاباك" نفسه يشكّل في نظرهم كيس ملاكمةٍ للكولسات و المؤامرات التي لم تنجح و لن تنجح . أريد أن أشجب بشدةٍ و أن أعبّر عن احتقاري الشديد لهذه الظاهرة الشائنة المخزية و أن أشجب المس "بالشاباك" عموماً و بشخصي على وجه الخصوص و كذلك استمرار عملية التسريب المبرمج الذي قد يمسّ بالجهاز في آخر المطاف و بالعاملين فيه و بأمن دولة (إسرائيل) . في الأيام القريبة القادمة سأدعو إلى عقد اجتماعٍ لحلقة رؤساء الأقسام و رؤساء الفروع و أُملي عليهم صيغة بياني الموجّه للجميع حتى آخر موظّف و موظفة . إنني أحظر على الأشخاص الجالسين هنا توضيح و إعطاء إجابات على أسئلة العاملين في هذه القضية . لست أنوي التصريح أو التطرّق لتفاصيل خطواتي هنا . ما أريد قوله فقط هو أنني سأواصل و بعزيمة أكبر قيادة "الشاباك" بنزاهةٍ و استقامةٍ و إخلاصٍ و بيدٍ قويةٍ و حازمةٍ" .
سألت الحضور إن كانوا يريدون طرح الأسئلة فلم يجب أحد . و خيّمت على الغرفة سحابة من الصمت العميق . من الصعب عليّ أن أتذكر جلسة طاقمٍ صعبةٍ و متوترةٍ مثلما حدث في هذه الجلسة . حينئذ قلت بجفاف : "لننتقل إلى جدول الأعمال" .
في ختام الجلسة طلب رئيس الفرع العربي نحمان قول عدة كلمات . نحمان هو ابن عائلة قديمة من بيتاح تكفا و يعتبر "شيخ الطاقم" و هو شخصٌ ضميريٌّ جداً و جذريّ و كان قد شغل مناصب مختلفةٍ في المجال العربي ، و كان مثابة حائط المبكى الثابت بالنسبة للكثيرين من زملائه . و كان من سوء حظّه أنه حلّ محل قائد لواء الجنوب الذي خرج في إجازةٍ إبّان حدوث قضية الباص رقم 300 ، و بذلك شمل اسمه بلا ذنبٍ اقترفه في قائمة طالبي العفو من رئيس الدولة .
نحمان قام بتسجيل كلّ ما مرّ عليه و على الجهاز منذ تلك الليلة الليلاء في دير البلح بنفسه و قال لنا في أكثر من مرة : "ذات يوم سأنشر هذه الأمور في كتابٍ و سأضمّنه كلّ ما أريد قوله حول الأشخاص في "الشاباك" ، عن أبروم الذي خيّب ظنّي و عن المستوى السّياسي و عن الوعود التي لم تتحقق . و سيكون اسم هذا الكتاب "أسف الصمت" .

نحمان نهض في تلك الجلسة و قال إنه لم يسمع أبداً مثل هذه الأقوال الصعبة من رئيس "الشاباك" عن أعضاء الهيئة القياديّة ، و أن ما قيل يستوجب الاستيضاح و الردّ . فالمسّ برئيس "الشاباك" هو مسٌّ بالجهاز نفسه حسب رأيه و اقترح بناءً على ذلك أن لا يردّ أعضاء القيادة على أقوالي بالصمت .
بالفعل جرى على الفور نقاشٌ قصير . كلّ المتحدثين طلبوا تقليص الأضرار التي لحقت بي و "بالشاباك" . رئيس قسم التحقيقات حاييم بن عامي يقول إن ولاء قيادة "الشاباك" قد تضرّر جداً في هذه القضية . و طالب بأن تقوم القيادة بنشر بيانٍ يعبّر عن الثقة بي . و بالفعل تم نشر هذا البيان و توزيعه فوراً في أوساط العاملين في "الشاباك" .
لم أحصل على تقرير فاردي من رئيس الحكومة ، و في وقتٍ لاحق و بعد أن تسلّم إسحاق رابين رئاسة الحكومة طلبت تسليمي التقرير لدراسته ، و وجّه رابين تعليمات لسكرتير الحكومة للاهتمام بذلك ، لكن بعد فترة ما ، قيل لي إنهم لم يعثروا على التقرير . كان عزريئيل نافو السكرتير العسكري لشامير ، ملحقاً عسكرياً في حينه ببريطانيا ، و قال في حديثٍ هاتفي إن هناك مجموعة من الأوراق محشوّة في زاويةِ الخزنة بغرفة السكرتير العسكري ، و عندما فتحت الخزنة بناءً على طلبي عثر فيها بين أوراقٍ قديمةٍ عديمة الجدوى على سبع صفحات كتبت بخطّ يد رفائيل فاردي . لم أعثر في التقرير على تأكيدات جازمة ، بل ظهرت هنا و هناك اتهامات مختلفة لم يكن فاردي قادراً على التأكيد بأن هناك أساساً من الصحة لها . و كتب فاردي "لم يتبيّن من التحقيق أي نتائج جنائية" .
كان هذا بنظري نهاية المطاف ، إذ طهّر التقرير اسمي من اتهامات الفساد و التجاوزات الإدارية الكبيرة . و بالطبع بالإمكان خوض جدالٍ حول صيغ مختلفة لفاردي ، إذ لم تكن بنظري جازمة بما هو كافٍ و بالإمكان الاختلاف معه حول تأكيداته المختلفة ، كما بالإمكان إيضاح أمورٍ متباينةٍ ، لكن الأهم بنظري كان و بالطبع عدم عثوره على أي ثغرة حقيقية بتصرفاتي ، و لعل أفضل دليلٍ على ذلك حقيقة إصرار إسحاق شامير و من بعده إسحاق رابين على استمراري بمهامي . لم يعقّب فاردي بصورةٍ علنيةٍ على تقريره . و فوجئت عندما توجّهت لرابين في مرحلةٍ لاحقةٍ مطالباً بالاستقالة من منصبي و الانتقال للحياة المدنية ، بأن فاردي هو نفسه الذي حضر إليّ و طالبني بالبقاء بمنصبي . لأنني و حسب أقواله أقوم بعملٍ جيّد كرئيسٍ "للشاباك".
و مع ذلك آلمتني حقيقة عدم إبداء الجميع استعداداً لتجاوز هذا الموضوع و استمر صحافيون معيّنون بالتمسك بالشكاوى . و رغم نتائج تقرير فاردي استمروا بتوجيه الاتهامات لي دون توفر أي إمكانية لديّ للدفاع عن نفسي . ألّف الموظفون في "الشاباك" قصيدةٍ في حفل الوداع الذي أقاموه على شرفي عشية استقالتي ما زلت أتذكّر الفقرة التالية منها :

"شاهدناك تتجوّل ليل نهار بيننا في الميدان
تسير في المقدّمة و تقودنا قدماً إلى الأمان
شاهدناك تتردّد بالحكم على النفوس
في لحظات العاصفة و في الأوقات العصيبة
شاهدناك تتخذ القرارات و تخاطر بنفسك
لكن لن تكتب الصحف عن ذلك البتة" .

ثقافة و تفكير إبداعي

رغم تردّي صورة "الشاباك" في أعقاب قضية الباص 300 اكتشفت لدى تسلّمي رئاسة الجهاز بأن عدد الذين يطالبون بالانضمام إلينا لم يتضاءل بل ظلّ كما كان . كان الطلب على الالتحاق "بالشاباك" كبيراً طوال السنين . ينجذب شبان كثيرون جداً للالتحاق بأحد أذرع المخابرات ، و توجّه عددٌ كبير منهم لي . لم تكن الظروف المادية هي التي تخفزهم على ذلك رغم أن الأجور في "الشاباك" أعلى منها في سلّم الوظائف الحكومية الموازي ، و رغم وجود امتيازات كثيرة ، منها السيارة و الإجازات الكثيرة جداً ، كما كان بإمكان العاملين في "الشاباك" الحصول على منح دراسية أكثر من تلك التي بالإمكان الحصول عليها في القطاع المدني . إذاً ما الذي كان يجتذبهم للخدمة ؟ أولاً و قبل كلّ شيء الهالة الكبيرة للعمل في "الشاباك" و الغموض الذي يكتنف العمل السري و الوصول إلى مجالات حساسة جداً . و كان هناك و بصورة دائمة من يتوجّهون للخدمة مثل هؤلاء الذين نصفهم بـ "مرضى المخابرات" و أقصد بذلك

الأشخاص الذين يحلمون منذ ولادتهم بالعمل الاستخباري ، و خيالهم يتجاوز حدود الواقع و هم قادرون على رواية قصص ملفقة و كأنها ذروة الحقيقة . و كنا في كلّ مرة نعثر فيها على شخصٍ كهذا أثناء عمليات التصنيف ، نرفضه على الفور .

يتوجّه شبان كثيرون إلى "الشاباك" من أجل عالم مغامراتهم ، و كان بعضهم قريبون من عمل "الشاباك" خلال خدمتهم العسكرية في المناطق ، و أعجبهم مثل هذا العمل ، كما كان هناك من يرون بالالتحاق "بالشاباك" مهمة وطنية ، باعتبارها المكان الصحيح للمساهمة بقدراتهم و بإمكانياتهم . ازداد عدد الذين يضعون القبعات الدينية المنسوجة الذين طالبوا الالتحاق بالخدمة مع اقتراب إنهائي لخدمتي . و بنظر "الشاباك" لا فرق بين موظّف يضع قبعة دينية و بين آخر لا يضع قبعة ، إذ إن الكفاءات هي التي تحسم ، و مع ذلك يوجّه سؤال للمرشّح الذي يضع قبعة دينية حول كيفية تصرّفه إذا أجبر على العمل أيام السبت ، لأن الجهاز يعمل دون توقف ، طوال أيام الأسبوع و أربعة و عشرين ساعة يومياً . كما يوجّه إليه سؤال حول آرائه الشخصية – مثل أيّ مرشح آخر – و ذلك فقط لهدف واحد : منع قبول متطرّفين مهما كان طابع تطرّفهم .

تستمر إجراءات التصنيف مدة طويلة ، تصل أحياناً لستة أشهر ، و في نهاية المطاف يتم استيعاب قلائل فقط . يقبل من حوالي مائة مرشح ثلاثة أو أربعة فقط . الطلب الأول من المرشّح هو المستوى الثقافي العالي ، و مرّت فترات كنا نحدّد فيها مستوى أكاديمياً لتجنيد مرشّحين لمهام محققين و جامعي معلومات ميدانيين ، لكن مع مرور الزمن توصّلنا إلى نتيجة مفادها أن الشهادة الأكاديمية لا تشكّل بالضرورة ضمانة للثقافة العالية و لهذا ألغينا هذا الشرط .

تجد الثقافة العالية تعبيرها بطابع عمل رجل المخابرات بظروف مختلفة – منها قدرته على القراءة بين السطور وعرض الأسئلة الصحيحة و تمييز الغثّ عن السمين و إيجاد حلولٍ لأوضاع غير متوقعة و عدم التعامل مع الأمور بسطحية . كما أن الذاكرة الجيدة تشكّل أحد المضامين الضرورية لموظّف الجهاز ، إذ لدى تلقيه تقريراً من عميلٍ في الميدان يجب أن تتوفر لديه القدرة على تذكّر التفاصيل الدقيقة للتقارير السابقة ، بهدف إجراء مقارنة و تحديد التناقضات أو عدم الدقة على الفور و مواجهة العميل بها . و يطلب منه نضجٌ نفسي و شخصية قوية ، متّزنة ، لاعفوية أكثر من اللازم . عرضت أكثر من مرة للمداولات مسألة إذا كنا نستوعب مرشّحين صغاراً بدرجة كافية . حاولنا تحديد سنّ الحد الأدنى الملائم ، لكننا لم نتمكّن من اتخاذ قرار ، و أكّدت تجاربنا بأن السن وحده غير كافٍ لتحديد مدى نضج المرشّح . التقيت خلال خدمتي في "الشاباك" شباناً في سنوات العشرين من أعمارهم ، لم تكن ملاءمتهم لمهامهم تقلّ عن زملائهم الأكبر سناً ، و لهذا فإن الطاقة الكامنة بالمرشّح هي و في نهاية المطاف العنصر الحاسم . جنّدنا في حالات كثيرة شباناً صغاراً ، و كان من الواضح لدينا مسبَقاً أنهم بحاجة إلى "فترة تسخين" تدوم عامين أو ثلاثة أعوام في مناصب بسيطة قبل أن يتمكّنوا من القيام بمهام أكثر حيوية .

تعتبر الاستقامة الشخصية و الأمانة العالية مضامين ذات أهميّة قصوى ، إذ تقلّص التخوّف من "تعديل" الموظّف لتقارير ناقصة تصل إليه أو تقاريره هو نفسه . و من الجدير بالذكر أنني واجهت حالات قليلة من هذا النوع طوال سنوات خدمتي . موظّف "الشاباك" الجيّد يختبَر بقدرته على الصمود في ظروف الضغط ، و على سبيل المثال بعد عملية و في ظلّ أجواءٍ عامة هستيرية و فقدان البصيرة . يجب على محقق "الشاباك" الحفاظ على برودة أعصابه و توجّهه لما هو جوهري و نبذه جميع ردود الفعل الانفعالية .

التفكير الإبداعي ثروة ثمينة جداً . عندما يقول عميلٌ إنه لا توجد في جعبته معلومات جديدة ، يجد جامع المعلومات الذي يتمتّع بهذه المضامين سبلاً لتشغيله بنجاعة أكبر بكثير ، و على سبيل المثال : يسألُه كيف يتوجّه إلى عمله و كيف يعود إلى منزله ، و لنفترض بأن العميل قال إنه يسافر إلى عمله و يعود منه إلى منزله بسيارة جاره ، جامع المعلومات المبدِع يطلب منه السفر في المستقبل بحافلات و التوجّه و هو عائد إلى منزله إلى المقهى الذي يغصّ بالناس و الاستماع للمعلومات التي يتمّ تبادلها في هذه الأماكن . مثال آخر : عميلٌ يرسَل لإجراء حديثٍ مع شخصٍ ما ، توجد لدى "الشاباك" قناعة بأن لديه معلومات هامة ، و إذا عاد العميل إلى مستخدمه و قال له إنه لم ينجح بإيجاد اتصال معه ، فإن المستخدم المبدِع لا يكتفي بهذا الرد ، و يسأل إذا كان للعميل و للذي لديه المعلومات أي اتصالٍ في هذا المجال أو ذاك – ربما تكون أراضيهم متجاورة و ربما يتوجّهان إلى عصر الزيتون في نفس المعصرة ، و قد تؤدّي ردود العميل إلى العثور على طرف خيطٍ جيّد ..

إحدى الأخطار التي تتربّص بجامع المعلومات الميداني تطلّعه الطبيعي للدفاع عن عملائه ، إذا اتضح بأن أجزاءً من تقاريرهم غير صحيحة أو كانت جميعها غير صحيحة . يجب الإدراك بأن كثرة اللقاءات تؤدّي أحياناً إلى وجود صداقة بينهما . تبدأ اللقاءات و في معظم الأحوال بنمطٍ شرقي بحديث ذو طابع شخصيّ – عن العائلة و عن الصحة و عن المعيشة – و هكذا يتعلّم الطرفان مع مرور الزمن معرفة كلّ منهما

للآخر . و إذا وجّهت لجامع المعلومات بشائر غير سارة تؤكّد خداع العميل "للشاباك" ، قد يشعر بأن من الطبيعي تستّره عليه ، لأن التسليم بالحقيقة العارية يعني الاعتراف بالفشل و الاعتراف أيضاً بأن جميع مظاهر الصداقة التي أبداها العميل لم تكن إلا خداعاً .

الأعضاء الميدانيون و كما أكّدت في فصولٍ سابقة هم مثابة "ذئاب وحيدون" و مع ذلك عليهم تطوير قدراتٍ على الاتصالات البشرية الجيّدة ، و العمل في إطار طواقم ، لأنهم يساعدون في حالات كثيرة بعضهم البعض كما يقيمون علاقات دائمة مع المستويات المشرفة على تقاريرهم . و إضافة إلى ذلك و بسبب البنية الداخلية المنغلقة "للشاباك" ، أدركت الأهمية القصوى لتنمية العلاقات الشخصية بين الموظّفين . تعتبر روحية العمل الجماعي و الإخلاص و المساعدة المتبادلة عناصر على درجة كبيرة من الأهمية ، في ظروف العمل الخاصة بالجهاز . اعتادوا في "الشاباك" و بهدف بلورة هذه القدرات و قدرات أخرى على عقد ورشات تقييم ، و يعمل طاقم خبراء في هذا الإطار من أجل تطوير العلاقات البشرية بين جامعي المعلومات الميدانيين و المحققين و تخفيض مستوى الاندفاع الطائش و رفع مستوى التسامح و تطوير قدرات الإقناع وإبراز القدرات الخاصة بالثقة بالنفس . رجل المخابرات الميداني الذي يطرأ تدنّي على ثقته بنفسه يفقد و لدرجة كبيرة قدراته القيادية ، و يتدنّى تقدير العميل له و سيجبر على بذل مجهودات كبيرة من أجل ارضائه ، بكل ما يحمله ذلك من معنى و ربما يمارس عليه العميل ضغوطاً من أجل تقديم امتيازات غير عادية له .

توجد مطالب أخرى من رجال العمليات ، ناجمة و بصورة طبيعية عن الطابع الخاص لعملهم ، منها القدرة على التأقلم أيضاً في محيطٍ غريب و القدرة الفنية المتطوّرة بهدف استخدام معدات متطوّرة و القدرة على تشخيص سهل لأهداف في الميدان ، و بعد نظر في إطار المخطّطات التنفيذية – و كل هذا مجرد قائمة جزئية فقط . تستوجب أعمالهم الاندماج في أحيانٍ متقاربة بالجمهور ، دون إثارة أي انتباه ، و بناء على ذلك فإن المظهر الخارجي غير المألوف يعتبر مرفوضاً ، و أقصد الأشخاص الطوال أو القصار جداً أو ذوو اللحى أو ذوو الشعر الطويل أو البيض أو السود جداً .

ازداد عدد النساء بصورة ملحوظة في الجهاز خلال العقدين الأخيرين ، و بالإمكان العثور اليوم على نساء و إن لم يكن كثيرات في قسم العمليات ، و يوجد لهن هناك دور فعال مثل زملائهن الرجال ، إذ يشاركهن بمهام مختلفة تلقى على كاهل "الشاباك" ، لكن مثلما هو متبع في الجيش و في الأذرع الأمنية الأخرى تقوم النساء بدورٍ ناجح جداً بالمهام الإدارية و المهنية ، التي لا تتطلب الخروج للميدان ، بعضهن مجنّدات في القوات الإلزامية يخدمن في ألوية الجهاز بالمناطق و يساهمن بالقيام بأعمالٍ هامة جداً في مواقع عملهن . و يطلب غير قليلٍ منهن الالتحاق "بالشاباك" كموظّفات رسميات بعد إنهائهن الخدمة الإلزامية .

كانت هناك أربع نساء يتسلّمن رئاسة وحدات في الجهاز لدى استقالتي ، و رفعت رتبة موظّفة قديمة قبيل إنهائي خدمتي لمنصب رئيس قسم ، و عضو في مجلس الجهاز و هي أعلى رتبة تصلها امرأة في "الشاباك" . و للأسف تسلّمت هذا المنصب فترة قصيرة فقط و استقالت لأسباب مهنيّة .

تشكّل التطلعات معياراً مرغوباً به لدى كلّ موظفٍ في "الشاباك" و خلال فترة خدمتي في مهام و مناصب مختلفة قابلت آلاف الموظفين و لمست لديهم بدون صعوبة تطلّعهم للتقدّم و لمواجهة المعضلات و الوصول إلى مناصب عالية ، و حقّق معظم هؤلاء أهدافهم ، أما الآخرون الذين لم تتوافق كفاءاتهم مع المناصب القيادية ، أو الإدارية ، لكنهم كشَفوا عن تصميم و إخلاص فقد انتقلوا إلى مساراتٍ أخرى . كان منهم من أحرز تقدّماً في مجالات عملهم ، و منهم من توجّهوا للقيام بمهام حراسة خارج البلاد ، و منهم من نقِلوا لاستكمال دراساتهم الأكاديمية بهدف تأهيلهم لعملٍ قيادي كفؤ .

يجب على كلّ موظّف في "الشاباك" ، و قبل كلّ شيء ، التميّز بطابع واحد : أن يكون صهيونياً . و بالتأكيد سيستغرب كثيرون و سيقولون ضيّقوا الأفق بأن الصهيونية مجرّد مفهوم عام ، "كلاشيه" عفا عليه الزمن . لم توضع الصهيونية في أيّ مرحلة من المراحل بين أقواس داخل الجهاز ، و ليس بالإمكان أن تكون صهيونياً إذا لم تتعامل مع الدولة كثروة شبه شخصية ، كنز حساس يجب الحفاظ عليه ، و منع أي ضررٍ قد يلحق به ، و بالفعل هذه هي مشاعر كلّ عاملٍ في "الشاباك" ، و ليس بالإمكان القيام بالمهام الملقاة على عاتق الجهاز إذا لم تتوفر هذه المشاعر لدى الموظف .

كان "الشاباك" و لدى تسلّمي رئاسته ما زال يعاني حتى أعماقه من قضية الباص رقم 300 ، و وعدت نفسي ببذل قصارى جهدي من أجل إخراجه من هذه الأزمة القاسية ، و أيقنت بأن أول ما يجب عليّ عمله هو القيام بخطوات ترفع من المعنويات المترديّة ، و تحسين الثقة القائمة بين الموظّفين و قادتهم و تحسين العلاقات مع الهيئة القضائية .

اتبعت و منذ اليوم الأول لتسلمي رئاسة الجهاز سياسة الباب المفتوح التي رافقتني طوال مهامي السابقة ، إذ كان يحق لكلّ موظّف التوجّه إليّ و بعلم المسؤول عنه لبحث قضية عاجلة . استأجرنا ملعباً في

قيساريا و عقدنا فيه و بعد توقفٍ دام سنين طويلة مؤتمراً قطرياً للجهاز حضره رؤساء الدولة ، و ساهم هذا الاحتفال الذي تكلّل بنجاح كبير بإعادة إحساس العاملين بالفخار ، و إلقاء النور على الإنجازات الكثيرة التي حققها طوال السنين الماضية ، مع التأكيد على العنصر البشري ، و وصلت الأمسية الحافلة لذروة الانفعال عندما صعد جميع أعضاء القيادة إلى المنصة و أنشدوا برفقة يهورام غادن على أنغام الفرقة الموسيقية العسكرية .

وضعت التطوّرات الخارجية عقبات غير قليلة أمام مهمة إصلاح الأوضاع الداخلية "للشاباك" ، إذ تصاعدت قوة حماس و الجهاد الإسلامي بسرعة كبيرة ، و طرأ تصعيد على العمليات و بدأ جواسيس بالوصول مع موجات الهجرة من الاتحاد السوفييتي ، و تطلّبت معالجة كلّ هذه القضايا تخصيص مصادر هائلة و استوجبت مشاركتي فيها دون توقفٍ معظم ساعات اليوم .

واجهت معضلة فورَ تسلّمي لهذا المنصب : هل يجب تعيين نائبٍ لرئيس الجهاز أم من الأفضل الانتظار لموعدٍ لاحق ؟ . لم يكن لديّ أدنى شكٍ بأن الشخص الصحيح في هذا المنصب يمكن أن يأخذ عني جزءاً كبيراً من الأعباء الثقيلة الملقاة على كاهلي ، لكنني تخوّفت من أن يؤدّي تعيينٌ كهذا في ظلّ الأوضاع الشائكة الحالية إلى إثارة عدم هدوء في الجهاز و إلى إفشال محاولات الإصلاح الداخلية الضرورية جداً ، و بعد تردّد غير بسيط أخذت بالخيار الثاني ، لكنني تأسّفت على ذلك فيما بعد ، إذ لم تساهم بتحسين الأجواء في الجهاز الضغوط التي مارسها كبار المسؤولين و الذين رأوا بأنفسهم مرشّحين طبيعيين لهذا المنصب و ما رافق ذلك من دسائس و مكائد وضعت عقبات أمام قيامي بمهامي بصورة صحيحة .

استوجب الحلّ أيضاً مشكلة الأشخاص الذي صدر عنهم عفو في قضية الباص رقم 300 و ظلّوا في الخدمة ، يشعرون بالاستياء و المرارة ، و أدركت بأنه سيكون من الصعب عليهم الانخراط بالحياة المدنية إذا أجبروا على الاستقالة من "الشاباك" قبل زوال أصداء هذه القضية ، و كشخصٍ ترعرع على قيم الصداقة و الوفاء ، اعتقدت بأن واجب "الشاباك" هو حماية العاملين المتضرّرين خلال عملهم في الجهاز سواء كانوا على حقّ أم لا ، طالما استمروا بالعمل في الجهاز . و قرّرت استمرارهم بالعمل في "الشاباك" و السماح لهم بالتقدّم في الخدمة . و هكذا تعاملت أيضاً مع عددٍ من العاملين القدماء الذين لم ينظروا بعين الرضا لتعييني رئيساً للجهاز و لم يتوانوا عن القيام بدسائس ضدي ، و ندمت أيضاً على هذا القرار في المستقبل ، إذ أذاقني هؤلاء و هؤلاء المرّ لفترة طويلة . كان أحدهم ، إيهود ياتوم ، رئيس قسم العمليات إبان أحداث قضية الباص رقم 300 ، و أصدر عفوٌ عنه بعد ذلك . كانت جرأته الكبيرة ميزته الكبرى ، و عندما تسلّمت رئاسة الجهاز كان يرأس قسم الإدارة ، و ازدادت حدّة العلاقة بيننا مع مرور السنين ، خصوصاً بعد رفضي طلبه تعيينه نائباً لرئيس الجهاز ، لأنني لم أجده مناسباً لهذا المنصب . اقترحت عليه الخروج للدراسة و الاستقالة بعد ذلك ، لكنه رفض بشدة ، أبقيته في الجهاز لكنّه ظلّ يكِنّ حقداً لي و ما زلت على قناعة حتى يومنا هذا بأنه لو وافق على اقتراحي لاندرج و بنجاح في شبكة التعليم المدنية مثلاً ، دون وقوعه بإحباطٍ و يأس و استياء ما زال يعاني منها حتى يومنا هذا .

ساعدني جداً بعرض اقتراحات جيّدة و بتفكيرٍ منطقي ، نحمان رئيس القسم العربي الذي تسلّم مع مرور السنين قيادة منطقة الجنوب و منصب ممثّل "الشاباك" في مباحثات واشنطن مع وفود الدول العربية و مع ممثلي الفلسطينيين ، إنه شخص طيب القلب و لطيف و معتدل و ذو تجربة غنية بالقطاع العربي و بالعمل الاستخباري ، و كان من بين الذين أصدر عنهم عفو في قضية الباص رقم 300 ، التي تسبّبت بمعانيات كثيرة له ، لكنه عرف كيف يتغلّب على كلّ ذلك و قبل في نهاية المطاف بالحكم الصادر ضده ، و شعرت بالأسف الشديد لعدم تمكّني و لأسباب مختلفة من تعيينه نائباً لرئيس "الشاباك" لفترة محدّدة و تعيينه بعد ذلك مراقباً داخلياً للجهاز .

أبديت اهتماماً كبيراً بتطوير شبكة التوجيه في الجهاز و بادرت بإقامة إطارٍ دراسيّ موازي كدورة قيادة أركان في الجيش (الإسرائيلي) . و ذلك بهدف تهيئة مرشّحين لمستويات قيادية رفيعة . سعينا بعد فترة غير طويلة من تسلّمي رئاسة الجهاز لإعداد الأسس لمشروع قانون "الشاباك" ، الذي كنت أشعر بحاجتنا له منذ فترة طويلة ، و استأجرنا خدمات القاضي السابق في المحكمة المركزية موشيه شلجي الذي عمل عدة سنوات من أجل إعداد المسوّدة . كنت أقصد تحديد إطار قانوني لعمل "الشاباك" ، كما هو موجود في جميع الدول الغربية و أيضاً شؤون وإجراءات الرقابة الحكومية و البرلمانية للجهاز ، و شاركت بحيوية في مداولات كثيرة سريعة لإعداد مشروع القانون ، و عندما وصل مرحلة صياغته النهائية ، بالتعاون مع وزارة العدل ، كنت تركت الخدمة ، لكنني تابعت عن كثب مسار الأمور و شعرت بالرضا التام عندما قدّم مشروع القانون النهائي للكنيست للمصادقة عليه .

هيئتان يجب أن تشرفا على تطبيق المراقبة هذه ، الأولى – اللجنة الوزارية المقلّصة لشؤون "الشاباك" التي تتركّز مهامها بمعالجة قضية التحقيقات ، أما الثانية فهي اللجنة البرلمانية الفرعية لشؤون الأجهزة السرية ، التي تراقب جميع عمل الجهاز . كان هدفنا إعداد إطارٍ قانوني و تنظيمي و أيضاً أعراف توفّر

للجهاز المرونة المطلوبة له في عمله العام ، و توفر له بالتدريج ضمانات للحفاظ على سلطة القانون و إيجاد كوابح ملائمة لكلّ ما له علاقة بحقوق الفرد . لا يعدّ القانون و كما نعتقد للمس بصلاحيات "الشاباك" الواردة في قوانين أخرى مثل قانون التنصّت السرّي و قانون الدفاع عن الخصوصيات و قانون ترتيبات الحكم الجنائي و ما شابه ، استهدف القانون إعداد إطارٍ تشريعي لسلسلة قضايا هامة جوهرها ارتباط الجهاز بالحكومة و بالوزير المسؤول عنه (أي رئيس الحكومة) و بأهداف الجهاز و صلاحياته . حدّدت و للمرة الأولى في مشروع القانون مجالات صلاحيات "الشاباك" و مهامه و مهام رئيس الجهاز بما في ذلك سبل تعيينه و واجب تقديمه تقارير و فترة خدمته و ارتباطه بالأوساط الحكومية و البرلمانية ، و طالب الجهاز تضمين القانون الأسس القضائية للتحقيقات في نشاطات (إرهابية) معادية . عارضت وزارة العدل ذلك و حدّدت فقط إطاراً عاماً – لجنة وزارية – لشؤون التحقيقات تبلور أعرافاً و تراقبها .

وجدت في إسحاق شامير رئيس الحكومة شريكاً متفهّماً لعملنا ، لا سيما و أن ماضيه في الموساد وفر له خلفية استخبارية غير قليلة . كان يكِنّ احتراماً كبيراً لعملنا و أبدى حيالنا إحساساً بالحبّ و الواجب ، لم تكن تتوافق و شخصيته الصلبة و السرية ، و لهذا السبب بالذات شعرت بإساءة كبيرة جراء طابع معالجته لتقرير فاردي ، و أستطيع القول من خلال نظرة للوراء إن تصرّفاته في هذه القضية كانت و بالتأكيد شاذة .

لم يتنازل شامير عن لقاءاتنا الأسبوعية و لا حتى في ذروة الأزمات الحكومية و الحزبية ، و كنت أقدّم له في هذه اللقاءات التي كنا نعقدها في مكتبه تقارير عن نشاطاتنا و أطلب موافقته على عمليات مختلفة . اعتاد على الارتكاز للخلف و إغلاق عيونه و كأنه يغطّ في نومٍ عميق و ذلك في الوقت الذي كنت أتحدّث فيه ، كنت أتجاهل ذلك و أستمر في عرض أقوالي حتى اللحظة التي أشعر فيها بأنه لم يعد يستمع لي ، لكن كان يتضح لي دائماً خطأ تقديراتي ، و عندما كنت أصمت كان يردّ بتحريك يده ، دون أن يفتح عيونه ، مشيراً إليّ باستمرار الحديث ، و كان يبدي دراية بالمواضيع التي تناولناها و يعرض أسئلة كثيرة و يعلّق على كلّ طلبٍ أعرضه ، و كان يتوقع مني فهم ما يقصده بالضبط من حركة رأسه أو من نصف عبارة يقولها . و كنت أفكّر مطوّلاً خلال عودتي إلى تل أبيب بعد عقدي لقاءاً معه محاولاً تفسير حركات يديه و أنصاف الجمل التي استهدفت التعبير عما يقصده .

كان مكتبه خالياً دائماً من الوثائق ، إذ اعتاد قراءتها في البيت ، و الغرق في كومة من التقارير و المذكرات ، و لم أشاهده بتاتاً يسجّل لقاءاته و ملاحظاته في دفتر يوميّات أو في دفتر صغير ، و كان لديه أسلوب آخر ، ربما اكتسبه من خلال فترات عمله السري . كانت في جيبه دائماً ورقة صغيرة ، يخرجها من حين لآخر بهدف تسجيل شيء ما أو لتذكيره بقضية ما . كان يسحب الورقة المطلوبة لدى لقائي الأسبوعي معه و بعد أن يفتحها كان يمرّ بأصبعه على الأسماء المسجّلة حتى يصل اسمي و يقرأ منها السؤال الذي يريد عرضه عليّ و يشطب المكتوب و يعيد الورقة إلى جيبه .

لم يبدِ شامير مثل بيرس اهتماماً بالحياة الشخصية لمحدّثه ، و عندما حدّثته عن الأزمة في حياتي الزوجية هزّ كتفيه دون أن ينبس ببنت شفة ، أيقنت بأن القصة لا تثير أي اهتمامٍ لديه ، لكن عندما كان يريد كان يترك انطباعاً بأنه إنسان حسّاس جداً ، و عندما قتِلَ اثنان من جامعي المعلومات في لواء القدس على أيدي عملاء استخدموهم ، دعوته للحديث مع رجال "الشاباك" بالقدس ، و أبدى في ذاك اللقاء مشاعر ودودة و شدّ من عضدهم . أحببته كثيراً و أعتقد بأنه يحتفظ لي بزاوية وديّة في نفسه .

أربعة من أبناء العائلات

توصّلت منذ بداية تسلّمي لرئاسة "الشاباك" لنتيجة مفادها ضرورة عملي من أجل الانفتاح أمام وسائل الإعلام أكثر من رؤساء "الشاباك" السابقين ، و كنت على قناعة بأن هذا سيساعد الجهاز بالتحرّر من تهديدات الصحافيين الذين و جرّاء انعدام قدرتهم على الوصول للحقائق يكتبون عنا ما يريدونه ، و أيقنت أن الكتابة هذه التي تنعدِم المسؤولية فيها تلحق أضراراً بالمعنويات المتردية أصلاً "للشاباك" ، الأمر الذي يؤدّي إلى المس بقدرته التنفيذية . كانت قضية العلاقة بين "الشاباك" و الصحف تقلق راحتي حتى قبل تعييني رئيساً للجهاز ، و أدركت بأننا نمرّ في مرحلة أخرى مختلفة منفتحة و أكثر قابلية للانتقادات . فكّرت في هذه المرحلة بتعيين ناطق بلسان "الشاباك" ، لكنني أيقنت أن لا مجال لهذا المنصب و لا مجال لوجود ناطقٍ يردّ و في معظم الأحوال بصيغة "لا تعقيب" أو "لا أستطيع الإدلاء بتفاصيل في هذه المرحلة"

. أدركت بأن ردوداً كهذه ستضاعف حدة خلافاتنا مع وسائل الإعلام و ستفتح مجالاً رحباً أمام تفسيراتٍ غير دقيقة ، و مع ذلك كانت هناك أهمية خاصة لفتح نافذة حوار مع وسائل الإعلام في القضايا التي بالإمكان تقديم تفاصيل عنها ، و لهذا السبب بالذات أنا فقط الذي أجريت الاتصال ، و كان بصورة عامة بمبادرتي ، مع الصحافيين لإعطائهم معلومات عامة .

أثبتت قضية "ديرخ هنتسوتس" التي رافقتني مع خطواتي الأولى كرئيس "للشاباك" مدى أهمية إيجاد "الشاباك" قناة حوار مع وسائل الإعلام . وقفت في بؤرة هذه القضية مجموعة من منظمة يسارية متطرّفة ، بعضهم مقرّب من "متسبين" – و هم عبارة عن مجموعة منغلقة على ذاتها تعمل بأقصى حذرٍ و تشكّ بكل من يريد الانضمام إليها .

كان في هذه المجموعة أربعة أعضاء بارزين و جميعهم بالثلاثينات من أعمارهم : آساف أديب من كيبوتس غان شموئيل ، و أخوه إيهود أديب الذي أدين في حينه بتجاوزات أمنية خطيرة ، و روني بن أفرات أم للاثنين ، و هي مدرّسة أبعدت عن المدرسة بعد قولها للطلاب إن الصهيونية سلبت العرب حقوقهم ، و يعقوب بن أفرات ، زوجها المنفصل عنها و والد أبنائها و هو خريج كليّة المعلّمين في سديه بوكر و قسم التاريخ في الجامعة العبرية بالقدس ، و ميخال شفارتس و هي أرملة و أم لطفلين و ابنة المؤرّخ المعروف البروفيسور يهوشع آريئيلي .

توجّه الأربعة عام 1984 إلى لندن بهدف الاتصال مع "الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" برئاسة نايف حواتمة . و تعتبر هذه المنظمة التي تتخذ سوريا مقراً لها من منظمات الرفض المتطرّفة و أعضاؤها هم الذين قاموا بعملية قتل الطلاب في معلوت عام 1974 . التقوا صالح رأفت رئيس جهاز العمليات في "الجبهة الديمقراطية" و انضموا للمنظمة و حصلوا على ألقابٍ سرية ، حيث أطلق على آساف أديب اسم "ناصر" و على يعقوب أفرات "مجد" و على روني بن أفرات "ماجد" و على ميخال شفارتس "سالم" . و اتفق معهم على إصدار صحيفة بتمويل "الجبهة" و على تشكيل منظمة سياسية يهودية – عربية . عاد الأربعة إلى البلاد و شكّلوا رابطة أطلق عليها اسم "دار نشر – هنيتسوتس" و بدأوا بترويج مجلة باللغتين العربية و العبرية في أوساط اليهود و العرب اسمها "ديرخ هنيتسوتس" . استخدم اسم "هنيتسوتس" للتذكير بصحيفة "إيسكره" (الشرارة) التي أصدرها فلاديمير لينين ، بطل أحلامهم في مطلع القرن الجاري و كان التمويل و التعليمات تصل من الخارج بواسطة مراسلين ، و حسب أقوالهم تمكّنوا من تجنيد 1500 اشتراك للنشرة باللغة العربية و 250 اشتراك للنشرة باللغة العبرية .

تراكمت المعلومات عن العلاقة التي أقامها الأربعة مع "الجبهة الديمقراطية" ببطء و ذلك بسبب الصعوبات بالحصول على معلومات موثوقة من داخل المجموعة ، و أجبرنا على الانتظار أربعة أعوام كاملة حتى توفّرت لنا مواد كافية لبدء العمل . كانت الخطوة الاولى إدارية ، إذ أصدر إلياهو سويسا (وزير الداخلية فيما بعد) قراراً بناء على صلاحياته كمتصرّف لواء بإلغاء ترخيص إصدار الصحيفة ، و بدأت بعد ذلك الاعتقالات إذ كان أول المعتقلين صحافيّ عربي من طاقم "ديرخ هنيتسوتس" ، و حاول محرّرو الصحيفة التلاعب و أصدروا العدد التالي تحت عنوان "رغم ذلك" لأن الإصدار لمرة واحدة لا يتوجّب الحصول على ترخيص ، و بدأت تظهر و بصورة موازية ، كتيّبات مختلفة و منشورات تدعو لانتفاضة عربية و لدعمٍ يهودي لهذا النضال .

و اعتقلنا في هذه المرحلة المحرّرين اليهود لـ "ديرخ هنيتسوتس" و النشرات المعادية الأخرى ، و سارعت المحامية فيليتسيا لانغر للاحتجاج من خلال رسالة بعثتها إلى رئيس الحكومة حول استخدام "الشاباك" أساليب غير مقبولة بالتحقيق مع المعتقلين ، و ذكرت على سبيل المثال أن محققي "الشاباك" عرضوا معتقلاً عربياً أمامهم و هدّدوا بتعذيبه و إهانته إذا لم يعترف بالتهم المنسوبة إليه .

نشرت الصحف فور تقديم لوائح اتهام ضد الأربعة ، بإسهاب ، ادعاءاتهم حول التعذيب الجسدي و النفسي و الإهانات الجنسيّة ، و أدّت هذه الادعاءات المرفوضة من أساسها إلى وجود موجة من رسائل القراء و المقالات التي تستنكر تصرّفات "الشاباك" . و بالغ بذلك البروفيسور المؤرّخ يهودا باوار الذي تساءل في مقالٍ غاضب عن كيفية تمكّن رجال "الشاباك" من النوم بهدوء في ساعات الليل بعد كلّ ما يفعلوه في غرف التحقيق المظلمة . و ردّ عليه بنحاس لهب مدير عام بلدية تل أبيب و الناطق السابق بلسان الجيش بمقالٍ جوابي كتب فيه بأن رجال "الشاباك" لا ينامون فعلاً ساعات الليل ، لكن ليس لأن ضمائرهم غير مرتاحة ، بل لأنهم يكونون في ذلك الوقت يحرسون مواطني (إسرائيل) و يمكّنوهم من النوم بهدوء .

و بالمناسبة ، كنت أقطن في تلك الفترة في منزلٍ بالقدس في مبنى البروفيسور يهوشع أريالي والد ميخال شفارتس إحدى المعتقلين الأربعة ، و كنا نلتقي أحياناً في المصعد و نتبادل كلمات مجاملة ، و هو مثل باقي سكان المبنى لم يعرف ما الذي كنت أعمله . و كنت أقول في الحالات التي أسأل فيها عن عملي بأنني موظّف حكومي ، و قدّمت نفسي عدة مرات كأكاديمي ، و كانت ردودي القصيرة تحول في معظم الأحيان دون توجيه أسئلة أخرى لي .

قرّرت المحكمة بتاريخ 13 حزيران 1988 إطلاق سراح ثلاثة من الأربعة بكفالة لقناعتها بأن الاعترافات أخذت منهم بأساليب غير قانونية ، و استأنف ممثل الادعاء على الفور إلى المحكمة العليا و قبل القاضي البروفيسور أهارون براك الاستئناف و أكّد : "... في المكان الذي توجد فيه أداة الاعتقال لحين استكمال الإجراءات القضائية ضد المفسِدين للدولة و روحيتها ، من الجدير أيضاً استخدام هذه الأداة ضد هؤلاء الذين يشاركون باقتلاع الجسم و النفس معاً" .

أعيد الثلاثة إلى السجن و بدأوا إضراباً عن الطعام ، و نشر بروفيسورات من جامعة تل أبيب استبياناً للرأي ضد قرار القاضي براك ، و نشرت الصحف تقارير عن سير حياة المعتقلين ظهروا فيه كمثقفين من عائلات جيدة ، و أعرب الكتاب عن استغرابهم الاعتقال و التحقيق و ألصقوا "بالشاباك" وصف "المنتقم" ، و قدّمت المحامية فيليتسيا لانغر احتجاجات دون توقف على "المحاولات التي تستهدف التحطيم الجسدي و المعنوي للمعتقلين بهدف ايصالهم للمحاكمة مجرد ركام" .

ازدادت الضجة الإعلامية من يومٍ إلى آخر و شدّ رجال "الشاباك" ، الذين يمنع عنهم إظهار أنفسهم و الكشف عن الحقائق كما هي ، على نواجذهم جراء غضبهم و عجزهم . اعتقدت بأن هذا هو التوقيت الملائم لتنفيذ قراري ، الحديث مع وسائل الإعلام في الحالات التي تبدو لي ضرورية . توجّهت إلى إسحاق شامير رئيس الحكومة و اقترحت عليه الظهور أمام لجنة محرّري الصحف الموسّعة التي تتضمّن رؤساء التحرير و المحرّرين و رواية جميع الحقيقة عليهم ، و أوضحت له بأن وسائل الإعلام لا تدرك مدى خطورة المواد الاستخبارية ، الموجودة بأيدينا ، كما لا توجد لديها فكرة واضحة عن ماهية التحقيق .

وافق شامير دون تردّد و سارعت بعقد اجتماع للجنة المحرّرين و عرضت خلال ساعتين في هذا المجلس المغلق القضية بكاملها و أكّدت مدى الخطورة التي ينظر بها "الشاباك" لحقيقة عمل شبان (إسرائيليين) من عائلات جيّدة ذات جذور و بمبادرتهم الخاصة في صفوف إحدى منظمات (التخريب) الأكثر وحشية ، و التي وضعت نصب أعينها هدفاً يتلخّص بضرب و تدمير دولة (إسرائيل) ، و لم أحاول إضفاء مسحة جمالية على الحقائق و قلت : "صحيح أننا و في حالات معيّنة منعناهم من النوم و صحيح أننا وضعناهم في غرفٍ معزولة ، و هذا ليس ساراً ، و صحيح أنهم واجهوا محققين يعرفون أكثر بكثير مما يعتقد المعتقلون ، لكن في نهاية المطاف هذه مجموعة فوضوية ، أعمالها جديرة بالاستنكار .

"هذه الزمرة استغلتكم كما استغلت براءتكم و انعدام درايتكم بتفاصيل القضية ، لقد كان هذا استغلالاً متطرّفاً و محنّكاً . لقد وقعت الصحف في هذا الفخ" .

عرض الصحافيون أسئلة و أجبت عليها جميعها بصراحة ، و أوضحت مسبقاً بأن هذا سيكون اجتماعاً مغلقاً من المحظور نشر أي شيء يقال فيه و لا حتى نشر معلومات عن عقد اللقاء ، اعتمدت على الحاضرين و سمحت لنفسي بحرية حديثٍ كاملة ، و بالفعل لم يتم تسريب أي شيء . و شعرت بالسرور لإثبات هذا الأسلوب جدارته . هدأت عاصفة الصحافة دفعة واحدة ، و فقط صحيفة "هعولام هزيه" التي لم يكن أوري أفنيري رئيس تحريرها عضواً في لجنة رؤساء التحرير ، استمرت بأطروحاتها . و كتب أفنيري في افتتاحية الصحيفة أن "الشاباك" قام برشوة ، من الناحية العمليّة لرؤساء التحرير حيث زوّدهم بمعلومات لم يكونوا يعرفوها . و كان هذا بنظره خنوعاً للصحف الحرّة "للشاباك" .

قال محامو المتّهمين في المداولات القضائية التي أجريت بعد فترة وجيزة من ذلك إن علاقة موكّليهم مع "الجبهة الديمقراطية" كانت مع الذراع السياسي – الإعلامي للمنظمة لا مع ذراعها العسكري ، و أن أهداف المتّهمين لم تكن تصفية دولة (إسرائيل) ، بل استبدال السلطة القائمة فيها بسلطة أكثر مساواة ذات طابع ماركسيّ . شطب بند الاتصال مع عميلٍ أجنبي من لائحة الاتهام في إطار الصفقة مع الادعاء العام ، و اعترف المتّهمون بجميع التهم الأخرى الموجّهة إليهم ، بما في ذلك العضوية في منظمة معادية ، و أصدرت المحكمة المركزية بالقدس بتاريخ 25 كانون الثاني عام 1989 أحكاماً على المتّهمين : الحكم بالسجن لفترات تتراوح بين ثلاثة أشهر و تسعة أشهر .

تلخّصت إنجازات "الشاباك" في قضية "ديرخ هنتيسوتس" بتمكّنه من تصفية المجموعة التي كان من الممكن تفشيها و إلحاقها أضراراً حقيقية بالدولة ، و إضافة إلى ذلك أثبتت القضية مدى أهميّة فتح قناة حوارٍ مع وسائل الإعلام .

و حقّقنا في نفس الفترة إنجازاً آخر ، و رغم كونه بسيطاً ، إلا أنه ذو مغزى كبير من ناحية رفع المعنويات : تمكّنا من إقناع الناطقين بلسان الهيئة الأمنية بتجاوز نهجهم و عوضاً عن الإعلان عن تنفيذ عملية ناجحة قمنا بها بأنها عملية قامت بها "أذرع الأمن" ، التأكيد بوضوح : "المخابرات العامة كشفت النقاب أو اعتقلت أو منعت أو أفشلت..." . و منذ ذلك الحين فصاعداً أصبحت تنشر عن "الشاباك" بيانات يستحقّها و أصبح رجاله يشعرون بالفخار جراء ذلك .

كان كشف الجهاز أمام وسائل الإعلام و في حالات معينة مسألة حتمية ، لكن اتضح بسرعة كبيرة بأنه عندما تفتّح الباب فإن العاصفة التي تدخل منه تجعل من الصعب إغلاقه و مع مرور الزمن ازداد جشع وسائل الإعلام في تناول قضايا "الشاباك" . كان هذا من الناحية الصحافية موضوعاً ممتعاً يكتنفه الغموض و مادة رائعة للقراءة ، و بسرعة أصبحت أتذكر بحنين الأيام التي كان "الشاباك" يحصل فيها على تغطية إعلامية متوازنة و جوهرية ، بعد أن كان رؤساء التحرير يحصلون مني على الإيضاحات المطلوبة . أصبحت وسائل الإعلام تتناول "الشاباك" بتوسّع حتى عندما كانت المواضيع هامشية تماماً . لم تصبح فقط حياتي الشخصية بؤرة تغطية إعلامية مكثّفة ، بل و شمل ذلك حياة مسؤولين كبار آخرين في "الشاباك" . وأعتقد بأن القضية التالية توضّح أكثر من كلّ شيء آخر ما حدث في هذا المجال ، إنها قصة حب و كراهية و مشاعر صاخبة ، ضخّمتها وسائل الإعلام بصورة تتجاوز كافة التوقعات :

اشتكت لي الصحافية كرميله منشه في أحد الأيام من إزعاج (أ) رئيس مكتبي لها هاتفياً و تهديده إياها . و علِمت أن رفيقة حياة رئيس المكتب تطلّقت قبل فترة من صديق كرميله منشه و أنه يوجد بين الزوجين السابقين مشاكل بخصوص قضية أطفالهما . كانت هذه قضية شخصية محضة ، لكن ادعت كرميله بأن القضية تدنيس لحرمة وظيفته ، و ذلك لأن رئيس المكتب استخدم الهاتف الحكومي في سيارته التي – و مثل الهاتف – هي ملكٌ "للشاباك" . كما قدّمت شكاوى أيضاً أمام مراقب الجهاز و قالت له إن رئيس المكتب هو الذي وافق على عمل رفيقة حياته في الجهاز . و لم يقفْ الأمر عند هذا الحد ، بل كانت لديها شكويين أخريين : الأولى ، أدلى رئيس مكتبي في حديثٍ له مع ضابطة عسكرية بمعلومات سرية . و الثانية ، شوهد رئيس المكتب يتجوّل في كوخاف يئير بسيارة مخابرات عليها ضوء أزرق متذبذب الأمر الذي يتبع فقط في حالة الطوارىء . و كانت رواية رئيس المكتب مختلفة .

تناولت وسائل الإعلام هذه القضية في البداية ، بصورة مختصرة ، لكن بعد مرور فترة أصبحت القضية تتضخّم و تمخض الفأر فولد جبلاً ، و أجبر إسحاق رابين رئيس الحكومة على التدخل و قبل بنصيحتي و وجّه تعليمات بنقل التحقيق في القضية من مراقب الجهاز لمحقق خارجي ، و كلّف يهوشع كاسبي رئيس قسم التحقيقات في القيادة العامة للشرطة بهذه المهمة . و اتضح في النهاية بأن المسألة مجرّد زوبعةٍ في فنجان . لكن لم يعد هناك مناصاً من التعامل الجاد مع جميع نتائج تقرير كاسبي مهما كانت هامشية ، و ذلك من أجل توقف وسائل الإعلام لحملتها الشعواء ضدنا ، نقل رئيس المكتب لمنصب آخر يتوافق و رتبته في مجال الحراسة ، و تسلّم رتبة أعلى في فترة لاحقة إذ أصبح رئيس اللواء اليهودي و قام بعملٍ ممتاز . أما اليوم فهو في إجازة دراسية .

فكّرت و لفترة طويلة أنه من الجدير رفع السرية عن اسم رئيس "الشاباك" ، و توصّلت إلى نتيجة بأن الكشف عن اسمه سيكون مجدياً للجهاز لأنه سيتمكّن من الردّ المناسب على معلومات كثيرة تنشر ، كما من المهم أيضاً تقديمه من حين إلى آخر تقارير علنية عن إنجازات "الشاباك" و مشاركة الجمهور في مشاكل معينة يواجهها الجهاز ، هذا إضافة إلى أن رئيس "الشاباك" لا يكون طوال الوقت في مكتبه ، إذ يكثر من التجوّل الميداني و يسافر لعقد لقاءات في الخارج و يمكن نشر اسمه في كلّ مكان باستثناء (إسرائيل) ، كما ترمز وسائل الإعلام المحلية لاسمه بكافة الفرص المتاحة لها ، و تحتفل في كلّ مرة تتجاوز فيها أساليبها الالتوائية حواجز الرقابة العسكرية ، و على سبيل المثال كتبت إحدى الصحف : "مي يعقوب أحري بيري ؟" (تعني الجملة من يتابع الفاكهة – لكنها تحمل اسم رئيس "الشاباك" يعقوب بيري – المترجم) . و ابتدعت وسائل الإعلام روايات عن وضع رئيس "الشاباك" "أساور من نوع غوتشي" .

اعتقدت بأنه من الجدير وضع حدّ لكلّ ذلك ، و أن يعرف الجميع اسم رئيس "الشاباك" ، لا سيما و أن هذا متّبع في جميع الدول الغربية ، و حاولت إقناع ذوي العلاقة بالأمر بأن لا سبب يحول دون نشر اسم رئيس الجهاز ، و رغم ذلك وجدت نفسي في نهاية المطاف أعارض الكشف عن اسم رئيس "الشاباك" .

حدث ذلك بتاريخ 22 آذار عام 1994 ، حيث ذكر الحاخام عوزي مشولم في مقابلة تبثّ على الهواء اسمي ، تم وقف بثّ المقابلة على الفور ، لكن أذيع الاسم ، توجّه عضو الكنيست مودي زندبرغ بسرعة إلى إسحاق رابين رئيس الحكومة مطالباً بنشر اسمي رئيس "الشاباك" و رئيس الموساد كما هو سائد في الدول الديمقراطية الغربية ، و كان هذا طلبه الثاني بهذا الخصوص . لكن قوبل هذا الطلب كسابقه بمعارضة شديدة من رئيسي الموساد السابقين تسفي زامير و ناحوم إدموني و شلومو غازيت رئيس الاستخبارات العسكرية السابق و شبتاي شبيط رئيس الموساد في حينه و أشخاص آخرون ذوو ماضٍ أمنيّ مثلوا التوجّهات المحافظة – التقليدية بهذا الموضوع ..

كان محض صدفة تقديم صحيفة محلية تابعة لشبكة "هآرتس" مقالاً ذكر فيه اسمي للرقابة العسكرية ، و شطبت الرقابة كالعادة الاسم و قدّمت الصحيفة التماساً للمحكمة العليا و طلب منّي كتابة بيانٍ جوابي للمحكمة . قرأت الالتماس و غضبت جداً ، إذ كانت جميع المبرّرات المعروضة فيه لنشر اسمي ذات طابع تهكّمي واضح ("نافخ الأبواق .. الذي يحضر حفلات .. أبناء الأقليات يعرفون اسمه .." و ما شابه

ذلك) . و أجبرت على عرض معارضة جديدة في الردّ رغم موقفي المبدئي المناقض تماماً ، و شطب هذا الموضوع في نهاية المطاف من جدول الأعمال اليومي .
و تحدّثت منذ ذلك الحين مع إسحاق رابين رئيس الحكومة حول هذا الموضوع عدة مرات ، لكنه كان يكره الانقلابات و التغييرات المتطرّفة جداً ، و أيقنت بأنه لن يوافق على نشر أسماء رؤساء الأجهزة السريّة . حطّم هذا الاحتكار في نهاية المطاف بصورة عفوية بعد اغتيال رابين ، إذ فرض الواقع نفسه دون أن يتمكّن أيّ شخصٍ مخوّل في الحكومة من إغلاق الطريق أمام هذه القضية أو على الأقل إجراء مداولات جادة حول هذه المسألة .

استبدال العميل الروسي في برلين

رأت مخابرات الاتحاد السوفييتي و دول الظّل التابعة لها بـ (إسرائيل) هدفاً استخبارياً هاماً ، و لم يكن السبب الجغرافي – السياسي الحافز الوحيد ، إذ يضاف إلى ذلك تطلّع الاتحاد السوفييتي إلى لعب دورٍ هامٍ في الشرق الأوسط ، و إبدائه اهتماماً كبيراً بالإنجازات التكنولوجية للدولة و يقينه بالتأثير الكبير لليهود على جميع التطوّرات السياسية الدولية . كما استخدمت (إسرائيل) محطة مرور ناجعة للعملاء الذين يسعون للعمل في دول غربية أخرى ، إذ وضعوا نصب أعينهم السّماح لهم بالتأقلم في البلاد و الحصول على الجنسية (الإسرائيلية) و ذلك قبل انتقالهم لهدفهم النهائيّ ، حيث إن كونهم (إسرائيليين) سابقين يوفّر لهم العمل بسهولة أكبر من كونهم سوفييت سابقين .
استخدمت موجات الهجرة من دول أوروبا الشرقية لـ (إسرائيل) منذ عام 1948 كوسيلة ناجعة لتسلّل العملاء ، و تمكّنت المخابرات السوفييتية من تطوير شبكةٍ ناجعةٍ جمعت معلومات عن جميع مواطني أوروبا الشرقية ، خصوصاً أبناء الأقليات العرقية ، و حدّدوا من خلال القوائم المفصّلة يهوداً تمّ تجنيدهم كعملاء و كلّفوهم بجمع معلومات عن أي تجاوزات أمنية أو اقتصادية أو فكرية في المحيط الذي يعيشون فيه ، و جنّدت المخابرات السوفييتية أفضلهم للقيام بمهام تجسّس في (إسرائيل) و أرسلتهم إلى هنا ، و كان معظمهم يدخلون (إسرائيل) تحت ستار مهاجرين جدد ، لجمع معلوماتٍ في المجالات العسكرية و السياسية و الصناعات الأمنية و الاستخبارية ، كما جرت محاولات لتجنيد عملاء من أوساط المواطنين (الإسرائيليين) القدماء – علماء و رجال أعمال و ممثلون رسميون للدولة – الذين سافروا للخارج و يجرون اتصالات بمناسبات مختلفة مهنية و اجتماعية مع ممثلين سوفييت ، و فشلت المحاولات في هذه المجالات تقريباً بصورةٍ تامة ، إذ كان ممثلو (إسرائيل) في الخارج عادةً ذوو وعيٍ أمنيٍّ عالٍ و إضافة لذلك طالب "الشاباك" كلّ ممثلٍ (إسرائيلي) يسافر إلى الخارج بتقديم تقرير عن جميع الاتصالات مهما كانت بريئة مع أي مصدر من أوروبا الشرقية ، و شكّل هذا عنصراً رادعاً .
وجِد مخزونٌ محتملٌ للعملاء في أوساط المواطنين (الإسرائيليين) خصوصاً المهاجرين الذين رسّخوا وجودهم بصورةٍ محدودةٍ في (إسرائيل) و سافروا لزيارة عائلاتهم في أوروبا الشرقية ، و كانت اللقاءات تعقد و في معظم الأحوال في الدول التابعة للاتحاد السوفييتي مثل تشيكوسلوفاكيا و بلغاريا و هنغاريا و رومانيا و بولندا . كان من الأسهل على (الإسرائيليين) الدخول إلى هذه الدول من الدخول إلى الاتحاد السوفييتي ، و كان أفرادُ عائلاتهم يتوجّهون بسهولةٍ من الاتحاد السوفييتي إلى هذه الدول ، و كانت مخابرات هذه الدول تأتمر بأوامر المخابرات السوفييتية ، و تعمل على تجنيد العملاء في أوساط الزائرين الأبرياء ، و لم يكن النجاح كبيراً ، لكنه و في الوقت نفسه لم يكن منعدماً .
بدأ بالوصول إلى (إسرائيل) آلافٌ من السيّاح سنوياً قبل انهيار الاتحاد السوفييتي ، حضر بعضهم لحضور مؤتمرات دولية ، و لأهدافٍ تجاريةٍ و لإجراء اتصالاتٍ رسميةٍ ، لكن أكثر من مرة كانت لهذه الزيارات أهداف أخرى . عرفنا أن المخابرات الروسية تُدخِل و تحت هذا الستار مراسلين و رجال اتصال مهمتهم عقد لقاءات مع عملاء محليّين ، و بذلت المخابرات السوفييتية ، و بعد ذلك حليفتها المخابرات الروسية ، مجهوداتٍ كبيرةٍ من أجلِ تجنيدِ أجانبَ للقيام بمهام تجسّس في (إسرائيل) ، و افترضوا و بحقّ أن "الشاباك" يراقب بدرجة أقلّ تحرّكات السيّاح و ممثّلين رسميين من دول غربية ، كان الكشف عن هؤلاء العملاء و المشرفين عليهم على رأس سلّم أولويات قسم الأجانب في "الشاباك" الذي كان مسؤولاً أيضاً عن محاربة التجسّس الأوروبي الشرقي .

كان ليفي ليفي أحد العملاء الأوائل للمخابرات الأوروبية الشرقية في (إسرائيل) . ولد ليفي في رادوم ببولندا لوالدين يهوديين طبيبين ، و كان ناشطاً في حركة الشبيبة الصهيونية غوردونيه شرب أكثر من اللازم في حفلٍ جرى في نادي الطلاب اليهودي عام 1947 و أثارت تصرّفاته و هو في طريقه مترنّحاً إلى منزله قرب موقع أمني شكوك حارس الموقع . أطلق عليه الحارس النار و أصابه بساقه ، و نقل ليفي الجريح لغرفة حراسة الموقع ، و لم يكن يتذكّر شيئاً عن ظروف إصابته و أعيد إلى منزله بعد استيقاظه .

قرّرت المخابرات البولندية استغلال الحادث من أجل ممارسة ضغوطٍ على ليفي للعمل لصالحها ، و ادعى المحققون أنه كان يحمل سلاحاً بصورةٍ غير قانونية و أطلق النار بنفسه على ساقه ، و كان ليفي يدرك بالطبع أن هذه تهمة كاذبة ، لكن عندما وُضِعَ أمامه خياران : تقديمه للمحاكمة أو السفر كعميلٍ إلى دولة (إسرائيل) التي أقيمت حديثاً ، أخذ بالخيار الثاني ، و من المرجّح أن تكون الأيديولوجيا الشيوعية التي ترعرع عليها قد ساهمت بقراره هذا . و بعد تدريبه و توجيهه و تزويده بالأموال بدأ بالعمل كمخبرٍ في الشارع اليهودي و أُدخل بعد ذلك إلى معسكرٍ لتأهيل يهود بولنديين استعداداً لهجرتهم إلى (إسرائيل) . هاجر ليفي إلى (إسرائيل) بتاريخ 9 آب عام 1948 و تمّ نقله إلى معسكرٍ للمهاجرين قرب ناتانيا و جنّد للجيش (الإسرائيلي) . لعب الحظُّ لصالحه بصورةٍ غير متوقعةٍ ، إذ فور تسريحه من الجيش اختاره "الشاباك" للعمل في صفوفه دون أن يعتريه أي شكوك ، و استجاب للطلب برغبةٍ كبيرةٍ و خدم في وحدة العمليات بالجهاز مدة سبع سنوات من نيسان 1950 و حتى إلقاء القبض عليه في منتصف عام 1957 . و لم يحلم مستخدموه الذين وجّهوا له و منذ البداية تعليماتٍ بالانخراط في جهازٍ هامٍّ بنجاحه بالانخراط في صفوف "الشاباك" .

وقع و من سوء حظّه "نصف انقلاب" في بولندا في تشرين الأول عام 1956 و انتخب فلديسلب غومولكه سكرتيراً للحزب الشيوعي البولندي – و من الناحية العمليّة زعيماً لبلاده – و سمح ليهود بولندا بالخروج منها و حتى بالهجرة إلى (إسرائيل) . و بدأت جراء ذلك "هجرة غومولكه" و التي هاجر في إطارها إلى (إسرائيل) الشخص الذي أشرف على عمل ليفي في بداية تدريبه بالمخابرات السرّية ببلولندا . و في إطار تحقيقٍ روتيني أجراه "الشاباك" كعادته مع كلّ المهاجرين الذين كانوا على علاقات بنشاطاتٍ استخباريةٍ قبل وصولهم إلى البلاد ، تحدّث عن "لوتك" الذي عمل تحت إمرته و وصل حسب ما تناهى إليه إلى جهازٍ أمنيٍّ (إسرائيلي) . أشعلت هذه الأقوال ضوءً أحمراً – "لوتك" كان لقباً معروفاً لليفي ليفي . و بعد فترة تعرّف المهاجر من بولندا على ليفي ليفي كـ "لوتك" الذي كان يعمل تحت إمرته ، و استدعِيَ ليفي ليفي بسرعة لإجراء حديثٍ أوليٍّ معه ، و ردّ بغضبٍ جامحٍ يتناقض كلياً مع طابعه الهادىء جداً و المعروف لزملائه ، الأمر الذي ضاعف الشبّهات حوله . و قال إن الجهاز يحاول التنكيل به لأنه يعرف أكثر من اللازم ، خصوصاً عن أعمالٍ غير سليمةٍ في الساحة السياسية الداخلية ، و عندما اعتقل توجّه إلى محامٍ مقرّبٍ من السفارة البولندية – ضاعف ذلك بدرجة كبيرة من الشكوك ضدّه – و أرسل زوجته إلى مكتب المحامي شموئيل تامير (الذي اصطدم قبل ذلك مع المؤسسات الرسمية في عدة قضايا) و قالت المرأة لتامير و مساعده المحامي آريه مرينسكي إن زوجها أرسل لمتابعة تحرّكاتهما و اعتقل بسبب ذلك . اتصل تامير و مرينسكي بعاموس منور رئيس "الشاباك" في حينه الذي أكّد لهما بأن ليفي جاسوس و أبلغ الإثنان منور بأنهما سيحاربان لإثبات براءة ليفي طالما لم يحصلا على إثباتات جازمة تؤكّد تورّطه بالتجسّس ، و قالا ذلك أيضاً لليفي نفسه و أضافا تعهداً : "إذا اتضح لهما بأنه جاسوس سيعملان على دق المسمار الأخير في نعشه" .

استمرت المحاكمة التي أجريت بأبوابٍ مغلقةٍ فترةً طويلة و نفى ليفي طوال الوقت التهم الموجّهة إليه . لا سيما و أن الإثباتات ضدّه كانت ظرفية فقط ، لكن بسبب تراكم ثقل هذه الإثباتات أدانه قاضي المحكمة المركزية في تل أبيب بتهمة التجسّس و أصدر عليه حكماً بالسجن لمدة عشر سنوات . و قدّم تامير و مرينسكي استئنافاً للمحكمة العليا ، و قدّم عاموس منور قبيل انتهاء مداولات الاستئناف مواد استخبارية وصلت من فرنسا في أعقاب مقتل عميلٍ بولندي فيها و تضمّنت هذه المواد إثباتات جازمة لاتهام ليفي بالتجسّس . و اعترف ليفي في حديثٍ أجراه مع محاميه و قدّم تقريراً بكامل أعماله إلى "الشاباك" ، و بالطبع أُلغيَ الاستئناف ، و بعد قضاء ليفي ليفي لعقوبته في السجن سافر إلى أستراليا و توفّي هناك بعد عدة سنوات .

كان ليفي من ذاك النوع من العملاء الذين يتخوّف منهم أيّ جهازٍ استخباريٍّ : عميلٌ كبيرٌ تمكّن من التسلل إلى قلب جهازٍ استخباريٍّ أجنبيٍّ و التمتع بالثقة الكاملة و الاطّلاع على أسرارٍ كبيرةٍ . كانت الأضرار التي ألحقها كبيرةً جداً ، و بذلت مجهودات جبارة من أجل التقليل من تأثيرها .

يعتبر إدخال عميلٍ إلى جهاز مخابرات منافس و بصورة طبيعية الهدف المفضّل لدى أي مؤسسة استخبارية ، و اعتبر نجاح ليفي بالتسلّل إلى المخابرات (الإسرائيلية) ، إنجازاً كبيراً بنظر المسؤولين عنه

. كانت (إسرائيل) دولة شابة عندما بدأ عمله في "الشاباك" . و من المشكوك فيه أن تكون مخابرات أوروبا الشرقية على دراية كاملة بالمعلومات التي كانت تريدها في تلك الفترة . و لهذا فإن زرع ليفي كان مثابة "وقر قرشك الأبيض ليومك الأسود" . و لا ريب في أن زرع عميلٍ لمجرد زراعته يتطلّب معنويات عالية ، و كان ليفي يتبنّى النظرية الشيوعية و خدم أسياده بأمانةٍ ، و لم يكتفِ بالقيام بالمهام التي أوكلوه بها بل و عمِل أيضاً بمبادرته الخاصة لتوفير أكبر قدرٍ ممكن من المعلومات لمستخدميه .

شكّل الكشف عن ليفي مجرّد فصلٍ واحدٍ في المعركة المستمرة التي يشنّها "الشاباك" ضد التجسس الأوروبي الشرقي في البلاد . كانت جميع أجهزة الأمن الشيوعية تتعاون فيما بينها و تتبادل المعلومات بصورة مستمرة ، و لهذا لم يكن هناك فرق كبير إذا كان العميل الذي وصل إلى (إسرائيل) بولندياً أم رومانياً ، إذ كانت المعلومات تصل كاملة إلى الاتحاد السوفييتي و إلى جميع أجهزة المخابرات الأوروبية الشرقية .

اقتحم رجال وحدة العمليات في "الشاباك" بتاريخ 22 آذار 1965 منزلاً في حيفا و اعتقلوا أفرايم صموئيل المهاجر من رومانيا و زوجته . كان صموئيل عميلاً للمخابرات الرومانية و كانت زوجته تبثّ عبر الاتصالات اللاسلكية المعلومات للمسؤولين عنهما . كانت رومانيا الدولة الوحيدة في أوروبا الشرقية التي سمحت لليهود بالهجرة بجموعهم الغفيرة إلى (إسرائيل) ، الأمر الذي وفّر لمخابراتها إمكانية إدخال عملاءٍ لها . كانت مهمتهم الأولى التأقلم في (إسرائيل) و العثور على مصدر رزق و البدء بعد ذلك بنشاطاتهم في المجالات المحدّدة لهم : في الحزب الحاكم و في المكاتب الحكومية و في الأجهزة السرّية و في الصناعات العسكرية و ما شابه .

وصلت سفينة مهاجرين إلى ميناء حيفا بتاريخ 27 نيسان 1958 و كان فيها أفرايم و زوجته و ابناه ، و استجابوا لاقتراح موظّفي الوكالة اليهودية و هم ما زالوا على ظهر السفينة و استقرّوا في كيبوتس مشمروت . عمل صموئيل في الكيبوتس في مجال الكهرباء و قام بعمله بأمانةٍ و تفانٍ يقوم به العملاء عادة بهدف إيجاد أجواءٍ متعاطفةٍ معهم . و انتقلت عائلة صموئيل بعد عامين للسكن في حيفا ، حيث عمِل الأب في مهنٍ مختلفة ، و في نهاية المطاف تمّت الموافقة على تسليمه منصب مسؤول الصيانة في مغسلة كبيرة ، و لم يدرك المسؤولون عنه بأن هذا الشخص الرمادي الشعر المخلص جداً في عمله يمتاز بإخلاصٍ أكبر في مجال التجسّس على الدولة ، و بالطبع لم يشكّ جيرانهما بأن غرف نوم صموئيل و زوجته عبارة عن محطّة بث سرية .

كان بإمكان صموئيل الاستمرار بعمله دون إزعاج لولا وصول معلومات إلى السفارة (الإسرائيلية) في بوخارست حول المهام الرفيعة التي تسلّمها في الحزب الشيوعي قبل هجرته إلى (إسرائيل) ، و نقلت المعلومات "للشاباك" و استدعيَ صموئيل للتحقيق و اعترف بأنه كان و بالفعل عضواً في الحزب الشيوعي و ادعى بأنه طرد من الحزب بعد إلصاق وصمة عارٍ على جبينه ، و رغم روايته المنطقية تقرّر مراقبة تحركاته بسبب معلومات أخرى وصلت من مصدرٍ آخر .

راقب "الشاباك" لمدة ثلاثة أعوام الزوجين صموئيل و البث الذي ينطلق من منزلهما . نقل الإثنان إلى رومانيا بصورة رئيسية معلومات علنية جمعاها من صحفٍ أو سمعاها في أحاديث صدفة مع أشخاصٍ مختلفين . و كانت الزوجة تبث معلومات عبر أجهزة اللاسلكي في الوقت الذي اقتحم فيه أفراد وحدة العمليات غرفة نوم الزوجين ، و صرخت فور مشاهدتها الرجال الغرباء في غرفتها بالرومانية "لصوص" و حاولت إحراق ورقة سجّلت عليها المعلومات التي كانت تبثّها في ذاك الوقت ، و كانت الشيفرة التي يستخدمانها مدفونة تحت الخزانة .

أدّى التحقيق مع الزوجين صموئيل إلى كشف النقاب عن رجال اتصالهما و هم دبلوماسيون في السّفارة الرومانية في تل أبيب ، و أعلن عن هؤلاء كأشخاصٍ غير مرغوبٍ فيهم و غادروا البلاد . أدين صموئيل و حوكم بالسجن لمدة ستة أعوام ، لكن بعد قضائه ستة أشهر في السجن أبعد إلى رومانيا مع عائلته و أطلق سراحه في أعقاب مفاوضات مع الحكومة الرومانية حول سماحها بهجرة يهود .

لم يكن أبناؤهما يعرفان أي شيء عن نشاطاتهما و ذلك لحين اعتقالهما ، و عندما روى رئيس قسم التحقيق للابن البكر القصّة انفجر ببكاءٍ مريرٍ ، تمّ استيعاب الأبناء في (إسرائيل) بصورةٍ جيدةٍ جداً و عندما فرض عليهم السّفر منها كان الانفصال عنها صعباً جداً .

بالإمكان تصنيف العملاء الشيوعيّين الذين تسللوا إلى (إسرائيل) إلى ثلاثة أصنافٍ رئيسيةٍ : كانت المجموعة الأولى عملاء عملوا لأسباب أيديولوجية ، و هم شيوعيون قدماء ، رغم ابتعادهم عن اليهودية كانوا على استعدادٍ للتوجه للبلاد لتنفيذ رغبات حزبهم . و أكثر من مرة شعر بعضهم بالندم بعد وصوله إلى (إسرائيل) في أعقاب تعزّز ارتباطهم الواهن باليهودية ، و كشفوا لنا عن الحقيقة . أما المجموعة الثانية فهؤلاء الذين انضموا للحزب حديثاً لاعتبارات متعلقة بالجدوى المالية مثل الحصول على سكنٍ ملائمٍ أو تقدّمهم بالعمل أو الحيلولة دون التحاق أبنائهم بالجيش ، و لم يكن بإمكانهم رفض توجّههم إلى

(إسرائيل) لدى مطالبتهم بذلك . أما المجموعة الثالثة فتتكوّن من هؤلاء الذين أُجبروا على العمل كعملاء ، و هم يهود تطلّعوا فعلاً للهجرة إلى (إسرائيل) و قدّموا عدداً لا متناهياً من الطلبات للسلطات و انتظروا الحصول على ردّ إيجابيٍّ سنواتٍ طويلةٍ و استجابوا لطلب السّلطات التي اشترطت عليهم العمل معها مقابل الحصول على تصاريح بالخروج ، و كان معظمهم يأملون بنجاحهم في التخلّص من المشرفين عنهم بعد وصولهم إلى البلاد .

نشر "الشاباك" شبكة متراصّة من الوسائل التي تستهدف التعرّف على العملاء الذين تمكّنت المخابرات السوفييتية من غرسهم ، و أطلق على أحد الأساليب الذي اعتبر مضمون النجاح اسم "المشط" و ارتكز هذا الأسلوب على متابعة أفرادٍ من سفارات أوروبا الشرقية يشتبه بتورّطهم بالإشراف على العملاء . و كان الجاسوس الأكثر شهرةً الذي ألقيَ القبض عليه بعد اتباع هذا الأسلوب الدكتور "إسرائيل بار" . ادعى بار دراسته في الأكاديمية العسكرية النمساوية و مشاركته في الانتفاضة الاشتراكية في فيينا عام 1934 و مشاركته في الحرب الأهلية الإسبانية ، و جرّاء خبرته هذه انضم للجهاز الدائم في قوات الهاجانا و عمِل أيضاً في مجال التحليلات العسكرية . حمِل رتبة عقيد في حرب الاستقلال ، و كان أحد المساعدين الكبار ليغئال يدين في قسم العمليّات بهيئة الأركان و انضم عام 1950 إلى حزب مبام و كتب تعليقات عسكرية في صحيفة الحزب "عل همشمار" ، و انتقل بعد ثلاثة أعوام من ذلك إلى حزب مباي و عمل مؤرّخاً رسمياً للجيش (الإسرائيلي) ، و كان مكتبه في مكتب وزير الدفاع بتل أبيب .

وصل عمل الدكتور بار لنهايته المأساوية ، عام 1961 ، و ذلك بعد متابعة تحرّكات أحد رجال السفارة السوفييتية ، بتل أبيب ، إذ كشف النقاب عن الاتصالات السرية التي يجريها المؤرّخ العسكري (الإسرائيلي) المشهور ، الأمر الذي أثار إحساساً كبيراً بالمفاجأة . اعتقل الدكتور بار و أدين بتهمة التجسّس لصالح الاتحاد السوفييتي و حوكم بالسجن لمدة عشر سنوات و رفعت المحكمة العليا الاستئناف على الحكم الصادر بحقه و أضافت له خمس سنوات أخرى للحكم و توفي بار عام 1996 في سجن شطة .

كشفت متابعتنا لدبلوماسين سوفييتين عام 1960 – أكّدت المعلومات التي وصلتنا عنه أنه ليس إلا رجل مخابرات يعمل تحت ستار دبلوماسي – عن اتصالات سرية كان يجريها مع أحد موظفي السفارة الكندية يدعى غويندون روي و أبلغنا السلطات الكندية بذلك و بادرت باستدعائه إلى وطنه و اعتقاله هناك .

و كان من بين المواطنين الأجانب الذين عمِلوا في صفوف المخابرات السوفييتية مواطن سويدي يدعى برلينغ ستيغ الذي خدم عام 1972 في صفوف قوات الأمم المتحدة في سيناء و لبنان و مصر و استقال من منصبه و بدأ بتهريب الذهب و الأموال بين أوروبا و الشرق الأوسط و اعتقله "الشاباك" عام 1979 .

قطعنا العلاقات الدبلوماسية مع جميع دول أوروبا الشرقية باستثناء رومانيا في أعقاب حرب الأيام الستة و لا ريب في أن هذه التطوّرات ألحقت أضراراً كبيرةً بالنشاطات الاستخبارية لهذه الدول في (إسرائيل) ، إذ كان معظم العملاء المحليّين تشرف عليهم السفارات ، و أصبحوا الآن يجبرون على القيام بذلك عن بعد . و لم يكن هذا الوضع الجديد شائكاً فقط بالنسبة لأجهزة المخابرات الشيوعية ، بل و وضع صعوبات أمام عمل قسم الأجانب في "الشاباك" ، الذي أشرف أيضاً على معالجة التجسّس الأوروبي الشرقي ، و فقد "الشاباك" بعد إغلاق السفارات مصادر استخبارية ، ذات أهمية قصوى – دبلوماسيون و ذوو مناصب أخرى في السفارات الأجنبية ، عمِلوا لدينا كعملاء .

و مع ذلك لم يؤدِّ قطع العلاقات الدبلوماسية إلى حرق جميع جسور مخابرات المعسكر الشيوعي في (إسرائيل) ، و على سبيل المثال طلب البولنديون عدم إغلاق فرع بنك "أف.كي.أو" في تل أبيب و الاحتفاظ بممثل تجاري و طالب السوفييت إبقاء ممثل لوكالة الأنباء "تاس" ، و صادقت الحكومة و لأسباب سياسية على استمرار نشاطات هذه الممثليات في (إسرائيل) ، رغم الأخطار الأمنية الكامنة بذلك . انتقل مركز ثقل التجسّس السوفييتي في (إسرائيل) إلى الإرسالية الدينية الروسية ، التي كانت تتخذ من الكنيسة البروبوسلفية في المسكوبية بالقدس مقراً لها . بذل "الشاباك" مجهودات كبيرةٍ جداً و استخدم وسائل متطوّرة من الدرجة الأولى من أجل مراقبة نشاطات أعضاء الإرساليّة التي كان بعض عمّالها الفنيين ضبّاط مخابرات و متابعة للعملاء الذين يجرون اتصالات معهم .

لم تكتفِ "كي.جي.بي" بالتمسك بالنقاط القليلة ، التي كانت لديها في (إسرائيل) و كانت معنيّة بتوسيع نشاطاتها الاستخبارية ، لكن دون إثقال الأعباء على رجالها في المسكوبية ، و لهذا أرسلت ضبّاط مخابرات محترفين ذوو تجربة تحت ستار مهام مختلفة بهدف الإشراف على العملاء المحليّين ، و كان أحد هؤلاء فيودوروبتش – لينوف العقيد في "كي.جي.بي" الذي زار (إسرائيل) أربع مرات بجواز سفر نمساوي مزيّف باسم كارل براندت موتل و أطلقنا نحن عليه الاسم السري "مرتسلو" .

كان مرتسلو رجل المخابرات ذو الخبرة من مواليد موسكو و متزوّج و أب لثلاثة ، خريج كلية لغات و كان بالفعل يتقن لغات كثيرة ، فبالإضافة للغة الأم أتقن الألمانية و الإنجليزية و الأوكرانية و الأيديش و التشيكية و الصربية و الفرنسية و البولندية . أرسلته المخابرات السوفييتية في مهام مختلفة لحوالي إثني عشر دولة في أوروبا و الشرق الأوسط تحت ستار مهام مختلفة – ميكانيكي سيارات ، وكيل تأمين ، مستشار اقتصادي ، و وصل إلينا للمرة الأولى عام 1970 عندما كان عمره ثلاثة و ثلاثون عاماً . تجوّل في البلاد كسائحٍ عارضاً نفسه كنصف يهودي و عمل بصورةٍ رئيسيةٍ – مثلما فعل في الزيارات اللاحقة – بعقد لقاءات سرية مع عملاء ، و لم يشكّ بأننا عرفنا بالضبط هويته من معلومات تلقّيناها .

استأجر مرتسلو لدى وصوله إلى (إسرائيل) للمرة الرابعة في آذار 1973 غرفة في فندق "أكديه" بهرتسليا و كان تحت مراقبة "الشاباك" و كان أحد العملاء الذين التقاهم شلومو بن يهودا . سلّمه مرتسلو مالاً و تلقّى منه معلومات حول إنتاج أسلحةٍ في (إسرائيل) و عن قواعد الصواريخ و أسماء موظفين عسكريين و شخصيات سياسية (إسرائيلية) .

هاجر شلومو بن يهودا الذي كان يحمل اسم ميرسكي قبل ذلك إلى (إسرائيل) من الاتحاد السوفييتي عام 1942 و عمل بعد إقامة الدولة كموظفٍ في الشؤون الصحية و كمقاول تفجيرات في كريات شمونه و تزوّج و أنجب ثلاثة أطفال .

اختفى فجأةً عام 1954 و اتضح بعد فترة بأنه يحتجز لدى السوريّين ، و عندما أعيد إلى (إسرائيل) بعد حوالي عامين قال إن السوريّين خطفوه عندما كان يعمل في المنطقة الحدودية ، و أرسل إلى مستشفى الأمراض النفسية لتلقّي العلاج و قدّم للمحاكمة و حكِم عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام بعد إدانته بتسليم معلومات للعدو ، و خفّض الحكم الصادر ضدّه بعد تقديمه استئنافاً للمحكمة العليا و عاد للعمل كموظّفٍ في الشؤون الصحية و أدّى عمله هذا إلى وصوله لقواعد عسكرية .

جنّدت المخابرات السوفييتية بن يهودا ، خلال زيارةٍ قامَ بها لأخته في روسيا عام 1966 و نقل خلال السنوات الخمس التالية معلومات للسوفييت المشرفين عليه عن قواعد الجيش (الإسرائيلي) التي عمل فيها و تقارير من مصادر علنية عما يجري في المجال السياسي ، و لم يكتفِ بذلك و بهدف إرضاء مستخدميه بعث إليهم تقرير خيالية عن محاولة تطوير قنبلة ذرية في مناجم النحاس المهجورة في تمناع .

باعتباره رجل مخابرات ذو خبرة عمل مرتسلو بحذرٍ شديدٍ ، إذ اعتاد النظر من حين لآخر و في فترات متعاقبة من نافذة غرفته بالفندق و النظر من خلال عدسة الباب إذا كانت هناك تحرّكات غير عادية في الممر ، كما استخدم عدة أساليب استهدفت معرفة إذا كان شخص ما قد لمس أغراضه أثناء غيابه عن الغرفة و على سبيل المثال كان يبقي قطعة الحديد الصغيرة التي تغلق سحاب حقيبة وثائقه عمودية ، و تكفي أي حركة مهما كانت بسيطة للحقيبة إلى سقوطها الأمر الذي يؤكّد محاولة تفتيش الحقيبة .

عندما تقرّر اعتقاله أرسلت إلى غرفته موظّفة من الجهاز منتحلة هوية موظّفة خدمات في الفندق ، سألها مرتسلو عن مبتغاها دون فتحه الباب و ردّت بأنها تريد استبدال المناشف في غرفة الحمام ، و عندما نظر من عين الباب و شاهد أمامه موظّفة خدمات تحمل مناشف ، اقتنع و فتح الباب و فوجيء باقتحام أفراد وحدة العمليات في "الشاباك" للغرفة ، و لم يفقد عقلانيته و تمكّن من إتلافٍ سريعٍ لرسائل الشيفرة ، لكن لم يخرج رجال المخابرات بأيدي خاوية ، إذ تمكّنوا من العثور بحوزته على أغراضٍ لم يتمكّن من تسليمها لعملائه : حبر سري و جهاز راديو خاص لالتقاط تعليمات .

تحدّث مرتسلو في البداية مع محققيه باللغة الإنجليزية ، لكن خلال عدة دقائق انتقل للغته الأم و اعترف بأنه ضابط مخابرات سوفييتي . وفّر لنا اعتقاله فرصة للاطلاع و للمرة الأولى على شخصية رجل المخابرات السوفييتي و على مستواه المهني العالي . أبدى قدرة على الصمود بالتحقيق لتأكّده بأن حكومته ستبذل قصارى جهدها من أجل إطلاق سراحه بأقرب فرصة .

حكِم على مرتسلو بالسجن لمدة 18 عاماً و أراد السوفييت إطلاق سراحه ، لكنهم أيقنوا بأن (إسرائيل) ستشترط ذلك بدفعهم ثمناً ملائماً . بادروا بخطوة بدت و للوهلة الأولى بأنها بريئة تماماً ، لكننا أيقنا بأن المقصود مؤامرة . بعد فترة قصيرة من اعتقال مرتسلو – العقيد فيو دوروبتش – لينوب – قدّم يهوديّ اسمه شفتر للمحاكمة في بلغاريا و أدين بتهم أمنية رغم براءته ، و حكِم عليه بالإعدام شنقاً و جمّد السوفييت تنفيذ العقوبة و عرضوا إطلاق سراحه مقابل إطلاق سراح رجلهم ، و لم نكتفِ بذلك و طالبنا إضافة لإطلاق سراح شفتر السّماح بهجرة سلفيا زلمنسون من الاتحاد السوفييتي و هي واحدة من مجموعة يهود حكِم عليهم بالسجن في كانون الأول عام 1970 بعد إدانتهم بخطف طائرة من لينينغراد بهدف التوجّه إلى السويد .

أشرف المحامي آريه مرينسكي من تل أبيب على المفاوضات مع ممثلي "كي.جي.بي" في برلين ، و استمرت المداولات خمسة أسابيع ، و اتفق في نهاية المطاف بأن يتم استبدال مرتسلو بشفتر في برلين و

يطلق سراح سلفيا زلمنسون من السجن و يسمح لها بمغادرة الاتحاد السوفييتي في أيّ موعدٍ تريد و تحسين الظروف الاعتقالية للسجناء في لينينغراد . قدّم أبراهام أحيطوف طلباً لوزير العدل للتوصية أمام رئيس الدولة بإصدار عفوٍ عن ضابط المخابرات السوفييتي ، أصدر العفو و التزم السوفييت بكافة تعهداتهم و أطلق سراح مرتسلو في تشرين الأول عام 1974 .

جاسوس و اسمه "لام"

اتضح عندما فتحت أبواب الاتحاد السوفييتي بأن اليهود سيهاجرون بجماهيرهم الغفيرة إلى (إسرائيل) ، و لم يحاول عرب كثيرون إخفاء مخاوفهم من أن تؤدّي الهجرة الكثيفة إلى تغيير الميزان الديمغرافي لصالح (إسرائيل) ، كما أن الطاقة البشرية النوعية ، كانت بنظرهم هائلة جداً و تخوّف العرب في (إسرائيل) من احتمالات مصادرة الحكومة جزءاً من اراضيهم بهدف إسكان المهاجرين عليها . قاد الشيخ رائد صلاح رئيس بلدية أم الفحم الاحتجاج ضدّ موجات الهجرة المتوقعة ، و أطلقت المنظمات (التخريبية) تهديدات واضحة : إذا أحضرتم المهاجرين إلى البلاد سنضربهم و هم في طريقهم إليها ، سنفجّر و نقتل حتى يتوقفوا عن الحضور .

استوجبت قضية حراسة قوافل المهاجرين الكبيرة الذين تدفقوا عبر رومانيا و هنغاريا و بولندا العثور على حلولٍ ملائمة ، و كان من الطبيعي إلقاء الحكومة بهذه المهمة كاملة – حراسة المهاجرين و أمتعتهم و معسكرات المرور و القطارات و الطائرات و السفن – على كاهل المخابرات العامة .

استقبل رجالنا المهاجرين في محطات القطارات و المعابر الحدودية و الموانىء البحرية و الجوية ، و أعلن عنهم منذ تلك اللحظات و حتى وصولهم إلى (إسرائيل) كأهدافٍ يجب حمايتها . توجّهت في بداية الموجة الأولى إلى هنغاريا و رومانيا بهدف متابعة ما يجري ميدانياً عن كثب . وقفت في محطة القطار في هنغاريا و شاهدت المهاجرين ينزلون بصمت من المقطورات و أمتعتهم بأيديهم و يصعدون في سيارات لنقلهم إلى معسكرات العبور ، و كانوا هنا و هناك يؤدّون صلاة يهودية ، و انتقلت عدوى الانفعال منهم لي و شاهد الرجال و للمرة الاولى الدموع في عيون رئيس "الشاباك" .

تلاشت و في نهاية المطاف المخاوف الكبيرة من وقوع عمليات ، و استمرت موجة الهجرة الكبيرة حوالي عام و نصف ، و وقعت خلالها محاولة (تخريبية) واحدة : انفجرت عبوة ناسفة على بعد مسافة من حافلة تنقل مهاجرين ، كانت تسير على رأس قافلة ذات حراسة في بودابست و لم تقع إصابات .

كانت الحراسة تشكّل بعداً واحداً فقط من أعمال "الشاباك" في مجال الهجرة ، و لم تكن مهمة الكشف عن جواسيس تسلّلوا إلى البلاد تحت ستار مهاجرين جدد تقلّ أهمية عن ذلك ، لم يؤدِّ انهيار الاتحاد السوفييتي إلى تخفيض مدى اهتمام المخابرات الروسية بـ (إسرائيل) ، و شكّلت موجة الهجرة الأولى في مطلع الثمانينيات و موجة الهجرة الثانية في مطلع التسعينيات ما يطلق عليه بلغة المخابرات "بؤرة" نموذجية – أي أرضاً خصبة لمحاولات إدخال عملاء ، أضيف إلى القدماء منذ العهد الشيوعي ، عملاء جدد جندوا عشية هجرتهم إلى (إسرائيل) . و بذل قسم مكافحة التجسس الأوروبي الشرقي مجهودات كبيرة من أجل كشفهم قبل تمكّنهم من غرس جذورهم في البلاد . خصّصت لنا غرفتان دائمتان في مطار بن غوريون و انتقلت شائعة بسرعة في أوساط المهاجرين الجدد تؤكّد وجود "الشاباك" هناك و عرفوا حتى رقمي الغرفتين 11 و 12 و المهام التي يقوم بها الموظفون هناك و الأسئلة الدقيقة التي ستعرَض عليهم . توقّعنا حدوث ذلك و لم تفاجئنا معرفتهم ، بل على العكس من ذلك رغبنا بمعرفة العملاء أننا بانتظارهم ، و أردنا و بصورة رئيسية معرفتهم بأننا على استعداد لتوفير الفرصة لهم للاعتراف دون تعريضهم لأي عقوبات .

سألنا و بصورة مباشرة كلّ مهاجر يتراوح عمره بين 18 – 65 عاماً إذا عمِل أو يعمل لصالح مخابرات البلاد التي هاجر منها ، و في نفس الوقت أكّدنا له بأنه لن تتخذ ضده أي إجراءات إذا اعترف بذلك ، و حقق هذا الأسلوب الذي أصبح الجميع يتحدّثون عنه ، نجاحاً كبيراً ، إذ سارع عملاء غير قلائل برواية الحقيقة لنا قبل تمكّن المحققين من استكمال عرض سؤال واحد عليهم . و قال بعضهم إن لم يكن جميعهم بأن مهمة التجسس التي كلّفوا بها أو التي ابتزّوا من أجل تنفيذها ، أقلقت ضمائرهم و أنهم بحثوا عن الفرصة المناسبة لإزالة هذه الأعباء عن كاهلهم . كنّا أوفياء لوعودنا و لم نفعل شيئاً لأي منهم ، و فقط

كتبنا لدينا العنوان المؤقت للعملاء المعترفين و أسماء أقربائهم في (إسرائيل) و تفاصيل روتينية أخرى تمكّنا من متابعة ناجحة لتحرّكاتهم في الفترة الأولى لوجودهم في (إسرائيل) و حققنا معهم في فترات لاحقة بصورة جذرية لكننا لم نعتقلهم .

سُئِل كلّ مهاجر جديد إذا عرف عملاء في "كي.جي.بي" بمنطقة سكناه أو عمله أو في الوسط الاجتماعي الذي كان يعيش فيه . و تمكّنا من خلال المعلومات الكثيرة التي جمعناها بهذا الأسلوب إضافة للمعلومات الاستخبارية التي تراكمت لدينا عبر السنين من رسم صورة دقيقة للعميل الذي ترغب به المخابرات السوفييتية و الروسية . وجدنا بأن هناك أفضليات لأصحاب مهنٍ تكنولوجية محترمة ، و لفترة عمر معينة و لوضع عائلي معيّن و لأشخاص يعانون من مشاكل نفسية و عائلية و اجتماعية معينة ، و تثبت القضية التالية و إلى درجة كبيرة الاستخدام الناجع للصورة التي رسمناها .

اتصل بي شبتاي شبيط رئيس الموساد صباح 27 تموز 1990 و طلب مني لقاءه على عجل ، و بعد فترة وجيزة دخل غرفتي في قيادة "الشاباك" و أغلق الباب وراءه و جلس مقابلي و وجهه أحمر و بدأ حديثه قائلاً : "أردت معرفتك بأن شيئاً غير سار حدث" . قال لي إن الموساد عرف الآن أنه و قبل عدة سنوات ، توجّه (إسرائيليّ) مقرّب من المخابرات إلى القنصلية السوفييتية في بانكوك و عرض خدماته على "كي.جي.بي" .

وأضاف شبيط : "استجاب ممثّل الـ كي.جي.بي في القنصلية ، بالطبع ، و بسرور لهذا الاقتراح ، و بعد ثلاثة أشهر استكملت إجراءات تجنيد العميل (الإسرائيلي) على أيدي مسؤولٍ كبيرٍ في كي.جي.بي ، رئيس قسم أفريقيا و الشرق الأوسط و الشرق الأقصى ، الذي وصل خصيصاً لهذا الهدف من موسكو . هوية (الإسرائيلي) غير معروفة ، لكن يعرف فقط بأن مستخدميه و من أجل التمويه أطلقوا عليه اسم (مارك) و أن الحرف الأول من اسم عائلته هو و كما يبدو (لام) . و قال رئيس الموساد أيضاً إن رجل الـ كي.جي.بي الكبير حصل على مديح بعد تجنيده العميل (الإسرائيلي) .

كانت هذه و حسب كافة التقديرات لقضية غير عادية ، إذ منذ كشف النقاب عن ليفي ليفي في نهاية سنوات الخمسينيات لم نواجه خيانة خطيرة إلى هذه الدرجة في صفوف المخابرات (الإسرائيلية) ، و كان العثور السريع على العميل المجهول على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية بسبب الأضرار التي قد يلحقها بأمن الدولة .

تقع مكافحة التجسّس في إطار عمل و مسؤولية المخابرات العامة و لهذا نقل لنا رئيس الموساد هذه القضية لمتابعتها ، و قرّرنا الإطلاق على هذه العملية اسم "آشل أبراهام" و شكّلنا دون تبذير أي وقتٍ طاقماً مقلّصاً لبحث المعلومات ، و قمنا بعمليات تدقيق مختلفة و معقدة ، و في الوقت نفسه حاول الطاقم الوصول إلى (مارك) من اتجاهٍ آخر ، من خلال مستخدميه الروس . جمعت معلومات كثيرة عن رجال كي.جي.بي الذين أقاموا اتصالاتٍ معنا و ذلك على أمل العثور على حلقة جديدة تربط بيننا و بينهم ، نستطيع من خلالها تحديده .

جمعوا في قسم أوروبا الشرقية شذرات المعلومات و عملوا طوال أربع و عشرين ساعة يومياً في تحليل كافة التفاصيل ، و بعد حوالي أسبوعين حضر إليّ رئيس القسم و بشّرني بانفعال : "وجدناه ، عثرنا على متهم مناسب" .

كان اسم المتهم شمعون ليفائي و كان اسمه السابق لفينسون و توافقت فترات سفره إلى بانكوك مع مواعيد اللقاءات التي عقدها (مارك) مع رجال المخابرات السوفييتية ، هذا إضافة إلى أن الحرف الأول من اسمه – الأصلي و العبري – كان (لام) . وضع على الفور على رأس قائمة المشبوهين ، رغم عدم وجود أيّ تأكيدات حتى هذه المرحلة بأنه هو فعلاً الشخص المطلوب و بدأنا بجمع معلومات عنه من كلّ مصدرٍ ممكن . ازداد الإحساس بالصعقة مع تراكم أوراق المعلومات .

ولد شمعون ليفائي عام 1933 لعائلة معروفة و محترمة ، من العلائلات القديمة في بيتاح تكفا و تسلّم والده مناصب رفيعة في الهاجانا و شارك جدّه لأمه في محاولات استئناف الاستيطان اليهودي في مدينة نابلس ، و كانت عائلته تقطن في القدس ، تعلّم شمعون في مدارس دينية ، و كان عضواً في حركة بني عكيفا و عمل خلال حرب التحرير ، مثل شبان كثيرين آخرين في مجال تحصين المدينة .

عمل في الجيش (الإسرائيلي) في البداية موظفاً ، و بعد ذلك مساعداً لرئيس لجنة الهدنة مع الأردن و كانت له علاقة وطيدة مع رجال "الشاباك" في إطار مهامه هذه ، و كان ناشطاً جداً و شارك أكثر من مرة في مباحثاتٍ أجريت مع الأردنيين و أكّد المسؤولون عنه مدى استقامته و نشاطه و تحمّله للمسؤولية و طابعه الهادىء ، و حاول قبيل إنهائه خدمته العسكرية الالتحاق "بالشاباك" . و اتضح لدى فحص أوراق دخوله بأنه كان ملائماً بصورة رئيسية لأعمال مكتبية لا لأعمال تنفيذية ، و تمّ التأكيد في التقرير النهائي بأن قدراته العقلية تفوق المتوسط ، أما مستواه الثقافي فعّال و أنه إنسان منغلق يقمع تطلّعاته و يتحفّظ مع الآخرين و يتخوّف من ابتعاد الناس عنه ، و لهذا لا يقترب أكثر من اللازم منهم ، و بناء على ذلك أكّد

التقرير بأنه ملائم للقيام بمهام عقليّة و ملائم بدرجة أقلّ للمهام التي تتطلب مرونة كبيرة و إيجاد علاقات مع الناس ، و توقفت إجراءات قبوله في "الشاباك" بعد مطالبة الجيش استمراره بالعمل لديه .
عمِل ليفائي في آب 1953 في وزارة الدفاع و نقِل إلى مكتب الملحق العسكري في أنقرة للعمل هناك سكرتيراً ، مكث هناك أربعة أشهر فقط و أعيد إلى البلاد بناء على طلب الملحق العسكري ، الذي قال إن السكرتير الجديد فشل بتأدية مهامه . و حسب أقوال الملحق اقترب ليفائي أكثر من اللازم من الممثلين الأردنيين في تركيا و قدّم ليفائي فور عودته إلى (إسرائيل) شكوى عن الأجواء السيئة السائدة في جميع مستويات السفارة و قال إنه طُرد من هناك بسبب خلافات برزت بينه و بين الملحق العسكري .
رفعت رتبته عام 1957 بصورة رمزية إلى رائد ، و تحوّل إلى شخصية مركزية في لجنة الهدنة بالقدس . و قدّم في هذا الإطار مساعدة كبيرة في الاتصالات السرية التي بدأت عام 1958 بين ممثلي الاستخبارات العسكرية (الإسرائيلية) و ممثلي الاستخبارات العسكرية الأردنية . و من الأعمال التي قام بها عقد لقاء سري بين العميد حاييم هيرتسوغ رئيس الاستخبارات العسكرية و بين العميد الأردني أميل جميان السكرتير العسكري للملك حسين .
شارك ليفائي في نهاية الستينيات بالفصل الدراسي الرسمي للمخابرات ، لكنه قطع دراسته بعد طلب العميد مئير عميت منه العمل ضابط اتصال مع الأمم المتحدة لشؤون جبل سكوبس . و قام بهذه المهمة لفترة زمنية ، و بعد استقالته حاول الحصول على عملٍ دائمٍ في المجال المدني ، و بعد فشله توجّه إلى يهودا أربيل قائد منطقة القدس في "الشاباك" طالباً مساعدته و عيّنه رئيس طاقم اختبارات أمنية في المنطقة ، لكنه لم يحبّ عمله و شعر باستياء كبير و استجاب بسرور عندما طلب منه العمل في الموساد ، و قام بسلسلة من المهام بعضها في الخارج .
فور عودته من مهمة في أريتريا شعر خلالها بالاستياء مرة أخرى لأن الموساد لم يعرض عليه منصباً ملائماً و التحق ليفائي بالخدمة في القوات الدائمة ، و عيّن ضابط أركان اتصال مع الأمم المتحدة برتبة عقيد و شارك في المباحثات التي أجراها وفد (إسرائيلي) في جنيف عام 1975 مع مصر حول التسويات المرحلية في سيناء . كما عمل ضابط ارتباط لدى تشكيل قوات الامم المتحدة في جنوب لبنان (يونيفيل) و أقام علاقات وطيدة مع ضباطٍ كبار يعملون في قوات الأمم المتحدة مثل الجنرال سيلاسفاو و الجنرال أرسكين .
وضع تعيين رفائيل إيتان رئيساً لقسم العمليات في هيئة الأركان حداً للحياة العسكرية لليفائي . حاول إيتان خلال تسلّمه منصب القائد العسكري للمنطقة الشمالية فرض قيودٍ على رجال الأمم المتحدة في الجنوب اللبناني و قدّم ليفائي شكوى ضده إلى رئيس قسم العمليات في حينه ، و طلب إيتان فور تسلّمه رئاسة قسم العمليات من عيزر وايزمن وزير الدفاع توجيه تعليمات بإنهاء خدمة ليفائي . و كلّف وايزمن بهذه المهمة غير السارة موتي غور رئيس هيئة الأركان ، و استدعى الأخير ليفائي و عرض عليه شروط استقالة مغرية . وافق ليفائي على الاستقالة ، لكن لم يعثر على عمل ملائم في القطاع المدني . و توجّه في أزمته هذه إلى صديقه الجنرال أنسيو سيلاسفاو العامل في قوات الأمم المتحدة و نجح الأخير بإقناع المسؤولين عنه بعرض عملٍ على ليفائي في إطار المنظمة الدولية ، رغم عدم رغبة الأمم المتحدة بتشغيل (إسرائيليين) خوفاً من إيجادهم صعوبات بالحفاظ على حيادهم .
اقترحت الأمم المتحدة على ليفائي التوجّه إلى بانكوك كممثلٍ لصندوق الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات و استجاب بسرور . و التقاه فور وصوله إلى هناك ضابط الأمن في السفارة (الإسرائيلية) ، و أطلعه على وجوب الحذر ، كرجل مخابرات سابق ، بكافة الاتصالات التي يجريها مع أوساط دولية . و قال ليفائي إنه سيهتم بهذا الموضوع ، و بالفعل أبلغ الضابط بعد فترة وجيزة أن مواطناً سوفييتياً يعمل في المبنى الذي تقع فيه مكاتب الأمم المتحدة يحاول دون توقف إيجاد علاقة معه ، و قدّم ضابط الأمن تقريراً للمسؤولين عنه في "الشاباك" و اتضح بعد التحقيق بأن المواطن السوفييتي الذي يبدو بريئاً هو رجل مخابرات . و أرسلت في أعقاب ذلك تعليمات إلى ضابط الأمن في السفارة ببانكوك لمطالبة ليفائي بالإبلاغ عن كلّ محاولة تقارب أخرى يقوم بها نفس الشخص و تعهّد ليفائي بالتعاون و عاد بعد عدة أشهر و قال لضابط الأمن إن هذا الشخص لم يستأنف الاتصال .
سافر ليفائي جواً إلى موسكو في أيار 1983 و حسب التقرير الذي قدّمه للسفارة (الإسرائيلية) كان السفر في إطار عمله بصندوق الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات . و قدّم فور عودته إلى بانكوك تقريراً مفصلاً جداً عن سفره إلى موسكو كتب فيه بأنه توجّه إلى القنصلية السوفييتية في بانكوك من أجل الحصول على تأشيرة دخول إلى الاتحاد السوفييتي و ذكر اسم الشخص الذي استقبله في مطار موسكو و أكّد أنه و خلال وجوده في روسيا لم يقم رجال المخابرات السوفييت بأي محاولة للاتصال به .
اندلع صراعٌ بينه و بين المسؤول عنه في الأمم المتحدة بعد عامين من وصوله إلى بانكوك ، و كان السبب مخصّصات مالية ، نقلها ليفائي لجنرالٍ محلي ، يعمَل رئيساً للوكالة التايلاندية لمحاربة المخدّرات

، كانت تربطه به علاقات وثيقة ، أنهى عمله و عاد إلى البلاد لكن علاقاته مع تايلاند لم تتوقف ، بل على العكس من ذلك طلب منه صديقه الجنرال الانضمام كشريكٍ له في شركة تحقيقاتٍ تعمل في حماية منتوجات ذات شهرة من تقليدها في تايلاند و استجاب ليفائي لهذا العرض بتلهّف لكن لدى وصوله إلى بانكوك اتضح له بأن الجنرال توقف عن خوض صراع مع شركائه و ظلّت الشركة التي كان من المفروض إقامتها مجرّد حبرٍ على ورق .

عاد ليفائي إلى (إسرائيل) و طلب من صديقه أبراهام تامير مدير عام ديوان رئيس الحكومة مساعدته بالعثور على عمل ، و هبّ تامير لمساعدته و أبلغ "الشاباك" بأنه عرض اسم ليفائي كمرشّح للعضوية في مجلس الأمن القومي ولأنه لم يشكّل بعد هذا المجلس اقترح قبول ليفائي للعمل كضابط أمن في ديوان رئيس الحكومة . و تضمّنت قائمة الذين يوصون بتعيين المرشّح الجديد أسماء معروفة و محترمة منهم شمعون بيرس و العميد (احتياط) شلومو غازيت و موظّفون سابقون كبار في "الشاباك" منهم رؤوبين حزاق و بيلغ رادي ، و صادق "الشاباك" على التعيين و اتفق فقط على مطالبة ليفائي فور تسلّمه هذا المنصب بضرورة الحفاظ على السريّة و واجبٌ تقديم تقريرٍ عن كلّ اتصالٍ يجريه مع طرف أجنبي .

بدأ عمله في ديوان رئيس الحكومة بتاريخ 23 نيسان 1985 و اطلع هناك و دون أدنى شكّ على معلومات أمنية حسّاسة . كنت أعمل حينذاك قائد منطقة القدس في "الشاباك" و كان ديوان رئيس الحكومة في مجال مسؤولياتي و لهذا التقيت ليفائي عدة مرات و أجريت معه أحاديث حول شؤون الأمن و قضايا حسّاسة مختلفة ، و لم أتمكّن من العثور على أيّ شيء خاص في شخصيته يثير فضولي ، لكنه أثار لديّ و لسببٍ ما إحساساً غير مريح .

أبلغوني بتاريخ 6 شباط 1989 بأن ليفائي مرشّحٌ للعمل كممثّلٍ لمكتب مراقب الدولة في الجهاز . اقترح عليّ محدّثي إجراء فحص أمني جديدٍ لليفائي بسبب علاقاته الكثيرة مع أجانب و زياراته المتعاقبة للخارج . وافقت على الاقتراح و أضفت إليه طلبي بإجراء فحوصٍ له بواسطة جهاز الكشف عن الحقيقة بخصوص اتصالاته مع أوساطٍ أجنبية . و كان استخدام جهاز الكشف عن الحقيقة في التحقيق مع موظّفين كبار أمر نادر . اجتاز ليفائي و في نهاية المطاف فحوصاً أمنية شاملة خلال السنوات السابقة و وجد بأنه جديرٌ بتسلّم مناصب حسّاسة جداً ، لكن لأن ممثّل مراقب الدولة يستطيع الوصول إلى جميع المواد المتوفرة لدى المخابرات بما في ذلك وثائق سرية جداً رغبت بالتأكّد من عدم وجود أي شائبة لدى الشخص الذي سيقوم بهذه المهام ، كما كان لديّ إحساس بأنه من الأفضل بقاء ليفائي خارج الجهاز و أيّدت تحفظاتي هذه أمام المسؤولين عن مراقبة الأمن في مكتب مراقب الدولة . لم تتوفر لديّ حقائق أستطيع الارتكاز عليها لكنهم وافقوا على تحفّظاتي بدون استئناف عليها – و قيل لي : "إذا لم يعجبكم هذا الشخص فلن يعمل معكم" . و هكذا أغلقت الطريق أمام إجراء تحقيقٍ مع ليفائي بواسطة جهاز الكشف عن الحقيقة و لن يستطيع أحدٌ معرفة إذا كان الجهاز سيكشِف عن شبهات قد تؤدّي إلى الكشف عن عمل ليفائي جاسوساً .

أجريت مداولات في مكتبي في أيلول 1990 بعد أن اتضح لنا بأن ليفائي هو المشبوه الرئيس في قضية التجسّس السوفييتي ببانكوك و شارك في هذه المداولات عددٌ قليل جداً من الأشخاص بسبب السرية التي فرضناها على هذه القضية ، و قدّم خلال المداولات تقرير عن الوضع المالي لليفائي و اتضح تورّطه في ديونٍ كبيرة بسبب فيلا أقامها في مبسيرت تسيون ، و مما فعله اقتراضه مبلغ 100 ألف دولار من قريبٍ له و محاولته سداد هذا الدين بشيكات دون رصيد ، ممّا أدّى إلى سوء علاقة و نزاع بينه و بين زوجته . و بدأ بهدف إنقاذ نفسه من هذا الوضع الصعب ، بالبحث الجادّ عن إمكانيات المشاركة في أعمالٍ مربحة . و علمت في إطار تلك المداولات بأن ليفائي يكون في بانكوك و أنه من المفروض انضمام زوجته إليه ، و ظلّت بناته في المنزل في مبسيرت تسيون . و وجّهت تعليمات بالتنصّت على هاتفهن مفترضاً بأنه سيتّصل بهن من حين إلى آخر .

لم يسهّل ليفائي الأمور علينا إذ طالت فترة وجوده في بانكوك ، و لم يتحدّث خلال الاتصالات الهاتفية مع بناته عن موعد عودته المتوقّعة ، و درسنا أكثر من مرة العثور على ذرائع تؤدّي إلى عودته إلى البلاد ، لكننا قرّرنا في نهاية المطاف التحلّي بالصبر ، و عندما اتضح لنا بعد انتظار دام أكثر من ستة أشهر بأنه ينوي الوصول إلى البلاد في مطلع أيار 1991 بدأنا بالإعداد الدقيق لخطواتنا المتعلّقة باستقباله . كنا بحاجة و قبل كلّ شيء إلى قرار اعتقال ، و لهذا كان علينا استدعاء رئيس قسم التحقيقات في الشرطة المخوّل بذلك وفقاً للقانون ، و كان عوزي برغر هو الذي يتسلّم هذا المنصب في حينه ، و وضعناه في حالة استنفارٍ دون أن نكشِف له عن أي تفاصيل ، كما تسلّحنا بتوصية وزير الدفاع كما يستوجب القانون و حصلنا على قرار محكمة يسمح بإعاقة إبلاغ عائلته باعتقاله لمدة 48 ساعة . اتضح لنا أن ليفائي ينوي الوصول إلى مطار بن غوريون يوم الجمعة الموافق 10 أيار في رحلة لطائرة "سويس إير" من زيوريخ ،

و قرّرنا تنفيذ الاعتقال بصورةٍ سرية ، دون أن يشاهد أحد ذلك ، و قمنا بألعوبة بسيطة من أجل الحيلولة دون حضور البنات لاستقبال والدهن في المطار ، إذ اتصل أحد رجالنا هاتفياً ببنات ليفائي ، قبيل تحليق طائرته ، و عرض نفسه كصديقٍ مقرّب لوالدهن و قال إن ليفائي أجبر على تأجيل عودته إلى البلاد بيومٍ واحد ، و اعتقدنا ان الفرق بين الموعدين سيمكّننا من إجراء تحقيقٍ أولي معه بدون تشويش .

كافيار و شمبانيا وزيارة كنيس

هبطت بتاريخ 10 أيار عام 1991، حوالي الساعة السابعة مساء طائرة "سويس إير" في مطار بن غوريون قادمة من زيوريخ . نزل من الطائرة شمعون ليفائي (ليفنسون) ، و هو رجل متوسط القامة ، لم يشكّ و لا حتى لحظة واحدة بأن رجال "الشاباك" بانتظاره في القاعة . و عندما وطئت قدمه نهاية قاعة مراقبة جوازات السفر ، تقدّم نحوه أحد رجالنا و طلب منه مرافقته . انصاع ليفائي للتعليمات دون تردّد ، و توجّه الإثنان إلى مكاتب "الشاباك" في المطار . كان بانتظارهما في إحدى الغرف رئيس قسم التحقيقات في "الشاباك" و رئيس قسم الأجانب و رئيس قسم مكافحة التجسس الروسي . نظر ليفائي إليهم و فقدت الدماء من وجهه الذي أصبح شاحباً بلون الكلس . و فهم فجأة سبب إحضاره إلى هنا .

قال رئيس قسم التحقيقات لليفائي إننا نعلم بارتكابه جريمة بحق دولة (إسرائيل) . و تتوفر له الفرصة الآن للاعتراف بذلك . رد ليفائي دون أن يفكّر مرتين : "أخطأت و أجرمت ، سأقول لكم كلّ شيء" . اتخذ قرار بتمديد اعتقاله في نفس الليلة بخمسة عشر يوماً و نقل إلى مركز التحقيق التابع "للشاباك" .

قال لنا ليفائي إنه وقف في مطلع عام 1983 أمام مفترق طرق ، كان عقد عمله مع الأمم المتحدة في تايلاند على وشك الانتهاء ، و من الناحية العملية أوقفوه عن العمل قبل ذلك بسبب أزمة عميقة بعلاقاته مع المسؤول عنه . و جلس في منزله المستأجر في بانكوك دون عمل ، و باءت بالفشل جميع محاولاته العودة لعمله .

"طرأت بذهني تصوّرات مخيّبة للآمال و مهينة ، ناجمة عن محاولتي السابقة العثور على عمل في (إسرائيل) ، هذا ما قاله و أضاف : "أقلق راحتي الإدراك بأن عليّ الطرق مرة أخرى على الأبواب المغلقة . كانت أوضاعي الاقتصادية سيئة جداً . عشت نمط حياة بسيطٍ جداً في تايلاند . وفّرت الفلس بعد الآخر و معظم الأموال التي كسبتها أرسلتها لتمويل دراسة بناتي ، و صرفت مبالغ غير قليلة على سفرياتي لـ (إسرائيل) . و بلغت جميع توفيراتي في تايلاند أقلّ من ألف دولار" .

بدأ و القلق يأكله بدراسةٍ جادة للقيام بخطوة قصيرة لمرة واحدة : تسليم معلومات مركّزة لطرفٍ استخباري أجنبي مقابل مبلغ كبير من المال . و بدت له بانكوك مكاناً ملائماً لإيجاد اتصالٍ كهذا . فكّر بالبداية بالتوجه للصينيين ، و بعد ذلك للأمريكيين . و اختار في نهاية المطاف السوفييت . و حسب أقواله لم يكن لديه ميل كبير للاتحاد السوفييتي . لم يترعرع على القيم الشيوعية و لم يبدِ في أي فترة اهتماماً غير عادي بما يدور وراء الجدار الحديدي ، لكن ساد لديه انطباع بأن المخابرات السوفييتية ستبدي اهتماماً أكثر من الأخريات بالحصول على المعلومات المتوفرة لديه . و بعد حسمه لقراره ، خطط لكيفية إيجاد الاتصال الأولي مع وفد الـ كي.جي.بي في القنصلية السوفييتية ببانكوك . و قال : "أيقنت عدم قدرتهم على الموافقة على المبلغ الذي أريد . و اعتقدت بأنهم سيتوجّهون إلى موسكو من أجل استمرار مستوى أعلى بكثير ، بالاتصال معي . لكن بانكوك يمكن أن تشكّل بداية جيدة" .

قام بالبداية بجولة حول أسوار السفارة ، التي توجد القنصلية فيها أيضاً ، و ذلك بهدف التأكد من عدم وضع شرطة تايلاند نقاط مراقبة للسفارة . تخوّف من التقاط آلات تصوير من المحتمل أن تكون الشرطة نصبتها في المنطقة صوراً لدخوله إلى السفارة و استدعائه فيما بعد لتقديم إيضاحات . أرضته نتيجة هذه الجولة ، إذ لم توجد هناك أي آلات تصوير . وصل صباح أحد أيام شهر نيسان 1983 إلى مقرٍ صغير لقسم تأشيرات السفر و قدّم نفسه للموظفة كمواطن (إسرائيلي) يريد تأشيرة سفر للاتحاد السوفييتي ، و أوضحت له بأنه سيكون من الصعب عليه الحصول على تأشيرة دخول لعدم وجود علاقات دبلوماسية بين بلادها و بين (إسرائيل) . و قال ليفائي إنه موظف كبير في الأمم المتحدة و السفر إلى موسكو مهم جداً له ، و لهذا يرغب بالحديث مع موظفٍ كبير في القنصلية ، قادته الموظفة لغرفة كبيرة و طلبت منه الانتظار

قليلاً و خرجت . فتح الباب بعد فترة انتظار قصيرة و دخل إلى الغرفة رجل طويل القامة ، يقارب الأربعين من عمره ، يتحدّث الإنجليزية جيّداً . و بدون أن يعرّف عن نفسه سأل ليفائي عن سبب رغبته بالسفر إلى الاتحاد السوفييتي . و رد ليفائي مباشرة : "أنا (إسرائيلي) كولونيل في قوات الاحتياط و أعمل الآن في الأمم المتحدة . و أعتقد أن بامكاني مساعدة الاتحاد السوفييتي" . قدّم له الروسي ورقة و طلب منه كتابة تاريخ حياته ، فعل ليفائي ما طلب منه ، و مما كتبه أنه عمل في الموساد و في "الشاباك" ، لكنه لم يكتب أي تفاصيل عن المناصب التي تسلّمها .

نظر الروسي إلى الورقة التي كتبها ضيفه و سأل : "كم تريد مقابل مساعدتك ؟" . "مائة ألف دولار" ، ردّ ليفنسون دون أن يرمش بطرفة عين .

لم يردّ الروسي ، أخذ الورقة و خرج من الغرفة . عاد بعد حوالي ربع ساعة و قال إن المادة سترسل إلى المركز ، و أوضح : "أعتقد بأنه سيتوجب عليك السفر إلى موسكو لاستمرار الاتصالات . انتظر اتصالاً هاتفياً منا و إذا أبلغوك بأن تأشيرة السفر جاهزة ستدرك بأن عليك العودة إلى هنا" .

عندما أراد ليفائي الخروج من الغرفة ، أوقفه الروسي و قال له : "ليس من هنا ، لأسبابٍ أمنية من الأفضل عدم خروجك من المكان الذي دخلت منه" . قاده إلى غرفة أخرى يطلّ بابها على الساحة . وقفت سيارة يقودها موظّف في السفارة قرب الباب . دخل ليفائي إليها . و انتظر السائق إشارة من الحارس السوفييتي قرب الباب . و عندما أعطيت الإشارة فتح الباب و انطلقت السيارة إلى الشارع ، و قامت بالتفافات حادة في الأزقة و اجتازت شوارع مختلفة و خرجت منها بصورة غير متوقعة . كان السائق ينظر و دون توقف في المرآة الصغيرة أمامه . استهدفت جميع هذه المناورات الحيلولة دون إمكانية متابعة السيارة . وصل السفر الطائش نهايته في وسط المدينة . خرج ليفائي من السيارة ، و استقل سيارة أجرة و سافر إلى منزله . "حاولت التصرّف و كأنه لم يحدث شيء" قال للمحققين ، و أضاف : "أبلغت زوجتي بنية سفري إلى موسكو التي ردّت بانفعال ، لأن سفر (الإسرائيليين) للاتحاد السوفييتي كان نادراً جداً في تلك الأيام" .

أبلغته زوجته بعد أسبوع بأنهم اتصلوا من القنصلية السوفييتية و قالوا إن تأشيرة السفر جاهزة . عاد في اليوم التالي إلى قسم التأشيرات . استقبله الشخص الذي تحدّث معه في زيارته الأولى بترحابٍ و سأله إذا كان بإمكانه السفر لفترة قصيرة إلى موسكو . نظر ليفائي إلى دفتر مذكّرات الجيب و قال إن بإمكانه تخصيص ثلاثة أيام كأقصى حدّ لهذه الزيارة . هزّ الروسي رأسه بتفهّم و وجّهه إلى مكاتب شركة الطيران "إيروفلوت" و شركة السياحة السوفييتية "إينتوريست" من أجل الحصول على تذكرة سفر و حجز بفندق في موسكو .

حطّ في موسكو بتاريخ 12 أيار 1983 . عندما قدّم جواز سفره في نقطة مراقبة الحدود ، شاهد شخصاً يرتدي ملابس عسكرية يهمِس بأذن الموظف . خُتِم جواز سفره على الفور و توجّه للخروج من القاعة . في طريقه إلى المخرج تقدّم إليه رجل يرتدي ملابس مدنية و قدّم نفسه باللغة الإنجليزية ، كموظف في "إينتوريست" حمل حقائبه و دعاه لمرافقته لسيارة بانتظارهما . و همس بأذن ليفائي و هما في طريقهما إلى السيارة : "تعلم بالتأكيد لأي جهاز أنتمي فعلاً . أودّ عدم حديثك و لا حتى كلمة واحدة خلال السفر" .

سافرا مباشرة إلى منزلٍ تابع لـ كي.جي.بي في أحد شوارع موسكو ، و هناك تعرّف ليفائي و للمرة الأولى على المشرف عليه . فوجىء عندما أيقن بأن هذا الشخص ذو مكانة رفيعة جداً في كي.جي.بي – رئيس قسم أفريقيا و الشرق الأوسط و الشرق الأقصى . و في إطار عام بالإمكان القول إن ليفائي اعتبر ثروة استخبارية كبيرة جداً و لهذا كان الإشراف عليه سرياً جداً . و من حظّنا عدم تكليف شخصٍ ذو مستوى أدنى بالإشراف على الاتصال معه ، لأنه عندما يكون المشرف على عميل ذو صلاحيات كثيرة جداً ، يجد صعوبة باستغلالها بنجاعة . و من المرجح أنه لو أشرف عليه شخصٌ ذو مستوى أدنى لتمكّن من الحصول من ليفائي على أسرار أكثر بكثير من تلك التي قدّمها عملياً .

امتدت اللقاءات مع رجال كي.جي.بي التي جرت جميعها في نفس المنزل ، معظم ساعات اليوم ، و أعاده مضيفوه بالمساء إلى غرفته في الفندق . في الحديث الأخير عشية مغادرته الاتحاد السوفييتي طلب منه محاولة الحصول من جديد و فور عودته إلى (إسرائيل) على عملٍ في مؤسسة أمنية تتوفر فيها إمكانية الحصول على مواد سرية . و قال ليفائي للذين حققوا معه : "في هذه المرحلة بدأت بالإدراك بأن مخطّطي الأصلي – إعطاؤهم مواد و أخذ أموال و إنهاء القضية عند هذا الحد – ينجز . إذ تبدي كي.جي.بي اهتماماً بعلاقة مستمرة" .

أوضح له مستخدمه في ذاك الحديث الختامي ، بأن المواد التي قدّمها مهمة حقاً ، لكنها ليست غير عادية ، و لهذا فإنها لا تضفي مصداقية على دفع ثمن كبير كما يطالب . و مع ذلك قال رجل كي.جي.بي الكبير ، إنه اذا وافق على التعاون في المستقبل ، بصورة صحيحة ، لا ريب في حصوله على دفعات تزيد بكثير عن مائة ألف دولار . و بنفس النوايا الحسنة ، و على أمل استمرار العلاقة ، قال الروسي إنه تقرّر دفع

عشرة آلاف دولار له و ألفي دولار كإعادة مصاريف . تلقى ليفائي مغلفاً فيه الدولارات و وقع على إيصال . صافحه مستخدمه و طلب منه التوجّه بتاريخ 15 تشرين الأول إلى فيينا و الحلول في فندق "هيلتون" حيث سيتصلوا به هناك بين الساعة الخامسة و الساعة السابعة حيث سيسلّموه تعليمات .
و قال لنا ليفائي : "فكّرت و أنا في الطائرة التي أعادتني إلى بانكوك بقطع العلاقة مع كي.جي.بي. أيقنت مدى تورّطي . و أدركت بأنني لن أحصل على المال الذي أنا بحاجة إليه إلا في حال استمراري بالعمل لصالحهم . لكن لم يدم تردّدي طويلاً . كنت بحاجة للمال ، و كانوا المصدر الوحيد الذي يستطيع تزويدي به ، كما أنهم يحتفظون بمواد تدينني – تقارير بخطّ يدي و إيصالات بالمال الذي دفعوه لي . و بهدف إزالة الشكوك توجّهت فور عودتي إلى بانكوك إلى ضابط الأمن في السفارة (الإسرائيلية) و قدّمت تقريراً له عن سفري . قلت إنني سافرت بتكليف من الأمم المتحدة . و بالطبع لم أذكر كي.جي.بي" . أودع المال الذي حصل عليه في بنكٍ في فيينا . و قال لزوجته إنه ربح عشرة آلاف دولار في كازينو .
عاد ليفائي في شهر حزيران عام 1983 برفقة عائلته إلى (إسرائيل) ، و سافر جواً بتاريخ 13 تشرين الأول إلى فيينا و حلّ كما اتفق في فندق "هيلتون" . اتصل به في ساعات بعد ظهر نفس اليوم مستخدمه الذي وصل خصيصاً من موسكو . دخلا سيارة و قاما بما يطلق عليه مهنياً "سفر التأكد من عدم وجود ملاحقة" . سافرا في مناطق خالية من الناس ، و انحرفا في بعض الأحيان عن الطريق و دخلا منازل من بابٍ و خرجا من بابٍ آخر – كل ذلك من أجل التخلّص من أي متابعة محتملة .
وجد ليفائي نفسه في نهاية المطاف في مبنى قديم . "هذه السفارة السوفييتية" قال له الروسي ، و أضاف: "منذ الآن يا صديقي سيكون لقبك لدينا (مارك)" .
أغلقا على نفسيهما غرفة معزولة ، و سلّم السوفييتي العميل الجديد توجيهات بخصوص المعلومات التي تأمل كي.جي.بي الحصول عليها منه . قسّمت القضايا إلى نوعين : سياسية و أمنية . و تم تزويد ليفائي بشيفرة كتابة سرية ، و جهاز راديو لالتقاط بلاغات قد ترسل إليه و بآلة تصوير متطوّرة لتصوير مواقع أمنية . كما سلّم إليه رقم صندوق بريدٍ في فيينا من المفروض أن يرسل إليه تقاريره المشفّرة . و قيل له في نهاية المطاف إنه إذا علم بأن (إسرائيل) تنوي المبادرة بأي حرب كانت ، عليه رسم إشارة على عامود كهرباء معيّن في القدس .
عاد ليفائي إلى (إسرائيل) و حاول دون نجاح الحصول على عمل في الموساد و في "نتيف" ، المؤسسة التي كانت تشرف على الهجرة من الاتحاد السوفييتي . سلّم مستخدمه في لقاءات تالية عقدت في فيينا تقارير سياسية ، و استكمالاً للمواد الاستخبارية السابقة . لكن السوفييت أرادوا أكثر من ذلك . لم يخفِ رجل كي.جي.بي خيبة أمله الكبيرة من عدم نجاح ليفائي بالاندماج بمؤسسات أمنية حساسة . و كانت الدفعات تتوافق مع ذلك : عدة آلاف من الدولارات فقط في كلّ لقاء . و بلغ مجموع ما حصل عليه ليفائي من السوفييت حوالي 30 ألف دولار .
قطعت اتصالاته مع السوفييت عام 1989 . و قال لنا ليفائي إن هذا كان قراره . أما الروس و على كلّ الأحوال فلم يصروا على استمرار العلاقة و لم يزعجوه بعد ذلك .
لا ريب في أن ليفائي ألحق أضراراً كبيرة . كشف تفاصيل سرية عن بنية المخابرات (الإسرائيلية) ، و سلّم معلومات أمنية ، و سلّم مواد حساسة عن ديوان رئيس الحكومة . قدّم للمحاكمة و حكِم عليه بالسجن لمدة 12 عاماً ، و خرج من السجن في مطلع عام 1999 ، بعد تخفيض ثلث فترة حكمه جراء حسن سلوكه . و بالمناسبة عارض "الشاباك" فترة طويلة إطلاق سراح ليفائي . و كجزءٍ من شروط إطلاق سراحه حظر عليه الحديث مع وسائل الإعلام .
من حيث حجم المواد التي سلّمها ليفائي للسوفييت ، بالإمكان مقارنته بالبروفيسور ماركوس كلينبرغ العالم المشهور ، الذي كان نائب مدير المعهد البيولوجي في نس تسيونه . كشف النقاب عن البروفيسور قبل تعيينه رئيساً للمعهد و حكِم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً بعد إدانته بالتجسس لصالح الاتحاد السوفييتي . خدم خلال الحرب العالمية الثانية في الجيش الأحمر برتبة كولونيل ، و زرعته المخابرات السوفييتية عام 1948 في (إسرائيل) . و على العكس من ليفائي عمل كلينبرغ لأسباب أيديولوجية . سجن الإثنان لفترة ما معاً ، لكن السجين المسن الذي تعوّد العيش وحيداً وجد صعوبة بتحمّل وجود شخصٍ آخر في غرفته و نقل ليفائي منها .
قبل عدة سنوات من إطلاق سراحه ، عرضت مبادرة لإصدار عفوٍ عن كلينبرغ ، أو كبديلٍ عن ذلك – تحسين ظروفه الاعتقالية ، أو السماح له على الأقل بالخروج بإجازات . توجّهت إلى شخصيات عامة منهم الوزيران أمنون روبنشتاين و يوسي سريد مطالبين بذلك . درست المسألة مع رجال "شاباك" عملوا في هذه القضية . كانت معارضتهم شديدة و ناجمة عن عدة مبررات . أولاً و قبل كلّ شيء ، كلينبرغ ، هكذا قالوا ، ما زالت لديه معلومات حساسة جداً و من المحظور المخاطرة بنقلها لأيّ طرفٍ كان . ثانياً ،

الأضرار التي ألحقها بالدولة هائلة ، و يجب عليه دفع كامل الثمن . ثالثاً ، رفض تخفيف الأعباء عنه سيشكّل عنصراً رادعاً لعملاء محتملين .
درست الملف بصورة جذرية . قرأت رأي سلطة السجن التي أكّدت تنفيذ كلينبرغ بطاعة – و حتى بتشدّد – الشروط المكبّلة له و التي فرضها عليه "الشاباك" في السجن ، و اتضح لي بأن زوجته ، المتوفاة الآن ، و ابنته و صديقٌ للعائلة سمح لهم بزيارته و هكذا كان له اتصال بأشخاص من خارج السجن . درست آراء أطباء معروفين ، أكّدت أن مرضه يزداد خطورة . اعتقدت بأنه و في هذه الظروف و رغم الأضرار الكبيرة التي ألحقها ، ربما يوجد مجال لبادرة حسن نوايا معه . شاركت إسحاق رابين رئيس الحكومة بتردّدي هذا . قلت له إن كلينبرغ قضى جزء كبيراً من عقوبته و بأنه إنسان مريض يجد صعوبة بالوقوف على ساقيه . و قلت إن عظمة الدولة تقاسُ أحياناً بمدى الرحمة التي تستطيع إبداءها . و بناء على ذلك و رغم أن مبرّرات التشدّد كبيرة جداً ، ربما من الجدير دراسة هذه القضية .
تردّد رابين و قرّر إجراء مشاورات في القضية . شارك في المداولات التي أجريت في مكتبه ممثلتان عن مكتب المدعي العام هما دوريت باينش و راحيل سوكر . و ممثلون عن وزارة الدفاع و مسؤولون عن حراسة المعلومات و رجال "الشاباك" الذين أشرفوا على القضية . عرضت مبرّراتي على الحاضرين ، لكن ظلّ الجميع متمترسون وراء مواقفهم الرافضة تقديم أي تسهيلات كانت لكلينبرغ . قالت ممثلتا الادعاء العام إن السجين يقدّم التماساتٍ دون توقف إلى المحكمة العليا و تقف الدولة متابعة و تؤكّد بحماس استحالة الاستجابة لطلباته . و قالتا ليس معقولاً استبدالنا لمواقفنا بصورة مفاجئة و بدون سببٍ ظاهر للعيان . لخّص رابين المداولات بقوله إنه يجد صعوبة باتخاذ قرار . و اقترح عقد اجتماع في موعدٍ لاحق . لم يحدّد موعد لإجراء مداولات أخرى، و لم تجرِ مداولات بتاتاً .
بعد عامٍ و نصف من استقالتي من الخدمة قدّم كلينبرغ طلباً إلى المحكمة العليا بإطلاق سراحه بسبب وضعه الصحّي المتردي . كان عمره حينذاك ستة و سبعون عاماً ، و قضى ثلاثة عشر عاماً في السجن ، طلب محاميه أفيغدور فيلدمان في عرض رأيي في مداولات المحكمة . كنت قد أعربت عن موقفي قبل ذلك في مقابلة صحافية و كرّرت هذه الأقوال أمام المحكمة . قلت إن كلينبرغ منقطع منذ سنوات طويلة ، عن الأمور التي عمِل فيها . صحيح أنه حتى بعد هذه الفترة الطويلة ما زالت توجد قضايا الصمت أفضل حيالها ، لكن هذه فترة زمنية طويلة بدرجة كافية . و هكذا حتى إذا ألحق ، و حاشا لله ، أضراراً جراء كشفه أيّ أمرٍ ما ، فإنها ستكون ضئيلة جداً .
ردّت راحيل سوكر مساعدة مدعي عام الدولة على أقوالي بأنها مجرد تقديرات متعلّقة بالمستقبل ، لا ترتكز على حقائق معروفة . و للأسف لم تأخذ المحكمة العليا برأيي و رفضت التماس كلينبرغ .
كرّرت موقفي أمام لجنة إطلاق سراح السجناء ، لكن دون جدوى . و في وقتٍ لاحقٍ و خلال المداولات التي أجرتها المحكمة المركزية في بئر السبع استغرب قضاة المحكمة ، كما استغربت أنا أيضاً من التعامل المتحفّظ معي الذي أبداه رجل الهيئة الأمنية الذي حضر هو أيضاً للإدلاء بشهادته . و قرّرت المحكمة في نهاية المطاف قبول توصيتي بشرط تمكين الدولة من فرض مراقبة معينة على تحرّكات كلينبرغ . تكلّف هذه المراقبة مالاً كثيراً و لهذا أجّل الموضوع . لكن رغم ذلك تحرّك شيء ما : خرج كلينبرغ في إجازة قصيرة ، قضاها برفقة حفيده الوحيد . و فقط في أيلول عام 1998 و بعد قضائه ستة عشر عاماً في السجن قبلت المحكمة المركزية في بئر السبع استئناف كلينبرغ ابن الثمانين و أمرت بإطلاق سراحه . كان إطلاق سراح مشروطٍ بقيودٍ لفترة اختبار . و من هذه الشروط تعهّده بتشغيل ممرّضين و مرافقين على حسابه الخاص يصادق "الشاباك" على عملهم يرافقوه مدة أربعةٍ و عشرين ساعة يومياً .

اختطاف تاجر مجوهرات

خرج شاؤول مشعنية تاجر المجوهرات ، صباح 23 آب 1989 من منزله في بات يام بجولة عمل في طولكرم . مشعنية من مواليد سوريا ، حصل على دخلٍ جيد من بيعه مجوهرات ذهبية للصاغة في مدن عربية ، و أقام علاقات تجارية معهم منذ سنوات . اعتاد في البداية السفر إلى طولكرم بسيارته ، لكن بعد

تخريب مجهولين لها عدة مرات ، فضّل إيقافها في قرية قلنسوة بالمثلث ، و استكماله سفره بسيارة مستأجرة .
عندما اقترب ، حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً ، من محل المجوهرات الأول في جولته ، هاجمه شابان و حاولا جرّه معهما . تمكّن مشعنية من الفرار منهما و وجد له ملجأ في محلٍ تجاري . سارع صاحب المحل إلى إغلاق الباب و قدّم لـ (الإسرائيلي) كأس ماء . و بعد فترة ما و عندما نظر العربي إلى الخارج و لم يشاهد أحداً اقترح على ضيفه الإسراع إلى محطة السيارات المحلية و السفر إلى منزله . استجاب مشعنية لطلبه . جلس عدة مسافرين في السيارة الأولى في الصف ، و التي دخل إليها مشعنية . بدأ السائق بتشغيل سيارته . و فجأة برز شابان مسلحان . طردا المسافرين باستثناء مشعنية و تحت تهديد السلاح طالبا السائق بالتوجّه إلى منطقة قروية تقع بين طولكرم و نابلس . و أمراه بالتوقف في إحدى القرى ، نزلا من السيارة برفقة مشعنية و وجّها تعليمات للسائق بالعودة لنقل التاجر (الإسرائيلي) و ذلك في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر . عاد السائق كما طلب منه و انتظر ساعة طويلة و لم يصل أحد . رجع إلى طولكرم و توجّه إلى مركز الشرطة و روى ما حدث . لم يعرف المختطفان لكنه نجح بوصف شكليهما . كان أحدهما غامق البشرة جداً . و قال السائق : "بدا مثل أسود سوداني" . نقلت المعلومات على الفور إلى قيادة "الشاباك" في لواء طولكرم .
وصلت في الساعات التالية شذرات معلومات أخرى إلى قيادة اللواء ، لكن لم يتضمّن أي منها تفاصيل عن هوية المختطف . عرفنا فقط بأن تجار طولكرم كانوا يطلقون عليه اسم أبو موسى . و قدّمت موظفة في "الشاباك" تقريراً في ساعة متأخرة من المساء ذكرت فيه بأن قريباً من عائلتها ، شاؤول مشعنية ، سافر صباحاً إلى طولكرم و لم يعد إلى منزله . و افترضنا بأنه الشخص المختطف . عثرنا حوالي منتصف الليل على صاحب المحل التجاري الذي دار أمامه الصراع بين الشابين و مشعنية . كان يعرف الشابين و سلّمنا اسميهما . و تبيّن لنا بأننا نعرفهما . أعلن قبل عدة ايام فقط من عملية الخطف عن الإثنين كمطلوبين للسلطات بسبب مشاركتهما في سلسلة عمليات . أطلق على غامق البشرة لقبٌ يتوافق مع شكله "أسود" و كان اسم الآخر خالد . و سمعنا أنها يتجوّلان علناً في شوارع طولكرم ، لكننا لم ننجح باعتقالهما . أجريت في منتصف الليل مداولات طارئة شارك فيها جامعو معلومات و محققون من المنطقة . تقرّر اعتقال جميع المشبوهين بإقامة أي اتصال كان مع الإثنين و التحقيق مع جميع تجار المجوهرات في المدينة و فرض حظر تجوّل على جميع قرى المنطقة التي نقلته السيارة إليها .
تمكّن رجال "الشاباك" ، جامعو المعلومات ، بنفس الليلة من جمع تفاصيل أخرى . و قال مصدر في إحدى القرى لهم ، إنه شاهد اثنين لهما ملامح مشابهة لأوصاف المختطفين يسافران في سيارة "اسكورت" صفراء . حشدنا جميع المعلومات المتوفرة لنا ، و حللناها و لم نعثر على طرف خيطٍ حقيقي . قرّرنا التركيز على قرية عيوش سيئة السمعة ، التي أطلق منها بتاريخ 7 تموز 1971 أربعة صواريخ على بيتاح تكفا . كان رجال المنظمات يريدون ضرب مطار بن غوريون ، لكن بسبب سوء التوجيه أخطأوا الهدف . قتلت في تلك العملية امرأة مسنة و طفلة عمرها خمسة أعوام و أصيب 19 آخرين بجروح و لحقت أضرار بعدة مباني في المدينة منها مدرسة و مؤسسة للأمراض المستعصية . و عثر في منطقة القرية ، في آذار 1986 على جثة الجندي المختطف دافيد منوس الذي اختطف في تشرين الثاني 1984 . استدعينا إلى هناك تعزيزات عسكرية كبيرة . حلّقت مروحيات فوق القرية الخاضعة لحظر التجوّل . و بحث قصاصو أثر عن دلائل جرّ شخصٍ بين الأعشاب . عثرنا في حقول القرية في نهاية المطاف على شابٍ يحاول الهروب . كان اسمه صبحي . اعتقلناه و نفى أي علاقة له بالاختطاف . و حسب أقواله عمل طوال ساعات النهار في الحقول برفقة شابٍ من قرية أخرى ، عثرنا على هذا الشاب الذي لم يكن يعلم ، بالطبع ، شيئاً عن العمل في الحقول . نقلناه جواً إلى قرية عيوش و ذلك من أجل القول أمام المعتقل بأنه يكذب . كان الشاهد يرتعد من الخوف طوال الطريق و عندما وقف أمام المتهم نفى معرفته له .
لم نترك صبحي و شأنه لكنه استمر بالإصرار على روايته . ازداد التخوّف على مصير مشعنية من ساعة لأخرى . شوهد أفراد عائلته على الشاشة الصغيرة يبكون بمرارة . و ذكرت الصحف أن التحقيق لم يسفر عن شيء . انهار صبحي في اليوم التالي . قال إنه لم يشارك بخطف مشعنية ، لكن طلب منه شخصٌ يعرفه إحضار طعامٍ إلى حقل زيتون في مشارف القرية . وصل إلى الحقل و عثر هناك على أحد سكان القرية و إلى جانبه يهودي مربوط بحبال . و شاهد في فترة لاحقة كيفية إنزال اليهودي إلى بئرٍ عميقة . كانت فوهة البئر ضيّقة جداً قطرها حوالي أربعين سنتيمتراً فقط ، و هكذا إذا وضع عليها حجراً كبيراً لن يعتقد أحد بأن تحت الحجر بئراً .
مرّ يومان على الاختطاف . و أدركنا بأنه إذا ألقِيَ بمشعنية في تلك البئر فإن احتمالات العثور عليه على قيد الحياة غير كبيرة . دون فقدان و لا حتى لحظة واحدة انطلقنا إلى هناك مع القائد العسكري للمنطقة الوسطى ، إسحاق مردخاي ، و برفقة قوة من وحدة مكافحة (الإرهاب) ، الوحدة الخاصة لقوات حرس

الحدود . أجبرنا على السير مسافة طويلة مشياً على الأقدام . و عثرنا دون صعوبة على الحجر الكبير فور وصولنا إلى حقل الزيتون . دحرجنا الحجر من على فوهة البئر و ركع مردخاي على ركبتيه و وضع رأسه في فوهة البئر و صرخ عدة مرات : "مشعنية !" و انطلق في نهاية المطاف من عمق أربعة أمتار صوت واهن : "الله حضر لإنقاذي ، شكراً لله..." .

أنقذ مشعنية من البئر الضيقة مستنزفاً و قذِراً لكنه كان بصحة جيدة . و احتفاءً بالمعجزة التي حدثت له أقام حفلاً في منزله شارك فيه كثيرون . هذا ما قيل له ، و هاجر و أسرته إلى كندا .

مرّت عدة أسابيع قبل تمكّننا من إلقاء القبض على المطلوبين اللذان اختطفا مشعنية . و قالا إنهما أرادا احتجازه رهينة بهدف إطلاق سراح (مخرّبين) من السجون . كان إلقاء القبض عليهما مرهوناً بعملية صعبة ، و معقدة ، لكننا تنفّسنا الصعداء بعد اعتقالهما ، إذ كانا من المطلوبين الخطرين جداً .

في الحالات التي حققنا نجاحاً فيها ، مثل قضية مشعنية و عدد لا يحصى من عمليات الكشف عن (مخرّبين) و منع وقوع عمليات ، كنا نشعر برضا تامٍ لا مثيل له . كان في ذلك ما يشدّ عضدنا و يزيل تعبنا و يدفعنا دون تردّد للقيام بمهامنا التالية . كنت أعود من مهمة ناجحة إلى مكتبي أجلس قرب الطاولة و أشعر كما لو أنني في ذروة العالم ، بالطبع لم يكن بإمكاني الحديث لأي شخص عما فعلناه ، لكن لم يزعجني ذلك بتاتاً . و بعد ذلك و عندما كنت أحلّ ضيفاً في مناسبات مختلفة على أشخاص مختلفين لا يعرفوا بالضبط ما الذي أعمله ، كنت أسمع روايات عن هذه المهمة أو تلك "للشاباك" من أفواه هؤلاء الذين يدّعون أنهم مقربون من القضية .

كانت كميّة الكلام الفارغ و الخيالي الذي سمعته من أفواه المثرثرين الذين لا يعرفون بالضبط عما يتحدّثون هائلة . لكن لم يغْرني هذا بتاتاً للحديث عن الرواية الحقيقية . و كلّ ما كنت أفعله هو الشدّ على نواجذي أو الابتسام خلسة .

حوّلت نجاحات "الشاباك" المنظمات إلى حذرة و أكثر حنكة بكثير . واجهنا أكثر من مرة وسائل إخفاء أو تمويه استهدفت وضع عقبات أمامنا . حاولنا في صيف عام 1991 و دون جدوى العثور على خلية كبيرة تابعة للجبهة "الشعبية لتحرير فلسطين" ، نظمت في منطقة القدس . اعتبرت "الجبهة الشعبية" و لسنوات طويلة المنظمة الثانية في ائتلاف منظمة التحرير الفلسطينية . شكّلت في كانون الأول عام 1967 و يترأسها منذ ذلك الحين الطبيب المسيحي جورج حبش (الذي آمن في المراحل الأولى بأفكار القومية العربية و انتقل مع مرور الزمن إلى التأكيد على القضية الفلسطينية) . دمجت المنظمة عناصر ماركسية في أيديولوجيتها ، و أعلنت عن نيّتها بناء "قيادة الطبقة العاملة" للحركة الفلسطينية ، و عرضت أساليب قتال فيدل كاسترو كنموذج لعملياتها . رؤساء "الجبهة الشعبية" اختلفوا و بصورة شبه علنية مع كلّ خطوة و عمل تقوم به فتح ، و قالوا إن قيادة منظمة التحرير يجب أن تسلّم لأيدي حبش ، أكّدوا ضرورة القيام بعمليات كبيرة و عملوا طوال سنوات في مجال خطف الطائرات و عمليات مساومة من أجل إطلاق سراح أسرى . عام 1974 و بعد مصادقة مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية على "المخطّط المرحلي" و بلورتهم من الناحية العمليّة خيار العمل السياسي للمنظمة بهدف تحقيق أهدافها ، انسحبت "الجبهة الشعبية" من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير و أعلنت محاربتها "الحلول الخانعة" لعرفات . و حتى بعد ذلك و رغم كافة التحوّلات السياسية و الأيديولوجية، لم تتراجع هذه المنظمة عن الرفض التام لوجود دولة (إسرائيل) . كان أعضاؤها و بصورة عامة ذوو مستوى شخصيّ عالي و كانت العمليات التي يقومون بها من أكثر العمليات وحشية .

كان طرف خيطنا الوحيد لهذه الخلية الخطيرة عميلنا ، الذي نجح بالالتحاق بالمنظمة . لكن تمّ تشغيله بحذرٍ كبير مثل أي مجنّد جديد لم تعرف بعد مدى جودته . و بناء على ذلك لم يحصل على تعليمات مباشرة بل بواسطة "نقطة ميتة" . "النقطة الميتة" كما أوضحت هي موقعٌ يضعون فيه – أي يدفنون – رسائل و أسلحة من أجل منع إجراء أي اتصال مباشر ، كانت النقطة الميتة هذه حفرة صغيرة مغطاة بحجر قرب أرجوحة في حديقة عامة . كانت الرسائل التي دفنت فيها ، بصورة رئيسة توجيهات أيديولوجية ، و هذا أسلوبٌ معروف لدى "الجبهة الشعبية" لرفع مستوى أعضائها .

كان بإمكاننا ، بالطبع ، نشر نقاط مراقبة في المنطقة وإلقاء القبض على الذي يدفن الرسائل . لكننا أردنا إلقاء القبض على الأعضاء التنفيذيين في المنظمة ، لا على مراسل مواد دعائية . طلبنا من عميلنا وضع رسالة في النقطة الميتة يدّعي فيها عثوره على قنبلة يدوية في مكانٍ معين ، و أخذه لها إلى منزله و بأنه يريد معرفة ما الذي يجب عليه عمله بها . كتب الرسالة و دفنها في الحفرة بالحديقة العامة و عاد إلى منزله . و عندما عاد إلى "النقطة الميتة" بعد ثلاثة أيام وجد في الحفرة رسالة جوابية تتضمّن تعليمات مفصلة : بتاريخ محدّد و في الساعة 16:30 عليه حفر حفرة في مكان معيّن قرب حيّ سكني في مدينة عربية و دفن القنبلة فيها .

سلّمناه قنبلة ، لكن ليس قبل إبطال مفعولها ، و دفنها حسب التعليمات التي تلقاها . اختبأ أفراد وحدة عملياتنا في المنطقة و تابعوا ما يدور . وصل شخص إلى المكان بعد ثلاث ساعات من الموعد المحدّد ، نظر حوله ، بهدف التأكّد من عدم وجود أحدٍ يراقبه ، حفر قليلاً و سحب القنبلة و دخل سيارته و سافر إلى رام الله . تابعناه حتى مبنى سكنيّ جوار المنطقة الصناعية في المدينة . رغم الصعوبات الكامنة بتوفير مراقبة مستمرة في منطقة عربية ، استخدمنا أساليب مختلفة من أجل التأكّد من بقاء المبنى في مدى نظرنا . صوّرنا جميع الداخلين إليه و الخارجين منه . تابعنا معظم الخارجين و اعتقلنا أحدهم لدى وصوله إلى مخيم اللاجئين الأمعري ، لكننا لم ننجح بالحصول على أي معلومات منه .

حاولنا معرفة من هم سكان المبنى في رام الله ، و لم ننجح بذلك . اتضح بأن جميع المساكن في المبنى مستأجرة و لم نتمكّن من الحصول على قائمة كاملة بأسماء السكان . و قرّرنا في النهاية اقتحام المبنى بواسطة خدعة مجرّبة . استغلينا حادث رشق حجارة على سيارات قرب المبنى و دفعنا إلى المكان بوحدة عسكرية . قام الجنود برفقة رجالنا بتمشيط المبنى شقة بعد شقة ، تحت ذريعة البحث عن مشبوهين برشق الحجارة . و عندما طرقنا على أحد الأبواب لم نتلقّ رداً و اقتحمناه . تم تأجير المسكن إلى مواطنٍ غزّي و أخته . و بعد إجراء مقارنة بين وثائق التشخيص التي عثرنا عليها مع سجلاتنا وجدنا بأن الإثنين كانا عضوان في "الجبهة الشعبية" . "الجبهة" التي لا تعتبر منظمة إسلامية متطرّفة ، تبدي انفتاحاً حيال النساء و تشجّعهن على الانضمام لصفوفها .

كان في المنزل شخصٌ مذهول حاول حرق وثائق ، هجمنا عليه و تمكّنا من أخذها من يديه ، استأنا كثيراً لأننا لم نعثر على شيء باستثناء ذلك . كان المنزل خالياً و لم توجد فيه علائم لأي نشاطات غير عادية . لكن علّمتنا التجربة بأنه لا يجب أن نستنتج نتائج من المظاهر الخارجية فقط . فتّشنا بدقة الأرضية و الجدران بدون تجاوز و لا حتى سنتيمترٍ واحد . عثرنا في المطبخ على جدار مبلطٍ بسيراميكا . نجم عن الضرب عليه نغمة عميقة . و عندما بدأنا بخلع البلاط اتضح لنا أن بعضه ملصّقٌ على لوح خشبي على شكل باب . رفعنا اللوح و شاهدنا ثغرة مظلمة حشر عربيّ نفسه فيها . كان من سكان شفا عمرو و كانت الهوية التي بحوزته مزوّرة .

استمر التفتيش على طول الجدران . كان أحدها مغطى بقطعة قماشٍ ملوّنة الأمر الذي أثار شكوكنا ، فتشناه بصورة دقيقة و اكتشفنا بأنه مصنوع من قطعة واحدة . شكّل توالي الأشكال المتماثلة التي زيّنت قطعة القماش تمويهاً كاملاً لمدخلٍ مغطى بلوح جبص ، اقتحمناه و وجدنا أنفسنا داخل كوخ اختبأ فيه شخص آخر . لم نكن بحاجة لوقتٍ طويلٍ من أجل التعرّف على هوية رجل المنظمات الذي نبحث عنه منذ خمس سنوات متتالية . عثرنا في الكوخ الضيّق على ثروة هائلة : وثائق مختلفة ، أختام لوزارة الداخلية و للإدارة المدنية و هويات (إسرائيلية) و آلات تصوير متطوّرة و أدوات تنكّر – شعر مستعار و لحى و شوارب بأشكال و ألوان و أحجام مختلفة و آلة طباعة و عشرات آلاف الدولارات .

اعتقل الثلاثة و سلّمت المواد للدراسة و التصنيف . كان هناك حوالي خمسمائة وثيقة تضمّنت أكثر من ثلاثمائة اسم لأشخاص مرتبطين بـ "الجبهة الشعبية" بالقدس و رام الله و أريحا . بحثنا بهذا الأسلوب عن علاقة واضحة بين "الجبهة" و مجموعة "أبناء البلد" في أم الفحم و عرفنا الكثير عن أساليب عمل المنظمة و بنية قيادتها و شبكتها المالية و كلّ شيء .

"أبناء البلد" مجموعة وطنية شكّلت في كانون الأول عام 1973 و تطلّع أفرادها إلى عدم إضفاء شرعية على دولة (إسرائيل) الصهيونية ، و إلى إقامة دولة علمانية ثنائية القومية على جميع أرض (إسرائيل) الغربية . و من هنا برز شعارهم "الخليل مثل الجليل" . دعوا في بداية نشاطاتهم إلى مقاطعة انتخابات الكنيست الثامنة . و هاجموا "اعتدال" ركاح . و شكّلوا بعد ذلك سلسلة جمعيات للدفاع عن الأسرى السياسيين و للنساء العربيات و للشبان العرب و للنشر و جمعيات أخرى . كان كثير من أعضائها طلبة جامعات و كان لها ممثلون في عدة مجالس محلية . انسحب من هذه الحركة عام 1983 قسم الأنصار و شارك في "القائمة التقدميّة للسلام" . لم يتوقف من تبقوا في الحركة عن نشاطاتهم حتى منتصف التسعينيات . و من بين ما تمكّنوا من القيام به إرسال عريضة إلى الأمين العام للأمم المتحدة ضد الهجرة من الاتحاد السوفييتي و تنظيم تأييدٍ و دعم للعراق إبان حرب الخليج في مطلع عام 1991 .

كانت مواجهة المطلوبين إحدى المهام الأكثر قسوة و تعقيداً "للشاباك" . و تضاعفت في فترة الانتفاضة ، عندما تحوّلت النواة الصلبة للمطلوبين إلى العنصر المحرّك لنشاطات الإرهاب في المناطق . أدخلوا للانتفاضة الشعبية الاستخدام الواسع للسلاح و نفّذوا عمليات هجومية ضد مدنيين (إسرائيليين) ، بما في ذلك الطعن بالسكاكين ، قتل في سنوات الانتفاضة جراء عمليات من هذا النوع – كانت معظمها عمليات قام بها أفراد – عشرات (الإسرائيليين) و أصيب مئات بجروح .

كان معظم المطلوبين شباناً تتراوح أعمارهم بين خمسة عشر و أربعة و عشرين عاماً . و كان من بينهم شابان غير متزوجان . عملت غالبيتهم العظمى بناء على مبادراتهم الشخصية دون انتماء لأي إطار

تنظيمي . نما هؤلاء في خضم النشاطات الاحتجاجية الجماهيرية ، التي وجدت تعبيرها في البداية برشق الحجارة و المظاهرات . لكن تشكّلت في أوساطهم و بسرعة ، مجموعات قام أفرادها بعمليات ضد قوات الأمن و قتلوا بوحشية سكاناً من المناطق اشتبهوا بتعاونهم مع السلطات . وصفوا تجار مخدّرات و عاهرات و قوّادين . اعتبروا بنظر قيادة الانتفاضة أشخاصاً غير مرغوب فيهم و لا تقل خطورتهم على المجتمع الفلسطيني عن خطورة العملاء .

بالإمكان التمييز بين ثلاث مجموعات رئيسية للمطلوبين : كان من بين أفراد المجموعة الأولى ، الذين قاموا بهذه العملية أو تلك ، و تخوّفوا من الكشف عن هوياتهم ، و لهذا قرّروا الاختباء خوفاً من توجّهنا إلى منازلهم لاعتقالهم . و كانت المجموعة الثانية ، أعضاء "اللجان الضاربة" الذين قادوا الانتفاضة في المناطق و رشقوا حجارة و قاموا بعمليات ضد أشخاص يشتبه بتعاونهم مع (إسرائيل) ، و اختبأ هؤلاء أيضاً خوفاً من اعتقالهم . و انتمى للمجموعة الثالثة (مخرّبون) أصدرت ضدهم قرارات اعتقال إداري ، و قبل استبدال الأنظمة الخاصة بهذا الموضوع كان لدى هؤلاء المطلوبين أسباب جيدة للاختباء ، لأن قرار الاعتقال الإداري يبدأ سريان مفعوله منذ لحظة إصداره و ليس منذ موعد الاعتقال الفعلي . و على سبيل المثال : إذا أصدر القرار لمدة ثلاثة أشهر و اختبأ المطلوب مدة شهرين منها ، فإن عليه قضاء شهر واحد فقط . و تم في نهاية المطاف استبدال هذه الأنظمة . و أصبح قرار الاعتقال الإداري الصادر ضد شخصٍ ما يلغى فور إلقاء القبض عليه و يصدر ضده قرار اعتقال جديد في اليوم الذي يلقى فيه القبض عليه . لكن يستوجب إصدار القرار الجديد عرض شبهات جديدة .

مع مرور الزمن ازداد تصميم المطلوبين على ضرب أهدافٍ عسكرية – مواقع مراقبة و مواقع عسكرية و دوريات – و على خوض مواجهات مع الجنود (الإسرائيليين) ، رغم إدراكهم بأن احتمالات بقائهم على قيد الحياة في عمليات كهذه غير كبيرة . وقعت 59 عملية من هذا النوع في عام 190 ، و وقعت 120 عملية في عام 1991 ، و ازدادت الأرقام دون توقف .

لاحقنا المطلوبين دون هوادة . أجبروا على هجر منازلهم ، و اختبأوا في الكهوف و في منازل سرية و في أماكن آمنة قدر الإمكان من وصولنا إليها . أدركوا بأن الاشتباك معنا قد ينتهي بموتهم . أما إذا ألقي القبض عليهم فسينتظرهم تحقيقٌ طويل و بعد ذلك عقوبات كبيرة بالسجن ، لكنهم آمنوا بقدراتهم على البقاء في الميدان و توجيه الضربات لنا دون وصولنا إليهم ، مرت فترة كانت قائمة المطلوبين تتضمن أكثر من ألفي اسم . انتمى عددٌ كبير منهم إلى عصابات "الفهد الأسود" التي شكلت إطاراً لنشاطاتهم (التخريبية) .

كان أحد أبرز هؤلاء أحمد يحيى عياش الذي اشتهر أكثر بلقب "المهندس" و ذلك بسبب كفاءاته الفنية . كشف عن هويته في تحقيقٍ أجري في أعقاب العثور على سيارة ملغومة برمات إفعال ليلة 20 – 21 تشرين الثاني 1992 ، و عثر على مخبأ له في أماكن مختلفة و استمر بالتخطيط لتنفيذ عمليات ضد (إسرائيل) ، قمنا و خلال فترة طويلة بملاحقة غير متوقفة له . حوّلته العمليات القاسية التي نفذت بواسطة العبوات الناسفة التي صنعها ، إلى الهدف الأول من حيث الأهمية . لم يسهّل عياش المهمة علينا . حافظ على النوم في كلّ ليلة بمكانٍ مختلف و لم يشارك أحدٌ بتاتاً بمخططاته ، و لا حتى إذا كانت تتعلّق بذات اليوم . عرفنا بأنه يحصل على تقديرٍ كبير و على تعاون من قبل السكان .

قمنا أكثر من مرة بعمليات تمشيط مفاجئة في منزل "المهندس" في قرية رافات . و قمت أنا نفسي بزيارة المنزل مرة واحدة . أردت التعرف و لو قليلاً على الخلفية التي ترعرع فيها هذا القاتل الوحشي . التقيت أفراد عائلته ، والده و والدته و زوجته التي كانت حاملاً . كانت أسرة زراعية فقيرة تعيش ظروفاً قاسية . الأب إنسان صامت ، خاضع بصورة كاملة لزوجته العدوانية . استنكرت دون توقف (إسرائيل) و أضفت مصداقية على النضال الفلسطيني و قالت إن ابنها بريء من أية جريمة و أننا ننكّل به دون سبب . لم تسمح لزوجها بالحديث . نظرت إليها و استمعت لحديثها و أدركت من أين ورث ابنها توجهاته الوطنية و كراهيته الرهيبة لـ (إسرائيل) .

تمت في نهاية المطاف تصفية "المهندس" بعد تفخيخ هاتفه الخلوي بتاريخ 5 كانون الثاني 1996 . و رأيت بعدم معاقبته قبل ذلك فشلاً شخصياً لي .

مطاردة أخرى ، إحدى عمليات المطاردة المعقدة و الأكثر خيبة للآمال التي أتذكرها ، كانت وراء عماد حسان إبراهيم ، من سكان مخيم اللاجئين جباليا البالغ من العمر ثلاثة و عشرين عاماً ، و الذي ترأس القسم العسكري لحركة حماس – كتائب عز الدين القسام . أطلقنا عليه لقب "المطلوب ذو السبعة أرواح" . و ذلك بسبب كثرة عمليات التنكّر التي استخدمها من أجل التهرّب منا . اعتاد على التنكّر كامرأة عربية ترتدي ملابس تقليدية ، تغطّي وجهها بنقاب ، أو كيهودي يضع قبعة دينية على رأسه (عمليتا التنكر هاتان كانتا رائجتين في أوساط المطلوبين) و أطلق عليه سكان قطاع غزة أسماء "الوميض" و "الهارب" و "الشبح" .

كان إبراهيم (مخرّب) خطير و عنيف جداً . جنّد أعضاء لحماس ، دربهم و أهلهم للقيام بعمليات (تخريبية) و شارك بنفسه بعشرات العمليات – معظمها إطلاق نارٍ من كمين – قتل فيها عشرة جنود و مدني (إسرائيلي) واحد و أربعة من سكان المناطق . ظهر اسمه في قائمة المطلوبين منذ كانون الأول 1991 ، لكن وصلت مطاردته نهايتها الناجحة فقط بعد حوالي عامين من ذلك .

بذل "الشاباك" عشية تنفيذ اتفاقية الانسحاب من غزة و أريحا ، مجهودات كبيرة جداً من أجل إلقاء القبض على المطلوبين في المناطق التي من المفروض تسليمها إلى السلطة الفلسطينية . بتاريخ 24 تشرين الثاني 1993 قبل ثلاثة أسابيع فقط من الإخلاء وصلتنا معلومات من مصدر في حماس تقول إن إبراهيم وجد مخبأ له في منزلٍ سري في حيّ الشجاعية في غزة . طوّقت وحدة المستعربين "شمشون" المبنى . شاهد إبراهيم الجنود و لاذ بالفرار من المنزل مع مطلوب آخر إلى سيارة كانت تقف قرب المكان . طوّق أفراد الوحدة السيارة ، أطلق إبراهيم النار عليهم و ردّ الجنود بإطلاق النار . أصيب و توفيّ بعد فترة قصيرة . و سجّلت العملية كأحد الانتصارات الكبيرة لقوات الأمن و "الشاباك" .

كانت بؤر نشاطات النواة الصلبة للمطلوبين في لوائي جنين و نابلس شمال الضفة الغربية و في رفح و خانيونس بقطاع غزة . تلقينا معلومات متوالية و مقلقة عن تسلّحهم المتزايد بالبنادق و المدافع الرشاشة و المسدسات و أثار قلقنا أكثر من ذلك ، تطوّر تجارة أسلحة بين المطلوبين و بين عرب في (إسرائيل) خصوصاً في قرى خط التماس . و عثر بعض المطلوبين على ملجأ لهم في عددٍ من هذه القرى .

ارتكز توسيع المطلوبين لنشاطاتهم و بدرجة غير قليلة على التآكل التدريجي الذي طرأ على قوة ردع الجيش (الإسرائيلي) في أعقاب الانتفاضة بالمناطق . كان التنكيل بجنود الجيش (الإسرائيلي) إضافة للحوافز الوطنية نوعاً من حملة انتقامية على الملاحقة المكثفة لهم من قبل الجيش و "الشاباك" . قمنا بعشرات العمليات التي قتل خلالها أو ألقيَ القبض على مطلوبين كبار . و على سبيل المثال اعتقل أحمد عوض كميل رئيس مجموعة "الفهد الأسود" في جنين و الذي كان المطلوب الأول في شمال الضفة .

كان كميل مسؤولاً عن عمليات وقعت في منطقة جنين ، منها قتل جنديّ و حارس صهريج وقود و درزيان من (إسرائيل) . هذا إضافة إلى تصفية عرب اشتبه بتعاونهم معنا . نجحنا بتعقب آثاره بعد التحقيق مع أحد رجال "الفهد الأسود" و ألقيَ القبض عليه قبل عدة أسابيع من ذلك . حدّد هذا عدداً من الأماكن التي اعتاد رجال المجموعة الاختباء فيها . أجريت عمليات مراقبة و متابعة كثيرة قبل اتخاذنا قراراً باقتحام منزلٍ معين في قرية كوفير . وصلنا إلى هناك سراً في ليلة 28 أيلول 1993 ، برفقة قوة عسكرية و وحدة مكافحة الإرهاب . طوّقنا المنزل و ألقينا القبض على رئيس المجموعة برفقة اثنين من كبار الأعضاء و عثرنا هناك أيضاً على أسلحة و عبوات ناسفة و مخطّطات للقيام بعمليات داخل (إسرائيل) .

استسلم أحمد عوض كميل دون معركة . لكننا و في حالات كثيرة واجهنا إطلاق نارٍ لدى توجّهنا لاعتقال مطلوب . و هذا ما حدث عندما أردنا اعتقال عضوٍ كبير في حماس أطلق سراحه من السجن بعد أربع سنوات من الاعتقال و عاد على الفور إلى العمل . كان أعضاء الخلية التي شكّلها مطلوبون من حماس من غزة و الخليل . في تلك الفترة كان هناك تنقّل باتجاهين لمطلوبين من غزة و من الضفة و لم يكن التعاون بين المنطقتين ظاهرة شاذة .

خطّط هذا الشخص لعمليات إطلاق نار على سيارات (إسرائيلية) و إلى إلقاء قنابل يدوية على مستوطنات في منطقة الخليل . و حسب المعلومات التي تلقيناها جمع أسلحة و ذخيرة بكميات كبيرة . سلّمنا مصدرنا عنواناً في منطقة الخليل اختبأ فيه هذا الشخص مع ناشط في جهاز عمليات حماس . توجّهنا إلى هناك مع حلول ساعات الليل مع قوة من وحدة مكافحة الإرهاب ، قطعنا ساعة طويلة سيراً على الأقدام حتى وصلنا إلى هدفنا – مبنى صغير من طابق واحد يقع في أسفل وادي . طوّقنا البيت و نصبنا حواجز في جميع المنطقة ، و ذلك بهدف منع هروب محتمل لـ (المخرّبين) . و مع حلول الفجر استخدمنا مكبرات الصوت و طلبنا منهم تسليم أنفسهم . تمترست على بعد حوالي ثلاثمائة متر من البيت . و في مثل هذه الحالات كنت أدع قائد العملية القيام بما يكلّف به بدون تدخل . هو المسؤول عن قواته و كان من المفروض معرفته أفضل مني ما الذي يجب عمله .

كان تبادل إطلاق النار قد استمر حوالي ساعتين و فجأة شوهد اثنان من (المخرّبين) يحاولان الهروب من مدخل خلفي يحملان على ظهريهما أسلحة كثيرة . صوّبت النيران عليهما و قتلا في مكانهما . في هذه الحالات و عندما يطلق (المخرّبون) النار على قوة حضرت لاعتقالهم يكون واضحاً لهم منذ البداية بأن احتمالات بقائهم على قيد الحياة توازي الصفر – لا يرتدع بعضهم عن ذلك لأنهم يكونوو على يقين بتحوّلهم إلى شهداء و يطلق بعضهم النار لاعتقادهم بأنهم قد ينجحوا بالهروب تحت وابل النيران ، أما نحن فكنّا نمتنع و في جميع الأحوال و بصورة عامة عن المخاطرة الزائدة . و عندما كنا نواجه إطلاق نارٍ كنا نستخدم أسلحة تغطي الهدف كاملاً بالنيران .

كان المطلوبون و في معظم الأحوال (مخرّبون) عنيفون جداً . قتلوا دون رحمة عرباً اشتبه بتعاونهم مع (إسرائيل) . كان بعض ضحاياهم أبرياء و منهم مواطنون أبرياء خطيئتهم الوحيدة زيارتهم مرة واحدة مكاتب الحكم العسكري بهدف طلب مساعدة طبيّة لأحد أفراد العائلة . كانت جرأة القتلة كبيرة إلى درجة لا يتردّدون فيها عن العمل علناً و في وضح النهار . و بنظرهم كان لذلك تأثير رادع على السكان المحليين .

اتخذ المطلوبون سبل حذرٍ كثيرة بهدف الحيلولة دون وقوعهم بأيدينا . لم ينطلقوا من أماكن اختبائهم قبل قيام خلية الحراسة المرافقة لهم بجولة ميدانية في المنطقة للتأكّد من نظافتها من رجال الأمن (الإسرائيليين) . كانت هناك أساليب إنذار متفق عليها بين الحراس و المطلوبين مثل الصفير و الضرب على النوافذ أو التلويح بقطعة قماش حمراء . و عندما كان يعرض على شخصٍ ما الانضمام إلى حارس مطلوب رفيع المستوى ، كان يرى بذلك شرفاً كبيراً . حلم حراس كثيرون بتعيينهم حراساً على المهندس ، لكن قلائل فقط هم الذين حصلوا على هذا الشرف . وجد مطلوبون كثيرون ملجأ لهم في حي القصبة بنابلس و كانوا ينطلقون من هناك للقيام بعملياتهم في المنطقة . و كان أحد البارزين منهم ناصر عماد . صفّى بوحشية عملاء كثيرين و نظّف المنطقة من العاهرات و تجار المخدرات . كان و رجاله يلقون القبض على المتهمين و ينقلوهم للتحقيق و يعذّبوهم حتى يعترفوا بالتهم المنسوبة إليهم . كان أحد أساليب التعذيب لديه دفن الذين يجري التحقيق معهم أحياء و سحبهم من القبر لدى بدء اختناقهم . وأطلق النار على ركب المتهمين ، و عالجهم بالحديد الساخن و في النهاية و بعد اعترافهم فيما يطلب منهم كان يطلِق النار على رؤوسهم .

نصبنا له كميناً ، فترة طويلة جمعنا التفاصيل الواحدة بعد الأخرى لمعرفة نمط حياته في القصبة ، و ساعات العمل المفضلة لديه . فوجِئنا كثيراً لعدم نجاحنا في إلقاء القبض عليه رغم الكمائن الكثيرة التي وزّعناها في الأماكن التي من المفروض وجوده فيها . و فقط بعد فترة اتضح لنا سبب تمكّنه من الفرار من أيدينا . كان ببساطة يتجوّل في المنطقة متنكّراً بملابس امرأة تضع نقاباً على وجهها . و في نهاية المطاف تكلّلت مجهوداتنا بالنجاح . في إحدى المرات و بعد أن خرج للعمل مرتدياً كعادته ملابس امرأة حاصرناه و رجاله ، و قتل خلال عملية تبادل إطلاق النار التي بدأت بعد أن اتضح له وقوعه في الفخ .

من بين ما استوجبته محاربة المطلوبين المساعدة غير القليلة من مصادر بشرية ، كانت الأخطار التي يعرّضون أنفسهم إليها هائلة . كان من الممكن أن تؤدّي شكوك مهما كانت بسيطة حول تعاونهم مع (إسرائيل) إلى تصفيتهم . كان أحد عملائنا الهامين في قطاع غزة مهرّباً ذكياً ، اعتاد الإبحار بسفينته إلى مجال المياه الإقليمية المصرية ، حيث كان يلتقي سفناً مصرية تنقل إليه بضائع مختلفة بالإمكان بيعها بأرباح عالية في المناطق و في (إسرائيل) .

أغمضنا عيوننا عنه فترة طويلة و سمحنا له بالتهريب . و نسّقنا مع سلاح البحرية بحيث لا تكون أيّ من سفنه و لا أي وحدة عسكرية في المنطقة عندما كان يحمّل أو يفرغ بضائع من سفينته . و بسرعة راجت شائعات في المناطق بأنه مهرّب بالإمكان الاعتماد عليه .

فضّلنا مبدئياً إلقاء القبض على المطلوبين على اليابسة ، و كان إلقاء القبض عليهم في البحر أصعب بكثير و ذلك لأن سفن الصيد صغيرة مزوّدة بمحركات قوية ، و كانت مرنة الحركة و أسرع بكثير من "دبوريم" التابعة لسلاح البحرية . عقدنا الآمال على تمكّننا و بمساعدة المهرّب الذي أصبح عميلاً لنا ، من إغلاقٍ جزئي لمسار الهروب عبر البحر .

أبلغنا العربي في يوم ماطرٍ رمادي بكانون الأول 1990 ، أن أربعة مطلوبين أعضاء في مجموعة الفهد الأسود من قطاع غزة يريدون الهروب إلى مصر بمساعدته . كان هؤلاء (مخرّبون) بحثنا عنهم فترة طويلة ، بعد مشاركتهم بعمليات خطيرة . و واتتنا الفرصة الآن لإلقاء القبض عليهم . حشدت على الفور جميع القوى المطلوبة بهدف ضمان نجاح العملية . كانت سفن سلاح البحرية تناور في منطقة غير بعيدة و نصبت كمائن على الشاطىء و غطّت المراقبة الجويّة المستمرة جميع المنطقة . انطلقت مع مجموعة القيادة إلى المنطقة و تمركزنا قرب ميناء سفنٍ ليس بعيداً عن مخيم اللاجئين دير البلح .

وصلت سيارة جيب خضراء الساعة 15:30 إلى مكب نفايات مجاور ، قفز أربعة رجال منها و سارعوا إلى سفينة المهرب ، و قدّمت المراقبة الجوية تقريراً أكدت فيه نزول الأربعة إلى مخزنٍ في بطن السفينة . فرش العربي أكياساً قديمة عليهم و أبحر . و بعد فترة قصيرة اقتربت سفن سلاح البحرية من السفينة و أطلقت نداء إليها بالتوقف . طرأ انعطاف في هذه المرحلة لم نفكّر به مسبقاً . أصيب المهرب و بصورة مفاجئة بالذعر تخوّفاً من أن يؤدّي إلقاء القبض على المطلوبين الأربعة إلى إثارة شبهات لدى المنظمات بأنه يتعاون مع (الإسرائيليين) . عندما خطّطنا للعملية وجّهنا إليه تعليمات واضحة بإيقاف السفينة في اللحظة التي تقترب منه سفن سلاح البحرية ، و عوضاً عن ذلك انطلق بأقصى طاقة محرّك السفينة نحو الشاطىء . و تخلفت سفن سلاح البحرية وراءه . لكن الطائرة المروحية ، التي كانت تتابع ما يدور عن

كتب وجّهت تعليمات إلى القوة البرية بالاستعداد في الموقع الذي تقترب منه السفينة . و سار كلّ شيء على ما يرام و اعتقل الأربعة فور أن وطئت أقدامهم الرمال .
و من أجل عدم إثارة الشكوك اعتقلنا أيضاً المهرّب . و قال إنه لم ينفّذ تعليماتنا لإحساسه بالخوف . أطلقنا سراحه لكن ليس قبل إعداد رواية مناسبة له . نجم إطلاق سراحه السريع ، من الناحية الشكليّة ، عن تصديق محققي "الشاباك" لروايته بأنه أجبر على تهريب المطلوبين بعد ممارستهم ضغوطاً كبيرة عليه ، حيث لم يعد أمامه خيار آخر . بدا هذا الإيضاح مقنِعاً . و بعد فترة قصيرة من ذلك توجّه إليه مطلوبون من أجل تهريبهم إلى مصر . و بقينا طوال الوقت في الصورة .
عمل المطلوبون دون هوادة على إبداء جرأة كبيرة جداً ، و على المبادرة بعمليات تصبح مدار حديث الشارع العربي . نجمت هذه الحدة عن إحساسهم في الفترة الأولى لنشاطاتهم بأن السكان لا يدعموهم بدرجة كافية . كانوا بحاجة للسكان من أجل الحصول على الأموال و الملاجىء . و لهذا كان لزاماً عليهم عرض إنجازاتٍ و بكثرة . و هذا ما حدث فعلاً ، إذ أدّى نجاحهم بالبقاء لفترة أطول و بروز نشاطاتهم الميدانية إلى مضاعفة التعاطف معهم و بعد ذلك مضاعفة دعمهم . و بدأت و مع مرور الزمن المنظمات في لبنان و سوريا و تونس و دول عربية أخرى بملاحقتهم و ذلك بهدف ربطهم بنشاطات عنفٍ تتوافق و مصالحها . و بالفعل وجد هنا و هناك تعاون زوّدت المنظمات في إطاره المطلوبين بأسلحة و عملت على تدفق الأموال إليهم بواسطة مبعوثين من سكان المناطق . لكن فضّل معظم المطلوبين البقاء "ذئاباً ضالة" أو العمل في إطار مجموعات محلية صغيرة .
كانت محاربة المطلوبين و دون أدنى شكّ إحدى النجاحات الكبيرة للمخابرات العامة . و للأسف فقدنا خلال هذه الحرب الطويلة والقاسية عدد من افضل رجالنا . و تمكّنا في نهاية المطاف و من خلال التعاون الوثيق مع الوحدات المختارة في الجيش و حرس الحدود من تقليص هذه الظاهرة بدرجة كبيرة .
تحوّلت مواجهتنا للمطلوبين مع إقامة السلطة الفلسطينية و بصورة طبيعية ، إلى أصعب بكثير . لم تعتقلهم السلطة إلا إذا أزعجوها و بالطبع لم تسلّمنا أياً منهم .

خمسون عذراء في جنة عدن

برزت في مطلع سنوات التسعينيات و للمرة الأولى ظاهرة (المخرّبين) (الانتحاريين) . كانت تلك بداية حقبة العمليات الخطيرة جداً للمنظمات المتطرّفة ، التي أرادت و من خلال هذا الأسلوب إفشال مسيرة (السلام) . و بالفعل خلال العامين بعد اتفاق أوسلو نفّذ ليس أقل من عشرين عملية (انتحارية) . كان أعضاء حماس في قطاع غزة أول من استخدم هذا الأسلوب . و سار في أعقابهم أعضاء الجهاد الإسلامي . و طرأ تصعيد كبير على العمليات (الانتحارية) في أعقاب المجزرة التي ارتكبها باروخ غولدشتاين في الحرم الإبراهيمي في شباط 1992 .
عندما اتضح اتخاذ ظاهرة (الانتحاريين) أحجاماً واسعة جداً صاغ قسم الأبحاث في القسم العربي في "الشاباك" أبحاثاً و وثائق مواقف أرسلت إلى إسحاق رابين رئيس الحكومة و لعناوين أخرى في الأوساط السياسية و لأوساط أخرى . كتب فيها بأن العمليات و خصوصاً العمليات التي يقوم بها (انتحاريون) مسلمون تشكّل تهديداً استراتيجياً لدولة (إسرائيل) .
إلى حين استخدام المنظمات لـ (الانتحاريين) لم يوصف العنف بأنه يشكّل تهديداً لوجود دولة (إسرائيل) ، لكن أدّت نشاطات (الانتحاريين) إلى وجود واقع جديد : مست نوعياً بأمن المواطنين في (إسرائيل) ، و حدوث تعثّر في مسيرة السلام و زعزعت الاستقرار في المنطقة جميعها . و أكد الباحثون بأن لهذه الظاهرة الجديدة نتائج على مجالات أخرى : المس بالمعنويات الوطنية و بطابع الردع و التشويش على مسار الحياة و إلحاق أضرارٍ مباشرة و غير مباشرة بالاقتصاد و أمور أخرى .
ورد في إحدى الوثائق أن موجة العمليات القاسية قد تؤدّي إلى وضع جديد – من الناحية العملية ، حالة طوارىء – تستوجب مواجهته ، استبدال عنف ردة الفعل و أساليب و أعراف اللعبة القديمة . و تم التأكيد أيضاً على أن محاربة (الإرهاب) تستوجب نشاطات مستمرة متتالية و عنيدة في أماكن و أزمنة مختلفة ، و تنسيق فيها أساليب و وسائل و قدرات متوقرة لنا . و ورد هناك أيضاً أن الاستخبارات النوعية شرط لمحاربة ناجحة لـ (الإرهاب) .

توقعت هذه الأبحاث أن يؤدّي انسحابنا المتوقع من مناطق شاسعة في أعقاب الاتفاق مع الفلسطينيين إلحاق أضرار كبيرة بالقدرات الذاتية للأوساط الأمنية (الإسرائيلية) على جمع معلومات و إفشال عمليات . و بناء على ذلك سيكون من الصعب ضرب البنى التحتية لـ (الإرهاب) دون السيطرة على المناطق الموجودة و العاملة فيها و التي تتمتع فيها ببيئة و أجواء مناصرة . كما أعرب كتبة الأبحاث عن اعتقادهم أن السلطة الفلسطينية تستطيع و من خلال استخدام أجهزتها التسبب بضعف حقيقي لتهديدات (الإرهاب) الإسلامي ، لكنها غير مصمّمة بما فيه الكفاية ، و غير ناجعة بالدرجة المطلوبة . و أكدت الأبحاث أن ضغوطاً كبيرة تمارسها (إسرائيل) و أوساط دولية على السلطة الفلسطينية و تهديداً لإنجازاتها السياسية و تهديداً لوجودها ، هي التي يمكن أن تدفع عرفات لمحاربة مستمرة لا هوادة فيها لـ (الإرهاب) الإسلامي . الاتفاقات أو التفاهم المحتمل بين السلطة الفلسطينية و بين أوساط (الإرهاب) لا تشكّل ضمانة لوقف (الإرهاب) . التداخل السكاني الفلسطيني – (الإسرائيلي) يضع عقبات أمام منع (الارهاب) . و بكلمات أخرى : يجب تنفيذ سياسة الفصل التي دعا إليها إسحاق رابين .

تستوجب المحاربة الناجعة لـ (الإرهاب) معالجة (المخرّب) و الذين أرسلوه و الذين ساعدوه و الذين موّلوه و المحيط المؤيد له . كانت تقديرات "الشاباك" تؤكّد بأن المسّ بعائلة (المخرّب) و ممتلكاته ، يشكّل اعتباراً حاسماً في مجمل اعتبارات (المخرّب) و المرشح لتنفيذ عملية (انتحارية) .

يتغذّى (الإرهاب) في منطقتنا أيضاً من مساعدة خارجية ، و بناء على ذلك أكدت الأبحاث أن مواجهته تستوجب تعاوناً دولياً . و يجب الأخذ بالحسبان بأن توجيه ضربات قاسية لبؤر (الإرهاب) قد تؤدّي إلى ردود فعل حادة ، بما في ذلك في خارج البلاد . تستوجب نجاعة مكافحة (الإرهاب) تحسين نوعي لقدرات المخابرات في مجال الإفشال و تحديد أهداف لمعالجة موضوعية ، و المبادرة و تحديد قدرات هجومية لضرب أهداف محدّدة . و أكّد كاتبو الأبحاث أنه من أجل تحقيق هذه الأهداف يجب تخصيص المصادر المطلوبة .

أما بالنسبة للقدس فقدّمت توصيات بإضفاء نجاعة على مراقبة الشرطة (الإسرائيلية) للمداخل المنظمة و غير المنظمة للمدينة و مضاعفة نشاطات "الشاباك" و منع وجود بنية تحتية لحماس في المدينة و في جميع أرجاء (إسرائيل) . و في هذا الإطار حددت سلسلة من الخطوات العملية منها إغلاق مؤسسات و مكاتب و صحف و تجفيف التمويل و مصادرة ممتلكات و القيام باعتقالات و إجراء تحقيقات مدروسة سلفاً و منع التحريض و معالجة رجال الوعظ الذين يحرضون على (إسرائيل) و الإثقال على الاتصالات بين أوساط إسلامية في القدس و بين مصادر إسلامية في أوساط العرب في (إسرائيل) .

كانت النشاطات في "الأورينت هاوس" دائماً هدفاً مثيراً لاهتمام أجهزة الأمن ، و ذلك بسبب حقيقة وقوف فيصل الحسيني على رأسها و وجود جمعية الدراسات الفلسطينية هناك ، و خصوصاً جراء الحقيقة بأن "الأورينت هاوس" تحوّل إلى نوع من سفارة منظمة التحرير الفلسطينية في القدس . في أعقاب المعلومات التي تلقيناها عن النشاطات في هذا المقر اتخذت عدة مرات إجراءات محدّدة ضد أشخاص عملوا فيه . و أصدرنا في حالات متباعدة جداً قرارات تحظر نشاطات تمّ التخطيط لها في "الأورينت هاوس" بعد تلقّينا معلومات مسبقة عنها .

كان تغلغل عملاء إلى منظمات الإرهاب الإسلامية الأصولية مرتبط و بصورة دائمة بصعوبات كبيرة . و كان الحصول على معلومات مسبقة عن الإعداد لعمليات (انتحارية) بمثابة مهمة شبه مستحيلة . لم نستطع أخذ شابٍ عادي و تحويله بين ليلة و ضحاها إلى مسلم متزمت ، ذو لحية ، يحافظ على تأدية الصلاة في المسجد و إدخاله إلى قسم العمليات في إحدى هذه المنظمات . إن بناء شخصية جديدة كهذه لعميلٍ محتمل ، تبدو موثوقة ، مسيرة منهكة قد تستمر سنوات . و إضافة لذلك يجب أن نأخذ بالحسبان دائماً أخطار تأثر العميل بالبيئة الجديدة إلى درجة توبته و تحوّله نفسه إلى إسلامي متطرف و عمله ضدنا . و لم يتوفّر الوقت لنا ، إذ كان لزاماً علينا الوصول إلى نتائج سريعة . و لهذا وجّهنا معظم مجهوداتنا لاستخدام أشخاص مقرّبين من المنظمات الإسلامية يبدون استعداداً لمساعدتنا مقابل مال أو لاعتبارات أخرى .

بمساعدة هؤلاء و بفضل نشاطاتنا الاستخبارية المتشعبة نجحنا بمنع و إفشال نشاطات (إرهابية) كثيرة .

خابت آمالنا أكثر من مرة من العملاء الذين استخدمناهم . كان هناك من خانونا و غدّونا بمعلومات خادعة ، و توجه بعضهم إلى رجال أجهزة العمليات في منظمات (الإرهاب) و كشفوا لهم النقاب عن تجنيدنا لهم و طالبوا الانضمام إليهم بهدف العمل ضدّنا . لكن رغم العقبات الكثيرة التي تراكمت أمامنا نجحنا أكثر من مرة بتوجيه ضربات قاسيةٍ لهذه المنظمات ، لكن تأثير هذه الضربات كان في معظم الأحوال مؤقتاً فقط . و كانت تشكل قدرة المنظمات الإسلامية على الانتعاش و تعاطف الشارع العربي اعتباراً مضاداً و نوعياً . و حتى إذا اعتقلنا معظم الأعضاء ، لم تجد المنظمة صعوبة بالعثور على نواة صغيرة لـ (انتحاريّين) محتملين .

على العكس من الانطباع السائد ، لم يكن العنصر الديني الحافز الوحيد (للانتحاريّين) . أثارت الانتفاضة في أوساط شبانٍ كثيرين رغبة بالانتقام من السلطة (الإسرائيلية) بسبب سلسلة طويلة من القضايا : اعتقالٌ مستمر بظروفٍ قاسيةٍ ، فقدان أحد أفراد العائلة أو صديقٍ عزيزٍ في أحد الاشتباكات ، معاملة مهينة أثناء التفتيش و قضايا مماثلة أخرى كثيرة . و أكثر من مرة كان يكفي قيام جنديٍّ على حاجزٍ عسكريٍّ بإهانة أم شابٍّ بسبب مسألةٍ تافهةٍ ليشعل لديه نار الانتقام . إذا أخذت العنصر الديني و الرغبة بالانتقام و أضفت إليها الأزمة الاقتصادية ، و ضممت إلى ذلك الوعد بانتظار (الانتحاريّ) على أبواب الجنة على الأقل خمسون عذراء ، و اهتمام المنظمة على الأرض بدخل العائلة – كلّ هذا يشكّل أرضاً خصبة لعددٍ غير قليلٍ من الشبّان لإبدائهم استعداداً لـ (الانتحار) .

(الانتحاريّون) النموذجيون بنظر أعضاء حماس و الجهاد الإسلامي هم شبّانٌ غرباء من عائلات فقيرةٍ ذوو إيمان ديني عميق يسيرون وراء قائدهم الروحي بعيون مغلقة و يبدون استعداداً لتنفيذ جميع تعليماته . و بالطبع يجب أن يكونوا جريئين و توجد أفضلية لمن لديه تجربة ما في مجال تنفيذ عمليات .

وجدنا بعد الدّراسة أن معظم (الانتحاريّين) تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر عاماً و أربعة و عشرون عاماً ، حصلوا على تعليم ثانوي أو أكثر . و كان هناك تمثيلاً كبيراً من قطاع غزة و مناطق جنين و قلقيلية و رام الله في أوساطهم . كان لجميع هؤلاء علاقة تنظيمية مع حماس أو الجهاد الاسلامي أو على الأقل علاقة صداقةٍ مع أعضاء في هاتين المنظمتين . كان لديهم جميعاً حافز ديني– وطني واضح و أرادوا جميعاً الاستشهاد في نضال ضدّ (إسرائيل) . بعضهم أراد الانتقام على مسٍّ بهم أو بأفراد عائلاتهم ، بعضهم أراد الرّدّ على المسّ بالمقدسات الإسلامية ، اجتازوا جميعاً قبل الانطلاق للمهمة (الانتحارية) طقوساً دينية ، طهّروا أجسادهم ، صاموا و أدّوا صلاةً معينة و التقوا رجال دينٍ و مجموعات تؤيد المنظمة . في معظم الأحوال تضمنت مرحلة الإعداد النهائية كتابة وصية و تصويراً بفيديو و تسجيلاً للأقوال الأخيرة لـ (الانتحاري) ، و سداد ديون و توزيع حلويات على أقرباء العائلة و على أصدقاء . الإعداد الفني قصير و لا يتضمّن تعقيدات . كانت هذه الأعمال مؤشّرات و دلائل ساعدت "الشاباك" بتحديد على الأقل جزء من (الانتحاريّين) قبل انطلاقهم لتنفيذ مهامهم .

كانت التوجيهات الفنيّة و في معظم الحالات أساسية و بسيطة . يطلب و بصورةٍ رئيسية من (الانتحاري) الذي من المفروض به تفجير عبوةٍ ناسفةٍ ملتصقة بجسده ، الوصول إلى المكان المحدّد دون إثارة شكوك و الضغط على زر التشغيل . و يتم تقديم توجيهات أكثر شمولية لـ (الانتحاريّين) الذين يكلّفون بنقل سيارة ملغومة . لا يتضمّن تدريبهم فقط كيفية تفجير العبوة ، بل و يتعلّمون أيضاً السياقة الصحيحة لسيارة مليئة بموادٍ متفجرة . و إجراءات تأهيل (الانتحاري) يجب أن تكون قصيرة قدر الإمكان و ذلك لمنع تسريب السر . و كما هو متبع في حماس فإن سرية تامة تكتنف هذا الموضوع . لا يعرف الأشخاص الذين يعدّون المواد المتفجرة أو السيارة الملغومة من سيستخدمها . و حتى الزعيم الدينيّ يستدعى لممارسة تأثيره فقط قبل يوم أو يومين من موعد تنفيذ العملية .

ضآلة المواد (الانتحارية) الضرورية وضعت صعوبات أمام إلقاء القبض على (المخرّبين) (الانتحاريين) قبل انطلاقهم للعمل . استخدمت صورة (الانتحاري) المحتمل التي كوّناها ، كأداة مساعدة لرجال المخابرات الميدانيين ، لكن لم تكن هذه صيغة مذهلة تؤدّي إلى تحديدهم . اعتقلنا إحدى المرات في نابلس (إرهابياً) و أحضرناه إلى جهاز الكشف عن الحقيقة ، من أجل معرفة إذا كان متورّطاً بالتخطيط لعمليات . نفى كلّ شيء و أكّد الجهاز نفيه . و بعد فترة وجيزة من ذلك قام بعملية (انتحارية) كبيرة في القدس .

منعنا وقوع عمليات (انتحارية) كثيرة ، و لم تصل إلى وسائل الإعلام معلومات عن نمطها . عملنا بتعاون وثيق مع الجيش (الإسرائيلي) ، و مع الشرطة و حرس الحدود . لكن كامل المسؤولية عن الكشف عن (المخرّبين) و إفشال وقوع عمليات و إلقاء القبض على متورّطين بنشاطات (إرهابية) ، ألقيت على كاهل المخابرات العامة .

تكمن السخرية الكبرى في أن الانطباعات عن المجهودات الهائلة التي تبذل و النجاحات التي تحرز في منع ألف عمليةٍ كبيرةٍ تتلاشى في اللّحظة التي تقع فيها عمليةٍ واحدة و وحيدة في وسط مدينةٍ كبيرةٍ . و في حالات كهذه تثار ، بالطبع ، مشاعر فشل الجهاز ، تجري مداولات لأخذ العبر و يتضح لك موقع الخطأ الذي ارتكب و كم كنت قريباً من إفشال العملية . كلّ هذا ممكن أن يكون مجدياً في المستقبل ، لكن تبقى خيبة الأمل الكبيرة قائمة . إبان الانتفاضة و في الأيام التي لحقتها كشفت المخابرات عن عشرات خلايا (المخرّبين) كل شهر ، كانت هناك احتمالات حقيقية لتنفيذ عمليات تحمل كوارث في طياتها . لكن الاعتقالات الواسعة و التحقيقات و أخذ العبر الهامة جداً لم تنجح و لن تنجح في منع العملية الوحيدة التي تلقي بظلالٍ كبيرةٍ على جميع المجهودات الكبيرة المبذولة .

قتل في منزل اللقاء

لم يعرف جهاز المخابرات العامة ، المؤسسة المدنيّة ، التي تقوم بمهام حساسة ، حتى حرب الأيام الستة ، سقوط ضحايا ، و منذ لحظة دخولنا المناطق أصبح "الشاباك" متورّطاً بحرب بكافة الأخطار الكامنة فيها . و كان رفاق دربٍ سرت معهم شوطاً طويلاً من بين الشهداء الأوائل "للشاباك" ، فاجأنا موتهم و شكّل تصدّعاً لعهد الدفاع الوهمي الذي يؤكّد عدم وقوع ذلك لرجالنا . سقط منذ ذلك الحين تسعة و عشرون عاملاً في الجهاز خلال عمليات و مهام ميدانية و حراسة و مجالات عمل أخرى . سقط خمسة من رجال "الشاباك" و تسعة و عشرون من جهاز الحراسة في معارك (إسرائيل) .

قتل آفي نويفلد ، رجل قسم العمليات و الذي تعرّفت عليه و ربطتني به أواصر صداقة ، فور وصوله مع وحدة العمليات إلى نابلس في الوقت الذي كنت فيه جامع معلومات شاب ، من شظايا قنبلة خلال عملية في غزة . و خنق شمعون درعي حتى الموت على أيدي (مخرّبين) أثناء نقل وحدة العمليات ، أسرى من نابلس إلى جنين . و سقط فيكتور أرجوان الذي رافقني بجولات في غزة خلال رئاستي للجهاز بمعركة مع خلية (قتلة) من حركة الجهاد الإسلامي لاذوا بالفرار من سجن نفحة و عثر عليهم في حي الشيخ رضوان في قطاع غزة . و سقط كثيرون أثناء قيامهم بمهامهم .

رافقناهم في دربهم الأخير ، و الألم يعتصرنا . كانت مشاعرنا الأولى عبارة عن غضبٍ مكبوتٍ و رغبةٍ بالانتقام ، و كان هذا أمر طبيعيّ و مشاعر إنسانية ، غضبنا لكن لم يتسلّل الخوف لنفوسنا ، بل كنا مصمّمين على الاستمرار بالعمل دون تردد و أيقنا بضرورة التخلّص بسرعة قدر الإمكان من التطلع للانتقام ، الذي يمكن أن يشوّش شبكة اعتباراتنا .

يواجه رجال "الشاباك" المشرفون على عملاء أخطاراً في كلّ ساعة و في كلّ يوم ، و كانت تسيطر على الأجواء طوال الوقت احتمالات إحساس العميل الوفي و بصورة مفاجئة بالندم و كشفه الحقيقة لمنظمة (تخريبية) ، و وجد هذا تعبيره أكثر من مرة ميدانياً . يقتل (المخرّبون) أحياناً العميل فور اعترافه و يرسلوه أحياناً لقتل المشرف عليه و ذلك من أجل إثبات صحة ندمه .

وصل موشيه (موسى) جولان ، من مواليد مصر ، إلى رتبة رائد في سلاح المدرعات قبل التحاقه "بالشاباك" ، توجّه بتاريخ 25 حزيران عام 1980 لعقد لقاء مع عميله في منزل لقاءات بنتانيا . كان هذا أحد المنازل التي استأجرها "الشاباك" في المدن الكبيرة من أجل عقد لقاءات سرية بين رجال "الشاباك" و عملائهم . وصل العميل غسان محمد حبش و عمره واحد و عشرون عاماً من مخيم اللاجئين بلاطة في الوقت المحدد للقاء ، الذي كان من الناحية الشكلية لقاءاً روتينياً و أحد لقاءات كثيرة عقدت بينهما ، لكن هذه المرة خطّط حبش لشيء مغاير ، إذ ألقى حبيبات فلفل أسود في عيون جولان ، و قبل تمكّن الأخير من الخروج من صدمته قتله طعناً بسكين و لاذ بالفرار . قتل العميل الخائن بعد أربعة أيام في ظلمة الليل في مدينة نابلس بعد مطارة استخبارية قام بها جامعو المعلومات الميدانيين و إعفاء قسم العمليات و الجيش و كان بحوزته مسدس موسى جولان .

سار كثيرون من أصدقاء موسى بالعمل وراء نعشه ، و كان من بينهم قدماء عرفوه و قدّروه منذ سنوات طويلة . و كان هناك أيضاً من انضموا إلينا منذ فترةٍ قصيرةٍ لكنهم عملوا معه و تعرّفوا عليه . ارتعشت الأفئدة من كلمات التأبين ، لقد أحبه الجميع كفردٍ من عائلة و أيقنا جميعاً بأننا سنفتقده .

كان قدماء العاملين في الجهاز و الذين حضروا لإلقاء النظرة الأخيرة على زميلهم ، يشاركون أيضاً في الأفراح العائلية لزملائهم ، إنها مجموعة من الأشخاص متراصة جداً ، مثل العائلة الواحدة ، يحسن فيها كلّ فرد معرفة الآخر . كان بالإمكان و بصورة دائمة الإحساس بالود الكبير السّائد بين هؤلاء الأشخاص و بينهم و بين قادتهم . ذرف إبراهام أحيطوف القائد الصلب للجهاز الدموع على قبر موسى .

ولد حاييم نحماني بالقدس و خدم ضابطاً في وحدة قتالية بالجيش و التحق في نيسان عام 1990 بالجهاز . و قال أحد أصدقائه : "كان مخلِصاً جداً للعمل ، شابٌّ هادئٌ ذو ذاكرةٍ ممتازة ، لم يتذمّر نهائياً و كان يقول : "إذا لم نكن نحن فمن إذاً ؟" . حدّد بتاريخ 3 كانون الثاني 1993 لقاءاً مع عميلٍ في منزل "الشاباك" بحي رحافيا في القدس . ولد العميل ماهر أبو سرور – 22 عاماً – في بيت جالا و درس إدارة الأعمال و الآداب في جامعة بيت لحم . اعتقل في تشرين الثاني 1989 بتهمة تأييده لحماس و لم يعد للدّراسة بعد إطلاق سراحه و فتح عوضاً عن ذلك صالون حلاقة في مخيم اللاجئين عايدة قرب بيت لحم . و بعد فترةٍ قصيرةٍ من ذلك و في كانون الأول 1992 تم تجنيده كمصدر معلومات "للشاباك" . وصل للقاء نحماني برفقته اثنان من أفراد عائلته و ذلك بهدف تطهير سمعته من الشبهات التي التصقت به في

الشارع العربي ، و قتل رجل "الشاباك" طعناً بسكينٍ و بضربات مطرقة . اعتقل قريباه بعد حوالي أسبوع بتهمة المساعدة بالقتل ، و أشارا خلال التحقيق معهما إلى تنفيذ أبو سرور عملية القتل بيديه .
أصبح أبو سرور المطلوب الأول في المناطق ، عثِر عليه خلال عمليات البحث المكثفة في قرية بلواء الخليل ، لكنه تمكن من الفرار من أيدي قوات الأمن . حاول أبو سرور برفقة (مخرّبين) آخرين بتاريخ 1 تموز 1993 خطف حافلة تغصّ بالركاب قرب مقر قيادة الشرطة في القدس ، و ذلك بهدف المطالبة بإطلاق سراح معتقلين و إعادة مبعدين مقابل إطلاق سراح الركاب . فشلت المحاولة و سيطر الثلاثة على سيارة كانت تقودها جنيت قدوش و أخذوها رهينة ، لكنهم اصطدموا و خلال فرارهم بحاجز لحرس الحدود و قتل الثلاثة و المرأة (الإسرائيلية) أيضاً خلال تبادل إطلاق النار . كانت جثث (المخرّبين) الذين عثر عليهم في السيارة متفحّمة ، و تم التعرّف على أبو سرور فقط بعد عدة أيام ، و من بين ما أدّى إلى التعرّف عليه منشورات وزّعتها حماس تعلن عن موته .
تحدّث قائده في جنازة نحماني رجل "الشاباك" الذي قتله أبو سرور عن "الجنود المجهولين الذين يقفون في خط النار الأول و الذين يواجهون كلّ ساعة و كلّ يوم العدو ، تحرّكهم شجاعتهم و تحميهم جرأتهم" .
كان نوعام كوهين جامع معلومات ميداني "للشباك" في رام الله . و هو من عائلة متديّنة ، خريج مدرسة دينية في الكيبوتس الديني بعلوميم و خريج دورية هيئة الأركان ، و كان يتمتع بسمات قيادية واضحة . لا يتهرّب بتاتاً من تحمّل المسؤولية ، انضم "للشاباك" بعد تسريحه من الجيش برتبة مقدّم . وصف في التقييم الأولي له "جامع معلومات من الطراز الأول و موثوق" . توجّه بتاريخ 13 شباط 1994 إلى بلدة بيتونيا ، غير بعيدٍ عن رام الله بهدف لقاء عميل جنّده قبل فترة قصيرة ، من مخيم اللاجئين الأمعري . فوجيء فور وصوله إلى المكان بكمينٍ نصبه (مخرّبون) و قتل نوعام بعيارات نارية أطلقت على سيارته ، و كان عمره في حينه سبعة و عشرون عاماً ، و أصيب حارسان كانا برفقته بجروح .
نشرت صحيفة "معاريف" في اليوم التالي مقالاً بقلم تسفي غيلات حول نوعام و ضحايا "الشاباك" الآخرين ، و مما كتبه : "الضحايا أشخاص لا يكشف النقاب عن أعمالهم و هم على قيد الحياة ، و لا تنشر دائماً حتى بعد وفاتهم . و فقط أحياناً تفتح نافذة ضيقة على عالمهم الخطير ، و من سوء الحظ تفتح هذه النافذة في زمنٍ حقيقي فقط في ظروف مأساوية . هؤلاء جنود مجهولون ، و لولا نشاطاتهم المجهولة لما كان بالإمكان محاربة (الإرهاب) ، لقد دفع و سيدفع في هذه الحرب ثمناً مؤلماً . هذه حقيقة قاسية و أحياناً ممقوتة لعالم نكران الجميل . من يعرف – يعرف و من لا يعرف – ينام بهدوء . و يؤكّد مضمون هذه الحقيقة أن لا نعرف كي نستطيع النوم بهدوء . مع تقدّم مسيرة السلام مع الفلسطينيين ، يتحوّل عمل "الشاباك" إلى أكثر قسوة و أكثر دموية ، و مع ذلك تصبح ضرورته أكثر حيوية . عدوّ نوعام كوهين رحمه الله ، ليس فقط عدوّي ، بل و أيضاً عدوّ ياسر عرفات و عدو احتمالات العيش هنا بهدوء" .
بذلنا مجهودات كبيرة بالبحث عن قتلة نوعام ، مثلما فعلنا في كلّ حالةٍ قتل فيها أحد رجالنا . أقسمنا على الوصول إليهم ، و أيقنا بأننا لن نتوقف عن ذلك . اتضح من المعلومات التي جمعناها مشاركة ثلاثة (مخرّبين) بالكمين أنقذهم من هناك بعد إطلاق النار هروبهم في سيارة . كان أحدهم العميل الذي خان و كان بحوزته على الأقل بندقية أم – 16 و مدفع رشاش كلاشينكوف و مسدس . و حسب النتائج التي توصّل إليها قسم التشخيص الجنائي التابع للشرطة ، استخدم الكلاشينكوف في عمليتين خطيرتين بالضفة الغربية ، قتِل فيهما يهود .
قتل اثنان من القتلة في النهاية بمعركة تبادل إطلاق نار ، بعد تطويق قوة عسكرية لموقع كانوا يختبئون فيه في أبو ديس ، شرقي القدس . و علِمنا بعد فترة من ذلك أن القاتل الثالث كان من المفروض أن يسافر في موعدٍ معيّن بحافلة عربية تعمل على شارع القدس – رام الله . وضعنا صناديق خضروات على سيارة تجارية صغيرة و رفعنا علم منظمة التحرير الفلسطينية على ظهرها ، و بعد استكمالنا هذه المهمة لم يكن بالإمكان التمييز بين هذه السيارة و سيارات تجار الخضروات الآخرين الذين يتجوّلون في شوارع الضفة ، و نصبنا كميناً للحافلة في أحد مفترقات الطرق و بدأنا بالسفر وراءه .
و حتى إذا شاهد القاتل السيارة المسافرة في أعقاب الحافلة ، لم يكن ليعتريه أي شكوك . و عندما نزل في إحدى المحطات توقفت سيارة الخضروات إلى جانبه ، تحرّكت صناديق الخضروات دفعة واحدة و اندفعت مجموعة من الأشخاص المسلحين نحو الشارع ، كانت هذه قوة مشتركة من دورية "دفدفان" و وحدة العمليات في "الشاباك" . شاهدهم القاتل بعد فوات الأوان ، و عندما أيقن عدم إمكانية هروبه حاول إطلاق النار لكنه قتل على الفور .
يدفن شهداء "الشاباك" بطقوس عسكرية كاملة و في مقبرة عسكرية و أمرٌ واحد هو الذي يميّز شواهد قبورهم عن الشهداء العسكريين – رمز المخابرات العامة منقوش عليها : نجمة رسم عليها شعار الجهاز : "نجمة دون أن يشاهدها أحد" .

"الشاباك" و رغم مهامه الأمنية و هيكليته شبه العسكرية . جهاز عمل مدنّي . يتوجّه الأشخاص إليه للعمل في مهام جذابة و المساهمة بأمن الدولة و للحصول على دخل . الجهاز عبارة عن طاقم ذو تصميمٍ و متراصّ و لهذا فإن سقوط أي شخص فيه يؤدّي إلى زعزعة قاسية جداً . يوجد هنا و هناك موظفون جيّدون متفانون ، و ربما يفكّرون إذا كانوا فعلاً على استعداد للمخاطرة لهذه الدرجة و لفترة طويلة . و ضاعفت من حدة هذه المشاعر الكارثتان الكبيرتان اللتان وقعتا في لبنان خلال حرب كرة الثلج (الحرب اللبنانية) – انهيار مبنى الحكم العسكري و انفجار سيارة ملغومة . أدّى فقدان أفضل رجالنا خلال فترة زمنية قصيرة إلى إثقال الهموم على الموظفين في الجهاز و إلى إثارة مخاوف كبيرة في أوساط أفراد عائلاتهم .

يشرف قسم التأهيل في وزارة الدفاع على معالجة قضايا العائلات الثكلى بتفاني ، لكن البنية الخاصة "للشاباك" و التقارب بين القيادة و الموظفين الميدانيين ، و تعوّد العائلات خلال سنوات طويلة على الاهتمام الشخصي و الفوري بهم في كلّ لحظة يريدون ، كلّ هذا دفعني للبحث عن إطار دعم داخلي أكثر دفئاً بالضبط كما تعوّدوا . وضعت نفسي في خدمة العائلات الثكلى و الأرامل و أبنائهم . شجعتهم على التوجّه إليّ و مشاركتي بالمشاكل التي تنغص عليهم ، و استخدمت علاقاتي الشخصية من أجل مساعدتهم بالعثور على حلول . أقمت نصباً في الألوية لإحياء ذكرى الذين سقطوا و بادرت بعادة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا : دعوة العائلات الثكلى لحضور جميع الحفلات المركزية للجهاز و ذلك بهدف إحساسهم بأنهم ما زالوا جزءاً منا .

كانت لي علاقات صداقة مع المظلّيين الذين أقاموا صندوقاً خاصاً بهم لمعالجة قضايا الأرامل و الأيتام . تأثرت بالاهتمام الكبير الذي يولونه لهذا الموضوع . شاهدت اهتماماً شخصياً متفانياً إلى درجة إرسال عامل مواسير لإصلاح صنبور في منزل عائلة ثكلى ، و حاولت إقناعهم قبول العائلات الثكلى "للشاباك" في إطارهم و دعوت نفسي لحضور عدة اجتماعات للجنة صندوق المظلّيين ، و تمكّنت من الحصول على مبتغاي ، و تطوّع الكثير من العاملين في الجهاز لمساعدة هذا الصندوق بقدر ما يستطيعون . شعرنا جميعاً بأن علينا دينٌ كبير حيال الشهداء ، لن نستطيع سداده ما حيينا ، و كان من الواضح لنا أنه لزاماً علينا بذل قصارى جهدنا من أجل مساعدة هذه العائلات . دعم صندوق المظلّيين و ساعد و شجّع كما شكلنا نحن أيضاً عنواناً لهم . تجنّدنا زملائي و أنا للعمل في المخيمات الصيفية ، التي نظمت لأطفال العائلات الثكلى ، و كنت أعمل نادلاً في غرفة الطعام أو مساعد طباخ . و عمل متطوّعون آخرون بالنقليات و بالتدريب الرياضي و قاموا بمهام كثيرة أخرى .

اعتدنا في الإجازة الصيفية على استئجار خدمات طلبة مدارس ثانويين للقيام بأعمال بسيطة في مقر "الشاباك" ، أبناء و بنات العاملين في الجهاز الذين يتطلّعون إلى جمع مصروف جيب و حافظت بصورة دائمة على دمج أبناء شهدائنا في هذا الإطار . و منذ وصولي إلى شركة "سلكوم" يعمل لدينا كحراسٍ بوظيفة جزئية أبناء عائلات ثكلى ، يتعلّمون في الجامعات و بحاجة لاستكمال دخلهم . و حتى اليوم ما زلت أستمع لجميع المشاكل التي تعاني منها العائلات الثكلى و أحاول عدم تفويت حضور مناسبات إحياء ذكراهم .

ما زلت أحتفظ بالرسالة التي بعثتها إليّ في ختام خدمتي كرئيسٍ "للشاباك" أرملة آفي بن شموئيل رجل الجهاز الذي قتِل جراء انهيار المبنى في صور : "لن تشبه آيات الشكر التي ستقال لك في احتفالات الوداع المختلفة ، آيات شكرنا . شكرنا من نوع آخر ، إنه امتنان عن المشاعر التي نجحت بنقلها لنا ، الإحساس بأننا لم نبقَ وحدنا ... كنت شريكاً حقيقياً ... و سنسير معك أينما اتجهت" .

خيال جامح في الكونغو

أصبحت الأزمة في حياتي الزوجية حقيقة قائمة ، حالة لا رجعة عنها . أكثرت من وجودي في القدس و هناك أيضاً تعرّفت على من ستكون في المستقبل زوجتي النهائية . كانت عيدنه هيرشمان سكرتيرة كتلة "يحاد" في الكنيست . و التقيتها المرة الأولى في لقاء عقدته بالكنيست مع عضو الكنيست بنيامين بن أليعيزر ، و كنت قد سمعت عنها قبل فترة طويلة من ذلك ، و تبادلت معها عدة كلمات مجاملة فقط . كان لقاؤنا الثاني في منزل صديقٍ قديم ، المحامي يحيال جوتمان ، و اقترحت عليها الخروج لتناول وجبة عشاء و وافقت ، و منذ ذلك الحين ارتبطت حياتنا معاً .

عيدنه زوجة مستقلة جداً ، قوية الشخصية ، عرفت بالضبط ما الذي تريده . ولدت في برلين لعائلة مهاجرين وصلت من بولندا ، والدها سليل عائلة من أنصار بلعاز . فتح والداها بقالة في الحيّ الألماني بالقدس فور هجرتهم إلى البلاد . و بعد توطيد علاقتنا توجّهت إلى يعيل ، و أبلغتها بكلّ شيء و بدا لي بأنها كانت تتوقع حدوث شيء من هذا القبيل و قالت فقط : "إذا كان هذا هو قرارك فإنني سأحترمه" .

تركت منزلي في نتانيا نهائياً عام 1985 ، و انتقلت للسكن في منزل عيدنه مع ابنها شارون و ابنها دورون ، و حصلت على تشجيع من ابني البكر أمير للخطوة التي قمت بها و وجد عدي و طال صعوبة باستيعاب مغزى التغيير الذي طرأ على حياتنا جميعاً . أشرفت عيدنه و بدرجة كبيرة مثل يعيل وحدها على تربية الأولاد منذ طلاقها . لم يكن لديّ أصدقاء كثيرون لأنه و بصورة طبيعية كان معظم الأشخاص المحيطين بي رجال "الشاباك" ، و امتنعت بصورة عامة عن إقامة علاقات اجتماعية وثيقة معهم و ذلك بهدف عدم المسّ بالعمل . كانت عيدنه صديقة حقيقية ، تعرف كيفية رفع المعنويات في اللحظات الصعبة ، كما عرفت تقديم نصح عقلاني و التربيت على الكتف عند الحاجة .

لم يوفّر الصحافيون الراحة لنا و لأنه يحظر عليهم نشر اسمي أو أي إشارة تدل على هويتي . اختاروا التلاعب بالرموز . و كتب أمنون أبرموفيتش "يطلقون على رئيس الشاباك أمير الجاذبية و يوجد من يقولون ثمرة الجاذبية ..." ، و بالطبع الذي لم يفهم لن يفهم . أما الذي فهم فمن المفروض تأثره بطابع الرمز . سار الصحافيون وراءنا في جميع المناسبات و الاحتفالات و بحثوا بدقة عن كلّ شذرة أنباء خاصة . و عن طرف أي حقيقة بالإمكان تضخيمها . وصفوني بالبوهيمي كمتطلّع للأوهام و كعازف أبواق في جميع الفرص . و ربما أثارت حقيقة وصولي إلى "الشاباك" ليس من خلفية تقليدية لرؤساء "الشاباك" – على سبيل المثال مثل خدمات المخابرات في الهاجاناه – و بأنني كنت على العكس منهم من مواليد البلاد ، شخص عادي ، فضول وسائل الإعلام . لقد حضرت عدداً أقل بكثير من الحفلات التي نسبوا حضوري إليها . و في جميع فترة خدمتي لم يكن لدي الوقت للعزف على البوق أكثر من ثلاث أو أربع مناسبات ، لكن بالنسبة لهم لتذهب الحقائق للجحيم و المهم الرواية الصحافية ، كانت "قضية الكونغو" نموذجاً ملموساً و ممتازاً لقدرة وسائل الإعلام على كتابة عناوين كبيرة لا أساس لها من الصحة .

بدأت القصة مع حاييم بورو الذي عمل ثلاث سنوات رئيساً لمكتبي و كان ما يزال حتى اليوم أحد أصدقائي المقرّبين . قرّر بعد استقالته من الخدمة إقامة شركة استيراد و تصدير للمنتوجات الغذائية من و إلى الشرق الأقصى . عرض على عيدنه العمل معه و وافقت ، لكن في نهاية المطاف لم تخرج الفكرة إلى حيّز التنفيذ . و في مرحلة لاحقة توجّه (إسرائيلي) ذو علاقات في أفريقيا إلى حاييم بورو و اقترح عليه إعداد مخطّط لمشروع حراسة لجيش الكونغو . لم يكن هذا عقداً مضموناً بل مجرّد اقتراح لتقديم مشاريع . صاغ بورو ملخّصاً و نقله إلى الوسيط (الإسرائيلي) و أيضاً لم ينجم عن ذلك شيئاً و تكبّدت الشركة التي أقامها بورو خسائر فادحة و ظلّت قائمة على الورق فقط ، و توقفت عيدنه عن العمل فيها فور وفاة ابنها دورون رحمه الله و الذي سأتحدث عنه فيما بعد .

مرت عدة سنوات و كنت تركت الخدمة في "الشاباك" . وافقت شركة (إسرائيلية) اسمها "لبدن" على مشروع الحراسة في الكونغو و اقترحت على حاييم بورو العمل مدرباً هناك ، و وافق . و ظهرت في الصحف في أحد الأيام أنباء عن إشراف عيدنه و بورو على أعمال في الكونغو . بحث الصحافيون و وجدوا أنه فور تسجيل شركة بورو سجّلت عيدنه كأحد الأشخاص أصحاب الأسهم . و بسبب إهمالٍ فقط لم يشطب اسمها من سجلات الشركة ، و بالطبع لم يكن لعيدنه أي علاقة بالكونغو ، لكن سيطرت الرواية على عناوين الصحف ، و لم يكلّف أحد نفسه عناء التأكد من القضية قبل نشرها . و عندما بحث هذا الأمر اتضحت الحقيقة ، لكن اتضاحها لم يؤدّ إلى تقليص الإساءة التي وقعت .

وقعت كارثة تركت آثاراً عميقة على عيدنه و المقرّبين منها . كان ابن عيدنه الرائد دورون هيرشمان يخدم في دورية "دفدفان" و توجّه في إجازة تسريحه مع صديقٍ له هو إيتسيك حياط ، طيار "كوبرا" للغوص في ساحل ذهب بسيناء و نزل الإثنان بتاريخ 3 تموز 1991 إلى الثقب الأزرق ، و لم يصعدا منه ، و كان من الصعب العثور على الجثتين في أعماق البحر و كان الأسلوب الوحيد لرفع الجثتين هو الاستعانة بخبراء سلاح البحرية ، طلبت من محمد بسيوني السفير المصري التوجّه للرئيس حسني مبارك من أجل السماح بذلك و حصل فعلاً على موافقته ، و بعد مجهودات استمرت أكثر من أسبوع سحبت جثتي دورون و إيتسيك و دفنتا في جبل هيرتسل ، و منذ ذلك الحين تتوجّه عيدنه شبه يوميّ لزيارة القبر .

كنت مرتبطاً جداً بدورون ، و عندما انتقلت للسكن في بيت عيدنه ، كان طالباً ثانوياً و كان قائد سرية "استطلاع" في الحركة الكشفية ، كان شاباً لامعاً ، أكثر من قراءة الكتب و الاستماع للموسيقى . أيّد دورون بحرارة شبكة العلاقات القائمة بيني و بين أمه ، و تطوّرت بيننا بسرعة صداقة جريئة . و رغم هوة السن الكبيرة بيننا كان هناك مواضيع كثيرة نتبادل الحديث حولها و تمتّعت جداً برفقته و اعتاد

استشارتي بشؤون كانت تقلقه و لأنه كان على وشك تسريحه من الجيش شاركني بتردّده ببلورة مستقبله ، درس إمكانية التعلّم في الولايات المتحدة ، لكنه لم يكن اختار بعد المسار الذي يريد ، و نغصت وفاته المأساوية غير قليل على حياتنا .

تزوّجتني عيدنه عام 1993 ، و كانت وسائل الإعلام تترصّد كلّ خطوة لنا . و كتب في صفحات الاجتماعيات دون توقف عن "رئيس الشاباك و رفيقة حياته" و تخوّفنا من الضجة الإعلامية حول الطلاق من يعيل و الزواج من عيدنه و حافظنا على ترتيب الأمور بصورة سرية جداً و كنا نهرب في كلّ مرة من الأروقة الخلفية للمحكمة الحاخامية ، و سلّم ولداي عدي و طال مع مرور السنين بالتغيير الذي طرأ على حياتي ، أما التي لم تسلّم بذلك فكانت والدتي التي ظلّت حتى اليوم الأخير في حياتها صديقة ليعيل .

كانت الإثنتان تقطنان ليس بعيداً عن بعضهما البعض ، و كانت يعيل تهتم بشؤونها بدرجة غير قليلة ، و توفيّت أمي عام 1998 عن عمر يناهز الخامسة و الثمانين . و امتنعت أمي في كلّ مرة كنا نزورها و نجد لديها أصدقاء أو جيراناً عن التعريف على عيدنه كزوجتي . لقد شطب الفصل الثاني من حياتي الزوجية و بصورة مقصودة من إدراكها .

لم تكثر عيدنه من الاتصال الهاتفي بي أثناء عملي ، و عندما كانت تتصل كان يوجد سبب جيد لذلك . اتصلت بمكتبي في آذار 1994 بصورة مذعورة و قالت : "اتصل بي أشخاص لم يعرّفوا على أنفسهم و هدّدوا بقتلك هذه الليلة و قالوا : (أيضاً زوجك متهم بالكارثة التي حلّت بطائفتنا) و قطعوا الاتصال ، و بعد عدة دقائق اتصلوا ثانية ، و استمر ذلك لبعض الوقت و كرّروا في كلّ مرة تهديداتهم" .

وجهت تعليمات على الفور بالتنصت على هاتف منزلي في رموت و أرسلت سائقي إلى عيدنه من أجل أن يكون لديها شخص ما إذا حاولوا اقتحام البيت . اتصلوا ثانية بمنزلي و قال الصوت الخفيّ : "قولي لزوجك ، إننا أنصار الحاخام عوزي مشولم ، نعرف أين تقطنون و الليلة ستكون نهاية القصة" ، حدّد عنواننا الدقيق و أغلق سماعة الهاتف . درست إمكانية وضع حراسة من أفراد وحدة حراس الشخصيات ، لكن في النهاية فضّلت إبلاغ الشرطة و بؤرة الحراسة المحلية . و حضر هؤلاء لحراسة المنزل ليلة واحدة ، و بالمناسبة لم أطلب طوال تسع و عشرين عاماً من خدمتي في "الشاباك" ، كما لم أحصل على حماية وحدة حراسة الشخصيات .

مرّت الليلة بسلام ، و في ساعات الصباح الباكر سرحت الحراس ، و لا يوجد لديّ أيّ وضوح حتى يومنا هذا ما الذي أراده منّي أنصار عوزي مشولم ، إذ لم تكن "للشاباك" أي علاقة بتحصين أنصاره و تمترسهم في يهود ، و بالطبع لم تكن له أي علاقة بقضية أطفال اليمن ، و رغم ذلك لم يتركوني و شأني ، إذ بعد فترة قصيرة من ذلك كشف عوزي مشولم عن اسمي الكامل خلال بثّ مباشر لإذاعة الجيش .

لقاء محظورٌ في سويسرا

تعلّم الفلسطينيون جيّداً من (إسرائيل) كيفية الإعداد لإقامة دولة . شكّلوا طواقم لقيادة الدولة المستقلة لدى حلول الوقت المناسب . و أقاموا مؤسسات لتحويلها بعد إعلان الاستقلال لمؤسسات الدولة الجديدة .

أخذ القائد العسكري للمنطقة الوسطى في صيف عام 1987 توصيات "الشاباك" و وجّه تعليمات بإغلاق جمعية الدراسات الاستراتيجية في القدس الشرقية بسبب النشاطات التآمرية لرئيسها فيصل الحسيني . أجرى "الشاباك" تفتيشاً جذرياً في الجمعية داخل حقيبة بسيطة ، غير مخفية و لا مشفّرة ، و عثرنا على وثيقة سرية ، تضمّنت مخطط الإعلان عن إقامة الدولة الفلسطينية . وصلت إلى مسامعنا شائعات عن نيّة كهذه ، لكن لدى التفتيش عثرنا و للمرة الأولى على مخطّط تفصيلي مكتوب . ورد فيه بأن لجنة وطنية عربية ستعقد اجتماعاً في القدس و ستعلن عن إقامة دولة فلسطينية مستقلة في حدود التقسيم . و ستسبق هذا الإعلان مشاورات مع دول عربية و مع الاتحاد السوفييتي . ستكون القدس عاصمة الدولة و عرفات رئيس الحكومة ، و سيعمل أعضاء اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية أعضاء في الحكومة ، و سيعلن عن المجلس الوطني الفلسطيني برلماناً يتكوّن من 152 عضواً ، و ستشكّل ممثليات منظمة التحرير الفلسطينية في العالم ممثليات دبلوماسية للدولة الجديدة . و يشكّل إضافة لذلك جهاز إداري يرتكز على "اللجان الشعبية" . كانت اللجان قائمة في حينه و تحوّلت خلال عدة أشهر إلى عنصر مركزي في

الانتفاضة . و أكدت الوثيقة أيضاً أن الدولة الجديدة ستعلن عن استعدادها إجراء مفاوضات مع (إسرائيل) ، يتم التركيز فيها على ترسيم نهائيّ للحدود و على حلّ مشكلة المستوطنات و حقوق الفلسطينيين بالتطوّر . و فقط بعد اتفاق أوسلو اتضح مدى قرب هذه الوثيقة من الواقع . فيصل الحسيني نفسه هو حفيد موسى كاظم الحسيني (رئيس بلدية القدس في السنوات 1918 – 1920) و نجل عبد القادر الحسيني ، أحد كبار قادة المناضلين في المرحلة الأولى من حرب الاستقلال ، سقط في معركة القسطل ، و يعتبر أحد "أمراء" الجمهور الفلسطيني ، ولد في بغداد عام 1940 ، و ذلك بعد هروب والده من البلاد برفقة قريبٍ من العائلة ، المفتي الحاج أمين الحسيني ، في أعقاب أحداث سنوات الثلاثينيات ، ترعرع بعد وفاة والده في القاهرة . لكنه حصل في سنوات الخمسينيات على الجنسية الأردنية و استقر في القدس . بدأ بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في منتصف سنوات الستينيات بالعمل في أجهزتها في سوريا و عاد في تشرين الأول عام 1967 إلى القدس .

بدأ بالصعود في الهرم الهيكلي لمنظمة التحرير الفلسطينية في المناطق ، حتى أصبح كبير نشطاء المنظمة في الضفة الغربية . و درس خلال ذلك العبرية . و عيّن مع مرور الأيام عضواً في وفد فلسطيني التقى جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي قبيل عقد مؤتمر مدريد . و نسّق في المؤتمر نفسه و من وراء الكواليس نشاطات الجانب الفلسطيني من الوفد الأردني – الفلسطيني . و عيّن بعد إقامة السلطة الفلسطينية وزير دولة لشؤون القدس . يقول البعض إن عرفات الذي تربطه به قرابة بعيدة يخاف منه و يحاول وضعه في الظلّ ، و أعرب البعض عن اعتقادهم بأن الحسيني قد يصبح وريثاً لعرفات في القيادة الفلسطينية ، لكن حتى كتابة هذه السطور لا يبدو بأن هذه التقديرات ستتحقق .

التقيت الحسيني المرة الأولى عام 1971 ، و ذلك عندما كنت رئيساً لقسم إفشال التآمر السياسي في لواء القدس و منطقة الضفة الغربية . تلقينا في تلك الأيام معلومات استخبارية كثيرة عنه و قرّرت بأنه حان الوقت لأخذ انطباعات مباشرة عنه و عن الجمعية التي يرأسها . كانت جمعية الدراسات الفلسطينية حينذاك في مبنى قديم بالقدس الشرقية (اليوم تعمل في "الأورينت هاوس") ، بدا من الناحية الخارجية كخرابة . و وجدت خلف هذه الواجهة البائسة غرفاً فاخرة مليئة بالملفات ، يعمل فيها باحثون و سكرتيرات . الحسيني – الذي عرف بالطبع من أكون – استقبلني بأدبٍ جم ، لكن النغمة اللطيفة التي ظهرت في الحديث التمهيدي تلاشت عندما انتقلنا لبحث الواقع السياسي . استبدل الشخص ذو المنطق الغربيّ برمشة عين ، اختفت بسمته ، و بدأت القسوة على ملامحه و تحوّل صوته الرقيق إلى متصلب . تحدّثنا العربية . و عرض عليّ لساعة طويلة و بصورة حازمة "قناعاته" السياسية : حقّ الفلسطينيين الذي لا استئناف عليه بالعودة إلى أراضيهم و إقامة دولة مستقلة عليها ، عاصمتها القدس . و عاد و أكّد : لا وجود لأيّ حلّ آخر . و أتذكّر كلمات وداعه في مدخل الجمعية : "المستقبل سيدي سيثبت صدق مواقفي" .

في أعقاب التفتيش المذكور في صيف عام 1987 اعتقل الحسيني إدارياً . و فور إطلاق سراحه عاد لاحتلال موقع الزعيم السياسي الأبرز لمنظمة فتح في المناطق ، و عزّز الاعتقال و توتّر الأوضاع في المناطق من مكانته . أشرف من مقره في القدس على النشاطات التآمرية العامة في المناطق التي شكّلت الأرضية التي نمت فيها الانتفاضة . شاهدنا جميعاً اندلاع الحريق ، لكن لم يعرف أيّ منا رجال الأمن و مبلورو السياسة معاً ، إلى أين سيمتد و متى . الحسيني كان على علم و كان على علمٍ أيضاً بأن الانتفاضة ليست هدفاً بل مجرّد وسيلة .

عرفته بصورة أفضل مع مرور السنين . بنظري هو شخص كاريزماتي مؤثّر جداً ذو قدرة على التعبير يمتاز بعمق التفكير و بالإيمان الراسخ بعدالة دربه . أدبه الجم لا يخفي السموم التي لديه . يبدي في مواجهاته مع (الإسرائيليين) تصميماً متطرّفاً و يهتم بالإيضاح لهم بصورة جازمة مدى عمق الهوة التي تفصل بين الطرفين . و مع ذلك أعتقد بأنه يمكن أن يشكّل طرفاً بالتوصل لتسوية سياسية .

كان عيزر وايزمن أحد (الإسرائيليين) الذين يبحثون عن حوارٍ مع فلسطينيين . دعاني في كانون الثاني عام 1990 لوجبة غداء في فندق "تريانه" بتل أبيب . كان في حينه عضواً في المجلس الوزاري المصغر للشؤون الأمنية و السياسية ، و وزير علوم في حكومة الوحدة الوطنية ، برئاسة إسحاق شامير و أراد الحديث معي حول امتناع (إسرائيل) عن إجراء أي اتصال مع منظمة التحرير الفلسطينية . فور دخولي المطعم استقبلني كعادته بنكتة : "ها قد حضر الجاسوس ، الشخص الذي زرع في منزلي أجهزة تنصت" . و أصبح بعد ذلك جاداً و قال : "قل لي ، أليس من الغباء عدم الحديث مع الفلسطينيين ؟" . و ما زلت أتذكّر ردّي بصورة دقيقة "إسمع عيزر ، لا تحرج موقفي و لا تقحمني بذلك ، أنا رئيس الجهاز و نحن أصدقاء حميمون . لكن فقط إلى هذا الحد ! يوجد قانون في دولة (إسرائيل) يحظر عقد لقاءات مع أعضاء منظمة التحرير . و هذا هو الوضع الآن" .

لم تؤثّر أقوالي بوايزمن . و قال لي إن الدكتور أحمد الطيبي ، الذي كان صديقه ، على استعداد لعقد لقاء بينه و بين فلسطينيين كبار . الطيبي طبيب نسائيّ ولد في الطيبة ، ذو تطلعات سياسية كبيرة ، عبأ فراغاً عندما بدأ أشخاص سياسيون (إسرائيليون) ، مثل عيزر وايزمن ، بالتطلع لإجراء حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية . أيقن بأن (الإسرائيليين) يبحثون عن رجل اتصال يكون مقبولاً لدى الطرفين و قفز إلى العربة في الوقت المناسب . قلت لوايزمن بأنني أعتقد بأنه من الأفضل الابتعاد قليلاً عن الطيبي . و أضفت : "إحذر ، على العكس مما يعتقدون ، هذا الشخص ليس بالضبط مقرباً من عرفات ، و لا يجري معه اتصالات وثيقة جداً ، كما يقول هو . إنه فعلاً مؤدّب جداً ، و لغته العبرية جميلة و ممتازة . لكن إذا قرّرت التوجّه لإجراء اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية عليك الحذر ، خصوصاً عندما يجرّك الطيبي إلى هناك" . لم أتحدّث عن المغزى المحتمل لخطوات كهذه على مكانة وايزمن في الحكومة . و تخيّلت بأنه يدرك جيداً بأن أعمالاً يقوم بها مناقضة لمواقف إسحاق شامير رئيس الحكومة قد تكلّفه منصبه .

يعلم رئيس جهاز الأمن ، و هذا أمر طبيعي ، تقريباً بكافة تفاصيل الأحداث السياسية الخفية في الدولة و بالاتصالات (الإسرائيلية) في الخارج أيضاً . و بالطبع آراؤه الخاصة بهذه القضايا غير مهمة ، إذ يجب ارتكاز اعتباراته على موضوعية تامة . و يواجه أكثر من مرة مشكلة ، هل يقدّم تقريراً عما يعرفه إلى رئيس الحكومة أم يمتنع عن ذلك ؟ . من الناحية المبدئية يقدّم تقارير عن كافة التطوّرات التي يمكن أن تلحق أضراراً بدولة (إسرائيل) ، سواء أكانت هذه الأضرار كبيرة أم صغيرة .

في ساعة متأخرة من الليل و بعد فترة قصيرة من لقائي وايزمن جلست إلى جانب طاولة الطعام في منزلي و قرأت تقارير سرية . اعتدت القيام بجزءٍ كبير من العمل الكتابي ، خصوصاً قراءة معلومات استخبارية في المنزل بعد ساعات العمل . أكثرت في ساعات النهار من وجودي الميداني و عقد لقاءات مع أشخاص ، أما في ساعات الليل و بعيداً عن المكتب كنت أستطيع العمل تقريباً دون إزعاج . عثرت بين الأوراق على تقريرٍ سري جداً ، ورد فيه أن وزير العلوم سافر إلى جنيف لعقد لقاء مع نبيل رملاوي و هو عضو كبير في منظمة التحرير الفلسطينية . و فجأة اتضح لي كامل الصورة : حديث الاستطلاع الأولي في المطعم و وعود أحمد الطيبي . عدت و قرأت التقرير عدة مرات و وجدت صعوبة بتصديق مضمونه .

لم يعرف مصدر المعلومات هدف اللقاء ، لكن ساد انطباع غير جيّدٍ لدي . تجوّلت في المنزل مثل أسد في قفص . كانت تلك ليلة مقدسيّة باردة . و مع ازدياد تفكيري كانت تتضح لي ضرورة نقلي للمعلومات على الفور لرئيس الحكومة ، كانت الساعة الثانية عشر و النصف و عندما اتصلت بإسحاق شامير قلت له إنه يجب عليّ رؤيته بسرعة . و ردّ قائلاً : "تعال على الفور !" .

لا يكون أيّ شخص منّا بأفضل حالاته في ساعات الليل المتأخرة . و نسي شامير ببساطة إبلاغ الحراس بوشوك وصولي . و لهذا عندما أوقفت سيارتي في مدخل منزله حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل التفّ حولي رجال الشرطة . هدأوا بعد أن تعرّفوا عليّ . قلت لهم إن رئيس الحكومة بانتظاري . اتصلوا به و حصلوا على موافقته و سمحوا لي بالدخول . كان الطابق الأول مظلماً . و تحسّست طريقي إلى السلم الذي يقود لطابق السكن و سقطت عدة مرات قبل وصولي إليه . و شاهدت في طرف الرواق باباً مفتوحاً و بصيص نور يتدفق منه . و سرت على أطراف أصابعي باتجاه النور ، من أجل عدم إيقاظ زوجة رئيس الحكومة . توقفت في مدخل الغرفة و شاهدت شامير ، يرتدي روباً شتوياً رسمت عليه مربعات ، جالساً مرتكزاً على طاولة عمله . كان الضوء ينير فقط وسط الطاولة ، التي كانت تتراكم عليها كومة وثائق . كانت هذه هي المرة الأولى التي أشاهده فيها مركّزاً على قراءة مواد . رفع شامير رأسه و نظر إليّ من وراء نظارة ذات إطار سميك . حدثته باختصار عن المعلومات التي حصلت عليها بخصوص وايزمن . ضغط على شفتيه ، و لم تكن العلاقة بينهما حسنة جداً .

سألني بعد صمتٍ قصير ، "ما الذي تقترحه ؟" . اقترحت استدعاءه وايزمن و الحديث معه حول هذه القضية . و قرّر شامير القفز عن هذه المرحلة و طالب في اليوم التالي إقالة وايزمن من الحكومة . واجه طلبه هذا معارضة حزب "العمل" شريكه في حكومة الوحدة الوطنية . و تمّ التوصل في النهاية لحلٍ وسط : يبقى وايزمن في الحكومة لكنه يبعد عن المجلس الوزاري المصغّر لمدة عامٍ و نصف . و لم يكن من الناحية العملية لذلك مغزى كبيراً بالنسبة لوايزمن ، لأنه بعد شهرين فقط من ذلك حلّت حكومة الوحدة الوطنية و توقف عيزر وايزمن و الوزراء الآخرون من حزب "العمل" عن وجودهم فيها .

خمّن وايزمن و بالطبع بأن لي يداً بذلك . لكن لم تؤدّ هذه القضية إلى المسّ بصداقتنا . أيقن بأنه عندما يتسلّم شخص مهمة يجب عليه القيام بها على أحسن وجه . عوقب على الاتصالات التي أجراها مع منظمة التحرير الفلسطينية ، لكن لم يكن بالإمكان وقف مسيرة السلام البادية في الأفق و التي كانت ضرورة يفرضها الواقع . و لم يعد سراً القول إنه حتى قبل بلورة هذه المسيرة جرت مباحثات سرية على

مستويات مختلفة مع ممثلين من دولٍ لم تكن لنا علاقات دبلوماسية معها . قام بذلك سياسيون و مبعوثون عنهم و أيضاً أجهزة مخابراتنا . أجريت مرات عديدة لقاءات مع رؤساء مخابرات إحدى الدول العربية . كان المكان شبه الدائم لعقد هذه اللقاءات مدينة معينة في أوروبا . و شارك في هذه اللقاءات عادة أيضاً رئيس "الموساد" شبتاي شبيط و أفرايم هليفي و كنا نهتم بقضايا مشتركة .

بدأت اللقاءات و في معظم الأحوال في ساعات بعد الظهر و انتهت أكثر من مرة في ساعات الصباح الباكر . ترك رؤساء المخابرات العرب لديّ انطباعاً كبيراً إذ كانوا ذوو تعليمٍ عالٍ . بعد تبادل التحيات التي كان يرافقها أحيانا كأسٌ من الشراب كنا نبدأ نحن و هم باستعراض الأوضاع و تقييم ما يدور في المنطقة . و نجري بعد ذلك مداولات حول قضايا ملحة و نتبادل الآراء . كانت المباحثات تجري بالعربية و بالإنجليزية .

سافرت في مرحلة لاحقة لعقد لقاءات مع الملك حسين . جرى اللقاء الأول في منتصف عام 1989 . اعتدت و بالتنسيق مع سلاح البحرية ، الإبحار من إيلات في يختٍ مدني إلى العقبة . و عندما كنت أقترب من الشاطىء الأردني كان يستقبلني اليخت الملكي لنقلي ، و كان يقوده أحياناً الملك نفسه . كانت اللقاءات تعقد عادة في قصره الصيفي في العقبة . كانت اللقاءات مريحة جداً و لم تتخذ طابعاً رسمياً . كانت مباحثاتنا ترتكز بصورة رئيسة على قضايا مبدئية – محاربة (الإرهاب) ، الفلسطينيون ، مستقبل المنطقة ، العلاقات بين دول الشرق الأوسط ، بما في ذلك إيران و العراق و قضايا أخرى . ترك الملك معالجة الشؤون العمليّة لرجاله الميدانيين . و زرت سراً أيضاً مقره قرب لندن . استقبلني حسين كعادته بترحابٍ كبير و بعد إنهائنا حديثنا أخذني إلى قبوٍ و عرض عليّ بفخار الراديو المتطوّر الذي يملكه . كان هاوي راديو متلهّف يجري اتصالات لاسلكية مع هواة في جميع أرجاء المعمورة .

رغبت بتذكارٍ من زيارتي لقصر العقبة ، و وضعت عيني على المناشف الصغيرة في غرفة الحمام المنسوج عليها شعار المملكة الأردنية ، و بعد أن سألت الملك و بعد تردّد كبير ، إذا كان بإمكاني أخذ واحدة منها قال لي بابتسامة عريضة "بالتأكيد أعطيك إياها بسرور" . و تحتل هذه المنشفة الآن مكانة محترمة في مجموعة تذكاراتي .

التقيت الأمير حسن في مرحلة لاحقة في صيف عام 1993 ، برفقة الملك . عقد هذا اللقاء أيضاً في قصر العقبة . كان حسن على معرفة جيّدة بكافة ما تحدّثنا عنه في لقاءاتي السريعة مع أخيه . كانت تنبعث من هذا الشخص ثقة بالنفس و تصميم و جرأة . و لم يبدُ لي بأنه يفقد عقلانيته في الأوضاع العصيبة . كان لديه مزيجٌ نادر من الصلابة و المرونة . و تحدّثنا كثيراً عن عائلتينا و عن أطفالنا .

راجت شائعات بعد وفاة الملك حسين و تتويج عبد الله ولياً للعهد بأن الأمير حسن سيشكّل معارضة لسلطة الملك الجديد . و حسب معرفتي لحسن لم يبدُ لي بأن هذا سيحدث . و أشارت معظم الاحتمالات إلى أن حسن سيوافق على ذلك و سيسير مع الركب .

سافرت في سنوات رئاستي للجهاز عدة عشرات المرات إلى الخارج ، لاحتياجات العمل ، و كانت بعض هذه الرحلات لأهداف روتينية جداً : مؤتمر لضباط الأمن ، الاطلاع على ترتيبات حراسة مهاجرين و لقاءات عمل مع رؤساء أجهزة مخابرات أخرى . سافرت أحيانا بهويتي الحقيقية ، و أحياناً بهوية مستعارة . التقيت في الولايات المتحدة عدة مرات رؤساء وكالة التحقيقات الفيدرالية ، "أف.بي.آي" و وكالة المخابرات المركزية "سي.آي.إيه" لإجراء مداولات في قضايا استخبارية ، تقلق الدولتين . و وصل ممثلون عن المؤسستين لإجراء مباحثات في (إسرائيل) بطائرة خاصة و برفقة نصف دزينة من الحراس ، إذا لم يكن أكثر من ذلك .

ما زال عدد من سفراتي للخارج منقوش بذاكرتي كتجارب غير عادية . كانت إحداها سفري إلى رومانيا في نهاية 1989 ، بعد فترة وجيزة من معارك الشوارع بين معارضي النظام الشيوعي و إعدام الدكتاتور شاوشيسكو . و كما يبدو كنت رئيس جهاز المخابرات الأجنبي الأول الذي يحلّ ضيفاً على النظام الجديد . عندما وصلت في ساعات المساء إلى بوخارست وصل رئيس المخابرات الروماني و مساعده لاستقبالي حتى الطائرة . كان منظر المطار بائساً تعمّه الظلمة . كانت لامبات نيون معدودة بضوء باهت تشع في غرفة بائسة أصر المضيفون لي على وصفها بغرفة الرجال المهمين جداً . بعد انتظارٍ قصيرٍ أحضروا حقائبي و أدخلوني بسرعة إلى سيارة بدت جوانبها الفولاذية بسمك جوانب مدرعة . اجتزنا بوخارست بسفر سريع يحيطنا الحراس من كافة الجوانب و وصلنا إلى بيت الاستضافة الرسمي الواقع خارج المدينة ، سجنوني هناك طوال وقتٍ كبير من الأيام الثلاثة من وجودي في رومانيا ، كان هذا فعلاً بيت بسيط و مريح ، و تفانى الطاقم بخدمتي ، لكن لم تتوفر لي أي إمكانية للخروج منه . لم تكن المخابرات الرومانية ، على استعداد لتحمّل أي مخاطرة و كانت مصرة على حمايتي حتى و إن كان الثمن راحتي الشخصية . أجريت هناك أحاديث كثيرة عن شؤون الحراسة و قضايا مشتركة أخرى . و في النهاية و مع اقتراب

سفري أخذوني في جولة ذات حراسة مشدّدة بالعاصمة . لكنني شعرت بأنني شخصٌ وضع في السجن طوال ثلاثة أيام .
بعد انهيار النظام الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا سافرت إلى براغ لعقد لقاء مع رئيس مخابرات تشيكوسلوفاكيا ، الذي تسلّم منصبه قبل فترة قصيرة من ذلك . و كانت هذه أيضاً حتى الماضي القريب دولة شيوعية . لكن الأجواء و الأشخاص الذين التقيتهم هناك كانوا مختلفين نوعاً ما عما وجدته في رومانيا ، كان نظيري التشيكي شاب قضى سنوات طويلة في السجن الشيوعي . كان ينتعل خفاً ، تحدّث عن الشعر و أبدى ذوقاً رفيعاً في فن الطبخ ، و رغم ذلك لم يكن لديه أي مفهوم عن عمل المخابرات . تحدّثت معه و مع مساعديه عن المبادىء الأساسية للمخابرات ، و استمعوا لي بانتباه كبير ، مثل طلاب في درسهم الأول . كان هناك غناء جماعي في الحفل الذي أجروه على شرفي في منزل رئيس المخابرات و الذي سكبت فيه خمور كثيرة . و إذا حاولنا الحكم بناء على حجم الحراسة في المكان سنجد بأنه لم يفكّر أحد بأن حياتي قد تكون معرضة لأخطار .
اجتزت تجربة سارة في زيارة رسمية قمت بها للأرجنتين في آذار 1992 ، قبل عدة أسابيع من العملية الفتاكة بالسفارة (الإسرائيلية) في بوينس آريس . توجّهت لإجراء مباحثات مع رئيس المخابرات ، انتظرتني في مطار بوينس آيرس سيارتان فخمتان ، دعاني الذين استقبلوني للدخول في إحداهما و انطلقت السيارة . اعتقدت بأننا سنسافر إلى فندقي أو إلى مقر المخابرات ، لكنني أخطأت . توقفت القافلة الصغيرة في مدخل ملعب خارج المدينة . اقتادوني محاطاً بحراس إلى إحدى الشرفات و هناك في غرفة الشرف عرفوني برئيس مخابرات الأرجنتين ، الذي بشّرني بصورة احتفالية بهيجة بأنني على وشك مشاهدة لعبة بولو هامة جداً . فوجئت و أوضح لي مضيفي الذي شعر بذلك بأنه يتسلّم أيضاً رئاسة اتحاد البولو في بلاده . و عرفت الأهمية الخاصة لتلك المباراة بعد كشفه النقاب لي بأن ابنه أحد اللاعبين ، جلست هناك متعباً بعد سفر طويل . سادت درجة حرارة عالية الملعب و خرج مضيفي عن طوره من شدة الحماس ، صرخ و شجّع فريقه . أما أنا فبحلقت باللاعبين الذين يمتطون الأحصنة و يضربون كرة صلبة بقضبان طويلة ، و لم أفهم شيئاً مما يدور في الملعب .

رابين تردّد و بيرس مارس ضغوطاً

في ربيع عام 1992 و في ذروة المعركة الانتخابية للكنيست طالبني إيتان هابر المقرّب من إسحاق رابين بعقد لقاء غير رسمي معي . استجبت لطلبه . و قال لي : "سمعنا بأن لديك مخططات للاستقالة من الخدمة . لا يجب حتى أن تفكّر بذلك !" و رغم عدم قوله ذلك بصورة جلية كان من الواضح لي بأنه يتحدّث باسم رابين المرشّح عن حزب العمل لرئاسة الحكومة .
عقد لقائي الأول مع رابين كرئيس حكومة بعد فترة قصيرة من الانتخابات في مكتب وزير الدفاع ، المنصب الثاني الذي احتله . عرضت عليه آرائي بخصوص الفصل بيننا و بين الفلسطينيين و تحدّثنا عن ضرورة الصلح بين الشعبين . توطّدت العلاقات بيننا و تحوّلت لصداقة حقيقية ، شملت أبناء عائلتينا . كان بالإمكان الحديث مع رابين حول كلّ شيء بدءاً من الشؤون السياسية و الشؤون الخاصة "بالشاباك" و حتى القضايا الشخصية جداً . و بصورة متناقضة كلياً عن طابعه المتردّد بدا لي كشخص حازم لدى اتخاذ قرارات في القضايا الأمنية ، لكن عندما كان يكلّف بحسم قضايا شخصية حساسة – مثل إقالة أشخاص غير مناسبين لمهامهم – كانت تصرّفاته تختلف كلياً . و كانت تبدو عليه مشاعر الإحساس بسوء حقيقي عندما يتوجّب عليه اتخاذ قرار بإرسال هذا الشخص أو ذاك إلى منزله ، خصوصاً إذا كان هذا الشخص قد ساهم كثيراً بالماضي . و لكوني المسؤول عن "الشاباك" ، أجريت معه عشرات الأحاديث عن موظّفين لم يعودوا مناسبين للخدمة في الجهاز ، لكنه لم يساعدني بنقلهم إلى مكانٍ آخر أو بإخراجهم على التقاعد قبل حلول الوقت المقرّر لذلك .
كانت لدى رابين لحظات دمثة اعتاد الحديث فيها عن نوادر من تاريخ الدولة الذي كان و لدرجة كبيرة جداً تاريخه الشخصي . امتاز بذاكرة مذهلة . لا أعرف شخصاً ما اكتشف أخطاء بأيّ واقعة كانت في رواياته . تنقش بذاكرتي اجتماعات كثيرة معه في مكتبه بمناسبات خاصة على اختلاف أنواعها بمشاركة الجنرال إيهود براك رئيس هيئة الأركان و الجنرال أمنون ليفكين شاحك . كان رابين يطلب أرغفة و

يأكل فقط ما يوجد عليها خوفاً من مهاجمة زوجته ليئا له بسبب زيادة وزنه . جلسنا معه ساعات طويلة و سمعنا منه الكثير من القضايا الممتعة . كان يتوجّه دائماً لهؤلاء الذين عملوا معه و كان بإمكاني الاتصال الهاتفي به طوال ساعات اليوم دون المرور عبر مدراء المكتب و المساعدين الشخصيين و السكرتيرات . و عقدنا أكثر من مرة اجتماعات في ساعات غير عادية . و كان من السهل حسم أمور معه في قضايا هامة .

بدأت مسيرة أوسلو بعد فترة قصيرة من تسلّم رابين لمهامه و تطوّرت الأمور بسرعة مذهلة . لكن رغم المسيرة لم يقلّ عدد العمليات . تمزّق الجمهور بين التفاؤل الذي زرعته مسيرةأ و بين الاستياء من العمليات (الإرهابية) ، و كان من الواضح لنا أنه و في جميع الأحوال ، سيحدث ذلك أيضاً بعد التوقيع على اتفاقية السلام أو بعد أي تسوية أخرى . كانت المشكلة تكمن بكيفية إيضاح ذلك للشعب و خصوصاً لكثيري الشكوك و لهؤلاء الذين عارضوا المسيرة و تآمروا عليها ، و ضاعفت كل عملية جديدة من هذه المشكلة .

كان إسحق رابين و شمعون بيرس الذي كان وزيراً للخارجية ، على قناعة راسخة بأن السلام قيمة عليا و حيوية لمستقبلنا ، لكن استوجبت التطوّرات قرارات سريعة ، و وجد رابين هذه المرة صعوبة باتخاذ قرارات ، أما بيرس فكان و رغم ذلك بسرعة الشبح ، و لم يعرِ دائماً أهمية للتفاصيل الدقيقة ، و لم يكن دائماً على استعداد للتوقف قبل كلّ عقبة و دراسة قدرته على القفز عنها ، كان يركض للأمام و يلتفّ حول جميع الحواجز . اندفاع بيرس خلق مشكلة لرابين حتى قبل بدء المسيرة ، لكنه أصبح الآن أكثر خطورة بنظره ، و لهذا السبب قرّر تشكيل نوع من "المطبخ المصغر" من أشخاص يستطيع الاعتماد على قدراتهم الثقافية ، و المهنية و على تقديراتهم المستقبلية . عقد اجتماعاً شارك فيه الجنرال إيهود براك رئيس هيئة الأركان و نائبه الجنرال أمنون ليفكين شاحك و أنا . و كان يدعو أحياناً الجنرال أوري ساغي رئيس الاستخبارات العسكرية ، و شبتاي شبيط رئيس الموساد . لم يكن هذا مجلساً رسمياً يعقد اجتماعات في أيام و ساعات محدّدة . كان هؤلاء مجموعة من الأشخاص يستدعون لرئيس الحكومة عندما يعتقد بأنه من المهم لديه سماع آرائهم ، سواء أكان الوقت صباح السبت أو ساعة متأخرة من الليل ، و في أيّ وقتٍ كان .

قدّمت لنا مصادرنا في المناطق تقارير عن الأجواء في الشارع الفلسطيني و عن ردود فعل شخصيات عربية عن الاتصالات مع (إسرائيل) و عن مخطّطات عملهم . و عما هو متوقع مع استمرار المداولات معهم . حللنا هذه المعلومات و قدّمنا لرئيس الحكومة معلومات استخبارية نوعية جداً ، هذه إضافة إلى مصادر أخرى أعطته صورة دقيقة جداً عن الأوضاع . و جراء ذلك وقرنا عليه غير قليل من المفاجآت خلال المسيرة .

تقدّم رابين بتردّد نحو اتفاق أوسلو . كانت التطوّرات أسرع بكثير مما تعوّد عليه و تخوّف أن تكون العجلة في هذا الحال من الشيطان . و بلور بناءً على ذلك نظرية المراحل ، إعادات الانتشار قاصداً من وراء ذلك تقدّم الاتفاق بحذرٍ شديد . نتنازل للفلسطينيين عن شيء ما و يتنازلوا هم لنا عن شيء ما . نتوقف و نراقب كيفية مسار الأمور ، و إذا سار كلّ شيء بصورة جيّدة – نستمر للمرحلة اللاحقة . هذا ما اعتقده رابين ، إذ بالإمكان و في حال وصولنا إلى وضع سيّء جداً التوقف أو حتى التراجع عن المسيرة دون إلحاق أضرارٍ كبيرة جداً . مارس بيرس ضغوطاً من أجل إحراز تقدّم أسرع . كان يتوجّه إلى رابين و يقول على سبيل المثال إنه يجب حسم مسألة معينة حتى صباح اليوم التالي . كان رابين يهمِس قليلاً و تستمر المسألة ثلاثة – أربعة أشهر ، و أحياناً أكثر من ذلك ، لم يسارع إلى أيّ مكان .

بعد التوقيع على اتفاق أوسلو ، و لدى حلول اتفاق الترتيبات الأمنية مع الفلسطينيين ، استدعاني رابين و الجنرال أمنون ليفكين شاحك نائب رئيس هيئة الأركان للاستماع لاقتراحاتنا . أراد اتفاقاً عملياً موثوقاً ، اتفاقاً يستطيع الطرفان الالتزام بتعهّداته الشاملة . قلت إنني أعتقد بأنه يجب بلورة هذه القضايا بصورة رئيسة مع فلسطينيين في تونس ، جبريل الرجوب و محمد دحلان . أراد رابين معرفة من هما . لم أعرفهما شخصياً لكننا كنا نعرف عنهما كلّ شيء .

جبريل الرجوب هو ابن إحدى العشائر الكبيرة في قرية دورا جنوب جبل الخليل ، اعتقل عام 1968 عندما كان عمره ستة عشر عاماً للمرة الأولى بتهمة مساعدة خلية تابعة لفتح . قربه الاعتقال من المنظمة (التخريبية) . انضم لخلية (إرهابية) ، و شارك بعشرات العمليات . اعتقل بعد حوالي العام تقريباً و حكِم عليه بالسجن المؤبّد ، بعد إلقائه قنبلة يدوية على شاحنة تابعة للجيش (الإسرائيلي) . و رغم سنه الصغيرة و انعدام التعليم العالي لديه تحوّل إلى أحد الزعماء البارزين في السجن . و انتخب خلال فترة قصيرة إلى لجنة السجناء و كان من رؤساء المحاربين ضد العملاء في السجن و خارجه . و قاد أيضاً إضراباتٍ و نضالات لتحسين الظروف الاعتقالية في السجن و استغل فترة سجنه الطويلة لتوسيع تعليمه و خصوصاً تعلّم العبرية . خلال الفترات الطويلة التي قضاها في الزنزانة بسبب نشاطاته التمردية في السجن درس

تاريخ الصراع العربي ضد البريطانيين و ترجم للعربية كتاب مناحيم بيغن "التمرّد" و ألّف كتاباً عن الحياة في السجن تحت عنوان "غرفة رقم 704" .
أطلق سراح جبريل الرجوب في إطار الصفقة مع منظمة أحمد جبريل ، لكن أُعيد اعتقاله بعد فترة قصيرة بسبب تورّطه بنشاطات معادية . اجتاز تحقيقات طويلة ، لكنه لم يتعاون مع المحققين و بدأ إضراباً عن الطعام استمر ثلاثة أيام ، و في النهاية أطلق سراحه جراء عدم وجود إثباتات .
و بعد حوالي العام أصدر ضده قرار اعتقال إداري لمدة ستة أشهر . و فور خروجه للحرية بدأ بالعمل في جمعية الدراسات الفلسطينية برئاسة فيصل الحسيني و التقى هناك زوجة المستقبل التي كانت تعمل في الأرشيف . لم يصمد طويلاً في الجمعية ، إذ رأى فيه الحسيني منافساً . و عيّن مديراً للمجلة النسائية "عبير" ، لكن كان واضحاً لنا بأن هذا مجرد ستار لنشاطاته التنظيمية و السياسية .
أبعد عام 1988 إلى لبنان ، وصل إلى تونس و أصبح أحد المستشارين المقرّبين لعرفات . من المعروف أن الرجوب كان من قادة الانتفاضة ، و وصفه أعضاء فتح في الضفة الغربية بـ "دينمو الانتفاضة" . قاد من خلال الاتصالات الهاتفية و الفاكسات و المبعوثين و اللقاءات مع سكان المناطق قادة سرايا و وحدات الانتفاضة ، و يعتبر معظم هؤلاء اليوم أعضاء جهاز "الشاباك" الفلسطيني . وصل إليه في كانون الأول عام 1992 إلى تونس مواطن (إسرائيلي) هو رفائيل أبراهام ، الذي يبلغ الأربعين من عمره و من سكان ريشون لتسيون ، و أعرب عن استعداده اغتيال إسحاق شامير و آريئيل شارون و إسحاق رابين و رفائيل إيتان و غيئولا كوهين مقابل أموال ، وافق الرجوب على الاقتراح و سلّمه مبلغ 31 ألف دولار . و فور نزوله من الطائرة بتاريخ 21 كانون الأول في مطار بن غوريون اعتقل إبراهام . و اتضح من التحقيق معه أنه طرق في البداية أبواب سفارتي العراق و الأردن في لندن ، و بعد عودته خاليَ الوفاض اتصل مع عضوٍ في منظمة التحرير الفلسطينية و عرض عليه اقتراح قتل شخصيات (إسرائيلية) و أرسل إلى تونس . أدانته المحكمة المركزية في تل أبيب بتاريخ 6 أيار 1993 بتهمة إجراء اتصال مع عميلٍ أجنبي و حكمت عليه بالسجن الفعلي لمدة 52 شهراً و بالسجن لمدة عامين مع وقف التنفيذ .
اشتهر الرجوب باستحواذ قراءة الصحف (الإسرائيلية) على تفكيره . "ابتلع" مقالات و تعليقات و حتى صفحات الشائعات في مجلة "لإشاه" (للمرأة) . تحدّث أشخاص مقرّبون منه عن شهوته للشهرة و حبه لقاء وسائل الإعلام و ميله الخاص للاحتفالات . نموذج متميّز على ذلك الطرفة التالية : أثناء إشرافه و بعد تشكيل السلطة الفلسطينية ، على طقوس افتتاح مكاتب جهاز الأمن الوقائي في أريحا بادر بمسيرة كشفية على شرفه و جنّد سيارتين لاستخدامه الشخصي و عندما أيقن أن حفل الاستقبال الذي أعدّه لن يصل إليه أكثر من دزينة من الأشخاص ، انفجر بوابلٍ من الشتائم على المسؤول عنهم .
قصة حياة محمد دحلان أقل إثارة ، لكن سجّل لصالحه عشرات عمليات (إرهابية) ضد (إسرائيليين) . كان من رؤساء فتح في قطاع غزة ، ترأس "الشبيبة" حركة شبيبة فتح في القطاع و بادر بعددٍ كبير من عمليات الإخلال بالنظام العام ، طرد من قطاع غزة عام 1987 عندما كان عمره خمسة و عشرون عاماً و وصل إلى تونس و انضم للقيادة العليا في منظمة التحرير الفلسطينية ، قاد من تونس "صقور فتح" في القطاع و العمليات التي نفذوها ضد (إسرائيليين) و عملاء عرب .
أعجب اقتراحي الخاص بالرجوب و دحلان رئيس الحكومة و اقترح سفري برفقة الجنرال ليفكين شاحك إلى تونس بهدف إجراء مداولات سرية مع الإثنين . تردّدت بقبول الاقتراح . من وجهة نظري الشخصية كان هذا مبكّراً جداً إذ حاربت سنوات طويلة أشخاصاً من نوع الرجوب و دحلان و ما زلت أرى فيهم بنفسي و قلبي أعداء يجب مطاردتهم دون هوادة . و بدا لي الانتقال لمرحلة وجوب جلوسي مقابلهم على طاولة المداولات و إجراء مفاوضات معهم حسب إعراب الأدب العام ، سريع أكثر من اللازم . سافر أمنون وحده إلى تونس و قال لي بعد عودته إنه في لقائه عرفات هناك قال له إنه كان من المفروض انضمام رئيس "الشاباك" إليه . ظهرت بسمة عريضة على وجه عرفات و قال : "هل تقصد يعقوب بيري ؟" لا ريب لديّ بأنه كان يعرف الكثير عني .
صادق عرفات على الاتصالات مع الرجوب و دحلان بخصوص الترتيبات الأمنية . أيقنت بأن منصبي و تجربتي تستوجبان مشاركتي في المباحثات رغم ارتداعي عن ذلك . بعد إبلاغي رابين بهذا ، حدّد لقاءاً سرياً مع الممثلين الفلسطينيين في فندق "نوغه هيلتون" في جنيف و حجز لنا جناحاً من أجل استخدامه أيضاً مكان لقاء . توجّهنا إلى سويسرا في تشرين الثاني 1993 بهويتنا الحقيقية ، بدون حراسة . أردنا إدراك الفلسطينيين بأننا نثق بهم . ارتدينا بدلات مدنية و حملنا حقائب يدوية ، و ظهرنا كرجال أعمال بكلّ ما تحمله هذه الصفة من معنى . كان من المفروض تسليم موظف الاستقبال رقم الجناح للفلسطينيين . جلسنا في القاعة و انتظرناهم . شاهدنا دحلان و رجوب يصلان . شاهدانا و هزا برأسيهما . كانت هذه حركة رشيقة صغيرة لكنها كانت كافية لتحطيم الجليد .

صعدنا إلى الجناح و بعد دقائق طرق الاثنان الباب فتحنا لهما و تبادلنا التحيات و تصافحنا . بدا دحلان متردّداً قليلاً ، و حتى متحفّظاً . كان الرجوب منفتِحاً و أكثر انطلاقاً و قال لي مبتسِماً : "أهلاً بيري ، كيف حال عيدنه ؟" ، و عندما شاهد نظرتي المستغربة ، أضاف : "قرأت جميع التقارير عن الزواج" . كان على دراية بجميع الروايات الشخصية و السياسية في (إسرائيل) اكثر من (إسرائيليين) كثيرين .

استمرت المباحثات منذ يوم الجمعة و حتى خروج السبت . يفهم أمنون قليلاً العربية و لهذا تحدّثنا معهما بالإنجليزية ، و بالعربية . إحدى المشاكل الأكثر تعقيداً التي بحثناها كانت مسألة المعابر على نهر الأردن . حجم الوجود الفلسطيني هناك و فحوى إجراءات العبور .. فهمت من المباحثات أنه بعد انسحابنا من قطاع غزة سيعيّن دحلان رئيساً لمخابرات الأمن الوقائي الفلسطيني هناك ، و الرجوب سيكون رئيس مخابرات الأمن الوقائي في الضفة الغربية .

التقينا مرتين في جنيف و مرة في روما ، و أخرى في باريس . اتخذت اللقاءات طابعاً شخصياً أكثر ، من لقاء لآخر . طلبنا وجبات للغرفة و تناولناها معاً و تحدّثنا عن عائلاتنا . بدا دحلان بنظري كسياسيّ محنّك أكثر من الرجوب كما كان مقرّباً من الدائرة المغلقة لعرفات ، و لهذا كان له تأثير سياسيّ أكبر بكثير . نلمس هذا الفرق بين الإثنين حتى يومِنا هذا : تعبر نشاطات دحلان كرئيسٍ للأمن الوقائي في قطاع غزة عن ارتفاع و انخفاض المفاوضات السياسية ، أكثر بكثير من تعبير نشاطات الرجوب ، نظيره في الضفة الغربية ، و ذلك بسبب اقترابه من رئيس السلطة الفلسطينية .

منذ ذاك الحين تطوّرت بيننا علاقات أوثق ، حين كان الرجوب يتصل بي هاتفياً من أريحا بعد كلّ عمليّة تقع في (إسرائيل) و يقول : "آمل أن تكون بخير ، هل الأطفال بخير ؟ و عيدنه ؟" كان يخرج عن طوره من أجل حلّ كلّ مشكلة صغيرة كانت أم كبيرة أعرضها عليه ، و تصرّفت أنا بنفس الأسلوب . ما زلت أسافر كلّ عدة أشهر لزيارة عرفات . و عندما يعقد اللقاء في رام الله أو أريحا يكون الرجوب بانتظاري في مشارف المدينة . و عندما نلتقي في غزة يستقبلني دحلان على حاجز أيرز . و يقولون إن (الإسرائيليين) الوحيدين الذين فهموهم و الذين بالإمكان عقد صفقة معهم حول ما اتفق عليه هم أمنون ليفكين شاحك و يوسي غينوسار و أنا ، و هذا و لا ريب مبالغة كبيرة ، إذ ليس قليلون هم (الإسرائيليون) الذين أجروا مفاوضات مع الفلسطينيين و التزموا بما اتفق عليه . كان الذين كسبوا ثقة عرفات و رجاله هؤلاء الذين تحدّثوا معهم بنفس المستوى و ليس بتعالي . أعرف رجال أمن (إسرائيليين) كثيرين منهم ضباط مخابرات تحدّثوا مع شركائهم في المفاوضات و كأنهم يتحدّثون مع عملاء ميدانيين لهم . تذكّرنا طوال الوقت بأن الذين يجلسون مقابلنا أشخاص يتمتّعون بكبرياءٍ ذاتي و تطلعات ، إذ من يعرف ، فقد يعيّن أحدهم و خلال فترة غير طويلة ، رئيساً لهيئة الأركان أو رئيساً "للشاباك" أو يصبح زعيماً سياسياً . توجّهوا إلى طاولة المفاوضات كزعماء منظمات (إرهابية) ذوو تطلّعات وطنية و وصلوا إلى نهاية دربهم كـ (إرهابيين) . لقد حضروا كممثلين عن كيانٍ سياسي مستقل سيقوم في المستقبل و يجب التعامل معهم بمستوى مكانتهم الجديدة .

أجرينا مفاوضات سرية ، قلائل فقط عرفوا عنها ، و حافظنا على سريتها قدر الإمكان و هربنا من الصحافيين و حافظنا قدر الإمكان على الصمت التام . في أحد أيام عيد الأنوار و في الوقت الذي كنا فيه غارقين بمداولات مع الفلسطينيين بفندق بباريس ، كان يجري في منزل ليئا و إسحاق رابين احتفال تقليدي إشعال الشموع ، و كان من بين المدعوين زوجتينا طالي و عيدنه و اتصلنا في ذروة هذا الحفل مع رابين لبحث موضوع حساسٍ برز خلال المباحثات و لا يحتمّل التأجيل . و فور سماعه صوت أمنون صرخ رابين في الغرفة الغاصة بالضيوف نحو طالي و عيدنه : "أمنون و يعقوب يبلغانكما تحياتهما من باريس ..." و لم يكن تقريباً أحدٌ من الحاضرين يعرف بأننا في الخارج ، و بالتأكيد لم يعرف أحد بأننا سافرنا بهدف إجراء مباحثات سرية مع ممثلين فلسطينيين ، و رغم تجربته الغنية كان لدى رابين قدر من البراءة ، و نوع من القدرة على الانفعال مثل طفل صغير .

برز في لقاءاتنا مع الرجوب و دحلان أسلوب "فرّق تسد" الذي استخدمه عرفات بكفاءة عالية ، إذ كنّا نشعر أحياناً بأنه يعامل الرجوب معاملة خاصة ، و تنقلب الأمور بعد يومٍ أو يومين ، و يحصل دحلان على معاملة خاصة من "الرئيس" . كانا يسرعان و بعد كلّ حديثٍ معنا لتقديم تقرير هاتفي له عن التطوّرات محافظين على تقاسم عملٍ واضح ، إذ كان الرجوب يقدم تقريراً في أحد الأيام و يقدّم دحلان التقرير في اليوم التالي و هكذا دواليك . بعد إقامة السلطة الفلسطينية و استقرار الرجوب في أريحا ، قال لي مقرّبون منه إنه في كلّ مرة كان يبعده عرفات عنه كان ينغلق على ذاته و يتجاهل دعوات رئيس السلطة و يعلن عن نيته تقديم استقالته .

مع اقتراب انتهاء مباحثاتنا مع دحلان و الرجوب حول معابر جسور نهر الأردن ظلّت عدة قضايا لم أوافق على إبداء تنازلات عنها ، منها حجم الوجود الفلسطيني في المعابر و المراقبة (الإسرائيلية) و الفلسطينية و تسليح الشرطة الفلسطينية هناك . كان شمعون بيرس وزير الخارجية في ذاك الوقت في

دافوس بسويسرا و حاول الاتفاق مع ممثلين فلسطينيين كبار حول مسألة المعابر في جسور نهر الأردن و في رفح ، و اتصل بي الساعة الثالثة صباحاً من فندقه بهدف إقناعي بإضفاء مرونة على موقفي بكلّ ما له علاقة بالترتيبات الأمنية المطلوبة على المعابر و قلت له : "شمعون هذا لن يحدث ، من المحظور عمل ذلك بهذه الصورة !" . دعاني "عنيداً" و قال إنني أعيق المفاوضات و عقدنا عدداً لامتناهياً من الجلسات لدى رابين بحثنا فيها هذا الموضوع ، شارك فيها بيرس . كان رابين يتناول بنهمٍ كلّ معلومة استخبارية ، أما بيرس فأيقن أن المخابرات – "الشاباك" و الموساد – يقومان بعملهما بأمانة ، لكن حسب قناعاته لم يتمتّعا ببعد نظر كافٍ و لهذا يشكّلان عنصراً معيقاً . و لم أتمكّن من التحرّر من الانطباع بأنه يريد نقل رأي واضح لنا : لا تشغلوني بصغائر الأمور ، دعوني أتقدّم ! و بعد مداولات منهكة تم الأخذ برأي المخابرات .

قضى أمنون فترات طويلة في القاهرة حيث كان يجري مفاوضات مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية ، و انضممت إليه بتاريخ 3 أيار 1994 للقاء الختامي مع الرجوب و دحلان ، في فندق "سميرا ميس" . و بالمناسبة كانت هذه زيارتي الأولى لمصر . وقعت اتفاقية السلام بين الدولتين عام 1979 ، لكنني منعت نفسي من السفر إلى مصر بسبب المهام الحساسة التي كنت أتسلّمها و العلاقات الفاترة بين أجهزة أمن الطرفين ، و رغم ذلك كنت أتشوّق و منذ سنوات لزيارة المواقع الأثرية لبلاد النيل ، و كنت أحلم بذلك منذ صباي و خلال دراستي الاستشراق في الجامعة ، لكن هذه المرة أيضاً لم يكن ليشكّل ذلك زيارة حقيقية ، إذ بعد حلّنا المشاكل الأمنية التي ظلّت خلافات تكتنفها عدت مسرعاً إلى (إسرائيل) و لم يحاول البعض إخفاء استغرابهم عدم بقائي لحضور احتفالات التوقيع على اتفاق غزة – أريحا بمشاركة رابين و عرفات ، لكن هذا كان أسلوبي ، و هكذا تصرّفت في مؤتمر مدريد أيضاً عام 1991 ، إذ سافرت إلى هناك قبل الافتتاح بهدف دراسة الترتيبات الأمنية ، و فور وصول الوفد (الإسرائيلي) عقدت لقاء قصيراً مع إسحاق شامير رئيس الحكومة ، و انطلقت بعد اختتامه نحو المطار و بسبب عدم وجود رحلة جوية مباشرة إلى (إسرائيل) عدت إلى البلاد عبر لندن .

رأيت و مثل كثيرين آخرين بمسيرة السلام و بانسحاب الجيش (الإسرائيلي) من القطاع و دخول السلطة الفلسطينية الى غزة حدثاً تاريخياً من الطراز الأول ، و مع ذلك لم أحاول التستّر على مخاوفي و عبّرت عنها في المجالس الملائمة ، توقعت مسيرة مؤلمة جداً تتوالى فيها الأزمات و يرافقها سفك دماءٍ غير قليل ، لكنني آمنت بأن علينا تحقيق السلام كما علينا التصرّف بعقلانية مع الطرف الثاني .

كان الأمريكيون و طوال الوقت يوقرون الدعم من وراء الكواليس إذ أجروا اتصالات مع عرفات و معنا و شجّعوا الطرفين على استمرار المداولات حتى في الأزمات . اتصل بي و أثناء قيامي بزيارة رسمية لواشنطن موظّف أمريكي رفيع المستوى هو فرانك هرينغتون و طلب عقد لقاء عاجلٍ معي ، قال لي إنه عاد على الفور من زيارته لعرفات في تونس ، حيث بحث معه استئناف العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية و الولايات المتحدة . حدّدنا لقاءاً لتناول وجبة عشاء في مطعم خارج المدينة ، و وصل إليه مباشرة من المطار . سمعت منه بين اللقمة و الأخرى روايات جذابة عن اتصالاته مع منظمة التحرير الفلسطينية منذ سنوات الستينيات الأولى، و كشف النقاب لي عن إجرائه اتصالات مع علي حسن سلامة الذي كان ضابط عمليات "أيلول الأسود" في أوروبا الغربية و قائد "القوة 17" التابعة لفتح ، انضم سلامة بن حسن سلامة – الذي كان من رؤساء العصابات في البلاد في أحداث سنوات الثلاثينيات و الجزء الأول من حرب الاستقلال (قتِل في الحرب نفسها) – لجهاز فتح عام 1967 و عيّن بعد ذلك مسؤولاً عن الذراع الاستخباري للمنظمة ، و أشرف على الأجهزة المالية ، و كما يبدو أصبح غنياً بفضل هذا الإشراف . عمل منذ عام 1971 فصاعداً في مجال العمليات و اتخذ من ألمانيا الشرقية مقراً له و خطّط من هناك و أشرف على قتل الرياضيين (الإسرائيليين) في الألعاب الأولمبية في ميونيخ بتاريخ 5 أيلول 1972 . و إضافة إلى ذلك خطّط لعملية في معسكر المهاجرين من الاتحاد السوفييتي في النمسا ، و ربما أيضاً اغتيال وصفي التل رئيس الحكومة الأردنية في القاهرة في شهر تشرين الثاني عام 1971 . و ذكرت وسائل إعلام مختلفة أن عملية رجال الموساد في ليلهامر في تموز 1973 ، استهدفت تصفيته بسبب مسؤوليته عن القتل في ميونيخ . و انفجرت عبوة ناسفة تحت سيارته في بيروت في كانون الثاني عام 1979 و كان هرينغتون على قناعة بأن الموساد هو الذي فعل ذلك ، و أعرب عن أسفه لوفاة هذا الشخص الذي قال إنه أحبه جداً .

حدّثني هرينغتون عن مشاعر عرفات حيال المفاوضات مع (إسرائيل) و عن مخاوفه و عن التعيينات التي يخطّط لها ، و بعد انتهائه من تقديم تقريره وصل إلى الأمر الجوهري ، إلى السبب الحقيقيّ لرغبته بلقائي بهذه السرعة ، و حسب أقواله يرغب عرفات كثيراً بعقدي لقاءاً مع أمين الهندي .

و كتبت في مذكراتي اليومية حول ما حدث بعد ذلك :

لم ألتق الهندي في حياتي ، لكنني كنت أعرف عنه غير قليل . ولد في غزة و أبعِد عنها بسبب تورّطه في عمليات (تخريبية) و عين رئيساً لقسم العمليات في فتح . تتوفر لنا معلومات عن علاقة محتملة بينه و بين التخطيط لقتل الرياضيين (الإسرائيليين) في الألعاب الأولمبية في ميونيخ . و إطلاق صواريخ على طائرة (إل – عال) في مطار روما . أعرف أن عرفات يقدّره جداً ، و في ضوء الحثّ اللجوج لهرينغتون لعقد لقاء معه ، أيقنت تنسيق هذه الخطوة مسبقاً مع وورن كريستوفر وزير الخارجية و مع دنيس روس اللذان كانا ناشطان في قضية مسيرة السلام .

سافرت بسرعة بعد وجبة العشاء مع هرينغتون إلى سفارتنا في واشنطن و طلبت فتح غرفة الاتصال و استدعوا كاتبة الشيفرة و أرسلت برقية لرابين تتضمّن التفاصيل الدقيقة لحديثي مع هرينغتون ، و اقترحت تنظيم الأمريكيين عقد هذا اللقاء . و بعث رابين على الفور رداً إيجابياً ، رغم عدم الارتياح الذي أبداه الموساد حيال هذه المسألة .

كان من المفروض عقد اللقاء مع الهندي في قاعدة عسكرية في إحدى الدول الأوروبية . انتظرتني في المطار سيارةأ نقلتني إلى القاعدة العسكرية ، و وصل فرانك هرينغتون إلى هناك من واشنطن ، و مثل باقي الأمريكيين الذين أشرفوا على تنظيم اللقاء لم يحاول إخفاء انفعالاته .

دخلت غرفة الضيوف التي تحتوي على مقاعد و صوفات مريحة و كان على الطاولة مشروبات خفيفة و جلس الهندي على أحد المقاعد ، عمره يقارب الأربعين يرتدي بأناقة مثل دبلوماسي محترف ، يضع نظارة شمسية غامقة على أحدث طراز . بدت حركاته متردّدة و حتى مذعورة لدرجة ما . ساد لديّ اعتقاد بأنه ليس فقط لا يشعر بارتياح ، بل يعتريه خوفٌ داخلي ، لا سيما و أن (الإسرائيليين) أرادوا قتله منذ سنوات و حاولوا متابعة تحرّكاته في كلّ مكان و أجبروه على الاختباء كحيوانٍ مطارد ، و فجأة يلتقي وجهاً لوجه مع أحد كبار مطارديه . فور اقترابي منه قام من مكانه و صافح يدي بصورة رسمية ، دون أن ينبس تقريباً ببنت شفة .

جلست بارتياح على أحد المقاعد و عاد الهندي للجلوس متجمّد الملامح و انضم الأمريكيون و على رأسهم هرينغتون إلينا ، لكنهم ظلّوا سلبيين أكثر من اللازم . عرّف كلّ منا نفسه رغم عدم وجود حاجة لذلك ، إذ يعرف كلّ منا الآخر من ملفات المخابرات . تحطّم الجليد بالتدريج و بدأ حديث بيننا بالعربية و بالإنجليزية ، على التوالي ، كان بإمكان هرينغتون الذي يعرف العربية متابعة تبادلنا الحديث . لفت انتباهه إلى نشر أنباء في (إسرائيل) تربطه بقتل الرياضيين (الإسرائيليين) في ميونيخ ، لكنه لم يعقّب و انتقلنا لتناول موضوعات عامة فقط . و تحدّثنا بصورة رئيسية عن مستقبل المنطقة و دخلنا قليلاً بالمجال الشخصي ، إذ حدّثني عن تفكيره بالحضور إلى غزة مع زوجته و ابنته التي تدرس في الجامعة و حدّثته عن عائلتي .

و كان معروفاً بأنه عندما يصل الهندي إلى غزة مع رجال السلطة الفلسطينية من المفروض حصوله على منصبٍ مماثل لمنصب رئيس الموساد ، و أعرف جيداً أنه تحت إشراف الأمريكيين ، و لهذا كان مهماً بالنسبة لي التوصل معه لاتفاقات موضوعية ، أياً كانت ، و لهذا حرفت الحديث بهذا الاتجاه ، و اتفقنا في النهاية على اتصاله بي فور وصوله إلى غزة لعقد لقاءات أخرى .

و في الهندي بوعده ، و منذ عودته إلى غزة التقينا مرات كثيرة ، تقريباً مرة أسبوعياً . التقينا في أماكن مختلفة – في حاجز أيرز و في أريحا و القدس و تل أبيب . تبادلنا معلومات استخبارية ، و سارت الأمور إلى حين قطعها في أعقاب أزمة مباحثات السلام ، التي أدّت إلى تقليص نوعي للتعاون الأمني مع السلطة .

لم يؤكّد الهندي كما لم ينفِ في مقابلة صحافية أجرتها معه سمدار بيري مشاركته بالتخطيط لقتل الرياضيين في ميونيخ . و قال فقط : "فتحنا صفحة جديدة ، و مثلما آمنت في حينه بالحرب أؤمن الآن بالسلام" .

خبيث و شكاك كبير

اضطر "الشاباك" إلى إعادة تنظيم نفسه عشية انسحاب الجيش من قطاع غزة . و كانت هذه مهمة كبيرة . حيث كان ثمة ضرورة لإعداد قاعدة استخبارية تتناسب مع الظروف المستجدة على الأرض و الحصول على مصادقة المستوى السياسي على ذلك . و بالمقابل كان علينا التعاون مع الفلسطينيين و تحديد لقاءات

، و تنسيق و تبادل المعلومات . و من أجل أن يجري كلّ شيء على خير وجه ، أجريت عدة لقاءات مع أوساط فلسطينية مركزية .
لم نتجاهل أيضاً التزامنا بمصير السكان الذين اكتشف أمرهم كعملاء لنا . حيث ربط الكثير منهم مصيرهم بنا قبل سنوات عديدة . و غير قليل منهم عملوا معنا منذ حرب حزيران . و عشية الانسحاب أبلغنا كلّ واحد منهم بأن له الخيار في مغادرة قطاع غزة مع أفراد عائلته و الإقامة في (إسرائيل) . و وعدنا بإصدار بطاقة هوية (إسرائيلية) لكلّ من يقرر النزوح إلى (إسرائيل) .
لم نكن نجنّد العملاء بالضغط أو الإكراه . و من الأجهزة السرية البارزة التي عملت وفق هذا الأسلوب هي المخابرات السوفييتية . و قد أثبتت التجربة أن العميل الذي يجنّد مكرهاً لا يمكن الاعتماد عليه في توفير كامل المعلومات و لن يتوفر لديه الحافز لبذل كلّ جهد مستطاع لإحراز المعلومات المطلوبة . ثمة دوافع مختلفة مثلما أشرت سابقاً تدفع الإنسان لإن يتعاون معنا . و قد يكون ذلك كردّ على جميل فعلناه لأجله ، مثل جمع شمل العائلات و تقديم علاج طبي له أو لأحد أفراد عائلته . و قد يكون انتقاماً من رفاقه في المنظمة (الإرهابية) الذين أساءوا التصرف معه .
و قد يكون السبب أيضاً ضائقة مالية . صحيح أن المبالغ التي دفعناها للعملاء كانت قليلة جداً بالمعايير (الإسرائيلية) و لكنها تكفي لعيش عائلة كبيرة الأفراد في غزة .
في سنوات الانتفاضة اتخذ معظم العملاء قرار النزوح إلى (إسرائيل) . و كانوا أثناء وجودنا في غزة يخافون عموماً من التنكيل بهم ، و لكن كلما اقترب موعد الانسحاب كلّما تعاظم خوف العملاء – و بحق – مما ينتظرهم عندما تستلم السلطة زمام الحكم . و حين دخلت السلطة إلى غزة طلبنا منها عدم التعرّض إلى العملاء الذين فضلوا البقاء هناك . و قلنا لهم إن ضمان عدم الإضرار بالعملاء هو أمر ينصّ عليه الاتفاق مع السلطة . غير أن رجال السلطة لم يصمدوا أمام ضغط الشارع و حماس . و تم تقديم عددٍ من العملاء للمحاكم حيث سجنوا ، قتلوا ، عذّبوا ، و حرقت بيوتهم ، و صودرت ممتلكاتهم . هذا ما حصل بعد عملية سلامة الجليل في لبنان و كذلك بعد الانسحاب من غزة في عملية "كديش" .
و المصير ذاته سيكون أيضاً من نصيب العملاء في جنوب لبنان حين ينسحب الجيش (الإسرائيلي) من هناك . لقد خلف العملاء الذين انتقلوا إلى (إسرائيل) وراءهم بيوتاً و ممتلكات و أحياناً تركوا نساء لم يشأن الانضمام إليهم . و انقطعوا عن عائلاتهم و عن بيئتهم الطبيعية و اضطروا إلى التكيّف مع المجتمع الغريب ذي العقلية المختلفة . و في معظم الأحوال تعامل معهم جيرانهم الجدد – سواء أكانوا يهوداً أم عرباً (إسرائيليين) – بنوع من العداء و اضطروا إلى إدارة حياتهم الجديدة بعزلة فائقة . و في حالات غير قليلة انحدروا إلى مستوى الجريمة ، المخدرات و أعمال التهريب .
في 12 كانون الثاني 1994 قرّرت الحكومة إقامة إدارة مركزية لتأهيل عملاء كلّ أجهزة الاستخبارات . و تقرّر أن تخضع هذه الإدارة لرئيس "الشاباك" بتوجيهٍ من قبل لجنة ممثلين عن وزارات المالية و البناء و الإسكان و الداخلية . و حدّدت مواصفات لتأهيل العملاء ، و المستخدمين المحليين في الإدارة المحلية و أفراد الشرطة العرب الذين اتهموا بالتعاون معنا و كذلك أفراد عائلات العملاء الذين قتِلوا أثناء عملهم في خدمتنا أو توفوا أثناء التأهيل . و حين أقيمت إدارة التأهيل ، شملت قائمة العملاء الذين احتاجوا إلى خدماتها 1400 اسماً من بينهم 1200 شخصاً كانوا من عملاء "الشاباك" .
كانت عملية التأهيل ، تبدأ في بعض الحالات بإنقاذ العميل وأفراد عائلته من المنطقة و نقله للسكن في داخل (إسرائيل) . و كانوا يحتاجون عموماً إلى إرشادات في كلّ ما يتعلّق بنظام الحياة في الواقع الجديد الذي فرض عليهم . و في معظم الحالات لم يكن العملاء الذين قدموا إلى هنا يعرفون ما هو حساب البنك و كيف يشترون من السوبرماركت . و السواد الأعظم منهم لا يعرفون اللغة العبرية .
عارضت بشدة اقتراح إقامة أحياء لتأهيلهم و ادعيت أننا بذلك نشكّل ما يشبه الغيتوات التي ستعزلهم أكثر فأكثر عن المجتمع ، الأمر الذي سيخلق مشاكل صعبة . و حقاً ، تم توزيعهم في كلّ أرجاء البلاد ، رغم أن بعض العملاء السابقين فضّلوا السكن في تجمّعات خلقوها بمبادرة منهم . لقد منحنا الجميع بطاقات هوية (إسرائيلية) من أجل التسهيل في عملية استيعابهم في البلاد . و اشترينا أو استأجرنا شققاً لهم . و عرفت شخصياً عميلاً وصل إلى (إسرائيل) مع زوجتين و أربعة أولاد و عشرة أحفاد . و لم يكن يتجاوز الخامسة و الأربعين من عمره ، استأجرنا له بيتين في بئر السبع ، و في حالات خاصة ساعدنا العملاء في التأهيل خارج البلاد و خاصة في أوروبا و جنوب أمريكا .
لقد انتابت الكثير من العملاء الكآبة و الاحباط بعد وصولهم إلى (إسرائيل) . و في أماكن مختلفة أشعرهم الجيران بأنهم غير مرغوبين رغم أنهم خاطروا بأنفسهم من أجل الدولة . و في بعض الأحيان كانت دائرة التأهيل تقرّر تقديم علاج نفسي . و كان هناك حالات لم يستطع فيها العملاء الصمود أمام المصاعب التي واجهوها هنا ، فعادوا إلى أماكن سكنهم في المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية على الرغم من المخاطر المترتبة عن ذلك . و حتى هذا اليوم ما زلت أستقبل عملاء يطلبون تدخّلي لحلّ مشاكل مع السلطات في

مواضيع مختلفة مثل تراخيص البناء ، التشغيل ، و المساعدات المالية و ما إلى ذلك . و في بعض الأحيان ، كنت أستجيب لطلبهم و أظهر كشاهدٍ في الدعاوى القضائية التي يقيمونها ضد الدولة .
يؤسفني أنه لم يكن بمقدورنا أن نعمل أكثر من ذلك من أجل العملاء . لقد كانت الميزانية التي خصّصت لدائرة التأهيل تتيح المجال لتشغيل عددٍ قليلٍ فقط من المستخدمين و كان على هؤلاء أن يعتنوا بالكثير من عائلات العملاء في مختلف أنحاء البلاد . و لا يوجد في الدائرة الآن سوى موظف واحد لكلّ خمسين عائلة ، و هذا بالطبع لا يكفي . كان الحري بدولة (إسرائيل) أن تفهم أنها مدينة لهؤلاء الأشخاص أكثر مما هي مستعدة لتقديمه لهم .
كلما اقترب موعد الانسحاب من قطاع غزة كلما عملنا بكثافة أكثر . و كان الجهاز على صلة بعددٍ لانهائي من التفاصيل الصغيرة . فقد عملنا بدقة متناهية من أجل أن لا يدخل إلى القطاع أسلحة بعددٍ أكبر مما هو متفق عليه . و أجرينا فحصاً لكلّ مسدس ، بندقية ، و رشاش كي نستطيع تشخيص هذه الأسلحة في حالة استخدامها في عمليات ضد (إسرائيليين) . فحصنا كلّ حقيبة ، كلّ صندوق ، كل إرسالية علمنا بوصولها إلى القطاع عبر البحر ، البر ، و الجو . و اطلعنا على قوائم أفراد الشرطة الفلسطينية الذين كانوا يستعدون للقدوم من خارج البلاد ، و رفضنا عدداً منهم . و كان الرجوب و دحلان ، اللذان لم يسلما بهذا الرفض في معظم الحالات ، قد التقيا بي مراراً و ادعيا أن الأشخاص المرفوضين سيشغلون مناصب رفيعة في جهاز الأمن الفلسطيني و بدونهم لا يمكن القيام بالعمل على نحوٍ منظّم . و حين رفضنا ادعاءاتهما أحيل الأمر لعرفات الذي تحدّث مع بيرس حول هذا الأمر . فتوجّه وزير الخارجية إلى رئيس الحكومة . و عاد إلينا رابين بأسماء و بدأت القصة من جديد . كنا نتنازل أحياناً و نتمسك برأينا في أحيانٍ أخرى .
اضطر عرفات ، مع المسيرة السلمية ، إلى التكيف مع واقع سياسي مختلف ، الأمر الذي لم يكن سهلاً بالنسبة له . و كان بعد إبعاد (المخرّبين) عن لبنان في أعقاب عملية سلامة الجليل ، قد لجأ إلى تونس و نسج لـ م.ت.ف هناك علاقات خارجية و ميزانية و خطّط لعمليات (تخريبية) . لم تكن هذه حكومة منفى بل كانت تجمع للاجئين . لم يسمح عرفات لأي من مقرّبيه أن يتمتع بقوة أكثر من اللازم . لقد كان يبعد من يشاء و يقرّب إليه من يشاء . و لم يكن يسمح لأي شخصٍ بأن يشغل منصباً رفيعاً لفترة طويلة . و عندما وصل إلى غزة لم يتخلّص من الإحساس بالشك و الخوف من التنحية ، هذا الإحساس الذي أملى عليه خطواته في تونس ، و لكن سرعان ما أدرك أن ما كان يناسب منظمة في تونس تفتقر إلى قاعدة حقيقية ، لا ينسجم مع المتطلبات التي يفرضها الوضع الجديد في غزة . حيث أدرك أن عليه أن يضع أسس الدولة ، غير أن الظروف الصعبة التي واجهته في غزة أعاقت ، و ما زالت تعيق خطواته .
كان عرفات المعروف بقدرته على البقاء و بعظيم شكه ، قد خلق لنفسه خلال السنوات نمطاً خاصاً من الحياة نبع من إحساسه بأن الاستخبارات (الإسرائيلية) تريد اغتياله . و في مرحلة ما قبل إقامة السلطة الفلسطينية كان يكثر من الحركة و الاختفاء ، و يكاد لا ينام على السرير الواحد ليلتين متتاليتين ..
صحيح أننا ناقشنا ، مرة أو مرتين ، إمكانية تصفيته ، و لكن ، حسب علمي ، لم يتخذ أي قرار باعتباره هدفاً للاغتيال . و حتى في الأيام التي بادر فيها إلى عمليات قاسية ضداً (إسرائيلية) كنت أنظر إليه كأقلّ الشرور خطراً . فكّرت أنه معتدل إذا قارناه مع الآخرين ، الذين قد يشغلون مكانه إذا أبعدناه عن المنصة .. مثلاً فاروق القدومي ، أبو جهاد . حتى انني تجرأت ذات مرة و فكرت أنه في مرحلة معينة قد يكون شريكاً في الحوار معنا ، على هذا النحو أو ذاك .
التقيته لأول مرة في ظلمة الليل ، بعد عشرة أيام من دخوله إلى غزة . انتظرني رجال دحلان في حاجز أيرز و أحضروني إلى مقره الخاص المؤقت . كان هذا بيتاً سكنياً يتكوّن من طابقين و محاطاً بسورٍ مرتفع . اصطحبني المرافقون إلى غرفة ضيوف واسعة . تطلّ نوافذها على ساحة داخلية جميلة ، على شكل بستان شرقي ساحر ، تتوسّطها نافورة مياه . و كان المسلحون ينتشرون في كلّ مكان و زاوية . و قدّم لي أحدهم شاياً حلو المذاق . دخل دحلان إلى الغرفة و استقبلني بحفاوة . بعد نحو ربع ساعة ظهرت في الساحة سيارة مرسيدس سوداء محاطة بعسكريين مسلحين . توقفت السيارة أمام مدخل البيت فخرج منها عرفات ، توجّهت لاستقباله في المدخل . اقترب منّي فاتحاً ذراعيه ، احتضنني و قبلني بحرارة حسب العادات الشرقية و بدأ الحديث كما لو كنا أصدقاء قدامى . سألني كيف كانت رحلتي إلى غزة ، و عن صحة زوجتي و أولادي ، و أين أسكن الآن (لم أكن واثقاً أنه كان يعلم أين أسكن) . في البداية تحدثنا بالإنجليزية و خاطبني بلقب His Excellency . و حين انتقلنا للحديث بالعربية خاطبني بـ "حضرة" .
بعد عدة لقاءات ، حين توثقت العلاقة بيننا أصبح يخاطبني باسمي الشخصي . و سرعان ما انتقلنا في حديثنا من المواضيع العائلية إلى الواقع السياسي . و كان عرفات قد أبدى معرفة عميقة بالتطوّرات في (إسرائيل) وأكثر من الثناء على إسحاق رابين و شجاعته و إصراره على دفع عملية السلام . و بعد أن

استعرض أمامي المصاعب الجمة التي تواجه السلطة الفلسطينية انتقلنا للحديث عن القضايا العملية المرتبطة بمجال عملي .
سُئلت مراراً عن الإحساس الذي انتابني عند لقائي الأول مع الشخص الذي كان حتى قبل وقتٍ قصير يتصدّر قائمة أعداء (إسرائيل) . هل شعرت بالكرب ، الكراهية ، النفور ؟ لم يكن الجواب على ذلك سهلاً . يبدي عرفات درجة كبيرة من الهدوء و اللطف ، اللذان يتناقضان تماماً مع صورته . و يستطيع أن يدخل في نفس محدّثه الشعور بالارتياح و الاطمئنان . و الحقيقة أنني لم أتوقع ذلك ، لكنني لم أفاجأ . لقد بدأ اهتمامي المهني بعرفات في عام 1967 ، و منذ ذلك الحين و أنا أجمع معلومات عنه . لذلك عرفت أيضاً هذا الجانب في الشخص الذي كان و لفترة طويلة ، مسؤولاً عن أعمال (إرهابية) وحشية .
إضافة إلى ذلك ، و منذ بداية المسيرة السلمية مع الفلسطينيين انتهت بالنسبة لي دائرة العداء . لقد قاتلناهم ، و قاتلونا ، و كل منا فعل ما اعتقد أنه صحيح . و الآن لم يعد هذا قائماً . لقد توجّهت للقاء أشخاص سنبرم معهم اتفاق سلام ، لذلك لم يعد هناك أي معنى للحديث عن الماضي بمصطلحات الحقد و الكراهية . كانت العمليات (التخريبية) التي وقعت منذ ذلك الحين ، و رغم العملية السلمية ، تمزّق قلبي و جعلتني أقتنع بأن علينا مكافحة (الإرهاب) و لفترة طويلة . و لكن يجب أن نتذكر أيضاً أن فتح ، المنظمة التي كانت مسؤولة عن سبعين بالمائة من العمليات ضد (إسرائيل) ، تخلّت عن طريق (الإرهاب) .
في تلك الأيام تذكّرت أكثر من مرة زياراتي إلى نابلس بعد حرب حزيران ، تذكّرت الاتصالات التي أجريتها ، كموظف في "الشاباك" ، مع السكان الفلسطينيين . لقد بدا لي الأشخاص الذين التقيتهم في الشارع و في المقاهي و في غرف التحقيق ، منغلقين على أنفسهم ، ضيّقو الأفق ، خائفون ، لديهم إحساس بالظلم ، و تنتابهم مشاعر من الحقد الشديد ليس إزاء (إسرائيل) و حسب بل إزاء الدول العربية ، التي حمّلوها مسؤولية وضعهم السيء . و لكنني الآن و حين التقيت الممثلين و الناطقين باسم هذا الجيل الفلسطيني الجديد و المختلف كثيراً ، فكّرت – و قد يبدو هذا غريباً – أنه يمكن أن ننسب هذا التغيير – جزئياً على الأقل – إى الحكم (الإسرائيلي) في المناطق الذي طوّر الجامعات المحلية و أدّى إلى ازدهار في الوضع الاقتصادي و الصحي و منح السكان حرية نسبية في الحركة . و كان الذين التقيتهم و خاطبتهم ، أناساً فخورين ، مثقفين ، يحملون مفاهيم غربية و رؤيا واسعة ، يتحدّثون معنا كأنداد . و في مثل هذا الواقع لم أجد صعوبة في إيجاد لغة مشتركة معهم .
و لم يمضِ طويل وقت حتى نشأت علاقات صداقة بيني و بين عرفات . و أكثرت من السفر للالتقاء معه ، برفقة يوسي غينوسار الذي كان رجل اتصال غير رسمي لرابين مع رئيس السلطة الفلسطينية . أجرينا حوارات طويلة في جوّ مريح و كان عرفات خلالها ينهض من مكانه و يمسك بذراعي و يقودني إلى الغرفة المجاورة حيث تنتظرنا مشروبات خفيفة روحية ، و مأكولات شهيّة مختلفة و أحياناً وجبة خفيفة .
و حسب عادات الضيافة الشرقية ، كان يحرص شخصياً على أن لا أبقى جائعاً ، لا سمح الله ، و كان يحثني على تذوق كلّ شيء و أحياناً يتناول قطعة حلوى بيده و يقرّبها إلى فمي .
في تلك اللقاءات طرحت مطالب و طلبات مختلفة ، مثلاً طلبت منه في إحدى المرات أن تلقي السلطة القبض على (المخرّب) أحمد يحيى عياش (المهندس) الذي كان في ذلك الحين يتصدّر قائمة المطلوبين . أصغى لي عرفات باهتمام و وعدني بأن يبذل قصارى جهده في هذا الأمر. و لم يكن ثمة غرابة في ردّه هذا . حيث كان دائماً يمنحنا الإحساس بأن طلباتنا مستجابة حتى لو لم يقصد ذلك . و بالفعل لم يتم تنفيذ الجزء الأعظم من الطلبات .
و كانت اللقاءات التي تتناول قضايا عملية تضمّ في الكثير من الأحيان المسؤولين الكبار منهم الرجوب و دحلان . و رغم أن عرفات لم يكن يصدر الأوامر لهم مباشرة إلا أنهم كانوا بمجرد طرحه لهذا الموضوع أو ذاك يعرفون كيف يتصرّفون . و مع مرور الوقت تعلّمت أنا أيضاً كيف أفسّر نواياه الحقيقية .
مثلاً حين طلبت منه المساعدة في إيجاد جثة الجندي إيلان سعدون ، ردّ باختصار أن السلطة الفلسطينية ستفعل ما بوسعها . نظرت إليه وأدركت أنه ينوي فعل ذلك حقاً . و أثبت الواقع صدق حدسي . مقابل ذلك كان ردّه على طلبي بخصوص المهندس ، يتمثّل بتصريحات رنانة : "دور السلطة الفلسطينية هو مكافحة (الإرهاب) ، و (الإرهاب) هو العدو المشترك للشعبين" و ما شابه . و أدركت فوراً أن هذه كلمات جوفاء لا تعني شيئاً .
يتساءل الكثيرون ما هو سرّ قوة هذا الشخص ذي المظهر الخارجي غير الجذاب . يبدو لي أن التفسير الأكثر منطقية هو أن الفلسطينيين يعتبرونه رمزاً و علماً . حيث يعتبر عرفات في نظرهم الشخص الذي حمل و يحمل على عاتقه الكفاح الوطني منذ إقامة م.ت.ف عام 1964 . و الملابس الرسمية و الكوفية التي يحرص على الظهور بها دائماً ، تجسّد بوضوح هذا الانطباع ، و لا شك أنه يدرك ذلك . أضف إلى هذا أنه ذكيّ جداً و ماكر و يعرف كيف يركّز بيده صلاحيات و قوة بدون أن يبرز ذلك . لا يحتاج وسط

رجاله أن يضرب بقبضته على الطاولة من أجل أن ينال مراده ، و لا يضطر إلى رفع صوته إلا في حالات نادرة . و مع ذلك ، كان في لقاءاته معي ، يرفع صوته أحياناً و يقول "أنا لست إمعة لكم . لا تعتقدون أنني سأقبل بعدة سنتيمترات في أريحا . لن أدعكم تجعلون مني أضحوكة" .

بات من الواضح للجميع أن عرفات و الفلسطينيين لا يعشقون (إسرائيل) و لن يعشقوها . إنهم يريدون السلام على فرض أنه سيؤول إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة . و هذه لم تكن أمنية رابين و كذلك لم تكن رغبة نتنياهو ، و لكن يجب أن نأخذ بالحسبان أنه لا يوجد خيار آخر . و في كلّ الأحوال لا يوجد خيار أفضل . أنا مقتنع بأن حثّ المباحثات مع الفلسطينيين و التوقيع على الاتفاقيات سيؤدّي بالضرورة إلى تسريع آلية المصالحة بين الشعبين . ما زال الكثير من (الإسرائيليين) لا يفهمون بأن السلام الحقيقي يتم بين الشعوب ، بين الأشخاص و ليس فقط بين الزعماء . لقد نسجت في سنوات عملي في "الشاباك" علاقات صداقة جريئة مع الكثير من الفلسطينيين ، و أحياناً في مناطق مشبّعة بالكراهية لـ (إسرائيل) . أنا أدرك غرابة الأمر بالنسبة للكثيرين . و لكن لا أذكر و لو حادثة واحدة أن قام أحد أصدقائي العرب بالإخلال بالثقة التي سادت بيننا ، أو أغلق الباب في وجهنا .

و السؤال الذي كان يطرح دائماً هو من سيخلف عرفات في قادم الأيام . من الصعب التنبؤ بالواقع الشرق أوسطي كثير التغيرات و التقلبات . و مع ذلك ، سأخاطر و أذكر أسماء مرشّحين يتمتعان بفرص قوية : أبو العلاء ، الاقتصادي القدير ، و من واضعي أسس مسيرة أوسلو ، و أبو مازن ، المعتدل . المقبول في العالم و في الدول العربية و من مبادري اللقاءات مع (إسرائيليين) في الفترة التي كانت تحظر فيها هذه اللقاءات . و كلاهما يقيمان علاقات وثيقة مع الكثير من (الإسرائيليين) ، سواء كانوا رجال سلطة أو أصدقاء شخصيين .

و المفارقة هي أن تجميد المسيرة السلمية أدّت تحديداً إلى هدوء نسبي في مجال (الإرهاب) . صحيح أن العمليات لم تتوقف نهائياً ، و لكنها كانت قليلة و أضرارها بسيطة . و سبب ذلك أن هدف حماس ، الجهاد الإسلامي و منظمات الرفض المختلفة أ من تنفيذ عمليات (تخريبية) هو إبطال أو تشويش أو نسف المسيرة السلميّة و إثارة الرأي العام (الإسرائيلي) ضد المصالحة مع الفلسطينيين ، طالما أن هذه المسيرة تتقدّم . و المعروف أن المنظمات الأصولية تعارض التسوية السياسية بمضمونها المقترح . و هي تسعى إلى إقامة دولة إسلامية تبتلع (إسرائيل) . لذلك ، حين تتوقف المسيرة السلمية ، لا تجد ضرورة لممارسة (الإرهاب) ، ذلك لأن هدف معارضي السلام يتحقق بطبيعة الحال دون الحاجة إلى سفك دماء و دون التورّط مع أجهزة الأمن الفلسطينية التي أثبتت نجاعتها إثر العمليات التي وقعت في الأشهر الأولى من عام 1996 .

و لكنني أعتقد بأن الصورة ستتغير بعد حدوث انطلاقة في المسيرة السلمية ، من الجائز الافتراض بأن العمليات (الإرهابية) ستشتد . خاصة و أن المنظمات (التخريبية) الإسلامية لا تجد صعوبة في تجنيد (الانتحاريين) و لا تعاني من نقص في الوسائل القتالية ، و لم تنخفض حافزية أفرادها و لا تواجه مشاكل تنظيمية . و على الرغم من ذلك ليس هناك بديل غير السلام . تستطيع (إسرائيل) لكونها الدولة الأقوى في المنطقة أن تمنح السلام فرصة . لن يشكّل الفلسطينيون في المستقبل المنظور خطراً على (إسرائيل) . حيث لا يملكون حتى الآن قوة عسكرية حقيقية و كل ما يملكه هو شرطة و قوات أمن ، و ليس لديهم أسلحة ثقيلة و إذا أثيرت مشكلة جدية فإن 5 – 6 دبابات (إسرائيلية) تستطيع أن تسيطر على قطاع غزة بسهولة بالغة . مع ذلك فإن الزاوية العسكرية هي جانب واحد من العملة ، حيث إن إعادة السيطرة على المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية من شأنها أن تورّط (إسرائيل) على الصعيد السياسي و الدولي .

و في ظلّ غياب اتفاق سلام ليس (الإرهاب) فقط هو الذي سيتجدّد . بل من شأن الشارع الفلسطيني ، الذي فقد ثقته بالسياسيين و الذي يغلي الآن من تحت البساط ، أن ينفجر و يحيي الانتفاضة و إن كان ذلك بصورة أخرى : فمن شبه المؤكد أن الحجارة و الزجاجات الحارقة ستستبدل بالسلاح الناري الموجود في المناطق بغزارة . من الصعب ، كما هو واضح تقدير متى سيحدث ذلك و لكن ثمة أمر واحد واضح : و هو أن الظروف المؤدية إلى ذلك تنضج بسرعة . مع ذلك فإن معظم الفلسطينيين ، على غرار معظم (الإسرائيليين) ، يريدون العيش بسلام و سكينة . و تجري الحياة اليوم كعادتها . و لا يحدث الإخلال بالهدوء إلا حين نفتح نحن نفقاً مختلفاً عليه ، أو عندما يخرجون هم للتظاهر في يوم النكبة . و من الممكن أن نستخلص من الهدوء الذي ساد بين الطرفين ، بأن الشعبين قادران على العيش بسلام إذا شاءا ذلك .

و من أجل استكمال الصورة لا يمكن تجاهل التآكل في الموقف الدولي لـ (إسرائيل) . إلى جانب التغيير نحو الأفضل ، الذي طرأ على الموقف الدولي من السلطة الفلسطينية . لقد أدّت عرقلة المسيرة السلمية إلى تحسّن كبير في مكانة عرفات . فهو كثير التردّد على مكاتب رؤساء دول و رؤساء حكومات و يستقبل كشخصية رفيعة المستوى و الآذان تصغي لكلّ ما تنبس به شفتاه .

و مقابل ذلك ثمة تطوير خطير جداً : و هو أن حصانتنا الداخلية أخذت بالتآكل و التلاشي و انخفضت قدرتنا على مواجهة العمليات (الإرهابية) بقوة و جرأة . أضف إلى ذلك الإحساس بعدم الصبر ، اليأس العميق و الشعور بوجود حرب داخلية دائمة و انعدام الأمل . و لكن حتى التقدّم الحقيقي في المسيرة السلمية ينطوي على خطر . حيث من شأن ذلك أن يخلّ بالتوازن الحساس في المجتمع (الإسرائيلي) . قد يبدأ ذلك بالإخلال بالنظام ، بالمظاهرات ، بخلق جوّ مماثل لذلك الذي ساد قبل اغتيال رابين . و ستنصب مشاعر العداء ضد من يقود المسيرة السلمية . و تدل التجربة على أن مثل هذا الجو يشكّل دفيئة أيديولوجية لنمو أعشاب ضالة ، لا تتوانى عن المسذ بشخصيات (إسرائيلية) و فلسطينية تحاول حث مسيرة السلام . و لعل يغئال عمير هو نموذجهم .. لقد نجح في تشويش المسيرة و سيستقون التشجيع من تجربته . حيث سيقولون لأنفسهم إنه إذا استطاع عمير فعل ذلك فليس هناك سبب لفشل طريقهم . علينا أن نستمع ثانية إلى فتاوى بعض الحاخامين ، التي ربما لم تتناول مباشرة "الحكم ضد الطاغية" و لكنها تؤكّد الأهمية العليا للحفاظ على سلامة أرض (إسرائيل) الكاملة . و يستطيع كلّ واحد أن يستخلص من ذلك نتائج عملية . صحيح أن أصبع "الشاباك" يبقى دائماً على الزناد . و لكن ليس ثمة فرصة لأن يكتشف قاتلاً محتملاً ، يعمل بدون دعم تنظيمي أو بدون علم الآخرين .

حين يتم التوقيع على اتفاق سلام ، سيتضاءل – حسب رأيي – خطر الإرهاب اليهودي سواء بسبب التسليم بالحقائق أو بسبب المبنى التنظيمي الواهن للمجموعات الهامشية من اليمين المتطرف . و لكن أخشى أن نشهد ظواهر إرهابية تأتي كردّ فعل . مثلاً إذا قتل يهودي ، لا سمح الله ، و هو في طريقه إلى حائط المبكى ، فإنه سيظهر من يقوم بطعن عربي بدافع الانتقام .

و التسوية السلمية ، حتى لو أعقبتها عمليات (تخريبية) هناك و هناك ، ستؤدّي إلى تهدئة الشارع العربي و ستوفّر لأجهزة الأمن الفلسطينية الحافز لضرب من يحاول تعطيل الحياة التي عادت في نهاية الأمر إلى مسارها الطبيعي . و فقط عندما يتيقن عرفات عملياً بأن المنظمات (الإرهابية) الاسلامية تنسف محاولات بناء دولته فإنه سيقاتلها بصرامة و حزم و على نحو منهجيّ و دائم .

سيرتب اتفاق السلام على مصاعب جمة لجهاز الأمن العام "الشاباك" . حيث بات منذ الآن ، يجد صعوبة في جمع المعلومات . و سيكون اعتقال مطلوبين في مناطق لا تخضع إلى سيطرتنا ، أمراً يكاد يكون مستحيلاً . و سنجد أنفسنا ملزمين بالاعتماد أكثر على تعاون أجهزة الأمن الفلسطينية . و لا أحد يضمن لنا بأن يكون هذا التعاون كاملاً . مع ذلك أنا أؤمن بأنه كلما تعمّق السلام كلّما تعاظم التعاون مع أجهزة الأمن الفلسطينية . و ذلك بسبب المصالح المشتركة ، و نتيجة لذلك ستكون مكافحة (الإرهاب) أكثر نجاعة ذلك لأن أجهزة الأمن هذه قادرة على مواجهة المنظمات (التخريبية) . و لما كانت تعيش وسط السكان فإنها تستطيع أن تصل إلى كلّ مكان و تكتشف كل (مخرّب) . و حين قرّرت أجهزة الأمن الفلسطينية في بداية عام 1996 ، في عهد ولاية شمعون بيرس كرئيس حكومة ، ضرب حماس ، لم يستطع أحد منعها من ذلك .

من شبه المؤكّد أن اتفاق السلام سيوقع في جيلنا . و مشكلة القدس المعقدة و المشحونة ، ستبقى حسب رأيي ، دون حلّ لأجيال طويلة .

يفهم الفلسطينيون ذلك تماماً . و سيواصلون إصدار التصريحات بشأن حقّهم بالقدس و لكنهم لن يرجئوا الإعلان عن دولتهم لأن المشكلة لم تجد حلاً لها . سيضطرون إلى إبقاء هذه القضية مفتوحة . إن ثلث سكان القدس هم من العرب . و هي أحد الأماكن المقدّسة جداً للمسلمين . و لكن تولّد لديّ الانطباع من المباحثات التي أجريتها مع الكثير من الفلسطينيين أنهم يعرفون جيّداً أن (إسرائيل) لن تتنازل أبداً عن أجزاء من القدس . و قال لي بعضهم – و منهم شخصيات مركزية – إنهم كانوا سيكتفون برام الله كعاصمة مع حرية الوصول إلى الأماكن الإسلامية في القدس . و حقاً ، من الجائز جداً أن يتم الإعلان في نهاية الأمر عن رام الله كعاصمة مؤقتة لدولة فلسطين .

تترسّخ أسس الدولة الفلسطينية المستقلة أمام أعيننا . و يعتبر الإعلان عن الدولة ذروة طموح عرفات ، ليس فقط لدوافع وطنية بل لسببٍ شخصي : و هو رغبته الجامحة في أن يسجّل في كتب التاريخ كمؤسّس لفلسطين و رئيسها الأول . و كلّما سارعت (إسرائيل) في الاعتراف بهذا الواقع و بلورت موقفها في الموضوع كلّما كان من السهل عليها إجراء مفاوضات أكثر تركيزاً حول التسوية الدائمة التي تحدّد فيها لنفسها سلفاً الخطوط الحمراء في القضايا الجوهرية المصيرية مثل حق العودة و حجم القوات المسلحة الفلسطينية ، الحدود و المعابر للدول العربية و غير ذلك .

بطبيعة الحال ثمة سؤال طُرح أكثر من مرة و هو كيف ستؤثّر إقامة دولة فلسطينية على عرب (إسرائيل) . و هذا السؤال مرتبط بفهم الوضع الخاص لعرب (إسرائيل) الذي لا يقلّ إثارة للمشاكل . لقد كان الوسط العربي أحد القطاعات التي كرّس لها جهاز الأمن العام اهتماماً بالغاً حتى حرب حزيران . و كان الاهتمام يتركّز على أعضاء "راكاح" الذين بنوا أنفسهم كحركة وطنية عربية أكثر منها حركة أيديولوجية

شيوعية . و بعد عدة سنوات ، و في أعقاب ضعف راكاح إثر انحلال المعسكر الشيوعي انخفضت ضرورة الرقابة عليها بهذا النحو من الكثافة .

في التسعة عشر سنة التي سبقت حرب الأيام الستة كان عرب (إسرائيل) منعزلين تماماً عن إخوتهم في الدول المجاورة الذين اتهموهم ببيع أنفسهم رخيصاً للعدو الصهيوني ، و أنهم فقدوا هويتهم الوطنية كعربٍ فلسطينيين حتى أنهم تخلّوا عن هويتهم الدينية . و الأكثر من ذلك فإن الكثير من لاجئي 1948 و ذريتهم لم ينجحوا بالتخلّص من الحياة القاسية في المخيمات فيما تعزّز سكان عرب (إسرائيل) من الناحية الاقتصادية . و رغم عزلتهم ، و على الرغم من الاتهامات الصعبة التي وجّهها لهم إخوتهم وراء الحدود ، ثار خوف ، عشية حرب حزيران من انعطافة محتملة وسط عرب (إسرائيل) . و أعلن "الشاباك" حالة التأهب لمواجهة هذا الاحتمال . لقد أخذنا بعين الاعتبار انتفاضة مدنية تعرقل قوات الجيش (الإسرائيلي) في التحرّك باتجاه أهدافها . و لكن كلّ هذه المخاوف تبدّدت . و مثلما هي الحال في كلّ حروب (إسرائيل) فإنهم لم يقفوا حجر عثرة في هذه المرة أيضاً . صحيح أنه سجّل هناك و هناك محاولات منفردة ، بسيطة ، تهدف إلى (التخريب) أثناء الحرب و لكن القطاع السكاني العربي بمجمله ترك الأمور تتطوّر دون تدخّل .

و بعد أن فتحت الحدود في أعقاب الحرب بدأ سكان عرب (إسرائيل) بالتدفق إلى الضفة الغربية لزيارة أقربائهم . و سافروا إلى هناك بسياراتهم الجديدة مظهرين علامات الثراء و النعيم . و كان استقبال مضيفيهم في بعض الأحيان يتسم بالبرود و الجفاء .

و كان السياسيون (الإسرائيليون) الذين آمنوا أن عرب (إسرائيل) سيشكّلون جسراً للسلام قد أخطأوا . حيث أدّت مواجهة الاتهامات التي وجّهت إليهم من أبناء شعبهم الذين يرزحون الآن تحت الاحتلال (الإسرائيلي) إلى صدمة شديدة . و لم تتأخر النتائج عن الوصول : حيث قام الكثير من الذين وصفوا أنفسهم في السابق "كعرب (إسرائيليين)" بإبراز هويتهم الفلسطينية فيما أبعدوا الهوية (الإسرائيلية) إلى الهامش . و بكلمات أخرى لم يعد هناك عرب (إسرائيليون) بل عرب سكان دولة (إسرائيل) . و تعزّز الإحساس بالظلم – الإحساس بأنهم مواطنون من صنف ب – و عبّر هذا الإحساس عن نفسه في مجالات كثيرة . مثلاً اشتدت مقاومة تعلم قصائد بياليك في المدارس العربية و طرح مطلب تضمين المنهاج التعليمي بأعمال الشاعر الفلسطيني الوطني محمود درويش . و قال رجال التربية العرب : "أنتم اليهود ، تتعلمون التراث الصهيوني . دعونا نتعلم نحن التراث الفلسطيني" . و حسب علمي أدركت وزارة التربية و التعليم هذه المطالب و عملت ، و بحق ، على إيجاد توازن في المناهج التعليمية في الوسط العربي .

ثمة الكثير جداً من المواضيع التي تجمع عرب (إسرائيل) مع إخوتهم في المناطق . و يتصدّر هذه المواضيع ، العامل الديني المتمثل بالحرم الشريف . و ليس صدفة أن طرأ قبل نحو عشر سنوات ارتفاع مذهل في قوة الحركة الإسلامية . صحيح أن زعماءها يكتبون و يخطبون ، و يحرّضون و لكنهم يعرفون أنهم يعيشون في دولة قانون . إنهم أذكياء جداً و حذرون بصورة عامة من مغبة تجاوز الحدود . و لعلّ أحد الأسئلة الكبيرة التي تطرح نفسها هي ما إذا كان تطابق المصالح يولد وسط عرب (إسرائيل) الرغبة في أن يكونوا جزءاً من الدولة الفلسطينية المستقلة . ليس من الصعب تطبيق ذلك بصورة جزئية على الأرض : حيث إن المثلث كلّه يقع بجوار الضفة الغربية ، و من خلال إزاحة الحدود بخمسة كيلومترات فقط يتحوّل كلّ وادي عارة ، الطيبة ، كفر قاسم ، أم الفحم و عرعرة إلى جزء من الدولة الفلسطينية و ثمة حوالي نصف سكان عرب (إسرائيل) يسكنون في هذه المنطقة ، و أي تغيير جيوسياسي لا يستدعي تقريباً أي تغيير في أماكن السكن أو نمط الحياة . مع ذلك أعتقد أن معظم هؤلاء السكان سيرفضون الانضمام إلى الدولة الفلسطينية حتى لو لم يكن ذلك منوطاً باقتلاعهم من أماكن سكناهم . و إمكانية أن يوافق عرب الجليل على هجر أراضيهم و بيوتهم من أجل التوطّن في هذا المكان أو ذاك في الدولة الفلسطينية إذا أقيمت ، تبدو لي ضعيفة جداً . حيث لن يتنازل عرب (إسرائيل) ، بهذه البساطة عن النعيم في دولة (إسرائيل) . ربما يعملون لصالح إخوتهم في الدولة الفلسطينية الجديدة ، و ربما يرسلون أولادهم إلى المخيّمات الصيفية التي قد تقام في نابلس ، و في جنين أو غزة ، و ينشئون جمعيات صداقة و لكنهم سيبقون هنا .

ما زال موقف عرب (إسرائيل) إزاء ما يحدث في المناطق هو موقف تضامني عن بعد . و حتى لو تعمّق انخراطهم الفاعل في القضية الوطنية فإنها لن تصل إلى درجة التعاطف التلقائي . و كانت الانتفاضة خير مثال على ذلك . حيث عندما كانت المناطق تشتعل و تثور ، لم تجر تقريباً أعمال إخلال بالنظام و مظاهرات عنيفة وسط عرب (إسرائيل) . و قد وقعت بعض الأحداث القليلة على خلفية محلية فقط و من منطلق المحاكاة و التقليد من قبل الأولاد . و في أحيان قليلة وقعت على خلفية التعاطف . و من بين نحو مليون عربي من مواطني (إسرائيل) كان هناك القليل جداً من الذين ساعدوا (المخرّبين) و انضم عددٌ محدود جداً إلى المنظمات (التخريبية) ، و لكن يجب أن لا ننسى بأن هناك إمكانية هائلة وسط عرب

(إسرائيل) للتعاطف مع عرب المناطق و خاصة في أعقاب فشل العملية السلمية . و على "الشاباك" أن يبدي يقظة دائمة من أجل منع إمكانية أن يرتدي هذا التعاطف طابعاً خطيراً .
و لم تتخطّ التغييرات في المنطقة الوسط البدوي في النقب و الجليل ، فقد تغلغلت الحركة الإسلامية إلى هذا الوسط بوتيرة عالية . و كان تسويف السلطات في ايجاد حلّ لمشكلة الأراضي البدوية في أعقاب إعادة انتشار القواعد العسكرية بعد الانسحاب من سيناء ، قد أثار غضب البدو و دفعهم إلى أحضان الحركات العربية الوطنية . و لا شك أن كلّ التصريحات غير المتزنة و غير الموفقة التي أدلى بها مسؤولون (إسرائيليون) قد ساهمت في إثارة الغضب و الاحتجاج و مشاعر الإحباط وسط السكان البدو .
لقد استطاع الكثير من البدو اكتساب مكانة محترمة وسط الجيش كقصاصي أثر بارعين . و رغم أن الخدمة الإلزامية لا تسري على البدو إلا أن الكثير منهم تطوّعوا إلى الجيش و إلى قوات الأمن الخاصة .
و لكن يجب أن لا ننسى أنهم ، و رغم ارتدائهم الزي العسكري ، لا يزالون جزءاً من الوسط البدوي و لا أحد منهم محصّن من الإحساس بالظلم و العداء الذي يضرب جذوره عميقاً وسط السكان البدو . الأمر الذي من شأنه أن يمسّ بتقليد تطوّعهم إلى أجهزة الأمن . و لعلّ ايلاء السلطات (الإسرائيلية) اهتماماً أكبر إلى احتياجات البدو سيساعد في تبديد التوتر و منع تطوّر ظواهر متطرّفة أكثر خطورة.
تستطيع دولة (إسرائيل) أن تقدّم الكثير للسكان الدروز ، و هم يستحقون ذلك . لقد ربط الدروز في دولة (إسرائيل) – للتفريق عن إخوتهم في هضبة الجولان – مصيرهم بمصير الدولة . و هذه طائفة تتكيف بسرعة ، و تعرف كيف تسوي أمورها مع السلطة الحاكمة في بلد إقامتها . و الدروز في (إسرائيل) يفعلون ذلك على نحوٍ يثير التقدير و الاحترام . و انخراطهم في حياة الدولة مدهش و مثير للإعجاب ، و ليس أدلّ على ذلك من ضباط الجيش الكبار من أبناء الطائفة . كذلك ساهم "الشاباك" في انخراط الدروز في مهمات أمنية خاصة للجهاز ..
مثلما هي الحال في كلّ وسط ، يوجد في الطائفة الدرزية أيضاً أعشاب ضارة تروّج لعدم التجنّد للجيش . و عدد الشبان الدروز الذين يرفضون الخدمة العسكرية الإلزامية غير كبير ، و لكن هذه الطائفة عموماً هي طائفة مذهلة لها إسهامات كثيرة لدولة (إسرائيل) .
مقابل ذلك ، فإن علاقة الدروز سكان هضبة الجولان مع (إسرائيل) هي مزدوجة . من جهة فإن مستوى حياتهم في ظلّ السلطة (الإسرائيلية) أعلى بكثير مما كانت عليه في فترة السلطة السورية . و من جهة أخرى فإن معظمهم يبدون ميولاً سورية واضحة . الأمر الذي ينبع إلى حدّ كبير من خوفهم بأن يكلفهم تعاطفهم مع (إسرائيل) غالياً إذا عادت الجولان ذات يوم إلى سوريا . إضافة إلى أنه يوجد في القرى الدرزية في هضبة الجولان غير قليل من العائلات التي انفصلت عن أقربائها في سوريا و هي تسعى للعودة و جمع الشمل بأسرع ما يمكن .
يتركّز جلّ نشاط "الشاباك" في هضبة الجولان على إحباط محاولات التجسّس لصالح سوريا من قبل فرادى من سكان الهضبة و إحباط النشاطات التآمرية السياسية النابعة من التضامن مع سوريا ، و في فترة ولايتي كرئيسٍ "للشاباك" سمحنا للكثير من الشبان الدروز من هضبة الجولان بالسفر لاستكمال التحصيل العلمي في سوريا . و سمحنا أيضاً لزيارات متبادلة بين الكثير من الأقارب . و إجمالاً ، من الممكن القول إنه باستثناء أحداث استثنائية – مثل مظاهرات في عيد الثورة السورية – تم الحفاظ على مظاهر التعايش مع الطائفة الدرزية في هضبة الجولان .

"ذئب وحيد" في الخليل

في 25 شباط 1994 ، قبل السادسة صباحاً بعدة دقائق رنّ جرس الهاتف قرب سريري ، لم يكن النبأ الذي تلقّيته يتضمّن المزيد من التفاصيل ، و لكن ما سمعته كان يكفي لأن أنتفض من مكاني واقفاً . قيل لي إنه قبل لحظاتٍ سمعت عيارات ناريةٍ و صرخات في الحرم الإبراهيميّ و أن قوات الأمن تتدفق الآن إلى المنطقة . راودني الأمل أن يكون الأمر مجرد نزاع عشائريٍّ ، أو رصاصةٍ طائشةٍ أو مطاردةٍ لـ (مخرّب) . و كانت التقارير من الميدان تتوالى تباعاً ، و اتضح خلال وقت قصير أن يهودياً دخل إلى الحرم الإبراهيميّ أثناء وقت صلاة المسلمين و أطلق النار بصورةٍ عشوائية و قتل 29 مصلياً و أصاب 125 منهم بجروح . و حدّدت أيضاً ملامح شخصيته : باروخ غولدشتاين ، طبيب من كريات أربع .

فحصت فوراً ما إذا كان لديه ملف في "الشاباك" . كان له ملف مثل ضبّاط كثيرين من اليمين . و لكن لم يكن ملفه يتضمن أيّ معلومة تشير إلى أن هذا الرجل كان من الممكن أن يقوم بهذا العمل المجنون .
شحذنا أذهاننا لإجراء تقييم سريع للوضع . و استخدمنا كلّ الوسائل الممكنة لمعرفة ما إذا كان غولدشتاين قد عمل لوحده أو في إطار تنظيم متطرّف و ما إذا كانت هذه عملية منفردة أو أنه من المتوقع عمليات أخرى ، و إذا كان الأمر كذلك ، متى ستقع هذه العمليات . بالمقابل أمرت كلّ رجال "الشاباك" بعدم الخروج إلى المناطق بدون احتياطات أمنية و تكثيف الحراسة على وزراء و شخصيات أخرى ، و على المؤسسات (الإسرائيلية) خارج البلاد و وسائل النقل الدولية التابعة لـ (إسرائيل) ، و جمع معلومات ميدانية عن أي محاولة من العرب للقيام بعمليات انتقامية . و بالمناسبة في نفس اليوم بدأ الفلسطينيون أيضاً بحراسة الشخصيات و منذ ذلك الحين كان بالإمكان رؤية حراس برفقة حنان عشراوي ، فيصل الحسيني ، حيدر عبد الشافي و موظفين كبار آخرين . في البداية كانت الحراسة بسيطة جداً ، لأننا لم نسمح للحراس بحمل السلاح و اكتفوا بحمل الهراوات و أدوات أخرى . و في مرحلة متأخرة جداً عرضنا عليهم الاستفادة من خبرتنا في موضوع الحراسة و لكنهم فضّلوا الاستعانة بالأمريكيين ، الفرنسيين ، الإنجليز و الأسبان .
و حين بدأت ملامح الصورة تتضح أكثر فأكثر ، أسرعت إلى هيئة جهاز الأمن العام و عقدت جلسة عمل مع كبار الأقسام المختلفة من أجل بلورة خطة عمل . و بعد ذلك توجّهت إلى قضاء بيت لحم التي كانت الأقرب إلى منطقة الحادث . حيث امتنعت كعادتي ، عن االوجود في مكان الحادث ، كي لا أقف في طريق قادة المكان . و في ساعات الظهيرة زرت الحرم الإبراهيمي كي أرى مكان الحادث عن كثب . و من هناك توجّهت إلى تل أبيب للمشاركة في الجلسة الطارئة للحكومة . قدّمت تقريراً للوزراء حول الحادث و أبلغتهم بالمعلومات التي استطعنا جمعها و استعرضت تقديراتنا بشأن ما هو متوقع و عدت إلى مكتبي من أجل توجيه خطواتنا .
في ساعات المساء المتأخرة أجرى إسحاق رابين مشاورات في مكتبه في وزارة الدفاع في تل أبيب ، كان هناك رئيس هيئة الأركان إيهود براك و نائبه أمنون شاحك ، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية أوري سجي ، السكرتير العسكري لرئيس الحكومة و أنا . طلب رابين الاستماع أولاً إلى تقديرات "الشاباك" . أبلغته أن المستوطنين في الخليل يخشون من أن تقرّر الحكومة إخلاءهم . و إذا حدث ذلك فإنهم سيسدّون الطريق إلى المستوطنة اليهودية بأجسادهم . و كانت هناك تهديدات بالمسّ بجنود الجيش (الإسرائيلي) إذا اتخذت أي خطوة ضد المستوطنين . و كانت تقديراتي تقضي بأن التوتر و التحريض في الشارع الفلسطيني لن يتبدّدا لوقتٍ طويل . و توقعت أيضاً حملة استنكار دولية لـ (إسرائيل) من شأنها أن تشجّع المخطّطين لعمليات انتقامية . و سأل رابين عن إمكانيات العمل المتوفرة لدينا . أعربت عن وجة نظري بعدم ضرورة إخلاء المستوطنة اليهودية في الخليل في هذه المرحلة ، و لكن مع ذلك من المستحسن القيام بعمل ما يظهر كردّ (إسرائيلي) شديد في أعقاب المجزرة .
و طرحت في النقاش ، الذي تطوّر في هذه القضية ، إمكانية إخلاء مستوطني تل رميدة فقط ، أيّدت هذه الخطوة . تقع تل رميدة في الجهة الجنوبية من الخليل . و تم شراء أراضيها التي يوجد بها آثار من الخليل القديمة ، في القرن التاسع عشر من قبَل الجالية اليهودية في المدينة . و كان التل أحد الأهداف الأولى للمستوطنين في الخليل فور حرب حزيران ، و لكنهم لم يستوطنوا في المكان إلا عام 1984 . منذ ذلك الحين جرت مواجهات كثيرة بين مجموعة المستوطنين اليهود الذين هم في معظمهم من أنصار اليمين المتطرّف و بين جيرانهم العرب و جنود الجيش (الإسرائيلي) . و كان يسكن في المكان عائلات قليلة في بيوت متنقلة وضعت على صفين يتوسّطها مكان ألعاب للأطفال ، و حديقة عامة و ساحة مرصوفة . و كانت كلّ حكومات (إسرائيل) ، حتى مقتل الحاخام رعنان ، من سكان تل رميدة في آب 1998 ، قد عارضت توسيع الحي و إقامة مبانٍ ثابتة في المكان .
تحدّثت أمام المجتمعين في مكتب وزير الدفاع عن أحد سكان تل رميدة و هو باروخ مارزيل زعيم حركة كاخ منذ اغتيال الحاخام مئير كهانا ، و هو رجل طويل القامة ملتحي ، له خبرة واسعة جداً في العلاقات العامة و يكثير من الاستفزازات ضد عرب الخليل . قلت إن إخلاء التل يثبت للعالم و خاصة للفلسطينيين أن (إسرائيل) لم تقف مكتوفة الأيدي بعد المجزرة ، و جاء ردّها سريعاً و شديداً . و قلت يجب استغلال هذه المناسبة ، لإبعاد المتطرّفين الخطرين ، الذين يهيّجون الوضع . و كان تقديري هو أن إخلاء المستوطنين من التل من شأنه أن يواجه بمقاومة قليلة نسبياً و ربما بتفهّم من جانب جمهور المستوطنين .
و ولّد ردّ رابين لديّ الانطباع بأنه يميل إلى قبول الفكرة . و أكّد أنه يجب تنفيذ الإخلاء بالسرعة الممكِنة قبل أن تتلاشى آثار صدمة المجزرة و في الوقت الذي يصعب فيه على المستوطنين إعداد أنفسهم لردّ مضاد . تفرّقنا في حوالي منتصف الليل بعد أن وعد رابين باتخاذ قرار حتى ساعات الصباح .

في غداة اليوم أبلغني السكرتير العسكري لرئيس الحكومة أن رابين قرّر عدم إخلاء التل . بدا أن القرار اتخذ في أعقاب مشاورات جرت خلال الليل .
حين وقّع اتفاق أوسلو مع الفلسطينيين في أيلول 1993 التزم رابين أمام المستوطنين بعدم إزالة أي مستوطنة مهما كانت صغيرة . بدا لي أن النقاشات الليلية عزّزت إصراره على الالتزام بوعده هذا . و الأكثر من ذلك فقد توقع أن الاضطرابات التي اندلعت في الخليل في أعقاب المجزرة في الحرم الإبراهيمي ستشتد . و أن الصدام مع اليهود في مثل هذه الظروف سيزيد من الطين بلّة . لقد كان رابين يتميّز بالتردّد و التخبّط قبل اتخاذ القرار . و بنظرة إلى الوراء اعتقد أنه أخطأ في قراره بعدم إخلاء المستوطنين اليهود في تل رميدة . لقد أكثرت الصحف و وسائل الإعلام الإلكترونية ، كما هو متوقع ، من نشر التحليلات التي تضمّنت محاولات لاستخلاص العبر مما وقع في الحرم الإبراهيمي و البحث عن مسؤوليين . من كان عليه أن يخمّن وقوع مثل هذا الحادث ؟ هل كان هناك اهتمام مناسب في المجال الاستخباري و في الأمور المتعلقة بالحراسة ؟ هل تم التعامل مع التحذيرات على محمل الجد ؟ .
بعد يومين من المجزرة قرّرت الحكومة إقامة لجنة تحقيق رسمية برئاسة رئيس المحكمة العليا مئير شمغار و عضوية القضاة أليعيزر غولدبرغ و عبد الرحمن الزعبي ، البروفيسور مناحيم يعاري و العقيد (احتياط) موشي ليفي . و في 8 آذار بدأت اللجنة سماع الإفادات في جلسات كانت معظمها علنية . حيث أجرت اللجنة 31 جلسة و استمعت إلى 106 إفادة و قامت بجولة معاينة إلى الحرم الإبراهيمي و ضواحيه .
و من بين ما أشارت إليه اللجنة في تقريرها المفصل هو أنه قبل عدة أيام من المجزرة التقى غولدشتاين مع صحافي أجنبي و أكد له "التوتر و الضغط الشديدين اللذين يعيش في ظلّهما المستوطنون" و هو يشعر ، حسب ادعائه ، بأن القيادة في (إسرائيل) و وسائل الإعلام تشنّ حملة تشهير ضد المستوطنين من أجل تهيئة الجمهور لاستيعاب طردهم من المناطق . و قال إن التعايش مع العرب مستحيل ، و لكن المجتمع (الإسرائيلي) تعب و أرهق من الحرب . "الجيش الإسرائيلي يخطىء بحقّ المستوطنين بمنعهم من القيام بعمليات انتقامية في أعقاب هجمات عربية . و العرب أقوياء لأنهم يدمجون القومية مع الحماس الديني و هم سيطردوننا من هنا إذا لم نسبقهم نحن بطردهم" .
مع ذلك أشارت اللجنة إلى أن الاستنتاج الذي تبلور بشأنه في الفترة الأخيرة كان ... أنه رغم تعاطفه مع المفاهيم المتطرّفة لحركة كاخ (بما في ذلك الحقد الشديد للعرب) فهو لم يكن جزءاً من النواة الصعبة و العنيفة لنشطاء كاخ التي كانت تعدّ لتنفيذ عمليات و التي من الممكن توقع الخطر منها ، خاصة و أن جزءاً من تصريحاته حسب رأي الأوساط المسؤولة عن منع (الإرهاب) ، كانت تشبه ما يصدر عن آخرين من كريات أربع .
يشير تحليل صفات و دوافع غولدشتاين ، حسب تقرير اللجنة إلى وجود وجه شبهٍ كبير بينه و بين القاتل المنفرد الآخر ، يغئال عمير ، الذي اغتال رئيس الحكومة إسحاق رابين : حسب وجهة نظره ، فإن الهدف و الرسالة اللذين وضعهما لنفسه تبرّران الوسيلة و تنفيان أي مانع . لم يعترف تعصّبه الشديد بعلو القانون أو بالسيادة المطلقة لسلطات الدولة ... يبدو أنه كان يعاني من ضائقة نفسية نتيجة لمعالجة متضرّري (الإرهاب) اليهود و يعيش في جوّ يكتنفه الخطر و الإهانة ... و هو يرى نفسه كرسولٍ لشعب (إسرائيل) و أمر بالعمل حسب إرادة الله ... و تبلورت لديه ، كما يبدو ، رغبة جامحة في أن يقوم بعمل لا سابق له من حيث خطورته و تطرّفه ، من شأنه أن يوقف المسيرة السلمية التي اعتبرها خطراً جسيماً ..." .
إن أكثر المواضيع التي شغلت بال "الشاباك" كثيراً أثناء التحقيق في المجزرة هي ما إذا كان غولدشتاين قد عمل لوحده ، لقد كتبت اللجنة موقفنا في هذه المسألة و هو :
"... لا مجال للاستنتاج بأن غولدشتاين عمل في الحرم بمساعدة شخص آخر .. لقد وصل لوحده ... و دخل القاعة و أطلق النار لوحده ... و ليس هناك أي دليل بأن غولدشتاين تلقى تغطية أو مساعدة من شخص مسلح أو غير مسلح ... و ليس لدينا أي دليل على أن غولدشتاين أشرك في خطته قبل تنفيذها أحداً من أصدقائه أو أفراد عائلته . و كانت زوجته قد ادعت ، كما ذكر سابقاً ، أنها لم تعرف شيئاً . و تشير كلّ الدلائل إلى أن الذين نقلوه ، بناء على طلبه ، إلى الحرم الإبراهيمي ، لم يكونوا على علمٍ بنواياه و ساعدوه بحسن نية ... و كان هذا ، حسب الأدلة المتوفرة لنا ، مجرّد عمل فردي" .
كان أحد البنود الهامة في التقرير ، قد تناول ، ما وصفته اللجنة بـ "الإمكانية القليلة إحباط المجزرة" : "إن الاستعداد لمواجهة قاتلٍ منفرد هي مهمة صعبة جداً ، و إمكانية إحباط العملية أو التخفيف من شدة خطورتها هي إمكانية قليلة جداً ، عندما يتعلّق الأمر بقاتلٍ منفرد لا يشارك شخصاً آخر في خططه و نواياه . إن كشف أي معلومة عن هويته و عن مكان و زمان العملية هو أمر يكاد يكون مستحيلاً . لذلك ، حتى في الظروف التي تكون فيها الاستعدادات لمواجهة خطر العملية هي استعدادات مثلى ، فإن إمكانية

إحباطها أو التخفيف من خطورتها تكون بصورة عامة قليلة . هذه الحقيقة هي التي يقوم عليها مبدأ "التلمس بالظلام" الذي يتبناه المسؤولون عن مواجهة ظاهرة القاتل المنفرد ، و أحياناً يفرض هذا المبدأ نفسه على الجمهور كله . و لكن لا يعني ذلك أن نخلص إلى نتيجة مفادها أنه من الممكن التعامل مع جرائم القاتل المنفرد كشرّ لا بد منه ، لا يجدي معها التفكير و الاستعداد لمواجهتها ، و ذلك لمجرد أن إمكانية إفشالها ضعيفة جداً ... حيث إن أهمية و فائدة الاستعدادات لا تقاس فقط بفرص نجاحها" .
و بالنسبة للتقدير المسبق للوضع قرّرت اللجنة : "لا نعتقد أنه يجب تحميل جهة ما مسؤولية أنها لم تتوقع مسبقاً بأن يقوم يهوديّ و يخطّط و ينفذ مجزرة ضد مسلمين في الحرم الإبراهيمي . حيث لم يتلقَّ المسؤولون عن حراسة الحرم الإبراهيمي أي تحذير من أي مصدر أمني معتمد يشير إلى توقع أن تنفّذ في الحرم عملية يهودية ضد المصلين المسلمين ، بل كانت هناك تحذيرات عكسية بتوقع عملية من حماس . و كان الخوف هو من عملية (تخريبية) يقوم بها العرب ضد اليهود ..." .
لقد شعرت بالارتياح من الفقرة التالية في تقرير اللجنة : "الجهة المسؤولة في دولة (إسرائيل) عن الاستعدادات الاستخبارية لمواجهة خطر وقوع عملية يهودية عنيفة ضد العرب سواء من قبل مجموعة منظمة أو قاتل منفرد هي جهاز الأمن العام . علينا إذن أن نسأل سؤالين :
أ: هل كان جهاز الأمن العام يدرك ازدياد خطر وقوع عمليات عنيفة يهودية ضد العرب بما في ذلك إمكانية تنفيذها على يد قاتل متفرّد ؟ .
ب: إذا كان الجواب على السؤال الأول إيجابياً هل استعد "الشاباك" بما فيه الكفاية لاستباق الخطر ؟ .
تشير الأدلة المتوفرة لدينا إلى إمكانية الردّ على السؤالين معا بالإيجاب . لقد عزّزت نتائج لجنة التحقيق ما كان كلّ رجل مخابرات يعرفه : من الصعب جداً – و عملياً من شبه المستحيل – إلقاء القبض على "ذئب منفرد" قبل ارتكاب العمل . و كنا قبل وقوع المجزرة ، نعرف عن وجود مجموعة يهودية متطرّفة من شأنها أن ترتكب مجزرة جماعية ضد العرب أو تقتل شخصيات سياسية كبيرة ، و لكن لم نستطع ، كما هو واضح . التقدير بأن باروخ غولدشتاين ، الطبيب من كريات أربع ، سيدخل ذات صباح إلى الحرم ، بدون أن يشرك أحداً في خطته و يطلق النار على المصلّين العرب .

سيارة مفخّخة قرب السفارة

إن جهاز الحراسة في دولة (إسرائيل) ، نسبة إلى مساحتها و عدد سكانها ، هو دون شكّ من أكبر الأجهزة في العالم . و كانت محاولة (المخرّبة) ليلى خالد اختطاف طائرة (إل – عال) في أيلول 1970 ، قتل الرياضيين (الإسرائيليين) في دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ 1972 ، تصعيد (الإرهاب) الفلسطيني و تحويل أوساط (إسرائيلية) و يهودية خارج البلاد إلى هدف للعمليات (الإرهابية) – كان كلّ هذا قد ألزم "الشاباك" ببلورة نظرية حراسة حديثة توفر الرد الملائم لكافة المشاكل المعقدة . و كان المفكّر الأساسي لهذه النظرية هو أبراهام شالوم ، رئيس "الشاباك" في أعوام 1981 – 1986 ، و الذي خلال ولايته ترأس أيضاً قسم الحراسة . و من أجل ترويج هذه النظرية أقام "الشاباك" مدرسة للحراسة ، تؤهّل ليس فقط رجال "الشاباك" العاملين في هذا المجال بل أيضاً رجال الحراسة للأطر الحكومية و التجارية على المستوى الوطني مثل (إل – عال) . و كانت مسؤولية حراسة هذه الأطر تقع على عاتق "الشاباك" .
كلّ رجل حراسة محترف يعرف أنه فقط في أحيان نادرة تصل معلومات تفيد أنه في تاريخ معيّن و في ساعة معينة ستقتحم خلية (مخرّبين) المطار المعين من أجل قتل المسافرين في الطائرة المعينة . لذلك فإن الحراسة الجارية هي فقط التي من شأنها أن تحبط المحاولات (التخريبية) .
في فترات الهدوء التي تنعدم فيها الأحداث الكبيرة من الصعب معرفة حجم العمليات التي أحبطت بفضل وحدة الحراسة . من الجائز الافتراض أنه في عهد الهدوء النسبي أيضاً كانت هناك محاولات للقيام بعمليات ، و لكن (المخرّبين) أدركوا من جولتهم الأولى في الموقع أن الحراسة هناك مشدّدة . و يقاس جهاز الحراسة حسب قدرته في الرد على الحالات الطارئة بالسرعة المطلوبة و النجاعة التامة . لذلك فإن الحياة اليومية لجهاز الحراسة "طيّب الذكر" ، هي حياة تأهب مستمر و يقظة تامة في كلّ لحظة و في كلّ مكان .

يتميّز عمل الحراسة ، و على خلاف العمل الميداني للمركزين أو المحققين ، بدرجة كبيرة جداً من الروتين . و من لا يعتاد على الروتين لا يستطيع أن يصمد في عمله كحارس . و لما كان الروتين يضعف اليقظة ، مع مرور الوقت ، فإن "الشاباك" يحرص على عدم إبقاء الحراس في مكانٍ واحد لفترة طويلة . و يكرّرون أمام الحراس دائماً في كلية الحراسة و الميدان ، بأن الهدوء و السكينة هما الخطر الأكثر جسامة لكلّ جهاز حراسة . و المناورات الحيّة المتتالية في الميدان هي الوسيلة الأفضل للاحتفاظ باليقظة . و الحارس النموذجي هو عموماً شاب أعزب ، قادر على العمل ليل نهار و في ساعات الضرورة يعمل أيضاً بتواصل و بدرجة عالية من اليقظة . و معظم ضباط الحراسة الذين يكلفون بمهام قيادية لأجهزة الحراسة في خارج البلاد لعدة سنوات ، هم من أرباب العائلات . و يفضّل "الشاباك" هذا الصنف من القادة .

يهدف الجهاز بمجمله إلى إعداد حراس يستطيعون الردّ بدقة ، و بصورة صحيحة خلال عدة ثوان . و إذا لم يتأهبّوا لمواجهة ذلك الجزء من الثانية الحاسمة الذي قد يقع في كلّ لحظة من عملهم . فإن كلّ الجهود التي بذلت في سبيلهم و سبيل جهازهم ستذهب هباء منثوراً . و من أجل الحيلولة دون وقوع هذا الخطر تتخذ إجراءات مشدّدة ضد الحراس الذين لا يبدون يقظة كافية أثناء التدريب ، تصل أحيانا إلى مستوى الإقالة .

ثمة الكثير من الحكايات رويت عن أبروم أثناء ولايته كرئيس قسم للحراسة ، و كان هذا الرجل الذي عرف بدقته و مبدئيته يكثر جداً من التجوّل في أجهزة الحراسة في العالم و يفحص مدى اليقظة فيها و يشارك في المناورات . و قيل إنه لم يكن يعود من رحلة بدون أن يقيل اثنين على الأقل من رجال الحراسة بسبب أخطائهم . لم أستطع أن أتأكد من صحة القصة المسلية جداً التي تروى عن أبروم . يقولون في قسم الحراسة ، إن أبروم رأى أثناء زيارة عادية إلى مطار بن غوريون ، شخصاً يتكىء على عمود و هو ينتعل صندلاً . اشتاط أبروم غضباً لأنه يحظر انتعال الصنادل أثناء الحراسة فداس بكلّ قوته على أصابع قدم الشخص التي بانت من فتحات الصندل . و فقط بعد وقتٍ متأخر تبيّن أن الشخص المرعوب الذي يتلوّى و يصرخ ألماً لم يكن سوى مسافرٍ بريء كان ينتظر موعد الطائرة و ليس رجل حراسة مثلما اعتقد أبروم . و بصعوبة بالغة استطاعوا إنقاذه من الرجل الغاضب الذي أراد معاقبته .

لقد كنا نستخلص العبر من كلّ عملية ضد مؤسسة (إسرائيلية) أو يهودية في خارج البلاد و ننفّذها بسرعة . و بعد انفجار السيارة المفخّخة قرب مبنى السفارة (الإسرائيلية) في بوينس آيرس طلبنا أن لا تقيم ممثلياتنا في بيوتٍ منفصلة بل في طوابق متوسطة في عمارات مكاتب . و أمرنا بإقامة قواعد و جدران إسمنتية تمنع اقتراب سيارات من العمارات التي تقيم فيها الممثليات (الإسرائيلية) . لقد حرصنا أيضاً على عدم السماح للسيارات الأجنبية بالتوقف قرب هذه العمارات .

و لكن وسائل الحذر ، و مهما كانت دقيقة و محكمة ، لا تستطيع أن تمنع تماماً الإخفاق في الحراسة ، ذلك لأنه لا يمكن أن نتوقع سلفاً كلّ الاحتمالات . و الأكثر من ذلك ، و لما كان من غير الممكن إغلاق أي منطقة طوال الوقت فإنه لا مناص من المخاطرة المحسوبة . لقد كان الموقع في كنسينغتون ، لندن ، حيث تقع السفارة (الإسرائيلية) ، محمياً جيّداً من قبل الشرطة البريطانية . و كان يطلب من كلّ سائق يريد الدخول إلى الموقع في سيارته أن يُعرّف نفسه . و مع ذلك ، في 26 تموز 1994 انفجرت سيارة مفخّخة في الساحة المحاذية للسفارة ، مما أسفر عن وقوع أضرارٍ في جزء من المبنى و إصابة عددٍ من المستخدمين بجروح طفيفة من شظايا الانفجار . و كانت المرأة التي قادت السيارة إلى الساحة المجاورة للسفارة قد استطاعت خداع الشرطي البريطاني . حيث قالت له إنها جاءت إلى عنوان معيّن في نفس الموقع و تركها تمرّ عبر الحاجز . و كان هذا عنوان بيت بجدارٍ مشترك مع السفارة . و في مثل هذه الظروف لم يكن هناك إمكانية لمنع الانفجار ، ذلك لأنه ليس بوسعنا إغلاق منطقة كاملة في مدينة أجنبية .

وصلت إلى لندن بعد عدة ساعات من العملية و تبيّن لي أن من بين الجرحى شارون ابنة زوجتي عيدنه التي كانت تعمل في السفارة . و كانت قد أصيبت في ظهرها و هاتفتني من المستشفى من أجل تهدئتي . أبلغت عيدنه بذلك قبل عدة دقائق من نشرة الأخبار في شبكة الـ سي.أن.أن التي شاهد فيها المشاهدون كيف يعالجون شارون المصابة قرب الدمار في السفارة .

و غداة اليوم انفجرت سيارة مفخّخة قرب بيت بلفور في وسط لندن ، الذي يجمع الكثير من المؤسسات اليهودية و أصيب ثلاثة من المارة بجروح .

كان قسم حراسة الشخصيات (قبل اغتيال رابين كان هذا مجرد دائرة) مثقلاً بالأعباء . فهو لا يعنى فقط بالحراسة نفسها بل في التنسيق مع الأوساط الاستخبارية و الأوساط العسكرية و الشرطية ، و يدير شبكة تدريبات واسعة و مكثّفة تشمل التدريب على إطلاق النار بأنواعه ، على مسافات مختلفة ، و من داخل سيارات مسافرة . و يحفظ رجال الحراسة عن ظهر قلب أشرطة الفيديو التي سجّلت أثناء محاولات و

أعمال اغتيال شخصيات في مختلف أنحاء العالم – كنيدي ، السادات و آخرين . و كانت مشاهدة الأشرطة تستهدف استنباط العبر المناسبة .
إن إدارة جهاز الحراسة في دولة (إسرائيل) مهمة معقدة جداً ، و من بين أسباب ذلك هو ضرورة الرقابة على أقسام حراسة منفصلة ، لوزارة الخارجية ، (إل – عال) ، الوكالة اليهودية و أطر أخرى . و ثمة لكلّ إطار رئيس مركز أمن في خارج البلاد ، مهمته التنسيق بين الأطر المختلفة التي تخضع للحراسة و المراقبة . و هو أيضاً مسؤول عن إجراء الاتصال مع الأوساط الأمنية و الشرطة المحلية ، و يشرف كذلك على تدريبات الحراس على إطلاق النار و الحفاظ على لياقتهم البدنية و مستوى يقظتهم .
يجري رئيس "الشاباك" ، مع رؤساء الأقسام و رؤساء مراكز الأمن في خارج البلاد تقييمات للوضع بصورة دورية أو بعد وقوع أحداث ، و تتغذّى هذه التقييمات من المعلومات التي تجمعها كلّ أذرع الأمن و يقرّرون على أثرها ما إذا كان يجب رفع أو تخفيض مستوى الحراسة في أماكن معينة . و في هذا الصدد يأخذون بالحسبان اعتبارات مختلفة ، من ضمنها الاعتبارات المالية ذلك لأن الحراسة منوطة بنفقات مالية باهظة ، تشكّل في الكثير من الأحيان عبئاً ثقيلاً على الإطار المحروس .
و بات من المألوف في مثل هذه الحالات ممارسة الضغط على "الشاباك" من أجل تقليص و لو قليلاً من أجل تقليل النفقات .
في بعض الأحيان لا نجد مناصاً من تخفيف العنان قليلاً و المخاطرة و ذلك لمقتضيات محلية . مثلاً ، تؤدّي الحراسة المشدّدة ، حسب أنظمة في المطارات الأجنبية أحياناً إلى تأخير مسافري (إل – عال) لساعات طويلة مما يدفع مسافرين معيّنين إلى تقديم شكاوى "للشاباك" على التفتيش الأمني الدقيق أكثر من اللازم بالنسبة لهم . و منهم من يشكو من أسئلة خاصة وجّهها إليهم الحراس مثل "أين أقمت ؟" "مع من التقيت ؟" ، "ما هي الصلة بينك و بين الشخصية التي جئت إليها ؟"، من الممكن تفهّم المشتكين . حيث لا يجوز أن تتحوّل شركة (إل – عال) إلى حصنٍ منيع . يجب النظر بإيجاب إلى كلّ هذه الاعتبارات و مع ذلك يجب تنفيذ أفضل مستوى من الحراسة .
قبل تعييني رئيساً "للشاباك" أجريت جولة في مدن مختلفة من العالم من أجل الوقوف عن كثبٍ على أنظمة الحراسة في السفارات (الإسرائيلية) و في (إل – عال) . و خلال جولتي زرت مونتريال في كندا . و حين أنهيت عملي هناك ، سافرت إلى مطار و استقليت طائرة (إل – عال) عائداً إلى البلاد . أغلقت الأبواب ، و بدأت الطائرة بالتحرّك في مدرج الإقلاع ، فجأة اقتربت منّي مضيفة مذعورة و أبلغتني أن الملاح يريد الحديث معي في ركن القيادة . توجّهت إلى الطيار الذي علِم من أنا ، فأبلغني أنه في هذه اللحظة بالذات تلقى بلاغاً بوجود قنبلة في الطائرة و طلب ضابط الأمن في الشرطة إطفاء المحرّكات و إخلاء الطائرة من المسافرين و الاستعداد لتفتيشٍ دقيقٍ على متن الطائرة .
و أضاف : "أريد أن تفهم بأنه إذا وافقنا على طلب ضابط الأمن ، سنضطر ، كما يبدو ، إلى إلغاء الرحلة كلها الأمر الذي يسبّب خسارة مالية فادحة" . حملق بي على أمل أن يجد بصيص تفهّم ينبعث من عيني . أدركت أنه يتوقع مني أن أجد سبيلاً لحثّ الإجراءات و تمكين الطائرة من الإقلاع بالسرعة الممكنة . لم أجب .
"حسناً . سأفحص ما يجري هنا" ، قال الطيّار و طلب مني مرافقته . توقفت الطائرة ، و خمدت المحرّكات و أبلغ المسافرون بوجود عطلٍ فنّي . ذهبنا إلى ضابط الأمن . طلب الطيّار منه أن يأخذ بالحسبان حقيقة أنه يوجد في الطائرة حوالي 400 مسافر في عجلة من أمرهم لذلك يجب العمل بسرعة . نظر ضابط الأمن صوبي و انتظر رأيي . لم أفكّر أبداً بالتدخل في الأمر . لقد كانت هذه منطقته ، و تخضع لمسؤوليته . كان قد تلقى تعليماتٍ واضحة بشأن كيفية العمل في مثل هذه الظروف . و لم تتضمّن هذه التعليمات تقديم أي "تسهيلات" بكلّ ما يتعلّق بالفحص المطلوب . فهم ضابط الأمن بسرعة أنني لا أنوي التدخل في الموضوع . و وفقاً للتعليمات أبلغ هيئة "الشاباك" في البلاد ، هاتفياً ، عن خطر القنبلة . سمعته يقول إنني موجود إلى جانبه . و سأل المسؤول عنه ، في الجانب الآخر من الخط : "ماذا يقول بيري ؟ هل يمكن الإسراع في الفحص أم لا ؟" رد الضابط قائلاً : "لا يريد بيري التدخل في عملي" .
و للحقيقة ، حين جمعنا تفاصيل عن ملابسات البلاغ المجهول ، اتضح لي أنه لم يتم وضع أي قنبلة في الطائرة لذلك من الممكن الاكتفاء بفحص سريع و تمكين الطائرة من الإقلاع . و لكن فقط بعد أن توصّل ضابط الأمن هو أيضاً إلى هذا الاستنتاج قلت له إن هذا هو رأيي أيضاً . رأيته يمسح حبات العرق عن جبينه و قلت له : "حتى لو فكّرت أنك مخطىء ، لكنت قد تركتك تعمل حسب فهمك و قناعتك" .

الهدف : تفجير طائرة في سماء تل أبيب

لمزيدٍ من الأسف ليس بالإمكان تقليص الجهد الأمني – الوقائي للدولة في المستقبل المنظور ، حتى لو طرأ تقدّم حقيقيّ في المسيرة السلمية . ذلك لأنه في تلك المرحلة ، تحديداً ، سيكون ثمة ضرورة لرفع المستوى لأن المنظمات الأصولية المتطرّفة ، مثل حماس و الجهاد الإسلامي ستبذل كلّ ما في وسعها من أجل عرقلة المسيرة بواسطة سلسلة من العمليات ، و عندما يتم التوصل إلى اتفاق سلام و تعتاد المنطقة عليه كحقيقة ثابتة سيقوم جهاز الحراسة بملاءمة نفسه مع الواقع الجديد على غرار ما هو مألوف اليوم في مطارات أوروبا و الولايات المتحدة .

إن وحدة حراسة الشخصيات هي جزء من قسم الحراسة في "الشاباك" . و كانت حراسة الشخصيات قد بدأت ، عملياً ، مع قيام الدولة و حين عيّنت رئيساً "للشاباك" كان يخدم في الوحدة قدامى الحراس . كان من بينهم أولئك الذين حرسوا دافيد بن غوريون ، و الخدمة في هذه الوحدة محدّدة لخمس سنوات . و في الحالات التي يستدعي فيها الأمر تعزيزات خاصة – مثل زيارة البابا ، كيسنجر ، السادات و كلينتون ، يجنّدون للعمل أشخاصاً من جهاز وحدة الحراسة الاحتياطي .

يجتاز المرشّحون لحراسة الشخصيات دورة تحضيرية من أربعة أشهر و بعد وقتٍ معيّن يجتازون دورة متقدّمة . و الحراس هم من خريجي وحدات حربية . و يجب أن يتمتّعوا بلياقة بدنية عالية و مستوى ثقافي متقدّم . و مظهرهم مهم أيضاً ذلك لأنهم يرافقون الشخصيات المحروسة طوال الوقت . و في المناسبات الرسمية و تلتقطهم عدسات الكاميرا . و الحارس يكون عموماً قويّ البنية ، طويل القامة . و هو يهتم بمظهره الخارجي و يحلق ذقنه في الوقت المناسب ، و يكون دائماً حسن الهندام رغم أن قميصه يتجعّد أحياناً بسبب المسدس و جهاز الاتصال اللذين يحملهما الحارس تحت القميص . و كان رئيس الدولة ، حاييم هرتسوغ ، الذي كان يعشق الرسميات و المناسبات ، يبعث لي دائماً شكاوى على حراسه : أحدهم لم يعرف كيف يربط ربطة العنق كما يجب ، و الآخر لم يلمع نعليه ، و الثالث وصل إلى العمل بقميص مجعّد . و كنت أعالج كلّ شكوى على الفور ، ليس فقط احتراماً للرئيس ، بل لأننا كنا نولي اهتماماً بالغاً بالمظهر اللائق للحراس . و مع مرور الزمن ازداد الوعي لهذه المسألة سواء من جانبنا أو من جانب الحراس أنفسهم .

تضطر كل شخصية محروسة على الدوام أن تتنازل عن قدر معين من الخصوصية . حيث يكون الحراس مع المحروسين في كلّ مكان تقريباً ، في البيت ، في المكتب ، في المهمات الرسمية و النزهات الخاصة . إنهم يكونون معهم في لحظات الفرح و الترح و في أوقات الأزمات و يستمعون إلى أحاديث سرية ، و يكونون في مناسبات خاصة تماماً . و يشاهدون نزاعات و مصالحات ، و ما يسمعونه و يشاهدونه هو أحياناً بمثابة مواد متفجّرة من شأن شظاياها أن تمسّ الكثير من الناس . لذلك يؤكّدون في وحدة الحراسة عند قبول المرشحين على قدرة المرشح على الحفاظ على الأسرار . و يختبرون قدرتهم على التزام الصمت و الإحجام عن ترويج قصص فاضحة و عدم الكشف عن كلّ ما يراه الحارس و يسمعه أثناء تأدية مهمته . من الواضح لي أنه كان ثمة حالات غير قليلة ، خاصة بعد أن عيّنت رئيساً "للشاباك" ، تحدّث فيها كبار في الجهاز عنّي أثناء وجودهم في سيارة برفقة حراس ، و لكن لم يحدث أن جاءني أحد الحراس و أبلغني بذلك ، و الأكثر من هذا ، لا أذكر طوال عملي في "الشاباك" ، و لو حادثة واحدة أبلغ فيها حارس رئيس "الشاباك" بما رآه أو سمعه أثناء حراسته لشخصية ما . و القاعدة هي أن الحارس لا يتحدّث أمام نظرائه ، أو المسؤولين عنه ، عن أية تفاصيل تتعلق بسلوك الشخصية المحروسة.

ثمة أشخاص يحرسون من قبل حارس واحدٍ أو اثنين و ثمة من يحاط بعددٍ أكبر من الحراس . و الحراسة "الأشد" تفرض على رئيس الحكومة . حيث تفرض عليه حراسة متواصلة ليل نهار – في بيته ، في مكتبه ، في رحلاته ، في جولاته في البلاد و في زياراته إلى خارج البلاد . و بعد اغتيال رابين ازداد حجم الحراسة بضعفين أو ثلاثة ، و من المحروسين الدائمين أيضاً وزراء الدفاع و شخصيات كبيرة أخرى . و في بعض الأحيان حرسنا وزراء مالية بعد نشر خطة اقتصادية تنطوي على إجراءات صعبة ، و كذلك وزراء آخرين و نواب كنيست و ذوي مناصب رفيعة مختلفة تلقوا تهديدات على حياتهم و من أبرزهم يوسي سريد .

و هناك أيضاً ما ندعوه "بالمحروسين المتبادلين" مثلاً ، السفير المصري و السفير التركي اللذان يوقر لهما "الشاباك" الحراسة وفق اتفاق متبادل بموجبه توفّر أجهزة الأمن في مصر و تركيا الحراسة لسفيرينا في هاتين الدولتين . و بصورة عامة يرفع "الشاباك" الحراسة على شخصيات أنهت عملها ، ما عدا أولئك الذين يبقون هدفاً استخبارياً أو ما زال هناك خوفٌ للمس بهم . و ما زالت ليئا رابين ، إسحاق شمير و شمعون بيرس يحظون بحراستنا ، و لكننا توقفنا عن حراسة كثيرين آخرين . و ليس الجميع بالطبع

يتفقون مع تقديراتنا بإمكانية رفع الحراسة عنهم . و كان موشيه آرنس هو أحد هؤلاء الذين رفعنا الحراسة عنهم غداة اليوم الذي أنهوا فيه مناصبهم .
كان ذلك في عام 1992 ، بعد أن نقل حقيبة الدفاع إلى إسحاق رابين . لقد اتصل إليّ ، و بدا من صوته أنه غير راضٍ عن السرعة التي رفعنا فيها الحراسة عنه . و لكن من ناحيتنا لم يكن هناك سبب منطقي لمواصلة الحراسة . مقابل ذلك ثمة من أعرب عن استيائه من وجود حارسٍ لهم . مثلاً رفض رئيس بلدية القدس تيدي كوليك في البداية قبول الحراسة . و عندما فرض عليه ذلك بذل المستطاع من أجل إثارة السأم لديهم . و بالطبع لم ينفعه ذلك . و لكن ثمة ظواهر معاكسة تماماً . حيث هناك شخصيات نسجوا مع حراسهم علاقات ممتازة . مثل غولدا مئير التي كانت معروفة بعلاقاتها الودية مع حراسها و كذلك آريئيل شارون .
على غرار السفراء (الإسرائيليين) الذين يعملون في أماكن خطرة تلقى سفيرنا في مصر موشيه ساسون حراسة دائمة من قبل خليّة مدرّبة جيّداً (و ذلك كما جاء أعلاه إضافة إلى الحراس المحليين حسب اتفاق التبادلية بين الدولتين) .
في تشرين أول 1981 تقرّر في القاهرة إجراء مسيرة تقليدية في ذكرى الثورة المصرية و كان من المفروض أن يحيّي الرئيس أنور السادات المشاركين في المسيرة من على منصة الشرف . و دُعي الدبلوماسيون الأجانب و منهم السفير ساسون للمشاركة في المهرجان . و أعلن المصريون عن وضع كلّ سيارات الضيوف رفيعي المستوى في موقف سيارات أعدّ لهذا الغرض . و نشب جدل عاصف بينهم و بين رجالنا . حيث عارض الحراس (الإسرائيليون) بشدة وضع سيارة ساسون هناك . و كانت المسافة بين موقف السيارات و منصة الشرف تبدو لهم بعيدة جداً ، لذلك فإن هذه المسافة خطيرة جداً في حالة هجوم أو أي عملية (تخريبية) . طلبنا أن تصل سيارة السفير المحصّنة حتى المنصة و تقف وراءها بالضبط . عارض المصريون ذلك . و أبلغناهم أنه إذا لم تتم الاستجابة إلى مطلبنا فإن ساسون لن يشارك في المسيرة . أخذنا بالحسبان بأن يؤدّي ذلك إلى أزمة دبلوماسية و لكننا لم نتنازل . و في نهاية الأمر استجاب المصريون لمطلبنا . و بعد وقتٍ قصير من بداية المسيرة اقتحم (مخرّبون) مسلحون المنصة و أطلقوا النار على الرئيس المصري . في البداية اعتقد الحراس (الإسرائيليون) أن الحديث يدور عن عرضٍ للنيران مخطّط سلفاً و لكن خلال ثوانٍ معدودة فهموا حقيقة ما حدث و انطلقوا نحو السفير و غطّوه بأجسادهم و جرّوه وسط الضجيج و الضوضاء إلى سيارته و سارعوا في الانصراف من المكان مع السفير الذي لم يصب بأذى .
لقد أبدى حراس (إل – عال) قدرة ردّ فائقة حين نفّذت عمليتان في آنٍ واحد في مطاري روما و فيينا . حدث ذلك في يوم الجمعة 27 كانون الأول 1985. في الساعة التاسعة و عشر دقائق أطلق أربعة (مخرّبين) نيراناً غزيرة باتجاه جناح (إل – عال) في مطار بيوميشينو في روما . بالنسبة لهم كان هذا توقيتاً ممتازاً ذلك لأن المطار في أيام الجمعة يكون عموماً مكتظاً بالمسافرين الذين يخرجون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع . كان ثمة أدوار طويلة من المسافرين يقفون أمام شبابيك شركة إل – عال و شركات أخرى مجاورة له . و كان ثمة مقصف صغير قرب المكان يقدّم الخدمات في تلك الساعة لعشرات الأشخاص . و فور سماعهم صوت العيارات النارية استلقى الجميع على الأرض . و كان معظم المصابين من رواد المقصف . قتل ثلاثة عشر شخصاً من الصلية الأولى و أصيب 67 آخرين بجروح . لم يصب أيّ من مسافري إل – عال بأذى . و كان من بين الجرحى سبعة من مستخدمي الشركة و أربعة حراس (إسرائيليين) . و فتح رجال الأمن (الإسرائيليون) النار فوراً بعد أن شرع أحد (المخرّبين) بإطلاق النار . و لم تستمر معركة الرصاص سوى 20 ثانية و في نهايتها قتل ثلاثة (مخرّبين) فيما أصيب الرابع بجروح و ألقي القبض عليه . و اتضح إثر تشريح الجثث أن (المخرّبين) الثلاثة قتلوا برصاص الحراس (الإسرائيليين) . و وجدت في إحدى جثث (المخرّبين) رصاصة واحدة من سلاح رجل أمن إيطالي .
في نفس الساعة بالضبط في التاسعة و عشر دقائق ، دخل ثلاثة (مخرّبين) إلى قاعة المسافرين في مطار "شوفاخط" في فيينا . اقتربوا من شبابيك إل – عال و فتحوا النيران باتجاه كلّ الموجودين في المكان . قتل مواطن (إسرائيلي) و مواطنان نمساويان على الفور . وصل عدد الجرحى إلى 44 شخصاً بينهم 11 شخصاً من مسافري إل – عال . أجبرت نيران الحراس (المخرّبين) على الانسحاب بعد 15 ثانية فقط من إطلاق النار و قبل أن يفلحوا في إصابة مسافرين آخرين . لقد فرّوا من قاعة المسافرين و استولوا على سيارات و حاولوا الفرار في الوقت الذي كان فيه الحراس (الإسرائيليون) و رجال الأمن النمساويون يطاردونهم . و خلال المطاردة قتل أحد (المخرّبين) . و في نهايتها ألقيَ القبض على رفيقيه بعد أن أصيبا بجروح .

كانت العمليتان من فعل المنظمة الصغيرة القاتلة و الناجحة التي يرأسها أبو نضال الذي كان مكان اختفائه أحد الألغاز الكبيرة التي أشغلت بال المخابرات (الإسرائيلية) لوقتٍ طويل . حيث راجت إشاعات بأنه يوجد في سوريا . و بعد ذلك قيل إنه لجأ إلى ليبيا و اليمن . و على كلّ حال ، كان ثمة أمرٍ واحد واضح كلّ الوضوح و هو أن قيادة أبو نضال تتخذ دمشق مقراً لها و من هناك انطلق (المخرّبون) إلى روما و فيينا ، في طريقهم عرجوا على هنغاريا و يوغسلافيا .

كان أفراد الخلية الذين خرجوا إلى إيطاليا مزوّدين بجوازات سفر مغربية ، و وصلوا إلى روما قبل ثلاثة أسابيع من أجل تنفيذ العملية ، و في هذه الفترة انتقلوا أربع مرات من فندق إلى آخر . و في ليلة ما قبل الحادث سجّلوا في سجلات فندقين معاً حتى أنهم شوهدوا في كليهما . و حين وصلا إلى روما لم يكن أحدهما يعرف أين سيتم الهجوم . و تمّ الحفاظ على السرية حتى الأيام الأخيرة من أجل ضمان عدم الإدلاء بتفاصيل عن العملية المتوقعة في حالة اكتشاف أمر أعضاء الخلية . و حين أبلغوا بتفاصيل الهدف لم يكن أمامهم سوى وقتٍ قصير لإجراء جولة مسبقة إلى الميناء . و أمر رجال الاتصال الفلسطينيين أعضاء الخلية بشراء حقيبتين كبيرتين ، و قبل يومٍ من موعد الهجوم سلّموهم أربعة بنادق كلاشينكوف و خمسة عشر بندقية يدوية . و كانت الأسلحة جديدة تماماً ، ما زال الشحم عليها . فقام (المخرّبون) الأربعة بتنظيفها و وضعها في داخل الحقائب اليدوية الكبيرة .

في صباح العملية سافروا في سيارتي أجرة إلى المطار . و سارع رجال الاتصال الفلسطينيون الذين رافقوهم بالانصراف . ارتدى (المخرّبون) معاطف شتوية سميكة أخفوا تحتها القنابل . و تنكّر أحدهم بزيّ امرأة . و بعد وقتٍ قصير أبلغوا بأن ثمة خلية أخرى ستنفذ عملية ، في مطار فيينا في نفس الساعة . كانت منظمة أبو نضال تشدّد على السرية الفائقة . و في حالات نادرة فقط ، مثل هذه الحالة ، يتم إطلاع إحدى الخلايا على عمليات خلية أخرى .

قبل خروجهم إلى المطار أتلفَ (المخرّبون) كلّ وثائق إثبات الشخصية . غير أن أحدهم ترك في جيبه عدة صفحات من دفتر مذكراته كتب عليها بالعربية : "من أجل أطفال الشهداء الذين سقطوا في معركة تحرّر الشعب الفلسطيني ، من مجموعة شهداء تونس (يبدو أن القصد هو قصف سلاح الجو (الإسرائيلي) لقيادة م.ت.ف في تونس) . تعيش فلسطين حرة عربية و إنها لثورة حتى النصر .. سنواصل نضالنا حتى تغيير مسار التاريخ . نقسم بأن نضيء في العملية الانتحارية هذه درب كلّ فلسطيني في أي مكان . سيكون ردّنا على كلّ قطرة دم سكبت في تونس ، موجِعاً و مؤلِماً . سنعمل على أن يدفع أعداؤنا دموعاً و ألماً و دماءً على تشريدهم لشعبنا و اغتصابهم لأرضنا" .

اعترف (المخرّب) الذي اعتقل في روما بعد إصابته بجروح أنه حسب الخطة الأصلية كان من المفروض أن يسيطر على طائرة ، مع الركاب أو بدونهم ، و الطيران بها إلى (إسرائيل) و الانتحار من خلال تفجير الطائرة في سماء تل أبيب .

في أعقاب الهجمات على المطارات ظهر ميلٌ في دول مختلفة بإبعاد مكاتب إل – عال عن القاعات المركزية و وضعها في أطراف المطار ، و لكن "الشاباك" ، و بتغطية من المستوى السياسي ، عارض ذلك من ناحية وطنية و كذلك من ناحية اقتصادية . حيث إن إبعاد مكاتب شركة الطيران من قاعات المسافرين المركزية يعني جرّ الحقائب على طول مسافة بعيدة مع وجود إزعاجات أخرى من شأنها أن تجعل المسافرين يفضّلون شركات أخرى .

استعد قسم الحراسة في "الشاباك" لاستنباط العبر من أحداث فيينا و روما . و كان الحرّاس في المطارين قد أبديا روحاً قتالية عالية جداً . و عملوا من مسافات قصيرة و بنجاعة فائقة و تنسيقٍ تام .

و أثبتت النتائج أنه كلما كان الرد أسرع ، كلما كان حجم الضرر أقل . و الدخول الفوري للعمل ينقل زمام المبادرة من المهاجمين إلى الحراس و يشوّش خطة الهجوم . و لولا أن الحراس تصرّفوا على هذا النحو لكان الضرر أشد بأضعاف مضاعفة . و العبرة الأخرى الهامة تتعلّق بمواقع النيران الخاصة التي كانت مطلوبة من الحراس أثناء المعركة في المكانين . ففي ميدان الهجوم كان هناك مكاتب ، درج ، و مستويات أرضية مختلفة ، مما ألزم الحراس باتخاذ مواقع غير عادية لإطلاق النار . و أخذ هذا الأمر بالحسبان ، و منذ ذلك الحين تم إجراء مناورات مناسبة أثناء تدريب الحرّاس على إطلاق النار .

و هناك عبَرٌ استخلصت أيضاً من تبادل إطلاق النار أثناء مطاردة السيارات في فيينا ، و سيتم أخذها بالاعتبار في خطة التدريب .

عزّزت العمليات في روما و فيينا ما كنا نعرفه و هو أنه كلما استطاع الحراس الانخراط وسط الناس كلما ازداد عنصر المفاجأة الذي يعمل في غير صالح المهاجمين .

لقد أثبتت الحراسة في المطارات نجاعتها في لندن أيضاً ، في 17 نيسان 1986 ، حيث كانت مسافرة إيرلندية (32 عاماً) حامل على وشك الصعود إلى طائرة بوينغ 747 تابعة لشركة إل – عال . وجّه رجال

الأمن لها أسئلة عادية ، منها : أين تنوين الإقامة في البلاد ؟ . فأجابت أنها تنوي الإقامة في "هيلتون" في تل أبيب .

- "هل حجزت غرفة ؟" سأل الحارس .
- "لا ، أنا أعمل في شبكة هيلتون . لذلك أستطيع دائماً أن أقيم في فنادق الشبكة بدون حجز غرفة" قالت . و أخرجت بطاقة تؤكّد فعلاً أنها تعمل في الشبكة .
- "من أين اشتريت تذكرة السفر ؟" سأل رجل الأمن .

ادعت أنها لا تتذكر اسم مكتب السياحة ، غير أن إحساس رجل الأمن دفعه في تلك اللحظة إلى إجراء تفتيش دقيق في حقيبتها و حينها اكتشف مواد متفجّرة كان من المفروض أن تنسف الطائرة مع 345 راكباً في الجو . و أثناء التحقيق معها قالت المسافرة إن صديقها العربي ، والد جنينها ، اشترى لها التذكرة و أرسلها للنزهة في البلاد . و لم تكن تعلم شيئاً عن أمر المواد المتفجّرة .

اعتقل العربي الذي أوفد الشابة إلى حتفها في لندن . و قاد التحقيق معه إلى السفارة السورية التي كانت تقف وراء العملية . و كانت المواد المتفجّرة قد نقلت من دمشق إلى لندن من قبل مخابرات سلاح الجو السوري بواسطة شركة الطيران السورية . و نظر البريطانيون إلى القضية بخطورة بالغة الأمر الذي سبّب في أزمة دبلوماسية حادة .

إن نجاعة حراس "الشاباك" الفائقة خارج البلاد هي التي ساهمت إلى حدّ كبيرٍ في إحلال الهدوء النسبي في مجال العمليات . لقد توصّلت المنظمات (التخريبية) إلى استنتاج لا بدّ منه و هو أنها تقف أمام جهازٍ كبير ، ناجع ، لديه قدرة فائقة على الردّ السريع و إصرار قويّ على القتال في كلّ مكان في العالم توجد فيه مصالح (إسرائيلية) : سفارات ، مؤسسات أخرى ، مطارات ، موانىء زيارات شخصية و مجموعات ، و إمكانية الهجوم المباشر في مثل هذه الظروف قليلة جداً .

يقوم "الشاباك" أيضاً بحراسة وفود إلى خارج البلاد . يدور الحديث عن مئات الرحلات من هذا النوع كلّ عام ، مجموعات رياضية ، فنية ، فرق رقص ، طلاب يخرجون في دورات دراسية ، و هذا غيضٌ من فيض . و هذه الرحلات تستدعي التنسيق مع أجهزة الأمن و الشرطة في كلّ مكان . و تمّ معظم الرحلات بدون أحداث . و أتذكّر حالة واحدة – محاولات حليقي الرؤوس البولنديين التعرّض لوفدٍ طلابي زار أوشفيتس – تم معالجتها بسرعة و نجاعة من قبل حراسنا بالتعاون مع أفراد شرطة محليين .

اغتيال في ساحة المدينة

كشف اغتيال إسحاق رابين و لأول مرة أمام الجمهور بعض المشاكل المعقدة في قسم الحراسة في "الشاباك" و وحدة حراسة الشخصيات . و في أعقاب ذلك أثيرت ، بطبيعة الحال ، أسئلة كثيرة و صعبة . في ذلك اليوم كان قد مضى عليّ نحو ثمانية أشهر و أنا خارج "الشاباك" لذلك استطعت أن أراقب الجدل بدون تدخّل شخصيّ .

في يوم السبت الرابع من تشرين الثاني 1995 كنت في نيويورك لقضاء مصلحة . و عند عودتي في المساء إلى غرفتي في الفندق رأيت وميض الضوء الأحمر في جهاز الهاتف . رفعت السماعة . أصغيت إلى البلاغات المسجّلة و تجمّدت مكاني من هول المفاجأة . أبلغتني عيدنه و أصدقاء آخرون الواحد تلو الآخر ، باغتيال إسحاق رابين ، كنت قد خطّطت مسبقاً للعودة إلى (إسرائيل) في تلك الليلة . و التقيت في الطائرة مع وزراء ، أعضاء كنيست و شخصيات أخرى كانوا قد سارعوا في العودة إلى البلاد بسبب وقوع الكارثة . و عند وصولي إلى البلاد أسرعت إلى بيت رابين كي أكون بقرب ليئا و العائلة .

و حين تحدّثت مع رئيس "الشاباك" كرمي غيلون ، كان مذهولاً و لم يستوعب بعد ما حصل . قال لي : "قرّرت تشكيل لجنة تحقيق داخلية" . قلت : "هل تستمع إلى نصيحتي ؟" .

قال : "تفضّل" .

قلت : "دعك من فكرة اللجنة الداخلية . توجّه صباح غدٍ إلى شمعون بيرس و قدّم استقالتك . يجب على رئيس "الشاباك" أن يتحمّل مسؤولية . الجمهور يتوقّع مثل هذه الخطوة . و هذا من شأنه أن يساعد "الشاباك" في تحسين صورته المتضرّرة ، و أن يساهم في إصلاح الجهاز" . قلت إن على رئيس "الشاباك"

أن يستقيل ليس لأن ذلك يعني اعترافه بمسؤوليته المباشرة عن الكارثة بل لأن من يترأس جهازاً مثل "الشاباك" يتحمّل مسؤولية كلّ شيء مهما كان صغيراً ، حتى لو لم يكن على صلة بما حدث في الميدان .
إن أصعب شيء قد يحدث لرئيس "الشاباك" هو اغتيال شخصية كبيرة رغم كلّ الترتيبات في الحراسة . و حين يحدث ذلك على رئيس "الشاباك" أن يستقيل ، و لكن ، أضفت ، في هذه اللحظة تحديداً لا يستطيع "الشاباك" أن يحتمل صدمة أخرى لذلك فإن بيرس لن يقبل كما يبدو الاستقالة .
أنهيت أقوالي و عدت إلى البيت . أصابني التعب و الإرهاق ، و لكن النوم طار من عيني . كان التلفزيون يبث باستمرار تحليلات لا أساس لها من الصحة . شاهدت بداية هستيريا "حراسية" . حيث من الطبيعي في أعقاب فشلٍ كهذا أن يكون ردّ الفعل الأول هو تكثيف جهاز الحراسة من أجل ردع قتلة آخرين محتملين .
بعد يومين من الاغتيال التقى كرمي غيلون مع شمعون بيرس و قال إنه ينوي الاستقالة . طلب بيرس منه عدم فعل ذلك . و غداة اليوم اتصل غيلون معي و أبلغني أنه لن يستقيل . حسب رأيي لقد أخطأ بعدم نشر حقيقة أنه قدّم استقالته لبيرس و تراجع عنها فقط لأن رئيس الحكومة طلب منه البقاء في منصبه .
رأيته ، أثناء الجنازة في جبل هرتسل ، يجلس محطّماً في أحد صفوف المدعوين الخلفية . حزنت عليه و كرّرت له نصائحي .
غدا اليوم أجرى راديو الجيش مقابلة معي . سُئلت كيف كنت سأتصرّف لو كنت مكان كرمي غيلون . أجبت أنني كنت سأستقيل و لكنني أضفت أنه حسب رأيي لا يجب على غيلون أن يستقيل لأن من واجبه إدارة الجهاز في هذه الأيام الصعبة .
و فسّر كرمي غيلون هذه الأقوال كدعوة صريحة مني لاستقالته . و فضّل تجاهل توصياتي و تقديراتي التي عبّرت عنها في لقائي معه بعد الاغتيال . و منذ ذلك الحين و هو لا يتحدّث معي . بعد ذلك بوقتٍ قصير قرّرت الحكومة إقامة لجنة تحقيق رسمية .
بعد اغتيال إسحاق رابين قال المحلّلون في وسائل الإعلام إن ثمة عيب في مفهوم الحراسة "للشاباك" ، و كان كرمي غيلون الذي استلم رئاسة الجهاز بعد استقالتي جديداً نسبياً في منصبه . و كان هناك من ادعى أن رئيس "الشاباك" لم يبذل بما فيه الكفاية لمتابعة جهاز الحراسة عن كثب ، لذلك لم يعمل على تعزيزه إلى حدّ يمنع اغتيال شخصيات كبيرة في الدولة . و لعلّ كلّ من يفهم في مواضيع الحراسة يعرف أن هذا خطأ مدحوض . أولاً ، لا يوجد جهاز حراسة في العالم ، مهما كان حجمه ، يستطيع أن يغلق الدائرة بشكلٍ محكم على زعيم من شأنه أن يكون هدفاً للقتلة . ثانياً في كلّ فترة ولايتي لم أتلقّ أيّ تحذيرٍ يستدعي مضاعفة حجم وحدة الحراسة . لقد كانت الوحدة تزداد كلّ سنة و أضيفت وظائف جديدة بوتيرة بدت لي صحيحة .
تعمل وحدة حراسة الشخصيات حسب نظرية قتال منظمة و واضحة . قبل كلّ مناسبة يشارك فيها شخصيات يعدّون خطة لحراسة شاملة . و تدرس هذه الخطة بصورة جذرية ، و يتم معرفة و دراسة كلّ المداخل في الموقع و يفحص كلّ المستخدمين الذين يستدعي عملهم الوجود في المكان : النادلون ، مستخدمو المسرح ، رجال حفظ النظام ، و غيرهم . و في حالات معينة يتذوّقون الطعام الذي سيقدّم للضيوف خوفاً من التسمم . و تم أيضاً تطوير أسلوب "المنطقة النقية" أي المنطقة التي يجب أن تكون نقية تماماً من الأشخاص الذين لم يخضعوا للفحص . في مهرجان السلام الذي قتل فيه رابين ، كانت "المنطقة النقية" هي المنطقة التي يخرج فيها رئيس الحكومة من سيارته و يصعد إلى المنصة و في نهاية المهرجان يعود من هناك إلى السيارة . حيث لا يسمح بدخول هذه المنطقة إلا للأشخاص الذين تعرّضوا للفحص – أي أفراد الشرطة ، الجنود ، رجال "الشاباك" و شخصيات معروفة . و بعد هذه المنطقة تحدّد مناطق "الطوق" ، و المسؤول عن الطوق الخارجي هو شرطة (إسرائيل) .
قبل المهرجان في ساحة ملوك (إسرائيل) وصلت تحذيرات بإمكانية وقوع عملية (تخريبية) ممكنة . و قبل عدة أشهر وصلت معلومات تفيد بأن ثمة يهودياً قد يحاول اغتيال رئيس الحكومة و شخصيات أخرى ، و لكن لم تصل أي معلومات محددة بهذا الشأن . و كان حاخامون معنيون قد أصدروا فتوى بهدر دم رابين و ارتدت الاحتجاجات على تقدّم اتفاق السلام طابعاً عنيفاً . و شدّد القسم اليهودي في "الشاباك" الرقابة على عدة شخصيات متطرّفة . و الأكثر من ذلك و قبل وقتٍ غير بعيد من اغتيال رابين تحدّث رئيس "الشاباك : كرمي غيلون مع محرّري الصحف حول إمكانية أن يقوم متشدّد يهودي بمحاولة اغتيال شخصية كبيرة ، و من بين الأسماء التي ذكرها ، رئيس الحكومة .
كان كلّ الجهاز ، المسؤول عن الحراسة في مهرجان السلام متأهب و مليء بالمخاوف . و كان رابين أكثرهم خوفاً ، و لكن ليس بسبب التحذيرات من العمليات . بل كان يخشى من أن يمنى المهرجان بالفشل الذريع ، كأن تكون المشاركة فيه قليلة و أن يذهب الجهد المبذول فيه عبثاً . في ساعات ظهر يوم المهرجان و في استقبالٍ جرى في بيت أصدقاء في هرتسليا بيتوح بدا قلقاً جداً . و قال لمقرّبيه "أشمّ

رائحة عدم نجاح المهرجان . هذا سيكون محرجاً جداً" . و لكن سرعان ما تبدّد خوفه . لقد حقق المهرجان كما هو معروف نجاحاً باهراً . حيث شارك فيه عشرات الآلاف ، أكثر بكثير مما توقع المتفائلون ، و انجر الأشخاص الواقفين على المنصة مع نشوة الجمهور ، و تملّك رابين الحماس و انضم إلى النشيد . و كلّ من يعرفه يعلم بأن رابين لم ينشد علناً إلا في حالات نادرة جداً .

و كانت النشوة الجارفة قد أصابت و لمزيد من الأسف ، الحراس كذلك ، الأمر الذي أضعف من حالة التأهب . و حين نشاهد الأفلام التي صوّرت في المهرجان نجد أن عدداً من الحراس كانوا ينظرون إلى رئيس الحكومة و ليس إلى الجمهور ، مثلما يجب أن يفعلوا . و القاعدة هي أن الحراس لا ينظرون إلى الشخصيات المحروسة بل عليهم أن يجوبوا بنظراتهم الجمهور و أن يتابعوا و يكتشفوا من ينتظر و لو لحظة ضعف الحراسة كي ينفّذ مراده .

كذلك في نهاية المهرجان و حين هبط رابين السلّم في طريق عودته إلى السيارة ، لم يكن الحراس ينظرون في الاتجاه الصحيح . نظر يغئال عمير الذي تغلغل إلى "المنطقة النقية" صوبهم ، لم يلحظوه ، و كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها . و قال أثناء التحقيق معه إنه لو كان هناك حارس ينظر إليه لما كان قد مدّ يده إلى المسدس .

إن ما حصل في ساحة ملوك (إسرائيل) من ناحية الحراسة ، لم يكن انهياراً لأسلوبٍ أو نتيجة لقلّة عدد الحراس ، لقد كان هذا فشلاً موضعياً خطيراً ، و مريعاً بحدّ ذاته ، و لكن لم يكن يعني ضعف نظرية الحراسة في "الشاباك" ، و مهما كانت وسائل الحراسة ، فإن الذي يصرّ على تنفيذ القتل سيجد في نهاية الأمر الثغرة التي يستطيع عبرها التغلغل إلى داخل السور المنيع . و كلّ محاولات التضليل و وسائل الحماية و الحيل المطلوبة – مثل إدخال دمية في سيارة رئيس الحكومة في الوقت الذي يسافر هو في سيارة أخرى أقل بروزاً – كلّ ذلك ليس بوسعه أن يوفّر حماية مطلقة . إن الذي عقد العزم على القتل و تحلّى بالصبر المطلوب يستطيع أن ينتظر اللحظة المناسبة و سيجدها لا محالة . و هذا ما حصل في حالات عديدة في العالم .

لم يكن رئيس الحكومة يضحّي بحياته في ذلك المهرجان لو لم تكن هناك "منطقة نقية" حقاً . و الحقيقة هي أن يغئال عمير كان يجلس طوال الوقت و لم يلقَ الاهتمام المناسب . لم يكن رابين ليقتل لو كان الحراس يواصلون النظر حواليهم و التحديق بالوجوه بحثاً عن قاتل محتمل مثلما تدرّبوا . و مثلما فعلوا في السابق كلما طلب منهم حراسة شخصية رفيعة المستوى . شاهدت شريط الفيديو الذي تمّ فيه توثيق محاولة اغتيال رئيس الولايات المتحدة رونالد ريغان ، أثناء اجتيازه الرصيف من أجل الدخول في سيارته . اندفع الحراس برمشة عين ، كحيواناتٍ متوحشة ، أحدهم ألقى بنفسه فوق الرئيس فيما قفز الآخر على القاتل . هكذا كان يجب العمل أيضا في ساحة ملوك (إسرائيل) .

مع ذلك أسمح لنفسي القول إن لجنة شمغار التي شكّلت للتحقيق في القضية و استخلاص العبر ، ذهبت أبعد من اللازم على الأقل في بعض توصياتها . و ها نحن نرى النتيجة اليوم من خلال الإفراط في حراسة رئيس الحكومة و حرمانه من قدرته على الاتصال المباشر مع الجمهور مثلما كان الأمر في السابق . و مثلما أشرت في الصفحات السابقة لا يمكن إغلاق الدائرة تماماً على رئيس الحكومة و لا يجب أن نوهِم أنفسنا و أن نصدّق بأن وسائل الحراسة المكثفة تستطيع أن تمنع تماماً كلّ محاولة اغتيال .

حسب رأيي لقد تسلّق "الشاباك" في هذا الموضوع على شجرة عالية جداً . و يبدو لي أن مستوى الحراسة المتبع اليوم مبالغ فيه كثيراً . و من أجل معرفة حجم المبالغة يجب أن نرى ماذا يحدث – منذ حادثة الاغتيال – عندما تصل شخصية كبيرة إلى هذه المناسبة أو تلك . مثلاً : في يوم الذكرى الأولى لاغتيال رابين كان مستوى الحراسة مبالغ فيه . و كان الجنود الذين كلّفوا بتفتيش الوافدين قد فتّشوا حتى الرئيس السابق ، أفرايم كتسير ، و وزير الدفاع السابق موشيه آرنس ، لقد كان هذا مشهداً مخجِلاً . صحيح أنه من السهل عليك الإسداء بالنصح و أنت بعيد عما يجري داخل الجهاز . لكنني آمل أن يفهم الجهاز نفسه ، و على وجه السرعة أن الحراسة بمثل هذا الحجم ، و بمثل هذا المستوى لن يدوم طويلاً .

في يوم الذكرى التاسع و الأربعين لشهداء معارك (إسرائيل) ، و حين زار رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو قبر أخيه يوني في جبل هرتسل ، تم إغلاق المنطقة تماماً . و اضطرت عائلات ثكلى كثيرة من ضمنها الأطفال و النساء و الشيوخ ، إلى الانتظار ساعات طويلة و قطع مسافات كبيرة سيراً على الأقدام من أجل زيارة قبور أعزائهم . في الذكرى الخمسين لقيام الدولة لم يحدث ذلك ، لأن نتنياهو زار القبر في السادسة صباحاً قبل أن تصل جموع غفيرة من الزوار . و لكن ليس دائماً يستطيع رئيس الحكومة أن يعزل نفسه عن الجمهور . و المثال الأبرز على ذلك هو الحملة الانتخابية لعام 1999 . لم يكن نتنياهو يسمح لنفسه أن يتنازل تماماً عن مصافحة أيدي باعة الخضار في السوق ، و لا عن زيارة الأحياء ، و لا عن لقاءات الفروع . و قد اضطر الحراس مرغمين إلى التخفيف من شدة الحراسة المكثفة على رئيس الحكومة مع مخاطرة محسوبة .

ليس من المستبعد توقع محاولات اغتيال أخرى ضد شخصيات رفيعة المستوى . و طالما يوجد وسطنا أشخاص على شاكلة يغئال عمير فإن فرص منع ذلك سلفاً تكاد تكون معدومة . لقد قرأت بإمعان ملف يغئال عمير في "الشاباك" . كان يعتبر من ذوي وجهات النظر المتطرّفة . و لكن لم يكن هناك أي تقدير بأنه يميل إلى العنف . لا أبالغ إذا قلت إنه لو كلّفت بإعداد قائمة ليهود متطرّفين قادرين على قتل شخصيات سياسية ، فمن المؤكّد أنني لم أكن لأضع يغئال عمير ضمن هذه القائمة .

يحاول "الشاباك" كما هو واضح زرع عملاء في المجموعات اليهودية المتطرّفة و الحصول على معلومات من داخلها . و في معظم الحالات تفشل هذه المحاولات ، بسبب انغلاق المنظمات الصغيرة هذه و تعصّب رجالها . و حالة أفيشاي رفيف تثبت حجم المشاكل العويصة المترتبة عن زرع عملاء في هذا الوسط . لا شكّ أن الحديث يدور عن شخصية معقدة ، و لكنه ليس استثناءاً في هذا المجال . إن جزءاً كبيراً من أعضاء هذه المجموعات الهامشية ليسوا مستقرين من ناحية نفسية و تصرّفاتهم تخرج عن المألوف . عندما عمل معنا ، كان قد نفّذ على عاتقه عدة أعمال غير قانونية . فصلناه عن العمل و لكننا عدنا و استخدمناه ثانية ، و أوصينا النيابة العامة بإغلاق الملفات الجنائية التي فتحت ضده بعد أن قام بأعمال شغب و ألقى الحجارة و حطّم النوافذ في قرية عربية .

أجد لزاماً عليّ أن أؤكد بأن هذه الأعمال جرت بدون علمنا و مبادرة منا . لقد أوصينا بإغلاق ملفاته لسبب واحد و وحيد : في الظروف القائمة رأينا به ، رغم كلّ ما فعله ، مصدراً حيوياً يوفّر لنا معلومات استخبارية هامة جداً . و بفضل تقاريره و تحذيراته منعنا أعمال عنف كثيرة و محاولات اعتداء على العرب و المساجد و الحرم و شخصيات أخرى من اليسار اليهودي و غير ذلك .

قبل وقتٍ قصير ، و بصورة علنية ، عزا رئيس "الشاباك" عامي إيلون فشل تجنيد رفيف إلى عيبٍ في رقابة و سيطرة "الشاباك" عليه . مع ذلك أوضح أنه منذ ذلك الحين تم استخلاص العبر المطلوبة و تنفيذها على أرض الواقع . و تم تسليم كلّ المواد المتعلّقة بتجنيد رفيف للجنة شمغار التي حققت في ملابسات اغتيال رابين . و أشارت اللجنة في نتائجها إلى أن رفيف كان حقاً عميلاً وفّر معلومات و لكن الرقابة عليه كانت غير ناجعة ، و حسب رأي اللجنة يجب أن تكون السيطرة على العميل ناجعة و لا يجب السماح له بالقيام بمبادرات مستقلة .

ادعت وسائل الإعلام أن "الشاباك" دفع أفيشاي رفيف للقيام باستفزازات وسط أطراف متطرفة ، مثل إقامة المنظمة السرية "آييل" و طباعة منشورات لرابين بملابس نازية . أنا أرفض كلّ هذه الادعاءات جملة و تفصيلاً . لم يبادر جهاز الأمن العام أبداً – و لا يبادر في الحاضر – بأي استفزازات من هذا القبيل . إن إلقاء مثل هذه الاتهامات على "الشاباك" هي إجحاف بحقّ التجربة التي تستند على نظرية تجنيد العملاء و التي بلورناها لأنفسنا . ثمة في العالم أجهزة سرية أقامت منظمات سرية ، محطّات راديو و صحف من أجل خلق استفزازات . و تقوم بعض أجهزة المخابرات السرية أيضاً بتجنيد عملاء بواسطة الابتزاز . و لكننا لا نفعل ذلك .

لقد قرّر المستشار القانوني للحكومة ، كما هو معروف بمحاكمة أفيشاي رفيف . ليس من اللائق أن أتدخل في اعتبارات المستشار المهنية و لكن يجدر هنا أن أذكر بأن رفيف لم يكن على صلة باغتيال رابين . و أشك بأن يكون بحوزته معلومات عن نية الاغتيال . و الأكثر من ذلك ، و أثناء محاكمته لم يكن ثمة مناص من الكشف عن معلومات حساسة من شأنها أن تمسّ بالعمل اليومي "للشاباك" وسط اليمين المتطرّف . و سيكون الخطر أكبر من الفائدة المترتبة عن محاكمة عميلٍ تختلف الآراء حول مدى الضرر الذي سببه .

"كرمي ، أنت تخاطر برأسك ..."

لا أعرف عملاً يتآكل فيه الأشخاص بسرعة فائقة مثلما هو الحال في "الشاباك" . هذا ليس مسألة نفسية ، تترتب عن عبء دائم لا يتوقف على الدماغ ، و مواجهة صعبة مثل لعبة شطرنج مصيرية ، بل إنها أيضاً مسألة جسدية غير سهلة . لقد مرت أيام ، أسابيع و حتى أشهر لم أكن أنام فيها أكثر من 20 دقيقة متواصلة في الليلة . حتى أنني كنت أذهب إلى الحمام مع جهاز الهاتف . و خلال فترة طويلة كان السرير الوحيد الذي عرفته هو البساط في مكتبي . لم تكن لي أحلام في ذلك الوقت ، و لكن كانت هناك لحظات

صعبة لم تدعني أشعر بالراحة لفترة طويلة . شاركت في تحقيقات مع (مخرّبين) قتلوا عشرات المواطنين ، و لعبت دوراً في مهمات معقّدة و مصيرية، سرت خلف جثامين أشخاص أحببتهم .
و حتى عندما كنت أصل إلى البيت في ساعات المساء المتأخرة لم أكن أنعم بالراحة . كنت أحياناً أبدأ بمشاهدة شريط فيديو كي أبدّد التوتّر و لكنني لم أستكمل مشاهدته إلا بعد ليال طويلة . لم أكن أشاهد خلالها سوى مقطع صغير جداً . كنت أحاول أن أقرأ صفحتين أو ثلاثاً من كتاب قبل أن أخلد للنوم ، و أن أواظب على زيارة أمي المسنة في نتانيا و أبقى أكبر قدرٍ ممكنٍ من الوقت بصحبة أولادي . و لكن هذا لم يحدث إلا في أوقاتٍ نادرة و قصيرة جداً . لقد حاولت أمي مراراً إقناعي بترك "الشاباك" .
لم تكن تحبّ الأنباء الكثيرة التي تنشر عنّي في الصحف و اعتقدتأ عملت بما فيه الكفاية . لكن أولادي كانوا يدعمونني طوال الدرب و قدّروا مساهمتي في أمن الدولة . و عندما كانوا يقرأون في الصحف شيئاً سلبياً عني كانوا يسرعون بمهاتفتي من أجل تشجيعي و يقولون : نحن معك يا والدنا ! .
حين عيّنت رئيساً "للشاباك" قلت لنفسي إن فترة ولاية 3 – 4 سنوات تناسبني تماماً . لقد آمنت دائماً بإنعاش "الشاباك" و تزويده بدمٍ جديد . كنت أعرف أنك في السنة الأولى و الثانية تتعلّم ، و تستخلص النتائج و تحدث تجديدات . و في السنة الثالثة تحصد ما زرعته و تهتم ، بصفتك مديراً ، بأن يجري كلّ شيء كما يجب . أما في السنة الرابعة و ما بعدها فإنك تجد نفسك كأنك خارج "الشاباك" . لذلك من الأجدى أن تخلّي مكانك للقادم بعدك . كلما مرّ الزمن ، كلما اتضح لي أنني سأستقيل في الموعد الذي حدّدته لنفسي ، و في كلّ الأحوال سأكون خارج الشاباك قبل أن أبلغ الخمسين من العمر ، بحيث أستطيع أن أعمل بنشاط في مجالات أخرى . لم أفكّر بنشاطات سياسية بل في عالم الاقتصاد .
بعد أن انتخب إسحاق رابين رئيساً للحكومة في صيف 1992 ، كرّر رسالته التي بعثها لي بواسطة إيتان هابر قبل ذلك . و في اللقاء الأول الذي جرى في مكتبه قال إنه كان يفضّل أن لا أفكّر بالاستقالة في المستقبل المنظور . في تلك الفترة كان لي تجربة أكثر من أربع سنوات في منصبي . و بعد مناشدات عديدة ، و من منطلق الإحساس بالحبّ تجاه رابين و الرغبة في العمل معه ، وافقت أن أبقى سنة أخرى في "الشاباك" . و حين انتهت السنة الخامسة ذكّرته بقراري الاستقالة و نحن على متن مروحية في الطريق إلى غزة في إطار عددٍ لانهائيّ من الجولات الميدانية التي أجريناها معاً . قلت له إنني أشعر بضرورة أن لا أبقى وقتاً أطول في منصبي . كنت متعباً جداً من الأعباء الثقيلة و من الأزمات في حياتي الشخصية . أدركت أنني أضع رابين أمام وضع غير بسيط . لم أجد أمامي خلفاً أوصي به و أنا مرتاح البال . شعرت بالأسف لأنني لم أجِد نائباً ملائماً يستطيع أن يشغل مكاني في قادم الأيام . لقد ضغط رابين مرة أخرى و استسلمت له ثانية . و لكن في نهاية السنة السادسة أبلغته بصورة قاطعة أنني سأستقيل . حينها ، و فقط حينها ، سألني عن الشخص الذي أرشّحه لخلافتي ، إذا وافق على استقالتي . اقترحت عليه كرمي غيلون . كنت قد عرفت كرمي أثناء عملنا المشترك في الكشف عن المنظمة السرية و بعد ذلك كنت مسؤولاً عنه . قدّرت فيه قدرته على التحليل و اتزان رأيه و لطفه . كان حينذاك يبلغ من العمر 44 عاماً و عمل كرئيس قسم الإدارة في "الشاباك" . و كان في السابق رئيس قسم الإرشاد و قائد المنطقة الشمالية . و في إطار دراسته في كلية الأمن القومي و جامعة حيفا كتب بحثاً عن اليمين المتطرّف و أكد في بحثه أن الجنوح الأيديولوجي لليمين المتطرّف يشكّل تهديداً خطيراً على (إسرائيل) كدولة ديمقراطية .
لقد ولد و ترعرع في حيّ رحافيا في القدس و هو من الجيل الثالث لعائلة قانونية معروفة ، عائلة برومكين . كان جدّه قاضياً في المحكمة العليا في عهد الانتداب و كان والده النائب العام في الدولة و والدته نائبة المستشار القضائي للحكومة و أخوه كاتب محكمة العدل العليا . خدم في سلاح المدرعات ، و أصيب في حرب الاستنزاف و انضم إلى "الشاباك" بعد أن عمِل كحارس شخصيات في فترة دراسته في الجامعة .
رشّحت كرمي غيلون كخلفٍ لأنني عرفته شخصاً ذكياً و متزناً . و آمنت أنه يستطيع أيضاً معالجة المواضيع المتاخمة للمجال السياسي للعملية السلميّة . لم يكن رابين يعرفه تماماً ، صحيح أنهما التقيا أحياناً في "هيئة المناطق" و لكن لم يكن بينهما اتصال حقيقيّ . تردّد رابين كثيراً حين طرحت اسمه . حيث كان يفضّل أن أرشّح شخصية معروفة لديه ، شخصية تتوافق معه . حتى أنه اقترح تعيين غيلون قائماً بأعمال رئيس "الشاباك" إلى أن يتقرّر تعيين رئيس "للشاباك" . كنت دائماً أطلع غيلون بشأن المصاعب . و في نهاية الأمر قرّرت وضع رابين أمام حقيقة واقعة ، أمام وضع يضطر فيه إلى دراسة ما إذا كان يستطيع أن يعمل مع غيلون . طلبت إجازة دراسية من عدة أشهر للالتحاق بدورة متقدّمة في إدارة الأعمال . و عند عودتي إلى البلاد التقيت رابين . أدرك أنه لا فائدة من مناشدتي البقاء في منصبي . ذلك لأن الحق كان إلى جانبي . لقد كان "الشاباك" بحاجة إلى رئيسٍ جديد . و هذا أمر طبيعي ، انسجاماً مع التطوّر الصحيح للأمور . "حسناً" ! . قال لي في نهاية الأمر "سأعين كرمي غيلون شريطة أن تراقب عليه" .

- "كيف يمكن ذلك ؟" سألت .
- "أنت تجد الوسيلة" قال .. "على كلّ الأحوال هذا هو شرطي" .

حين عيّن رابين كرمي غيلون رئيساً "للشاباك" أبلغت كرمي بما طلبه مني رئيس الحكومة و أوضحت له أنني لا أفكّر بالحضور مرة أو مرتين في الأسبوع إلى مكتبه لأشعر الجميع أن رابين عيّنني مراقباً عليه . "مع ذلك" قلت "سأكون في خدمتك متى شئت ، في النهار و في الليل ، في ساعات مبكرة من الفجر . كلما احتجت لي تستطيع أن تهاتفني . نلتقي عندنا في البيت أو عندك . كيفما شئت" .. شكرني . و في نفس اللقاء تحدّثنا عن المواضيع التي ستطرح في لقاءاتنا القادمة . و حقاً بعد أسبوع من تعيينه هاتفني و سألني إذا ما كان يستطيع أن يلتقيني ليتشاور معي في قضية تعيينات و حول أمر آخر كان له صلة بعمليات (تخريبية) . جاء إلى بيتي و أبلغني تقريباً بكافة التطوّرات في المسيرة السلمية . بعد ذلك تحدّثنا عن المواضيع التي من أجلها تقرّر إجراء اللقاء . اقترحت عليه ما اقترحت و افترقنا . منذ ذلك الحين التقيته بين الحين و الآخر في مناسبات خارجية و لكن لم يجر معي أي لقاء عمل .

في كلّ مرة كنت ألتقي مع رابين كان يسألني كيف تتقدّم الأمور بيني و بين غيلون ، كنت دائماً أتمتم "حسناً . حسناً !" . محاولا الانتقال إلى موضوع آخر . و في أحد الأيام قال لي رابين إن عمل غيلون تحسّن كثيراً و هو يتمتّع جداً بالعمل معه .

عينت رئيساً و مديراً عاماً لشركة "سلكوم" و كرّست اهتمامي بالعمل . و حين استقال يوسي غينوسار من منصب منسق رئيس الحكومة لشؤون الأسرى و المفقودين دعاني رابين لإجراء لقاءٍ معه و اقترح عليّ المنصب . وافقت مباشرة على أن أعمل في هذا المجال تطوّعاً . و حذّرني رئيس الحكومة "أنت لا تعرف ما الذي تقدِم عليه . إنه عمل صعب و مرهق أقترح عليك الحصول على أجر مقابل الجهد" . رفضت ذلك . و قلت إنني أرى في هذا العمل رسالة مقدّسة ، و أنا أتقاضى راتباً جيّداً في "سلكوم" . وافق رابين على رأيي و أمر سكرتيره العسكري داني يتوم بفحص ما إذا كنت أستطيع أن أقوم بالعمل بدون مقابل مادي . طلب يتوم وجهة نظر المستشار القانوني للحكومة ، ميخائيل بن يئير ، و كان رأيه أن الأمر غير ممكنٍ من ناحية قانونية . رفضت بشدة الحصول على راتبٍ و في نهاية الأمر وُجِد حلّ : أعمل في هذا المنصب ليس كمتطوّع بل كرجل في جيش الاحتياط . إلى هنا كان كلّ شيء على ما يرام و لكن حين دخلت إلى عملي ، في بداية تشرين الأول 1995 ، أبلغوني فجأة أنني لا أستطيع الخدمة في الاحتياط لأنني اجتزت السن القانونية . فكّرت كيف أستطيع التغلّب على المشكلة الجديدة ، و سرعان ما وُجِد الحل . قيل لي إنه بإمكاني التطوّع في جيش الاحتياط . و هذا ما حصل .

يضمّ الطاقم الذي يعالج موضوع الأسرى و المفقودين ممثلين عن "الشاباك" ، الموساد و شعبة الاستخبارات العسكرية و السكرتيرين العسكريين لرئيس الحكومة و وزير الدفاع و رئيس قسم الأبحاث في شعبة الاستخبارات العسكرية ، ثمة أشخاصٍ كثيرين و جيّدين عملوا في هذا الموضوع مع مرور الوقت ، من أبرزهم منسق النشاطات في لبنان ، أوري لوبراني ، المحامي أوري سلونيم ، الذي يهتم الآن ، و بإخلاصٍ شديد ، بعائلات الأسرى و المفقودين و يوسي غينوسار الذي ساهم كثيراً في هذا الموضوع .

يحتلّ موضوع الأسرى و المفقودين مكاناً مرموقاً في سلّم أولويات كلّ وكالات جمع المعلومات في المخابرات (الإسرائيلية) ، فالموساد مثلاً يستثمر جهوداً بالغة من أجل الحصول على معلومات عن الملاح رون أراد ، و خصّص مجموعاتٍ خاصة من الأشخاص لهذا الهدف . و يعتبر طاقمنا الإطار التنسيقي . و يقوم ممثلو الأذرع الاستخبارية المختلفة بتزويدنا بكلّ معلومة تحصل عليها . و نحن نقوم بتركيز هذه المعلومات و تحليلها و نقدّم النتائج إلى الجهات المناسبة . يدور الحديث عن توصيات فقط ، غير ملزمة لقادة الموساد ، "الشاباك" و شعبة الاستخبارات العسكرية . و يحقّ لهؤلاء التصرّف حسب وجهة نظرهم و لكنني أشير و بارتياح إلى أنه منذ أن استلمت هذا المنصب ، قبل أكثر من ثلاث سنوات ، لم أواجه بأيّ رفضٍ لهذه الخطوة أو تلك . و يشارك في هذا التعاون أيضاً وزارة الخارجية و مكتب وزير الدفاع . مقابل معالجة المعلومات الاستخبارية تجري أيضاً اتصالات ، في معظمها سرية ، على الصعيد السياسي مع أطرافٍ تستطيع أن تساعدنا . منذ اليوم الذي عيّنت فيه رئيساً للطاقم التقيت عدة مرات مع وزير الخارجية الأمريكي وورن كريستوفر و مع خليفته مادلين أولبرايت ، التقيت أيضاً مع وزراء من دولٍ أوروبية و مع شخصيات أخرى لا أستطيع لأسباب واضحة ذكر أسمائها ، و يواجه هؤلاء الذين وافقوا على مساعدتنا عقبة متوقّعة عند توجّههم إلى الدول و المنظمات ذات الصلة بالأمر : حيث يجدون صعوبة في إقناع الطرف الآخر بضرورة فصل الزاوية الإنسانية عن عدائهم العميق لـ (إسرائيل) . و وسيلة الإقناع الشائعة هي الثمن الكبير الذي توافق دولة (إسرائيل) على دفعه مقابل إعادة مفقوديها .

و في ظلّ غياب إمكانية إجراء اتصالات مباشرة مع أوساط متطرّفة – الإيرانيون ، السوريون ، منظمات الرفض العربية ، منظمات أصولية و آخرون – فإننا نحاول الاستعانة برجال أعمال ، يقيمون علاقات

تجارية مع شركات و أشخاص في أماكن تتوفر فيها فرصة لإيجاد معلومات حيوية بالنسبة لنا . مثلاً ، يستطيع رجل أعمال يدير مفاوضات مع الإيرانيين حول صفقة بحجم مئات ملايين الدولارات أن يقول لهم إن أحد أصحاب الشركة يهوديّ و يهمّه أن يحصل على معلومات عن مفقود معين ، و في بعض الأحيان يكون هذا الأسلوب مفيداً جداً ، و لكن في معظم الأوقات لا يسفر عن شيء .
لقد أحضر لنا تاجر السلاح ، ناحوم مينبر ، الذي حكِم بالسجن لمدة 16 سنة بتهمة بيع الإيرانيين مواد لإنتاج السلاح الكيماوي ، شريط فيديو كان يجب أن نرى فيه رون أراد . و ادعى أنه دفع مقابله 70 ألف دولار من جيبه لكنه لم يطلب منا استعادة المبلغ . فحصنا الشريط و سرعان ما اتضح لنا أن الرجل الملتحي المصوّر في الشريط ليس الملاح المفقود .
حاول الطمّاعون الجشعون أكثر من مرة استغلال الالتزام العميق لدولة (إسرائيل) إزاء الأسرى و المفقودين . و بين الحين و الآخر كانوا يقترحون علينا وثائق و صوراً يزعمون أنها متعلقة برجالنا ، مقابل مبالغ مالية كبيرة . و في معظم الأحوال كان يكفينا فحصٌ بسيط كي نكتشف التزوير . و توجّه إلينا أيضاً مواطنون أوروبيون – رجال أعمال ، صحافيون و مغامرون بمختلف أصنافهم – و اقترحوا علينا استغلال علاقاتهم لمعرفة مصير هذا المفقود أو ذاك . و لكن قبل قيامهم بأي خطوة كانوا يطلبون أن نودع في حساباتهم البنكية مبالغ كبيرة . و كان من بينهم من طلب ما لا يقلّ عن مليون دولار . فحصنا كلّ اقتراح من هذه الاقتراحات بدقة و إمعان و لو وجدنا فيها بصيص أملٍ واحد ، لما كنا قد تردّدنا في دفع المبلغ المطلوب .
لقد واجه هذا الطاقم المخلص إحباطات لا حصر لها ، و لكننا حققنا أيضاً بعض النتائج ، في 21 تموز 1996 استطعنا أن نعيد إلى (إسرائيل) جثتي يوسف فينك و رحاميم اليشيلخ اللذين اختطفا في جنوب لبنان . و بعد سبعة أيام في 28 تموز ، شخصنا تحت شاطىء بلمحيم تحت شارع إسفلتي معبّد جثة إيلان سعدون الذي قتل على يد رجال حماس بعد أن اختطف في مفترق المسمية و دفن تحت الأرض قبل شق الشارع . و في 25 حزيران 1998 استطعنا أن نعيدَ من لبنان جثة مقاتل الكوماندو البحري إيتمار إيليه . و استثمرنا جهوداً بالغة في البحث عن شارون إدري الذي اختطف على يد (المخرّبين) قرب بيت شيمش ، و اكتشفت جثته في النهاية في أعقاب كشف خلية بيت صوريف على يد "الشاباك" .
أثناء كتابة هذه السطور ما زالت الجهود مستمرة لتشخيص مكان الملاح رون أراد و مفقودي معركة السلطان يعقوب ، زخاريا باومل ، يهودا كاتس ، و تسبي فيلدمان و الجندي المفقود غاي حفير . و بودّي أن أشيد بأفراد عائلات هؤلاء المفقودين على صبرهم و صمودهم أمام هذه المعاناة المتواصلة .
نحن ندرس بدقة متناهية كلّ معلومة أو جزء من معلومة ، كلّ تلميح ، كلّ طرف خيط مهما كان بسيطاً و نتعامل معها بمنتهى الجدية . إن المبدأ الذي يوجّهنا هو إزاحة كلّ حجر ، من أجل أن لا نضيّع أيّ أثر . إننا جميعاً بدون استثناء نعتبر المهمة التي أخذناها على عاتقنا مهمة مقدّسة .

أنظر إلى الوراء بفخر

تسعة و عشرون عاماً مرت منذ أن دخلت لأول مرة في مبنى "الشاباك" في يافا كمتدرّب في الأرشيف و حتى مغادرتي مكتب رئيس "الشاباك" . من الصعب جداً أن تخرج من مثل هذا المنصب سالماً دون ضرر . لذلك يسعدني ، رغم كلّ الأزمات و الفضائح و التشهير أن أخرج سالماً . لقد احتفت الصحافة ، كما هو واضح ، بفرصة نشر تفاصيل شخصيتي و نشرت صورتي في الصفحات الأولى . و كان الردّ الأول على ذلك يتمثّل بعددٍ لا يحصى من المكالمات الهاتفية التي تلقيتها من الأشخاص الذين درسوا معي في المدرسة أو لعبوا دوراً ما في حياتي قبل أن أنضم إلى "الشاباك" ، و الذين حتى لحظة ما قبل النشر لم يكونوا يعلمون أنني أعمل هناك . و ها هم يتصلون للإعراب عن مفاجأتهم . أوقفني أشخاصٌ في الشارع ، صافحوا يدي و أثاروا انفعالي حين "شكروني على ما فعلته من أجل الدولة" . تلقيت مئات رسائل التقدير التي أدخلت السعادة إلى قلبي .
كسبت أصدقاء كثيرين خلال خدمتي . عملت مع أشخاصٍ مدهشين ، تعرّفت عن قربٍ على رجال جيش و سياسيين في البلاد و خارج البلاد . تعلّمت الكثير من كلّ واحدٍ منهم . التقيت أمنون شاحك لأول مرة عام 1973 حين عمل كضابط قسم العمليات في القيادة الوسطى . كنت حينذاك رئيس قسم الوقاية من (الإرهاب) في لواء القدس و منطقة الضفة الغربية . عملنا معاً كثيراً جداً . و كان جنود القيادة الوسطى

قد شاركوا في جزءٍ كبير من العمليات التي استهدفت إحباط العمليات (التخريبية) و إلقاء القبض على المطلوبين . أجريت معه اتصالات وثيقة من أجل التنسيق و القيام بعمليات مشتركة . خرجنا معاً لتنفيذ عمليات و أمضينا لياليَ طويلة معاً ضمن قيادة أمامية في الميدان ، كذلك وراء الحدود .
و سرعان ما تطوّرت بيننا صداقة عميقة ، تعزّزت برحلاتنا المشتركة لإجراء لقاءات سرية خارج البلاد مع الفلسطينيين . و ثمة الكثير من الأمور كنا ننظر إليها بنفس المنظار و نفكّر بها بنفس الاتجاه ، و نتعامل معها بنفس زاوية النظر . و حتى هذا اليوم نجري معاً أحاديث طيبة كثيرة .
حين التقيته لأول مرة ، كان رجلاً منغلقاً و منطوياً على نفسه . و بعد زواجه من طالي – و كان لي شرف إمساك أحد أعمدة "العريشة" التي وقف تحتها العريسان – أصبح أكثر انفتاحاً و اعتاد على التشاور ، و غيّر معاملته في الحياة عموماً و في الحياة الأسرية خصوصاً . يسكن طالي و أمنون بجوارنا في القرية الزراعية راعوت و نحن نلتقي يومياً تقريباً .
حين اقترح رئيس هيئة الأركان موشيه ليفي على أمنون الانتقال من منصب قائد المنطقة الوسطى إلى منصب رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية جاء إليّ في الليل من أجل التشاور معي . قال لي : "إن شعبة الاستخبارات العسكرية ليست المكان الذي أشعر فيه بأنني كالسمك في الماء . أنا أنحدر من الواقع الميداني ، الحربي ، لست واثقاً أنه يناسبني العمل بين الأوراق و تقارير محافل التقدير" . و أضاف أن رئيس هيئة الأركان سيمنحه فترة انتقالية من أربعة أشهر ، يعمل فيها مع إيهود براك رئيس شعبة الاستخبارات المستقبل . كي يستطيع خلالها تعلّم أسرار المهنة . اقترحت عليه أن يوافق على ذلك . كنت واثقاً أن أمنون مناسب جداً لهذا المنصب . وعدته بمساعدته بقدر استطاعتي . بعد أيام من استلامه منصب رئيس شعبة الاستخبارات ، في 1986 ، تعرّض إلى إحدى التجارب الصعبة جداً في حياته العملية . حيث اعترض سلاح الجو طائرة كانت حسب التقديرات تنقل على متنها قيادة منظمة جورج حبش . و سرعان ما اتضح أن هذه مجرد رحلة مدنية عادية . و رغم أنه تمّ التخطيط للعملية في فترة ولاية إيهود براك ، سلفه في المنصب ، إلا أن أمنون تحمّل كامل المسؤولية على اعتراض الطائرة . و كذلك قراره الدخول إلى عرين السياسة نبع ، حسب رأيي ، من إحساسه العميق بالمسؤولية ، ذلك لأنه بعد تسريحه من الجيش لم يكن ينقصه عروض اقتصادية مغرية ، كانت توفر له قاعدة اقتصادية صلبة و حياة هادئة . إن صفاته ، المعروفة جداً لي – المنطق ، الاستقامة و التوجّه المباشر و الجوهري إلى كلّ إنسان أو موضوع – و المصحوبة بالتواضع ، هذه الصفات لن تسهل عليه شقّ طريقه الجديدة التي اختارها .
عرفت إسحاق مردخاي لأول مرة خلال قضية خط 300 و تعزّزت علاقاتنا مع اندلاع الانتفاضة حين كان قائداً للقيادة الجنوبية . كنا نلتقي في "هيئة المناطق" التي تجتمع كلّ يوم جمعة لدى وزير الدفاع ، و كذلك في جلسات هيئة الأركان في صباح كلّ يوم أحد ، و تعزّز التعاون بيننا حين انتقل مردخاي إلى القيادة الوسطى و من هناك إلى القيادة الشمالية . و هو يسكن في نتانيا ليس بعيداً عن مكان سكني و أمضينا غير قليل من الوقت معاً . اكتشفت فيه الكثير من المزايا الإيجابية و نقيصة واحدة : و هي المزاج المتقلّب لديه . كان يستطيع أن يبدي تجاهي صداقة و محبة في الصباح و يتجاهلني بغضب بعد الظهر . لم أفهم سبباً لذلك . و كانت العلاقات بيننا قد أصابها الفتور لفترة طويلة في أواخر عام 1994 ، و حين تقرّر تعيين أمنون شاحك رئيساً لهيئة الأركان أثيرت مسألة تعيين نائبه . حيث أراد مردخاي الحصول على المنصب ، و كان واضحاً له أن رأيأم هو المقرّر . أشركني أمنون في تفكيره لكنني امتنعت عن التوصية . اكتفيت بالقول إن عليه أن يختار من يروق له ، ذلك لأنه سيعمل مع هذا الرجل طويلاً . و أثناء المشاورات بين أمنون و رابين تقرّر تعيين ميتان فلنائي . اعتقد مردخاي كما يبدو أنه كان لي يدٌ في هذا القرار و تدهورت علاقاتنا إلى الحضيض . في الفترة التي شغل فيها منصب وزير الدفاع أقمنا علاقات جيدة و بصفتي منسق رئيس الحكومة في موضوع الأسرى و المفقودين تلقّيت منه كامل الدعم و المساعدة .
كذلك علاقاتي مع أوري سجي ، رئيس شعبة الاستخبارات سابقاً ، شهدت المد و الجزر ، التقينا كثيراً في جلسات عمل في المجلس الوزاري و الحكومة . تعاونا معاً في كلّ ما يتعلق بالإعداد لدخول السلطة الفلسطينية إلى غزة ، قدّرت جداً ثقافته و قوّته في التحليل و نقاء تفكيره ، و شجاعة قلبه في عرض التقديرات بصرف النظر عن الموقف منها . و كان دون شكّ أحد قادة شعبة الاستخبارات الجيّدين جداً .
سجي رجل منطوي ، يفضّل البقاء بعيداً عن الجمع الصاخب . لم يكن واحداً من الرفاق . حين طرحت مسألة تغطية السلطة الفلسطينية – أي من هو المسؤول عن توفير المواد الاستخبارية من مناطق السلطة الفلسطينية في قطاع غزة و الضفة الغربية – برزت خلافات شديدة بيننا . حيث ادعى أن الحديث يدور عن دولة في الطريق ، لذلك فإن توفير المعلومات الاستخبارية من هناك تقع ضمن مسؤولية شعبة الاستخبارات العسكرية ، مثلما هي مسؤولة عن تغطية مصر ، الأردن ، و الدول العربية الأخرى . لذلك

، ادعى سجي ، ليس "للشاباك" ما يفعله هنا . عارضت بشدة هذا الادعاء . كان لي ما يكفي من المبرّرات لذلك . أولاً لا يمكن الاستهانة بالتجربة الكبيرة التي اكتسبها "الشاباك" قبل دخول السلطة الفلسطينية ، آلاف العملاء ، عشرات آلاف المحقّق معهم ، مئات آلاف الاتصالات ، و المعرفة العميقة للواقع و ما يجري فيه ، كلّ ذلك يعتبر ذخراً استخبارياً هاماً جداً . و قلت إنه يوجد في "الشاباك" خبراء من الدرجة الأولى في مثل هذا النوع من العمل ، من الخطأ الفاحش إخراجهم من هذا المجال الذي هو مجال اختصاصهم . طرحت مشكلة سياسية حساسة ، و هي أن تعامل أوري سجي مع مناطق السلطة كدولة في الطريق ، يعني اعترافاً بالأمر الواقع بكيانٍ سياسي مستقل . في النهاية أحيل الخلاف إلى رابين للحسم فيه و أيّد وجهة نظري . و كان من الصعب على سجي أن يبتلع قرص الدواء . مما انعكس سلباً على علاقاتنا . افترض أنه ، مثل إسحاق مردخاي ، يعتقد أنني استغليت صداقتي مع أمنون شاحك لإقناعه بأن لا يرشّحه في منصب نائب رئيس هيئة الأركان أو رئيس هيئة أركان في قادم الأيام . و اتهمني أيضاً بأنني منعت تعيينه رئيساً "للشاباك" . و الحقيقة هي أنه كلّما كنا نقترب من موعد سريان استقالتي كلما كان رابين يطرح اسمه كأحد المرشّحين لخلافتي . و لكن رابين هو الذي تخلّى عن ترشيح سجي بسرعة .

عرفت إيهود براك قبل وقتٍ طويل من تعيينه قائداً للمنطقة الوسطى . كان بيننا علاقات عمل جيّدة جداً. لقد فهم الأهمية القصوى التي ينطوي عليها عمل "الشاباك" و ادعى دائماً أن عشرة مُركزين في الشاباك قادرين أحياناً على توفير عمل عدة كتائب من الجيش ، و كلّ طلب توجّهت به إليه في مجال مسؤوليته كان يلقى العناية فوراً . و بعد أن تسرّحنا معاً هو من الجيش و أنا من "الشاباك" – التقينا عدة مرات . في هذه اللقاءات تلقّيت منه تلميحات واضحة ، ليس أكثر ، بشأن رغبته في أن أنضم إلى معسكره السياسي . جعلته يفهم أن الموضوع غير مطروح بالنسبة لي في هذه المرحلة على الأقل .

قبل عدة أيام من إنهاء منصبي ، و حين تم الإعلان رسمياً عن استقالتي ، تلقّيت عروضاً عديدة من أوساط اقتصادية تعرض عليّ وظائف و مناصب . و كان أحد اللقاءات التي أجريتها في هذا المجال هو اللقاء مع إسحاق شامير رئيس الحكومة السابق ، الذي دعاني إلى مكتبه في بيت "أموت مشبات" في تل أبيب و استقبلني بحفاوة بالغة و بدأ بالسؤال عن والدي و عائلتي ، و انتقل للسؤال عن ميولي السياسية . في هذه المرحلة كان من الواضح لي ، رغم عدم إفصاحه عن ذلك بوضوح ، أنه يحاول فحص إمكانية تجنيدي للعمل السياسي في الليكود . أجبته أنني رجل وسط و في كلّ الأحوال لا أميل للعمل السياسي في هذه المرحلة . و افترقنا كأصدقاء .

درست العروض الخاصة التي وردتني . بدا لي بعضها شديد الإغراء و لكنني استخدمت تجربتي الاستخبارية و درستها عن كثب بصورة أعمق . استعنت بإحساسي ، الذي لم يخطىء أبداً . كان من المهم لي مثلاً أن أعرف مع أي طاقم سأعمل . في نهاية الأمر توجّهت للالتقاء مع داف تدمور مدير عام شركة الاستثمارات التابعة لديسكونت الذي اقترح عليّ أن أشغل منصب رئيس و مدير عام "سلكوم" . قال لي إنه تلقى توصيات جيدة عنّي من عيزر وايزمن ، حاييم هرتسوغ و إسحاق رابين . و أثار هذا الاقتراح اهتمامي أكثر من الاقتراحات الأخرى . التقيت مع الشركاء (الإسرائيليين) و الأمريكيين الذين وافقوا جميعاً على التعيين .

بودّي أن أنهي المذكّرات التي كتبتها طوال تسع و عشرين سنة من خدمتي في "الشاباك" بالسطور التالية : 22 شباط 1995 : في أمسية شتوية ماطرة . في متحف "هآرتس" في تل أبيب . يجري مستخدمو "الشاباك" لي حفل وداع . يصل مئات الأشخاص من رجال المخابرات الذين رافقوني طوال السنين . يأتون من هيئة "الشاباك" ، من الميدان ، من قيادات الألوية ، من مراكز التحقيق . يصافحونني ، يربتون على كتفي ، يقبّلونني . أنا أعرف الجميع . التقيتهم في العمل و خارجه ، في أوقات الفرح و الضائقة .. أدين بالشكر لكلّ أولئك الذين ساعدوني في أداء مهمتي بتفانٍ و إخلاص ، لكلّ أولئك الذين أبدو تمسّكاً شديداً و ولاء عظيماً لعملهم .

يوجد هنا رئيس الدولة ، رئيس الحكومة ، وزراء ،أ كنيست ، رئيس هيئة الأركان ، ألوية في هيئة الأركان . و ضيوف كثيرون آخرون ، كلّ السكرتيرات و السائقين الذين عملوا معي و كانوا بالنسبة لي كأفراد أسرة : مئير الذي كان مصاباً بداء النظافة تنتابه نوبة قلبية إذا شاهد القليل من الغبار على سيارتي ، شمعون الذي كان يستغل كلّ لحظة يتوقف فيها عن السياقة من أجل الدراسة للامتحانات ، أمنون الذي حمَلني على كفيه و عمل ليل نهار من أجل توفير احتياجاتي بعد أن عجزت عن الوقوف على قدمي جراء حادث طرق مروع . أجريت معهم أحاديث طويلة في جولاتي العديدة في أنحاء البلاد و تعلّمت منهم الكثير حول المزاج العام بين الجمهور .

أشعر بالانفعال الشديد من قراءة رسائل الوداع التي تلقّيتها من زملائي . كتب رئيس قسم الشؤون العربية : "حين أعود بذاكرتي إلى عام 1988 و أرى هذا الجهاز الذي بدأت للتوّ بقيادته ، ثم أعود و أنظر إلى

الجهاز الذي تستقيل منه أنت الآن ، لا يسعني إلا أن أقول كلمتين و حسب : كلّ الاحترام . إليك شكرنا و اعتزازنا" . و يذكر رئيس القسم الإداري في رسالته الساعات الصعبة : "... ثمة غير قليل من الأشخاص في الخارج الذين دفعهم قصر نظرهم و ضيق تفكيرهم إلى اعتبار "الشاباك" فريسة سهلة . لم لا ؟ من السهل أن تهاجم من لا يردّ و لا يجيب . في لحظة معيّنة من الضيق بمقدورنا القول إننا الدرع الذي لا يحمي نفسه . لقد تعرّضت إلى غير قليل من الانتقادات و غير قليل من الإهانات . لقد كنت في نظري كالمظلة : دافعت عنا ، حتى أنك أنت نفسك تبلّلت بصورة غير قليلة ..." ، و كتب قائد لواء القدس : "نستطيع أن ننظر إلى الوراء باعتزاز و شرف لنرى البصمات العظيمة التي تركتها" ...

عندما أستعرض إنجازات "الشاباك" في فترة ولايتي أشعر بالفخر و الاعتزاز . مع ذلك لا أستطيع أن أنسى الإخفاقات و الإحباطات التي جاءت في أعقابها ، و العمليات المعقّدة التي خطّطت بأدق تفاصيلها لكنها لم تسفر عن النتائج المرجوّة ، و كذلك العمليات التي لم نستطع أن نحبطها سلفاً . و كنت أنظر إلى كلّ حالة كهذه فشلاً شخصياً لي .

يحين دوري للردّ على المهنّئين ، أتحدّث باختصار عن السنوات الصعبة و المرهقة ، عن التحوّلات العاصفة التي مرّت علينا ، عن الكوارث الشديدة ، أتذكر خيرة رفاقنا الذين سقطوا أثناء تأدية واجبهم . أقول : "في هذه السنوات ، نضج الشاباك ، تعلّم من أخطائه ، استخلص العبر ، استطاع إصلاحها ، و عزّز من حصانته و قوّته ... في هذه السنوات حسّن الشاباك أساليب عمله ، طوّر أدواته و وسائله ، نمى و أنشأ مورده الأساسي ، القوى البشرية ، إذا كان المواطنون ينامون هنا الليالي بهدوء و سكينة فإن هذا ، و إلى حدّ كبير ، بفضل عمل الشاباك ، أحد الإنجازات المفتخرة جداً القائمة في دولة (إسرائيل) . أشكر قادة الدولة على الدعم الذي قدّموه للشاباك ، أشكر الجيش ، الشرطة ، أجهزة الاستخبارات ، و كلّ وزارات الحكومة و الأوساط المدنية التي تعاونت معنا . أشكر أيضاً أفراد عائلتي على صبرهم و دعمهم" .

"كان الجوّ في الخارج بارداً جداً ، و لكن الجوّ في القاعة كان حميماً و دافئاً . أحسّ بالسعادة و لكن أحسّ أيضاً بالأسف الشديد على الفراق" .

"من الواضح لي أنني أمضي باتجاه حياة مدنية هادئة مريحة جداً ، في مكتب مدير عام "سلكوم" بنوافذه التي تطلّ على البحر ، و بساعات عمل منظمّة و إجازات لا تلغى في اللحظة الأخيرة . هذا تحوّل كبير و يثير الانفعال و السرور ، و لكنني و أنا أقف هنا أمام الأشخاص الذين عملت معهم لسنوات طويلة أحسد ، و لو للحظة ، كلّ هؤلاء الذين سيبقون ورائي ، يضعون أصابعهم على زناد الأمن ، مع إحساسهم بالتوتر و الإصرار على المواجهة مع العزّة و الفخر الكبيرين لكونهم لبنة هامة و حيوية في السور المنيع الذي يحمي دولة (إسرائيل) . أعرف أنني سأشتاق إليهم" .

* * *